دكتور
عبد المنعم إبراهيم الدسوقي الجميعي

مصر
في التاريخ الحديث والمعاصر
١٧٩٨ - ١٩٧٣

مع مجموعة بحوث ودراسات



تاريخ مصر خط متصل قد
يصعد أو يهبط وقد يدور
حول نفسه أو ينحنى ولكنه
أبداً .. لا ينقطع

دكتور
عبد المنعم ابراهيم الدسوقي الجميعي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
بجامعة القاهرة ـــ فرع الفيــوم

مصر
في التاريخ الحديث والمعاصر

١٧٩٨ - ١٩٧٣

مع مجموعة بحوث ودراسات

الطبعــة الأولى

١٩٩٢

تاريخ مصر خط متصل قد يصعد أو يهبط وقد يدور حول نفسه أو ينحنى ولكنه أبداً .. لا ينقطع

sharif mahmoud


بسم الله الرحمن الرحيم

sharif mahmoud

مقدمة

مصر امة عريقة يمتد تاريخها الى ماض موغل فى القدم وقد مر بها على مسار ذلك الماضى الطويل عصور ازدهار وانحطاط فمن تقدم حثيث فى مجال الفكر والحضارة حينا الى جثوم جحافل الطامعين والغزاة على أرضها حينا آخر ، وهى فى كلتا الحالتين كانت مصدرا للحياة الفكرية والحضارية . وظلت اوربا حتى اواخر القرن الثامن عشر تحفظ لمصر الكثير من الاحترام حتى تأمل نفر من السائحين الاوربيين احوالها ، وتعرفوا على ما تملكها من ضعف فى ظل الحكم العثمانى وكتبوا عن ذلك مما دفع بعض دول اوربا بخاصة فرنسا الى التفكير فى غزوها

وعلى الرغم من أن الحملة الفرنسية على مصر لم تستمر سوى ثلاث سنوات تقريبا ، فقد كانت لها نتائج مهمة جعلت بعض المؤرخين يعدها البداية الحقيقية لتاريخ مصر الحديث [1] ويستندون فى ذلك الى انها انهت العزلة القائمة التى عاشتها مصر ، واظهرت اهميتها كمنطقة استراتيجية هامة بالنسبة للقوى المتصارعة حتى أن بريطانيا اخذت تتحين كل الفرص المواتية للاستيلاء على مصر ، هذا الى جانب انها كانت نقطة التحول الواضحة بين مصر العصور الوسطى ومصر الحديثة . وعلى الرغم من فشل حملة فريزر ، ومحاولات محمد على ابعاد مصر عن حلبة الصراع الاوربى ، وجعلها ركيزة لدولة قوية خاضعة له فقد وقفت له بريطانيا بالمرصاد وعرقلت مشروعاته ،

---

(١) بداية العصور التاريخية ليست واحدة فى كل مكان ، وانما سبقت بعض الأقطار غيرها وتأخر بعضها الآخر ، وان كان البعض يعد الفتح العثمانى هو بداية تاريخ العالم العربى الحديث .

واجبرته فى النهـــاية على قبول معاهدة لندن ١٨٤٠ ، ثم اخـــذت تتحين الفرص فى عهـــد خلفائـــه للسيطرة عـــلى مصر حتى تحقق لها ذلك ، وتمكنت من احتـــلالها فى عـــام ١٨٨٢ ، كما انتهزت فرصــــة قيام الحرب العالمية الاولى وانضمـــام تركيا الى جانب المانيا ، واعلنت حمـــايتها على مصر .

وللشعب المصرى كفـــاح طويل ضد الاستعمار البريطـــانى رغـــم اســـاليب القمع والعنف ومناورات السياسة البريطانية ابتداء من تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الى معاهدة ١٩٣٦ وكانت نظرته منذ ظهـــور حـــركة مصطفى كامل ومحمد فريد واشتعال ثورة ١٩١٩ ان عمـــاد الاستعمـــار فى مصر هو الاحتلال الجـــاثم على صـــدر البلاد وان محور الحـــل هو الجـــلاء .

وخلال الحرب العالمية الثانية ازداد التدخل البريطانى فى شـــئون مصر الداخلية لضمان سياستها الموالية له ، وابرز الأمثلة على هذا التدخل السـافر كان حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ الذى حاصرت فيه القوات البريطانية قصر عابدين وارغمت الملك على تكليف النحاس بتاليف الوزارة .

وفى اعقاب الحرب وانتصـــار الحلفاء شـــهدت مصر العـــديد من القلاقل السياسية ، وزاد الطين بلة ما حدث للجيش المصرى خـــلال حرب فلسطين ١٩٤٨ وتطورت الامور بقيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وانهيار الملكية وقيام الجمهورية ودخول مصر فى مرحـــلة جديدة من تاريخها ، وحملها لواء الدفاع عن قضـــايا العرب التاريخية وبسبب اتساع هذه الموضوعات وتشعبهـــا وتشابكها فان عمل دراســـة متكاملة عنها فى مجلد واحـــد ليست من الأمور الهينة ولذا اضطررنا الى الاقتضـــاب فى معالجة بعض نواحيها حتى لا يخرج الكتاب عن الحجم المعقول ، وعذرنا فى ذلك ان كل فصل من فصول الكتاب كان من الجائز ان يكون مجلدا قائما بذاته .

يضاف الى ذلك اننا راينا من المفيد اعادة طبـــع بعض البحــــوث والدراسات الخاصة بتاريخ مصر الحديث والتى كانت قد نشرت فى بعض الدوريات العلمية بعد أن تم الاشتراك بها فى ندوات علمية خشية ضياعها فى زحمة التاليف والتواليف التى يزخـــر بها ســـوق النشر فافردنا لهـــا فصلا خاصا ، كما افردنا فصلا لبعض رجالات النهضة المصرية فى العصر الحديث ولنـــا عظيم الرجـــاء فى ان نكون قد وفينا تـــاريخ مصر الحديث والمعاصر بعض حقه .

والله ولى التوفيق

د. عبد المنعم الجميعى

القاهرة ــ المهندسين اغسطس ١٩٩٢

sharif mahmoud

الفصل الأول

الحملة الفرنسية على مصر والشام

اسبابها — وقائعها — سياسة بونابرت الاسلامية — ثورة القاهرة الأولى — حملة بونابرت على بلاد الشام — الجنرال كليبر يتولى قيادة الحملة بعد نابليون — مينو وقيادة الحملة

نتائج الحملة :

— الآثار والنتائج السياسية

— الآثار والنتائج العلمية .

— الآثار والنتائج الاجتماعية .

— الآثار والنتائج الصحية .

— الآثار الادارية للحملة .

sharif mahmoud

اولا : اسبـــاب الحملة :

تختلف آراء المؤرخين حـــول اسباب الحملة الفرنسية على مصـــر وفيما يلى نعرض لوجهات نظرهم :

١ ــ رغبة حكومة الادارة فى فرنسا فى التخلص من بونابرت بعـــد انتصاراته الباهرة فى ايطاليا ، وذلك عن طريق ارســـاله فى حملة جديدة تبعـــده عن باريس حتى ينســـاه الشعب الفرنسى ، وقد وجدت فـــى تعيينه لقيـــادة الحملة على مصر فرصة مواتية لتحقيق رغبتها .

٢ ــ رغبة الفرنسيين الملحة فى انشـــاء مستعمرة لهم فى الشـــرق تعوضهم عن ضياع مستعمراتهم فى امريكا وكندا والهند وعلى الخصوص انه كان من المتعـــذر عليهم ان ينبذوا فكرة انشاء امبراطورية استعمارية لهم ، وتشـــجيع دى شـــوازيل Choiseul احد وزراء خـــارجية فرنســـا ، وتاليران Talleyrand عضو المجمع الفرنسى على ذلك .

٣ ــ معـــاقبة البكوات المماليك المسيطرين على زمام الأمور فـــى مصر والذين اقاموا الصـــلات الودية الوثيقـــة مع الانجليز ، واســـاءوا معاملة التجار الفرنسيين ونهبوهم [١] ، وتشجيع القنصل الفرنسى شارل ميجالون Magallon على ذلك [٢] .

٤ ــ القضـــاء على سيطرة الانجليز على البحر الأحمر والهند ، والقيـــام بشق برزخ السويس واتخاذ الوسائل اللازمة لضمان استيلاء فرنســـا كليا على البحر الاحمر وامتلاكه .

٥ ــ المنافسة القديمة بين فرنسا وبريطانيا على التجارة الشرقية، ومحاولة فرنسا الاقتصاص من الانجليز الذين يناصبونها العداء بتقويض نفوذهم فى ممتلكاتهم بالهند ، واجبارهم على عقد الصلح معهـــم بعـــد احتلالهم لمصر .

٦ — توقع انهيار الدولة العثمانية وتقسيم أملاكها بين الدول الكبرى وخشـــية الفرنسيين من أن تسبقهم احـــدى الدول الكبرى فى الاستيلاء على مصر التى يرغبون أن تكون من أملاكهم لما تربطهم بها من صـــــلات تجارية قديمـــة (*) .

٧ — رغبة بونابرت فى كسب أكاليل جديدة من الشهرة والمجـــــد والتشبه بالاباطرة والقيـــاصرة القدامى امثال الاسكندر المقدونى ويوليوس قيصر وغيرهما وذلك بتشييد امبراطورية فى الشرق [٣] .

٨ — تنمية علاقات فرنســـا التجـــارية مع الشرق ، وذلك عـــن طريق ارسال حملة للاستيلاء على مصر كى تمكنهم من المحـــافظة عـــلى تجـــارتهم بها وصيانتها وتنميتها وبخاصة وأن بريطانيا كانت منـــــافسا خطيرا لهم فى مصر ، وان هذه التجـــارة كانت تدر عليهم الأرباح الوفيرة نظرا لانها كانت تنقل البهـــارات والتوابل من الهند الى أوربا [٤] وقد اكد ذلك « تاليران » فى خطابه الموجه الى بونابرت فى سبتمبر ١٧٩٧م بقوله « ان مصر كطريق تجـــارى ستعطينا تجـــارة الهند ، لأن المعـــول فى التجارة على الوقت ، وبالاستيلاء على مصر نستطيع أن نقوم بخمـــس رحلات مقابل ثلاث بالطريق المعتاد حول راس الرجاء الصالح » .

٩ — التقـــارير المشجعة للقناصل والرحالة الفرنســـيين وخاصة بعد أن كشفت تقـــارير هؤلاء القنـــاصل سواء فى مصر او استنبـــــول حقيقة الأوضاع التى تعـــانى منها الدولة العثمانية كما اكد ذلك كتابات الرحالة الفرنسيين مثل « سفارى » و « فولنى » و « توت » الذين أكدوا قرب انهيـــار الدولة العثمانية ، وان اسراع فرنســـا فى الاستيـــــلاء على مصر يخدم المصالح الفرنســـية ، ويحد من طغيان المماليك بها .

ثانيا : وقائع الحمـــلة :

ونتيجـــة لمجمل هذه الأسباب اصـــدرت حكومة الادارة فى ١٢ من ابريل ١٧٩٨م قرارها بوضـــــع جيش الشرق تحت قيـــادة بونابـــرت للاستيلاء على مصر . وتحت ستـــار من الكتمان غادر بونابرت بـــاريس فى صباح اليوم الرابع من مايو عام ١٧٩٨ متوجها الى مينـــاء «طولون»

حيث قام بانتقاء القادة والضباط والعلماء والجغرافيين والمهندسين الذين سيصحبونه فى حملته كما اظهر مهارة فائقة فى تجهيز الحملة بكافة المعدات والأدوات انعلمية ، وجلب من روما المطبعة العربية واليونانية واحضر معها مجموعة من المتخصصين بصف الحروف العربية وطباعتها ، والى جانب ذلك أحضر معه العديد من الكتب الخاصة بمصر وبلاد الشرق للاستفادة منها خلال رحلته(٥) . وقد خرجت الحملة من ميناء طولون متوجهة الى مالطة فى عام ١٢١٣هـ الموافق التاسع من يونيو ١٨٩٨م واستطاع بونابرت الاستيلاء عليها وتأديب فرسانها بحجة انهم لا يقيمون وزنا لأوامر الجمهورية الفرنسية ، وفى صبيحة التاسع عشر من يونيو تحركت الحملة من مالطة الى الاسكندرية ولم تتبع الحملة — خلال ذلك — فى سيرها طريقا مستقيما بل حولت اتجاهها خشية ان يفاجئها الأسطول الانجليزى فى عرض البحر المتوسط فابحرت صوب جزيرة كريت (٦) وهناك علم بونابرت ان الاسطول الانجليزى بقيادة الاميرال « نلسن » Nelson يجد فى البحث عنه ، ونتيجة لذلك بدات الحملة تاخذ اتجاهها الى الجنوب الشرقى قاصدة الاسكندرية راسا، وبعد ان بلغتها علم بونابرت ان الاسطول الانجليزى الذى سبقه الى الاسكندرية بثلاثة ايام فقط قد غادرها للبحث عن حملته فى مياه ازمير التركية . ونتيجة لذلك قرر بونابرت انزال جنده فى الحال الى البر خشية ظهور الأسطول الانجليزى مرة ثانية ، وكانت خطته تتركز فى توزيع قواته فى عدة مواقع والاستيلاء على الاسكندرية ودمياط فى وقت واحد ثم التوغل من هذين المركزين الى الدلتا ، والوصول الى القاهرة باقصى سرعة ولكنه سرعان ما عدل عن هذه الخطة بعد أن وصلته الأخبار عن اقتراب الاسطول الانجليزى من الاسكندرية فأمر بانزال جنوده ومهماته بسرعة والزحف على الاسكندرية واحتلالها . وكانت توصيات بونابرت الى قواته تنحصر فى قوله لهم « ايها الجنود انكم توجهون الآن ضربة مؤلمة الى بريطانيا وانى لمؤمن بالنجاح فيما شرعنا به وسنفنى المماليك الذين اهانوا فرنسا بعد بضعة ايام واعلموا أن الرغبة الأولى للشعب الذى ستعيشون بينه هى « لا اله الا الله محمد رسول الله » فلا تعاكسوهم فى معتقدهم واعلموا ان النهب يحقر الجيش، وان المدينة التى هى الآن أمامكم وغدا ستحتلونها قد بناها الاسكندر(٧) ».

وقد قـاوم أهل الاسكندرية بقيادة حـاكم مدينتهم « محمد كريم » الجيش الفرنسى ودافعوا عن اسـوار مدينتهم غير أن هذه المقـاومة لم تستمر سـوى ساعات قليلة نزلت بعـدها القوات الفرنسـية الى الاسكندرية فى الثالث من يوليو ١٧٩٨م وكانت الخطوة التالية لهم هـى الزحف على القـاهرة فارسل بونابرت حملة للاستيلاء على رشـيد ، كما ارسل بعض ضبـاطه البحريين باسـطول صغير من المراكب الخفيفـة الى مصب النيل اما باقى الجيش فقد زحـف على القـاهرة بالطـريق الصحراوى ، ولم يكن هذا الزحف نزهة عسـكرية بل لقى الفرنسيـون فى اثنائه الشدائد والأهوال[٨] وقبل نزول الحملة الى القاهرة وعـد بونابرت وهو على ظهر السفينة « اوريان » فى ١٨ من محرم ١٢١٣ الموافق الثانى من يوليو ١٧٩٨م بتأمين الأهالى على أرواحهم واعراضهم واموالهم وشـعائرهم الدينية ، كما وعد باحترام شـعور اهالى البلاد وعاداتهم ، واكد على احترام الاسـلام والمسلمين ، ومصـادقة الدولة العثمانية ، وان الفرنسيين ما جاءوا الى مصر الا للاقتصاص من المماليك الخـارجين عن طاعة السلطان ، والذين يعذبون الأهالى ويستولون على ارزاقهم .

وقد حدث اول اشتبـاك كبير بين المماليك والجيش الفرنسى فـى « شبراخيت » فى ١٤ من يوليو ، ومع ان المماليك كانوا قد اتخذوا العـدة لمقابلة الفرنسيين ، وصمموا على مفـاجأتهم قبيل الوصول الى القاهرة فوزعوا الى قسـمين الاول برئاسـة « ابراهيم بك » وقـد ظل مرابطا على الضفة اليمنى للنيل فى بولاق اما القسـم الآخر فكان بقيادة مراد بك على الضفـة اليسرى وسرعان ما لاحظ « بونابرت » ضعف ترتيبـات اعدائه فاعتمـد على الحركة السريعة فى مناوراته العسـكرية معهم ، ونجح فى اختـراق صفوف المماليك حتى ولوا منهزمين ، ولم يسـتطع مراد بك السـيطرة على زمام الامور فتقهقر بقـواته الى القـاهرة[٩] ودخل بونابرت الجيزة ، وحينمـا راى اهراماتها قال لقـواته مشـيرا باصبعه الى قمم الأهرام « ان اربعين قرنا من الزمان تنظر اليكم » .

وفى ٢٤ من يوليو دخل الفرنسيون القاهرة ، واتخذ بونابرت مقـر قيادته العامـة فى سراى الالفى بميدان الأزبكية واخذ فى تنظيم شـئون الحـكم فى مصر[١٠] .

اما عن فلول المماليك فقد انسـحبت الى الصعيد حاملة معهـا نفائسها واموالها وحريمها ، وحذا حذوهم عديدون من كبار المصريين الذين كانوا على سـعة من العيش تمكنهم من استئجار الدواب لنقل متـاعهم وثرواتهم .

ولكى يقرب بونابرت المصريين منه اعـرب عن حسن نواياه تجاههم وتجـاه السـلطان العثمانى بصفته خليفة للمسلمين ، وبدأ فى استمالتهم وتحريضهم ضـد المماليك فعلق منشـورا لأهالى القاهرة جاء فيه «اننى ما قدمت اليكم الا لأخلص حقـكم من يد الظالمين واننى اكثر من المـماليك اعبد الله سبحانه واحترم نبيه والقرآن العظيم » .

كما تظـاهر بالاسـلام بقوله « ان الفرنساوية هم ايضا مسلمون مخلصون .. والمصريون بأجمعهم ينبغى ان يشـكروا الله سبحانه وتعالى لانقضـاء دولة المماليك وعليهم ان يقولوا بصـوت عال ادام الله اجلال السـلطان العثمانى ادام الله اجلال العسـكر الفرنساوى ، لعن الله المماليك واصـلح حال الامة المصرية »[١١] يضاف الى ذلك ان بونابرت صـار ينشـر المنشورات التى يطعن فيها على ديانة النصـارى ويمدح الاسـلام ، واشـرك المصريين اشراكا محدودا فى الحـكم فألف مجلسا نيـابيا كان يحـوى عددا كبيرا من رجال الازهر ، كمـا شرع فى تنظيـم الادارة الأهلية فشـكلت الدواوين لمعـاونة الحـاكم الفرنسى على ادارة شئون البلاد واستتباب الأمور فيها ، ولم تمض ايام قليلة على ذلك حتى وصلت الأخبـار الى بونابرت بوقوع كارثة « ابى قير » البحرية وهزيمة الاسـطول الفرنسى هنـاك ، مما كان له اكبر الأثر على اضعاف مركـز الحملة فى مصر ، والقضاء على هيبة الفرنسيين فى نفوس الأهالى ، ثـم القضـاء فى نهـاية الامر على مشروع ارسـال الحملة المرتقبة الى الهند يضـاف الى ذلك ان تحطيم الأسطول الفرنسى فى « ابى قير » ادى الى قطـع المواصلات بين فرنسا وحملتها فى مصر ، واضعاف الروح المعنوية لدى القوات الفرنسية كما ادى الى التجـاء الفرنسيين للاعتمـاد على موارد مصر الداخلية اعتمـادا كليا مما سـاعد على اثارة الاضطرابـات فى الاقاليم وتحريك الثورة فى القاهرة [١٢] والى جـانب ذلك فقد تشجعت

الدولة العثمانية على الانضمام الى بريطانيا والروسيا فى تحالف ضد فرنسا فى يناير من عام ١٧٩٩ [١٣] كما أعلن السلطان سليم الثالث الجهاد الدينى ضد الفرنسيين فى مصر ، وشارك العثمانيون فى الحملات التى أرسلت لطرد الفرنسيين من مصر ، وقاموا بقطع العلاقات مع فرنسا ، والى جانب ذلك فقد ضمنت انجلترا سيادتها على البحار، وعقدت تحالفات عديدة ضد فرنسا مما ادى الى تحرج موقفها .

ثالثا : سياسة بونابرت الاسلامية :

بعد تحطيم الأسطول الفرنسى فى أبى قير اختط بونابرت فى سياسته الداخلية لمصر خطة كانت لحمتها وسداها احترام شعائر اهل البلاد وتقاليدهم قولا وفعلا ثم الاعتماد فى حكومته على جماعة المشايخ والعلماء وهم العنصر الدينى صاحب النفوذ بين طبقات الشعب حتى يتمكن من تسكين الأهالى [١٤] ومن هنا تشعبت جهود بونابرت الاسلامية الى طرق متعددة نذكر منها .

١ — ان الأوامر والمنشورات التى اصدرها بونابرت لجنده ولاهل البلاد تتضمن احترامه العميق للاسلام ولعلماء وائمة المسلمين .

٢ — اشتراك بونابرت فى الاحتفالات الدينية والوطنية فاحتفل فى العشرين من اغسطس عام ١٧٩٨م بالمولد النبوى الشريف ارضاء للمسلمين واستجلابا لمساعدتهم وعن ذكر يذكر الجبرتى فى حوادث الخامس من ربيع الأول ١٢١٣هـ فيقول « سأل صارى عسكر عن المولد النبوى ولماذا لم يعملوه كعادتهم فاعتذر الشيخ البكرى بتعطيل الأمور وتوقف الاحوال، فلم يقبل وقال لابد من ذلك ، واعطى له ثلثمائة ريال فرنسى معاونة، وأمر بتعليق تعاليق واحبال وتناديل ، واجتمع الفرنساوية يوم المولد ولعبوا فى ميادينهم وضربوا طبولهم »[١٥] .

وفى أول سبتمبر ١٧٩٨م احتفل بونابرت بتعيين أمير الحج[١٦] ، كما أخذ الفرنسيون اهبتهم للاحتفال بموكب كسوة الكعبة المشرفة ، وفى العاشر من فبراير ١٧٩٩م احتفل الفرنسيون بحلول شهر رمضان المبارك احتفالا ضخما ، وصاروا يترددون على كبراء المصريين ومشايخهم « وياكلون

معهم فى وقت الافطار ويشاهدون نظامهم وترتيبهم ، ويحذون حذوهم»[١٧] كل ذلك فى محــاولة لجذب قلوب المصريين اليهم باستمالتهم والتقرب منهم حتى يطمئن الأهالى اليهم .

والى جانب ذلك فقد احتفل الفرنسيون بعيد الأضحى فى ذى الحجة ١٢١٣هـ فضربوا مدافــع من القلعة عند الشروق وذلك اعلاما بالعيد .

٣ — وفى محاولة من بونابرت لاضعــاف مركز الدولة العثمانية فى مصر واحيــاء مركز القاهرة الدينى عمل على اظهار السلطان العثمــانى بمظهر غير المهتم بالمصلحة الدينية الاسلامية ، والعاجز عن الاضطــلاع بأعباء مهــام مناصبه الدينية ، كما قام بعزل القاضى العثمانى فى مصــر فى يونيو من عام ١٧٩٩م وطــالب المشايخ باختيار احد المصريين فى هذا المنصب ، ولما اجتمعت كلمة العلماء على اختيــار الشيخ «أحمد العريشى» الحنفى لتولى القضــاء البسه بونابرت فروة ثمينة ، كمــا اصدر منشورا بذلك طبع منه عدة نســخ الصقت بالأسواق[١٨] .

٤ — المكاتبات التى ارسلها بونابرت الى الأمراء المسلمين فى الحجاز والشــام والعــلاقات التى حاول تكوينها معهم تــدل على محــــاولته اكتساب مودتهم وعلى ســبيل المثال فقد عرض بونابرت على الشــريف غــالب فى مــكة بعض الاتفاقات التجاريــة كما ارســل عــدة رســائل الى بعض امراء العرب فى مسقط وغيرها يخطب فيها ودهم[١٩] .

٥ — اهتمام بونابرت باقناع المسلمين فى مصر ان الفرنسيين يعتنقون الاســلام حقيقــة .

وعلى الرغم من كل ذلك فقد اســاء المصريون الظن بالفرنســيين وشككوا فى نياتهم خصوصا وانهم ظلوا يشربون الخمر الذى حرم الاسلام شربه ، كمــا انهم لم يختنون وقد اكد الجبرتى هذه الشــكوك فى نــوايا الفرنسيين بقوله ان الله أعلم بنواياهم الحقيقية ومقاصــدهم من تــلك المجــاملات .

ونتيجة لذلك تدهورت العلاقات بينهما خصوصا بعد رفض العلماء تعليق شــارة الثورة الفرنسية — ذات الالوان الثلاثة — على صدورهم

بنـــاء على اوامر بونابرت ، ثم حدثت بعد ذلك ثورة القاهرة الأولى ، ولم يبــال المشايخ باخمادها مما جعل اســـلوب بونابرت فى التعـــامل معهم يزداد سوءا .

رابعا : ثورة القاهرة الأولى :

وعلى الرغم من محاولات بونابرت المتعددة لاستمالة المصـــريين فقد ظل الأهالى على اعتقـــادهم بأن الفرنسيين انما هم اعداء الدين الاسلامى، والى جـــانب هذا النفور والعداء الدينى كانت هناك العديد من الأسباب نذكر منهـــا :

١ ــ خروج الفرنسيين ومعهم النســـاء والبنـــات الفرنســـيات مكشوفات الوجوه فى الطرقات ، وشربهم الخمر ، واقامتهم حفلات الرقص علانية وعدم تقيدهم بتعاليم الدين الاسلامى وآدابه .

٢ ــ هدم بعض الجوامع والمنارات فى بركة الأزبكية لأجل توسيع الطرقات ، واقاموا الحصـــون مما آثار مشاعر المصريين .

٣ ــ ســـوء الاحوال الاقتصـــادية وتذمر المصريين من ترتيبـــات الفرنسيين الاقتصادية وتنظيماتهم المالية ، وبخاصة بعد اعتماد الفرنسيين على مـــوارد البلاد فى تموين جيشهم نظرا لتدمير الاسطول الفرنسى فى موقعة ابى قير البحرية [٢٠] .

٤ ــ كتابات احمد باشـــا الجزار الى المصريين واستنهاضهم ضد الفرنسيين ، وحثوم على الثورة .

٥ ــ فرض بونابرت للضرائب والغرامات على التجار ، واثقـــال كواهلهم بمطالبه ، وتذرعه بشتى الوسائل لجمع الأموال منهم .

ونتيجة لذلك تألفت فى الازهر لجنة جمعت حولها النـــاقمين على الحكم الفرنسى والكارهين له ، وقد اذاعت هذه اللجنة ان بونابرت انما يريد ارغـــام المسلمين على اعتنـــاق المسيحية كما اعلنت ان جيشـــا من المماليك والعثمانيين ســـوف يحضر قريبـــا الى الشواطىء المصرية لطرد

الفرنسيين ، وقد اشـــترك فى التحريض على الثورة الائمة والمــؤذنون وغيرهم من رجـــال اندين حتى انفجر بركانها فهاجم المصريون القـــوات الفرنســـية وقاموا بعمل المتاريس وقتلوا الكثير من الجند الفرنسيين .

وقد اتخذ بونابرت كافة الاجراءات العسكرية للقضاء على الثـــورة فوزع قواته لاحتلال الازبكية ، كمـــا احتل جزءا من جيشه المرتفعات بين القاهرة والقبة ، واصـــدر أوامره الى قواده بمهاجمة الأزهر ، واطلاق المدافع عليه اذا اقتضى الأمر مما جعل الناس ينادون « ياسلام من هـــذه الآلام ياخفى الألطاف نجنا مما نخاف » (٢١) . وقد استطاع بونـــابرت اخمـــاد الثورة بعد ان فقد حـــوالى الخمسين من جنوده بينمـــا فقـــد الثوار ما يزيد على الألفين وخمسمائة ، وبعدها أرسل عددا من فرسانه بجيادهم فدخلوا الأزهر وحطموا قنـــاديله ونهبوه ، وارتكبوا فيه المعاصى، وانتهكوا حرماته وجعلوه اصطبلا لخيولهم .

وبعد أن التمس العلماء من بونابرت اخراج خيوله من الأزهـــر ، والتوقف عن الضرب اجـــاب ملتمسهم بعد أن اخذ منهم المواثيق على عدم تنشيط حركة الثورة بين الأهالى ضد الفرنسيين ، واتهـــامه لهم بالتقصير فى معالجة الأمور .

وعن نتائج هذه الثورة فقد كانت جد خطيرة وفيما يلى نعرض لها .

١ — غيرت هذه الثورة من سياسة التودد الى الأهالى التى كان يتبعها بونابرت الى سياسة الشـــدة والصرامة مع المصريين ، فعطـــل الديوان لمدة شهرين ، كما شدد فى معاقبة المحرضين على الثورة لدرجـــة وصلت الى حد الاعدام ومصادرة الممتلكات .

٢ — امتداد الاضطرابات الى بقية انحـــاء القطر المصرى فى الوجهين البحرى والقبلى .

٣ — انتهاز النصـــارى والأروام الفرصة ، ومحاولاتهم الايقـــــاع بالمســـــلمين .

٤ — ســـجن الفرنسيين لبعض المشايخ ، وقيام الشيخ السادات بالتشـــفع لهـــم .

خامسا : حملة بونابرت على بلاد الشام ١٧٩٩م :

على الرغم من حرص بونابرت عند خروجه للحملة على مصر بالاحتفاظ بعلاقات ودية مع الدولة العثمانية فان هزيمة اسطوله فى ابى قير قد شجع السلطان العثمانى على اعلان الحرب عليه وقطع العلاقات مع فرنسا مما ادى الى تأزم العلاقات بين الطرفين . وقد حاول بونابرت استمالة بعض اصحاب النفوذ فى البلدان التى توقع أن تغزوه منها الجيوش العثمانية فكتب الى عبد الله باشا العظم والى دمشق ، وكتب الى احمد باشا الجزار رسائل يؤكد فيها انه لم يكن يوما ما عدوا للمسلمين ، وانه انما حضر الى مصر للانتقام من المماليك وليس لقتال المسلمين ونفى الشائعات التى تقول انه يريد الاستيلاء على بيت المقدس وتهديم الدين المحمدى [٣٢] . غير أن كافة هذه المساعى كان نصيبها الفشل التام خصوصا بعد ان اعلنت الدولة العثمانية الجهاد الدينى ضد فرنسا .

ونتيجة لذلك وخشية من مهاجمة العثمانيين وحلفائهم للقوات الفرنسية فى مصر ، قرر بونابرت مبادرة اعدائه بالهجوم والزحف على بلاد الشام ، وفى السادس من فبراير ١٧٩٩م بدات مقدمة الجيش الفرنسى بالتقدم الى العريش ثم الى غزة ، وبعدها استولى بونابرت على الرملة ، وضرب نطاق الحصار حول يافا ، وبعد أن استسلمت حامية يافا وقع فى يده اربعة آلاف أسير فأمر بقتلهم بالرصاص ، وبعدها اباح لجنده تلك المدينة يومين يفعلون فيها وبأهلها ما يشاءون .

وفى الثامن عشر من مارس ١٧٩٩م بدأ بونابرت فى حصار عكا وكان حصارا طويلا شاقا استمر ثلاثة شهور ، وقد صمدت عكا أمام الفرنسيين نتيجة للاسباب الآتية :

١ ــ مناعة حصون عكا وصمودها أمام قصف المدفعية الفرنسية .

٢ ــ استبسال احمد باشا الجزار ورجاله فى مقاومة الفرنسيين .

٣ ــ مساعدة الأسطول الانجليزى بقيادة « سدنى سميث » من البحر لاهالى عكا ، وامدادهم بالسلاح والمئونة .

٤ — انتشار وباء الطاعون بين افراد الجيش الفرنسى .

ونتيجة لذلك أخفق بونابرت مع عكا على الرغم من الجهود التى بذلها وقد يرجع ذلك الى قلة معدات الحصار التى كان يمتلكها . ولما يئس بونابرت من ذلك قام برفع الحصار عنها والعودة الى مصر فى الخامس عشر من يونيو بعد ان تكبدت قواته خسائر كبيرة . ولكى يخفى بونابرت ما حدث له فى عكا دخل القاهرة فى موكب كبير بسط فيه انتصاراته فى يافا كما اوضح ان سبب رجوعه الى مصر هو ما بلغه من قيام بعض المفسدين بتحريك الفتن والشرور فى غيابه . على أن المقام لم يطل ببونابرت طويلا فى القاهرة حيث جاءته الأخبار عن وصول حملة عثمانية الى مصر ، ونزول الأتراك الى شاطىء أبى قير فى ١٤ يوليو فانتقل بونابرت الى الرحمانية ، واتخذ مقر قيادته بالاسكندرية ، وهناك انقض على القوات العثمانية فى معركة حامية استطاع خلالها هزيمة العثمانيين فى معركة ابى قير واصابة قائدهم بجروح خطيرة[٢٣] ثم عاد بعدها الى القاهرة وهناك علم من الصحف أن فرنسا أصبحت على حافة الهاوية نتيجة لانتصار الدول الأوربية عليها وان واجبه يدعوه الى العودة الى وطنه لانقاذه من اعدائه . ومن هنا قرر العودة السريعة الى فرنسا [٢٤] .

وقبل ان يغادر بونابرت مصر اختار الجنرال كليبر Klebere للقيادة حيث كان يرى انه اكفأ القواد الموجودين مع الحملة فى مصر وانه يستطيع ان يحفظ هذه المستعمرة من الضياع حتى تعقد فرنسا صلحا مشرفا مع أعدائها .

سادسا : الجنرال كليبر يتولى قيادة الحملة بعد نابليون :

غادر بونابرت مصر فى التاسع عشر من اغسطس ، وهو يحس فى اعماقه ان مصير الحملة آيلا للزوال ، لذلك خير كليبر بين أمرين هما :

١ — ابرام الصلح مع العثمانيين حتى ولو كان الجلاء عن مصر واعادتها الى السلطنة العثمانية من شروط الصلح الاساسية .

٢ — ارجاء الخروج من مصر ، او اخلائها اكبر مدة ممكنة الى ان يتم نهائيا عقد الصلح العام مع أعداء فرنسا[٢٥] .

وقد اقبل كليبر على مهمتـــه الجـديدة بكل نشاط ، كما اصـــدر فى الثلاثين من اغسطس منشـــورا خاطب فيه الجند فأعلن عليهم الاسباب القهرية التى حملت بونابرت على تقرير الرحيل الى فرنسا ، ومناهم بوصول نجـــدة قوية لهم من فرنســـا عن قريب ، او صلح مظفر يفسح لهم الطريق للعـــودة الى بلادهم . ولما احس كليبر بحرج موقفه ، وثقل التبعـــة التى القيت على عاتقه خصـــوصا وانه لا يمكنه البقـــاء فى مصر طويلا بل يجب اخلائها ، والعـــودة بجنوده الى فرنسا فقد وطـــد عزمه على المفاوضـــة من اجل الجـــلاء عنها ، وأراد ان يستنـــد فى عزمه هذا على أن حــــالة الجيش والادارة قد بلغت درجة من الســـوء والارتبـــاك تقضى على كل امل فى البقـــاء بمصر ، وان احـــوال الحملة فى مصر تزداد سوءا يوما بعد يوم .

ونتيجة لذلك قرر كليبر فتح بـــاب المفاوضات مع الصـــدر الاعظـــم العثمانى « يوسف ضيا باشا » فى السابع عشر من سبتمبر ١٧٩٩م بغرض الوصول الى صلح مع الدولة العثمـــانية . وقد تمســـك ضيا باشا بعـــدم رغبته فى الدخول فى اية مفاوضة الا على اســـاس اجلاء الفرنسيين عن مصر من غير قيد او شرط وقـــد كتب اليه كليبر يقـــول ان « الصلح اعظم خدمة يمكن أن تؤديها لوطنك ، والفرنسيون لا يخشون اعداءهم .. ولكنهم يعتبرون الحرب القـــائمة بينهم وبين البـــاب العالى صديقهم التقليـــــدى حـــربا ضد انفسهم .. ومصر كانت لكم وســـتبقى لكم بل هى لكم اليوم اكثر منها بالأمس لأن المماليك قد اقصـــوا عن حكمها ولن يحكموها بعد الآن » .

وقد رد الصـــدر الاعظم على رســـالة كليبر بقوله « ان الفرنسيين اعتدوا على مصر دون ســـابق انذار ، واحتلوا هذا البلد التـــابع مباشرة للباب العـــالى .. اما وقد بدأ من جـــانب فرنسا ميل صحيح الى الصداقة القديمة مـــع الباب العـــالى فان الصدر الاعظم يقبل ان يعفو عنها ، ويعيد جميع الفرنســـيين الموجودين فى مصر الى بلادهم آمنين سالمين »[٣٦] .

وعندما علم ســـدنى سميث بأمر هذه الاتصـــالات قرر مباشرة التدخل فى المفـــاوضات ، واعلن انه من المتعـــذر انســـحاب الفرنسيين من مصر ، وعودتهم الى وطنهم من غير موافقـــة بريطانيا فهى صـــــاحبة الســـبطرة البحرية والكلمة العليـــا ، وان الموقف الســـياسى فى اوربا لا يدعوه الى

الرغبة فى السلام مع الفرنسيين . ونتيجة لذلك ارسل كليبر الى مفاوضيه بمقترحات جديدة تنازل فيها عن اكثر الشروط المقيدة للجلاء عن مصر ، ورحب بتدخل « سيدنى سميث » فى المسألة لاقناعه بأن المفاوضات من المحتمل أن تصبح مقدمة لعقد السلام العام كما أعلن أن تركيا ستستعيد مصر بمجرد عقد الصلح بين فرنسا وبريطانيا والباب العالى ولكن سميث تشدد فى موقفه خصوصا وانه رأى خطورة السماح للجيش الفرنسى بالعودة الى بلاده بسلاحه ومهماته فى وقت تحارب فيه بلاده فرنسا ، أن هذا الجيش بوجوده فى مصر يكون اقل ضررا من وجوده فى فرنسا خصوصا وأن كليبر كان يرى اهمية خروج جيشه من مصر بسلاحه وذخائره وامتعته مع حقه فى العمل العسكرى فى اى مكان بعد عودته الى فرنسا وخلال هذه الآونة سقطت قلعة العريش فى ايدى العثمانيين ، مما كان له اكبر الأثر فى ازدياد رغبة كليبر فى ابرام الصلح بكل سرعة ممكنة[٢٨] ، ولهذا طلب من مفاوضيه التساهل فى الأمر وضرورة الاهتمام بالمسائل التالية :

١ — الا تدخل الجيوش العثمانية او الانجليزية مصر الا عند وصول سفن النقل الى الموانىء المصرية التى ترحل منها الحملة وهى السفن التى ينبغى على الصدر الأعظم اعدادها وتجهيزها بالمئون .

٢ — يجب اعطاء التعهدات اللازمة لضمان ملاحظة تنفيذ المعاهدة والهدنة التى تتبعها ملاحظة دقيقة .

٣ — لا ينبغى أن يقيد حق جيش الحملة عند عودته الى فرنسا فى العمل ضد كافة الأعداء .

ومعنى ذلك ان كل هموم كليبر قد انحصرت فى مجرد الجلاء دون قيد أو شرط سوى اعطاء الجيش العائد الى وطنه حرية العمل فى الميدان الأوربى ، ثم نقل جيشه على سفن العدو الى بلاده .

وفى هذه الاثناء انتقل كليبر من القاهرة الى الصالحية ، ثم جمع قواته على الحدود ، وكان غرضه تأييد المفاوضات من جهة ثم الاستعداد لمواجهة الطوارىء من جهة اخرى .

وفى ٢٤ من يناير ١٨٠٠م تم توقيع اتفاقية العريش وهى تتألف من مقدمة ، و٢٢ بندا تبين كيفية انسحاب الجيش الفرنسى من مصر بسلاحه وعتاده فى غضون ثلاثة اشهر من تاريخ الاتفاق فتضمن البند الاول « ان الجيش الفرنساوى يلزمه أن يتنحى بالأسلحة والعزال بالأمتعة الى الاسكندرية ورشيد وابو قير لأجل ان يتوجه ، وينتقل بالمراكب الى فرنسا ان كان ذلك فى مراكبهم الخاصة بهم ، ام فى تلك التى يقتضى الباب العالى أن يقدمها لهم »[٣٨] .

أما باقى البنود فقد كان أهمها :

١ — تتوقف العمليات الحربية فى مصر لمدة ثلاثة اشهر من توقيع الاتفاق يقوم الباب العالى خلالها باستحضار السفن اللازمة لنقل الفرنسيين الى بلادهم .

٢ — الاتفاق على مواعيد اخلاء المدن والاقاليم المصرية من الجيوش الفرنسية .

٣ — عدم التعرض للقوات الفرنسية فى اثناء انسحابها ، ووجوب وسائط بين الطرفين ، وأخذ الضمانات اللازمة بذلك .

٤ — الافراج عن المسجونين والمحجوزين من كلا الطرفين ، ورد الأموال والممتلكات العامة لأصحابها .

٥ — عدم التعرض للنصارى الذين ساندوا الفرنسيين .

٦ — تقديم ما يلزم الجيش الفرنسى من الطعام والغذاء خلال فترة الانسحاب [٣٩] .

وهكذا فرض الفرنسيون على الجانب العثمانى التزامات معينة فى سبيل الجلاء عن مصر ، كما اشترطوا أن ينسحب الجيش الفرنسى بكامل أسلحته وامتعته وأن يتوفر له الامان خلال عودته الى فرنسا ، يضاف الى ذلك أن المفاوض الفرنسى اشترط رعاية مصالح فرنسا فى ممتلكات الدولة العثمانية .

وقد وافق بونابرت الذى كان قد تبوأ مركز القنصل الأول فى فرنسا على هذه المعاهدة مقدرا صعوبة موقف كليبر ، والى جانب ذلك كان سرور اهل القاهرة عظيما بعد ذيوع اتفاقية العريش ، وقد وصف الجبرتى ذلك بقوله ان الناس « نظروا للفرنسيين بعين الاحتقار ، وانزلوهم من درجة الاعتبار ، وكشفوا نقاب الحياء معهم بالكلية ، وتطاولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية ، ولم يفكروا فى عواقب الأمور ، ولم يتركوا معهم للصلح مكانا حتى أن فقهاء المكاتب كانوا يجمعون الأطفال ويمشون بهم فرقا وطوائف ، وهم يجهرون ويقولون كلاما مقفى بأعلى اصواتهم ، بلعن النصارى واعوانهم وافراد رؤسائهم »(٣٠) .

وقد بدأ الفرنسيون فى تنفيذ معاهدة العريش عقب ابرامها فنقلوا معداتهم وامتعتهم الى الاسكندرية ، وبداوا فى الاستعداد للرحيل بنشاط كما سلموا دمياط ، وعزبة البرج الى الأتراك ووافقوا على وصول الجيش العثمانى الى بلبيس واقترابه من القاهرة (٣١) ولكن الأمور سرعان ما تطورت فى غير صالح الاتفاقية حيث هدمت بريطانيا ثمرات المجهودات التى بذلها المفاوضون ، واعترضت على عودة الجيش الفرنسى بأجمعه دفعة واحدة الى فرنسا لما فى ذلك من الخطر على مصلحة الحلفاء فى الحرب الأوربية الدائرة ضد فرنسا .

وقد يتساءل البعض على السبب الذى دفع الانجليز الى ذلك وهم الذين جاءوا اصلا لمحاصرة الفرنسيين بهدف اخراجهم من مصر .

الواقع انه بجانب ما ذكر حول خطورة السماح لقوات كليبر بالعودة الى فرنسا فى وقت يحارب فيه بونابرت أوربا فان الأسطول البريطانى كان قد اعتقل سفينة فرنسية تحمل رسائل من كليبر الى حكومته يوضح فيها الحالة المؤلمة لجيشه ، وانتشار الأمراض بين افراده ، وقلة عدده ، ونتيجة لذلك حاول الانجليز انتهاز هذه الفرصة واصروا على تسليم الفرنسيين المحاصرين فى مصر كاسرى حرب أو بقائهم محصورين بها وممنوعين من الاتصال بفرنسا حتى يفنوا فى هذه البلاد عن آخرهم (٣٢) .

ونتيجة لذلك اوقف كليبر عملية سحب قواته ، وقرر تأجيل اخلاء القاهرة ، كما اعتبر وصول الجيش العثمانى الى مشارف القاهرة عملا عدوانيا ينبغى مقاومته . ولما تمسك العثمانيون بضرورة اخلاء القاهرة ، وتسليم كافة القلاع واخلاء الوجه البحرى بدعوى ان رفض الانجليز للمعاهدة غير ذات اهمية وبداوا فى توزيع المنشورات ضد الفرنسيين اعداء الاسلام قرر كليبر قتالهم ، واوقع بهم هزيمة كبيرة عند هليوبولس اجبرتهم على الفرار وخلال ذلك اشتعلت ثورة القاهرة الثانية (١٨٠٠م) واعمل الاهالى القتل فى الفرنسيين[٣٣] واقاموا المتاريس حول الأزهر ، وشرعوا فى مهاجمة المواقع الفرنسية ، كما امتدت الثورة الى الوجه البحرى ، وقد استخدم كليبر أساليب القمع والتدمير لاخماد هذه الثورة وكان على راس هذه الأساليب احراق احياء القاهرة مما اجبر اهلها على التسليم ، ثم بدأ فى الاقتصاص منهم ومن مشايخهم ففرض عليهم الغرامات الباهظة للانفاق منها على جيشه ، كما فرض الغرامات على العديد من مدن الوجه البحرى والى جانب ذلك جمع الديوان ووبخ اعضاءه وانبهم لاشتراكهم فى الثورة وقد وصف الجبرتى ذلك بقوله « اغلق بينه وبينهم الباب .. فبهتت الجماعة وانتقعت وجوههم ، ونظروا بعضهم الى البعض ، وتحيرت افكارهم .. ولم يزالوا على ذلك الحال الى قرب العصر ، حتى بال اكثرهم فى ثيابه » .

ونتيجة لهذه السياسة القاسية نفرت قلوب الناس من كليبر وازداد سخطهم ضد الفرنسيين ، وادى فى النهاية الى مصرعه على يد سليمان الحلبى ذلك الشاب السورى الذى كان يتلقى العلم فى الأزهر . وقصة ذلك ان كليبر ذهب فى الرابع عشر من يونيو ١٨٠٠م مع المهندس «بروتان» لتفحص اعمال الترميمات الجارية فى مقر القيادة العامة بالازبكية وبينما هما يسيران طلع عليها سليمان الحلبى فى صورة شاب متسول يطلب صدقة ، فاشار اليه كليبر بالرجوع فلم يرجع بحجة ان له حاجة وهو مضطر فى قضائها فلما دنا منه مد اليه يده اليسار كانه يريد تقبيل يده فمد اليه الآخر يده فقبض عليه ، وضربه بخنجر كان قد أعده فى يده اليمنى أربع ضربات متوالية فشق بطنه وسقط كليبر على الأرض مضرجا بدمه ، ولما حاول بروتان مساعدته ضربه سليمان بالخنجر

ثم فــر منزويا فى البستان المجــاور لبيت ســارى العسكر حتى تم القبض عليه [٣٤] .

وقد اظهر الفرنســيون فى اثناء محاكمتهم لســليمان الحلبى قدرا كبيرا من رباطة الجاش ، كمــا أصروا على محاكمة سليمان الحلبى وشــركائه محاكمة عــادلة قبل تنفيذ الحــكم فيهم .

وقد وصف الجبرتى ذلك المسلك بقوله « قبضوا عليه — يقصد سليمان — وقرروه ولم يعجلوا بقتله ، وقتل من أخبر عنهم بمجرد الاقرار بعد أن عثروا عليه ، ووجدوا معه آلــة القتل مضمخــة بدم ســارى عسكرهم واميرهم بل رتبوا حكومة ومحــاكمة ، واحضروا القــاتل ، وكرروا عليه السؤال والاستفهــام مرة بالقول ومرة بالعقوبة ، ثم احضروا من أخبر عنهــم ، وسالوهم على انفــراد ومجتمعين ثم نفذوا الحــكم فيهم بمــا اقتضــاه التحكيم »[٣٥] حيث صدر فى السادس عشر من يونيو حكم بادانة سليمان الحلبى قاتل كليبر ، وبادانة اربعــة من المشــايخ كشركاء للقــاتل بحجة انهم علموا بنوياه ولم يبلغوا عنها .

مينــو وقيــادة الحملة :

وبوفاة كليبر انتقلت القيادة الى مينو **Menou** احد انصــار التجربة **الاستعمارية فى مصــر والذى كان يعتقد ان التمســك** ببقاء الفرنســيين فى مصر الى النهــاية سيعود على فرنســا باعظم الفوائد ، والذى قطــع فى ســياسته تجاه التقرب من المســلمين شوطا بعيدا حيث اعتنق الاسلام دينــا وسمى نفســه « عبد الله » وعقد قرانه على السيدة زبيــدة بنت السيد محمد البــواب احدى ســيدات البيوت المعروفة فى رشيد ، وانجب منهــا ابنــا اسماه « سليمان مراد » .

وقد وجد مينــو من بين ضباط الحملة من يشــاطره الآراء حــول البقاء فى مصر والاستقرار فيها [٣٦] .

وبعد ان تمكن مينــو من زمام الأمور كان امامه ان يختار بين أمــرين هما اما التخــلى عن سياسته الاستعمارية وهى سياسة البقاء فى مصر ، واما الاستمرار عليها .

وقد أوضـــح مينو فى ندائه الى جيشه انه اختار المضى فى سياستـــه الاستعمارية حتى تأتيه أوامر صريحة فى هذا الشأن من فرنسا واذا كـــان الانجليز أو العثمـــانيون لهم رأى آخر فى ذلك الموضـــوع فعليهم مواصـــلة سعيهم لدى حكـــومة القنصـــل الأول فى بـــاريس . وقد استرشد مينـــو فى سياسته الداخلية طريقة انه صـــاحب الحق فى ان ينفرد بصفـــة المشرع واختصاصاته الذى يحـــق له معالجة أمهات المسائل الاقتصادية والاجتماعية فى البـــلاد ونتيجـــة لذلك وجه عنايتـــه فى بدايـــة الأمر الى الاصـــلاح الادارى ، ومراقبة كل ما يتصـــل بتموين جيشـــه ، والضرب على ايـــدى المتلاعبين بالأســـعار ، وتنظيم ماليـــة الحملة ، وضبط وسائل الاشـــراف عليها كمـــا شكل مجلســـا خاصا يضم الرؤســـاء العسكريين والمـــدنيين للنظر فى شـــئون الحملة ، ولكن الأمـــور لم تكن فى صـــالح مينو حيث جاء النيـــل منخفضـــا مما زاد من استمرار الضيـــق الاقتصادى ، كمـــا عمـــد الفلاحون بســـبب ذلك الى الفرار من قـــراهم تخلصـــا من دفع الضريبة ، يضـــاف الى ذلك أن الحصـــار الذى فرضـــه الانجليز على الشـــواطىء المصرية ومنعهم لتجـــارة الوارد والصـــادر قد زاد من ضيق الأهـــالى وتذمرهم من ادارة مينو ، وشكواهم من الضرائب (٣٧) مما ادى الى توقف النشـــاط الاقتصادى وتعطيل الانتاج .

وخـــلال تلك الفترة تعرض مصير الحملة الفرنسية لمخاطر اتفـــاق الانجليز مع العثمانيين على اخراج الانجليز من مصر عن طريق الحرب بعـــد فشلهم فى اقنـــاع مينو بالجـــلاء على مصر بالطرق الدبلوماسية فقد ارسل العثمانيون والانجليز ثـــلاث حملات على مصر لطرد الفرنسيين منهـــا تـــم توزيعها كالآتى :

١ ـــ قـــوات بحرية مشتركة يتم انزالها الى الشواطىء المصـــرية

٢ ـــ قوات عثمانية تزحف من يـــافا على الحدود الشرقية وتنزل فـــى الســـويس .

٣ ـــ قوات انجليزية تاتى من الهند .

ومعنى ذلك أن هذه القـــوات سوف تطبق على الجيوش الفرنســـية

من الشمال والشرق والجنوب مما كان له اكبر الاثر على خطط مينو واجراءاته . ومع انه كان فى استطاعة الفرنسيين تعطيل زحف الجيوش الغازية الى داخل البلاد ، فان عجز مينو ، وعدم درايته بفنون القتال ، وفشل قيادته قد ادى فى النهاية الى هزيمة الفرنسيين فى معركة « كانوب » الحاسمة تلك المعركة التى قضت على مصير جيش الشرق فى مصر والتى جاءت خسارتها فى الحقيقة مؤذنة باجلاء الفرنسيين عن مصر ، وطردهم منها فى عام ١٨٠١م فقد سقط من الفرنسيين فى هذه المعركة حوالى الالف ، وجرح منهم حوالى المائة والف [٣٨] ونتيجة لذلك بدأ الجنود الفرنسيون يرفضون اوامر قوادهم بعد ان نفد صبرهم . واستمر الزحف الانجليزى العثمانى داخل مصر حيث اقتربوا من أهرامات الجيزة ، ثم بداوا فى الزحف على القاهرة من الشمال والشرق والجنوب ، كما قطعوا كل الطرق بينها وبين البلدان المجاورة . ولما ضيقت الجيوش الزاحفة الخناق على القاهرة « عزت الاقوات وشحت زيادة على قلتها وخصوصا السمن والجبن والأشياء المجلوبة من الريف »[٣٩] وانتهى الأمر بقرار القائد الفرنسى « بليار » بتسليم القاهرة لاستحالة قواته الدفاع عنها ، على أن يتم ذلك بعد اتفاق مع الانجليز بشأن تقديم كل الوسائل التى تمكن الفرنسيين من العودة الى بلادهم بسلام .

وقد نصت شروط الاتفاق بين الطرفين على ذلك حيث تعهد الانجليز والعثمانيون بتقديم كل وسائل النقل وما يحتاج اليه الجيش المنسحب من اغذية ومؤن الى جانب اعداد السفن الحربية اللازمة لحراسة الفرنسيين فى اثناء عودتهم الى بلادهم بطريق البحر المتوسط ، كما تعهدوا أيضا بأن يحمل اعضاء لجنة العلوم والفنون الفرنسية كل ما لديهم من أوراق متعلقة ببحوثهم واعمالهم الى جانب اوراقهم الخاصة وغير ذلك من الاشياء التى يملكونها .

وهكذا حصل « بليار » على الشروط التى سبق ان قبلها كليبر فى اتفاقية العريش ، ورفضها الانجليز .

وعلى الرغم من كل ذلك فقد رفض مينو الانسحاب من الاسكندرية

وقرر تحصينها ، ولكن الانجليز شددوا حصارهم عليها ، مما اضطر مينو فى النهاية الى التسليم والجلاء عن مصر فى عام ١٨٠١م وبذلك انطوت صفحة الحملة الفرنسية كمغامرة جريئة وعادت مصر الى حوزة العثمانيين.

نتائج الحملة الفرنسية على مصر :

على الرغم من فشل الحملة من الناحية العسكرية وعلى الرغم من قصر مدتها فقد كان لها آثار عديدة من النواحى السياسية والاقتصادية والعلمية ليست على مصر فحسب بل على البلدان المحيطة بها ايضا فقد خلف الفرنسيون وراءهم آثارا عديدة غيرت من حياة الأهالى ، وشجعتهم على ترك الماضى وتفهم أنماط الحكم الحديثة والانتاج والبحث العلمى ، ومع ذلك فان عدم فهم الفرنسيين لنفسية الشعب المصرى كان السبب الرئيسى فى حدوث العديد من الاضطرابات والثورات ضدهم ، كما كان من اكبر الأسباب فى فشل تجربتهم الاستعمارية فى بلاد الشرق . وعلى الرغم من محاولات الفرنسيين استمالة المسلمين بسياستهم الاسلامية وايهامهم للمصريين بأنهم انما جاءوا الى مصر لتحريرهم من نير البكوات المماليك ، واقامة حكومة عادلة تهتدى بهدى القرآن الكريم وتسترشد بتعاليمه فانهم فوجئوا بثورات القاهرة والأقاليم ضدهم [٤٠] مما دفعهم الى تغيير سياستهم تجاه المصريين واتخاذ العنف وسيلة للتعامل معهم وفيما يلى نعرض لأهم نتائج الحملة .

اولا — الآثار والنتائج السياسية :

١ — وجهت الحملة الانظار الى أهمية موقع مصر الجغرافى مما جعلها ميدانا للسياسة الدولية ، وبابا لطريق الهند والشرق الأقصى [٤١] ومنذ ذلك الوقت ظهرت المسألة المصرية وأخذت انجلترا تتطلع للاستيلاء على مصر.

٢ — لفتت الحملة انظار اوربا الى ضعف الدولة العثمانية ، وعدم قدرتها على حماية ولاياتها ، مما شجع على دفع عجلة الهجوم الاستعمارى على البلاد العربية والاسلامية .

٣ — ظهور الصراع بين المماليك والعثمانيين حول السيطرة على زمام الأمور فى مصر مما مهد الطريق لظهور محمد على .

٤ — ظهور الوعى القومى بين المصريين المتمثل فى معارضتهم للاحتلال الفرنسى ، والقيام بالثورات ضدهم ، مما كان له ابلغ الاثر فى بلورة الشخصية المصرية واشتراكها فى معترك الحياة السياسية بعد خروج الحملة .

٥ — اشراك بونابرت للمصريين فى الحكم عن طريق الدواوين فتح امامهم الطريق لادارة شئون بلادهم بأنفسهم وايقظ الشعور الوطنى لديهم .

ثانيا : الآثار والنتائج الاقتصادية :

١ — توقفت التجارة الخارجية بين مصر وعالم البحر المتوسط وتدهورت امور مصر الاقتصادية نتيجة لحصار الاسطول الانجليزى لشواطئها ، وامتناع ورود التجارة او تصدير المحصولات الى الخارج .

٢ — ادى تحطيم الاسطول الفرنسى فى ابى قير عام ١٢١٣هـ الى اعتماد الفرنسيين على موارد مصر الاقتصادية اعتمادا كاملا بعد انقطاع سبل الاتصال بينهم وبين فرنسا ونتيجة لذلك فرضوا الضرائب التى اثقلت كاهل الأهالى مما ساعد على اضطراب أحوال البلاد وزيادة الفوضى .

ثالثا : الآثار والنتائج العلمية :

١ — لقد خلفت الحملة الفرنسية آثارا واضحة فى ميدان العلوم والفنون والتاريخ ويرجع السبب فى ذلك الى قيام العلماء الفرنسيين بالعديد من الدراسات لكشف النقاب عن تاريخ مصر القديم وآثارها ودراسة مناخها وطبيعة ارضها ونيلها ، وحيوانها ونباتها واجناسها وعادات شعوبها وغير ذلك وسجلوا كل ما كتبوه فى كتاب ضخم عنوانه **وصف مصر** Descripion De L'Egypte . وهذا الكتاب يعتبر وبحق من اكبر الموسوعات التى وضعت فى تاريخ مصر وجغرافيتها ووصف ارضها وتربتها ونيلها وترعها وآثارها وموارد ثروتها ومناخها وعادات اهلهم وتقاليدهم وتجارتهم وزراعتهم وصناعتهم ولا شك فى ان هذا الاثر العلمى كان اعظم آثار الحملة الفرنسية على مصر ، وابقاها خلودا على مر الدهور والعصور[٤٣] .

٢ — أمر بونابرت بتأسيس المجمع العلمى فى مصر Institut d'Egypte بهدف اشـــاعة العلم والعرفان ودراسة المســائل والأبحاث الطبيعيـــة والصناعية والتاريخية الخاصة بمصر ونشرها .

وقد قسم المجمع الى أربعة اقسام هى الرياضيات ، والطبيعيات ، والاقتصاد ، والآداب والفنون وكل قسم يتكون من ١٢ عضوا .

٣ — عرفت مصر الطباعة عن طريق الحملة حيث جلب بونابرت معه الى مصر آلتين للطبـــاعة بقيت احداهما بالاسكندرية وكانت تحتوى على ثلاثة مجموعات من الحروف عربية وفرنسية ويونانية وقد عمـــل عليهــــا المستشرق « مارسيل Marcel » ومعه واحد وثلاثون من المساعدين ، وقد طبع عليها أول كتاب صدر فى مصر وهو « تطبيقات فى العربية الفصحى » أما المطبعة الثانية فكانت بالقاهرة وطبعت عليها جريدة
Le Courrier de L'Egypte
لوكوربيه دى ليجبت اى « بريد مصر » وكذلك صحيفة
Le Décade Egyptien
لاديكاد اجبسين اى « العقد المصرى » وهاتان الصحيفتان تعتبران البداية الأولى للصحافة المصرية .

ولقد كان ادخال الطباعة الى مصر بمثابة نهاية لعزلتها عن اوربا [٤٣] .

٤ — كان من اهم آثار الحملة العلمية هو اكتشـــاف حجر رشــــيد الذى فك رموزه العالم الفرنسى « جان فرانسوا شامبليون » Champollin مما أدى الى الكشف عن اصول الكتابة المصرية القديمـــة والى انقشـــاع الغموض الذى كان يحيط بحياة المصريين القدماء وبتاريخهم وحضارتهم [٤٤] .

٥ — دراسة مشروع شـــق قناة تصل بين البحرين المتوسط والأحمر .

٦ — كون العلماء الفرنسيون مكتبة كبيرة فى مصر ، كما ترجموا العديد من العلوم الطبيعية والطبية .

رابعا : الآثار والنتائج الاجتماعية :

نتيجة لعدم تعرف الفرنسيين على اخـــلاق المصريين وما درجوا عليه

من أساليب الحياة القائمة على التمسك بالتقاليد الاسلامية فان ما استحدثوه من اصلاحات لم يرض عنها المصريون بل اعتبروها من البدع المستهجنة، وازداد الحال سوءا عندما تعمد الأروام والشوام واليهود جرح شعور المسلمين ، والاستهزاء بعاداتهم وتقاليدهم وفيما يلى نعرض لذلك :

١ — ارتكاب الفرنسيين للمعاصى والمخازى جهرة ودون احتشام فكانوا ياكلون ويشربون خلال الصوم وعلى مراى من المسلمين .

٢ — اعتداء ارزال الفرنسيين على حرمات المسلمين وعدم احترامهم لعاداتهم وتقاليدهم ودينهم مما ادى الى استثارة روح النخوة والشهامة بين الاهالى وثورتهم الجامحة على الفرنسيين ، وجعل اقامة الفرنسيين فى القاهرة غير محتملة .

٣ — الاستهتار بالقيم الاسلامية ، وخروج بعض الفرنسيين مع نسائهم فى الشوارع وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ، ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكاريه معهم وحرافيش العامة مما اعتبره المصريون فحشا وفجورا .

٤ — قيام الفرنسيين بهدم ابواب الحارات والدروب والأزقة لسهولة الحركة فى الشوارع ، وحرصا على سلامة جنودهم وعدم تحصن الأهالى داخلها كل ذلك أدى الى ازعاج القاهريين وتذمرهم .

٥ — ارغام الفرنسيين للاهالى على اضاءة الشوارع والأسواق والحارات والقناديل أدى الى ازدياد روح التذمر بينهم[٤٥] .

٦ — استعلاء اسافل الشوام والأروام واليهود على المسلمين وانتهازهم استخدام الفرنسيين لهم فى جباية الضرائب فى الاشتطاط فى طلب الاموال والسخرية من المسلمين وايقاعهم شتى المظالم بهم[٤٦] .

٧ — ظهور الطبقة الوسطى المصرية المتمثلة فى العلماء والتجار واختفاء طبقة الحكام العثمانيين والمماليك ساعد على حدوث تغييرات

اجتماعية هامة داخل مصر حيث قام ممثلوا الطبقة الوسطى بدور أساسى فى ادارة شئون بلادهم الداخلية بعد رحيل الفرنسيين .

خامسا : الآثار والنتائج الصحية :

١ ــ ساعد اهتمام الفرنسيين بالشئون الصحية وانشائهم المستشفيات فى وقف انتشار الأوبئة والأمراض الخطيرة وحافظ على الصحة العامة مما كان له أكبر الأثر على صحة المصريين ، كما أن قيام أطباء الحملة بدراسة مختلف الأمراض والأوبئة المنتشرة فى مصر قد ساعد فى التعرف على كيفية القضاء على هذه الأمراض (٤٧) .

٢ ــ ساعدت الاجراءات التى اتخذها الفرنسيون للمحافظة على الصحة العامة كارغام الأهالى على نشر امتعتهم وملابسهم على أسطح المنازل وفى افنائها حتى تقتل الشمس الجراثيم العالقة بها ، وارغامهم على تطهير منازلهم وتنظيفها ورشها وتبخيرها ، ومراقبة تنفيذ الأهالى للارشادات الصحية ، كل ذلك ساعد على وقف انتشار الأوبئة والأمراض الفتاكة ، وقلة الوفيات بها (٤٨) .

٣ ــ ساعد قيام الفرنسيين بالتشديد على دفن الموتى فى المقابر البعيدة عن المنازل فى وقف انتشار الأمراض والأوبئة وحصرها فى أضيق الحدود (٤٩) .

سادسا : الآثار الادارية للحملة :

١ ــ عرف المصريون ولأول مرة نظام شهادات الميلاد وذلك بقيد أسماء المواليد فى سجلات خاصة بهم .

٢ ــ انشاء الارشيفات لحفظ صور الشكاوى والمظالم .

٣ ــ محاربة التسول والشعوذة ، وتخصيص دار للمتسولين .

٤ — التبليغ عن المرضى فى حالة انتشار الأوبئة ، وفرض نظام الحجر الصحى .

٥ — انشاء الديوان واختيار أعضائه بالانتخاب[٥٠] .

ومما سبق يتضح الأثر العميق الذى احدثه الفرنسيون خلال احتلالهم لمصر فى مجالات الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع والادارة وغيرها مما كان له اكبر الاثر فى ظهور فكرة تنازع الولاء بين الفكرة الدينية القائمة على طاعة الخليفة العثمانى والفكرة القومية التى تنادى بالتحرر من التبعية العثمانية .

مراجــع الفصــل الأول

(١) محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وظهور محمد على ، القاهرة، مطبعة المعــارف ، ١٩٤٢م ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(٢) عدد ميجالون فى رســالة الى الحكومة الفرنسية مزايا الاستيلاء على مصر والسيطرة على البحر الاحمر ، واكد اهمية موقعها الجغــرافى والتجارى بالنسبة لفرنسا .

(*) محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ، القاهرة ، دار الفكر العربى ص ٣٠ .

(٣) فيشر : تاريخ أوربا فى العصر الحديث — ترجمة احمد نجيب هاشم ووديع الضبع — القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة السادسة ص ٥٣ .

(٤) حول هذا الموضوع انظر . طلال المهتار : آثار حملة بونابرت على مصر ، بيروت ، الجامعة اللبنانية ص ١٣ .

(٥) احمد حافظ عوض : فتح مصر الحديث أو نابليون فى مصر ، القاهرة، مطبعة مصر ، ص ٨٣ .

(٦) شكرى : الحملة الفرنسية وظهور محمد على ص ١٣٣ .

(٧) المهتار : المرجع السابق ص ٥٤ .

(٨) شكرى : المرجع السابق ص ١٣٥ .

(٩) حافظ عوض : المرجع السابق ص ١٢٤ .

(١٠) عبد المجيد نعنعى : اوربا فى بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة ١٤٥٣هـ — ١٨٤٨م ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٣م ص ٢٨٥ .

(11) Correspondance de l'armée d'Egypte, interceptée par l'escadre de Nelson, Paris An VIII, iv 191 — 2 .

(١٢) شكرى : المرجع السابق ص ١٦٢ .

(١٣) عوض : المرجع السابق ص ١٩٣ .

(١٤) شكرى : المرجع السابق ص ١٦٣ .

(١٥) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج ٣ حوادث يوم الجمعة خامس ربيع الأول ١٢١٣ هـ .

(١٦) شكرى : المرجع السابق ص ١٦٧ .

(١٧) الجبرتى : المصدر السابق ج ٣ ص ٤٥ — ٥٠ .

(١٨) شكرى : المرجع السابق ص ١٦٩ .

(١٩) احمد السباعى : تاريخ مكة ، مطبوعات نادى مكة الثقافى ١٤٠٤هـ ص ٤٩٠ ، واحمد عزت عبد الكريم : البحر الاحمر فى التاريخ والسياسة الدولية ، القاهرة ، ١٩٨٠ ص ٣٣٧ .

(٢٠) شكرى : المرجع السابق ص ١٧٦ — ١٧٧ .

(٢١) الجبرتى : المصدر السابق ج ٣ .

(٢٢) شكرى : المرجع السابق ص ١٩٢ .

(٢٣) شكرى : المرجع السابق ص ٢٠٨ .

(٢٤) فشر : تاريخ أوربا فى العصر الحديث ص ٥٤ — ٥٥ .

(٢٥) شكرى : المرجع السابق ص ٢٣٧ .

(٢٦) أميل الخورى وعادل اسماعيل : السياسة الدولية فى الشرق العربى من ١٧٨٩م الى ١٩٥٨م ج ١ ، بيروت ، دار النشر للسياسة والتاريخ ، ١٩٥٩ ص ١٣٠ — ١٣٦ .

(٢٧) شكرى : المرجع السابق ص ٢٨٤ .

(٢٨) الجبرتى : المصدر السابق ج ٣ حوادث ١٢١٤ هـ .

(٢٩) الجبرتى : المصدر السابق ج ٣ حوادث ١٢١٤ هـ .

(٣٠) الجبرتى : المصدر السابق .

(٣١) شكرى : المرجع السابق ص ٣٣٠ .

(32) Charles Roux : L'Angleterre et I:Expedition Française en Egypte. Caire 1925, Vol II. 52 .

(٣٣) للتفاصيل انظر الجبرتى : المصدر السابق ج ٣ ص ٩٥ — ٩٦ .

(٣٤) الجبرتى : المصدر السابق ج ٣ حوادث ١٢١٥ هـ ، وشكرى : الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ص ٢٢٤ .

(٣٥) الجبرتى : المصدر السابق ، حوادث ٢١ محرم ١٢١٥/١٤ يونية ١٨٠٠م .

(٣٦) شكرى : المرجع السابق ص ١٧٧ .

(٣٧) شكرى : المرجع السابق ص ٢٤٢ ، والجبرتى : عجائب الآثار حـ ٣ ، ص ١٤٥ .

(٣٨) شكرى : المرجع السابق ص ٤٣٨ .

(٣٩) الجبرتى : المصدر السابق حـ ٣ ص ١٩٠ .

(٤٠) شكرى : المرجع السابق ص ٥٩٧ .

(٤١) فيليب حتى وآخران : تاريخ العرب حـ ٣ بيروت ، دار الكشاف ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م ، ص ٨٥١ .

(٤٢) شكرى : المرجع السابق ص ٦٥٢ ، والجدير بالذكر أن الأستاذ زهب الشايب قد ترجم جزءا لا باس به من هذا الكتاب الى العربية .

(٤٣) جون مارلو : تاريخ النهب الاستعمارى لمصر من الحملة الفرنسية الى الاحتلال البريطانى — ترجمة عبد العظيم رمضان — القاهرة الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٦ ص ١٥ — ١٦ .

(٤٤) الهيئة العامة للآثار المصرية : شامبليون — الاحتفال بذكرى مرور مائة وخمسين عاما على رموز اللغة الهيروغيلفية ، ١٩٧٢ ، ص ٥ — ٦ .

(٤٥) الجبرتى : المصدر السابق ص ٢٠ .

(٤٦) شكرى : المرجع السابق ص ٥٩١ .

(٤٧) نفسه ص ٥٨٣ .

(48) Charles Roux : op. cit., p. 105 .

(٤٩) الجبرتى : المصدر السابق حوادث ١٦ ربيع الثانى ١٢١٣هـ .

(٥٠) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ج ١ ، القاهرة ، الانجلو المصرية ، ١٩٥٧ ، ص ١٨٥ .

الفصل الثانى

عصر محمد على

١ ـ تمهيد : النزاع على السلطة فى مصر من خروج الحملة الفرنسية حتى تولية محمد على .

٢ ـ مذبحة القلعة .

٣ ـ حروب محمد على فى الجزيرة العربية .

٤ ـ محمد على وفتح السودان .

٥ ـ محمد على وحرب استقلال اليونان .

٦ ـ حروب محمد على فى بلاد الشام .

٧ ـ محمد على وبناء الدولة الحديثة فى مصر .

اولا : محمد على والنهضة التعليمية .

ثانيا : محمد على وتكوين الجيش الحديث .

ثالثا : محمد على والزراعة .

رابعا : محمد على والنهضة الصناعية .

خامسا : محمد على والتطور التجارى .

سادسا : محمد على والاهتمام بالشئون الصحية .

سابعا : تقييم عصر محمد على .

تمهيـــــد

النزاع على السـلطة فى مصر من خروج الحملة الفرنسـية حتى تولية محمد على .

لما جـلا الفرنسيون عن مصر بقى بهـا ثلاث قـوى متصارعة وهى المماليك والانجليز والعثمانيون ، وكان ضمن افراد القـوة العثمـانية ضابطا صغيرا من ضبـاط الفرقة الألبـانية وهو محمد على الذى ظـل يرقب عن كثب الصراع الذى قام بين هـذه القوى من اجل الفوز بالسلطة والسـيطرة دون النظر الى مصـلحة الشعب المصرى الذى ظل يعانى من الفـوضى والارتبـاك والاضطراب بدرجة لم يسـبق لها مثيـل فى تاريخ مصر الحديث اذ تدهورت أحوال البلاد حتى وصلت الى الحضيض فقـد قـام المماليك باهـلاك الحرث والنسـل اينما حلوا ، وقـام العثمانيون بالسـطو على محال التجـارة والتعـدى على الأشخـاص وبخـاصة عندما يتـأخر صرف رواتب جنـودهم بسبب افلاس خزانة الـوالى . وقـد انتهى الصراع بين القـوى الثلاث بخروج الانجليـز من مصر نتيجـة لعقد صلح اميـان فى عام ١٨٠٢م بين انجلترا وفرنسا وهولندا وأسبانيا [١] .

وعلى الرغم من انسـحاب الانجليز من مصر ، فقد حاولوا أن تكون لهم ركـائز بها وبخـاصة بعد ان شـعروا باهمية موقع مصر الجغرافى، ومن هنـا حاولوا التقـرب من المماليك فقـاموا بدعوة الزعيم محمد بك الالفى الى انجلترا واتفقـوا معه على أن تسـعى الحكومة الانجليـزية لدى البـاب العـالى ليترك السـلطة له فى مصر فى نظير ان يترك لهم ادارة الاسكندرية والسـواحل المصرية ، ولكن هذه المحـاولة لم تنجح وبخـاصة ان عثمـان البرديسى وبعض زعمـاء المماليك ومحمـد على نجحوا فى افشـالها .

وبالنسـبة لموقف القوتين المملوكية والعثمـانية فقد أضعفهمـا التنـازع المستمر بينهمـا وخلال ذلك وقف محمد على فى صف الشـعب

المصرى وبخاصة عندما اشتد الأمر بينه وبين الباشا العثمانى ، واخذ يتظاهر بالعطف على الناس والتودد الى مشائخهم ولما ازدادت مخازى ومساوىء الجند الولاة التابعين للوالى ذهب العلماء والمشايخ برئاسة السيد عمر مكرم فى مايو ١٨٠٥م الى بيت محمد على وطالبوه بعزل الوالى العثمانى خورشيد باشا ، ولما سألهم محمد على عمن يريدونه واليا عليهم ؟ قالوا له : لا نرضى الا بك ، وتكون واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير ، فامتنع أولا ثم رضى ، واحضروا له « كركا » وعليه قفطان ، وقام اليه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى فالبساه له « امام قاعة المحكمة » وذلك وقت العصر ، ونادوا بذلك فى تلك الليلة فى المدينة »[٢] .

وفى اعقاب ذلك سار هؤلاء العلماء والمشايخ نحو القلعة لمطالبة الوالى العثمانى بالنزول على الولاية لمحمد على ، وقد رفض خورشيد باشا هذا المطلب بقوله انه معين من قبل السلطان ولا ينزل عن كرسيه بأمر الفلاحين ، واستمر محصورا فى القلعة حتى اضطر السلطان العثمانى أن يقر محمد على واليا على مصر فى يوليو ١٨٠٥[٣] ويامر بانهاء ولاية خورشيد باشا بعد حكم استمر ستة اشهر واربعة عشر يوما[٤] .

وهكذا كانت مبايعة الشعب لمحمد على من الأيام التاريخية المعدودة فى تاريخ الحركة القومية المصرية ، ففيها وضعت مصر لنفسها أساس حريتها واستقلالها ، وفيها اعلنت عن حقها فى تقرير مصيرها ، وفيها تجلت سلطة الامة ممثلة فى اشخاص زعمائها وذوى الراى فيها فى خلع الوالى المعين من قبل السلطان ، واسناد الحكم الى من انتخبه زعماء الشعب ووكلاؤه ، يضاف الى ذلك أن ما حدث لم يكن مقصورا على مجرد انتخاب زعماء الشعب لمحمد على بل كان مقرونا باشتراطهم ان يرجع اليهم فى شئون الدولة فوضعوا بذلك قاعدة الحكم الشورى فى البلاد ، هذا الى جانب انه تم فى دار المحكمة اى فى ساحة العدالة ، فاتخذ معنى الاحتكام الى العدالة والتمسك بالحق[٥] .

وعلى الرغم من وصول محمد على الى قمة السلطة فى مصر فان الطريق أمامه لم يكن سهلا فهناك المماليك فى الصعيد يهددون مركزه ، وهناك مشكلة عدم تمكنه من دفع رواتب جنوده المتأخرة .

وقد نجح محمد على فى تذليل هذه المشاكل بعد اقناعه للمشايخ بضرورة جمع المال اللازم كى يتمكن من وقف اعتداءات المماليك على الشعب ، وليمنع تألب الجنود عليه وخلال ذلك حدثت محاولة لنقل محمد على من ولاية مصر ، فارسلت الدولة العثمانية مرسوما يقضى بتولية موسى باشا ولاية مصر ونقل محمد على الى ولاية « سالونيك » .

وقد تظاهر محمد على بالقبول فى حين تمسك العلماء والمشايخ به ، وكتبوا التماسا الى السلطان طلبوا فيه ابقاء محمد على على ولاية مصر ، وقد وافق السلطان على طلبهم بحجة ان الخاصة والعامة راضية باحكام محمد على ، وعدله بشهادة العلماء واشراف الناس[٦] وصدرت الأوامر الشاهانية بتثبيت محمد على باشا على ولاية مصر مع الايعاز اليه أن لا يتعرض للماليك لصدور العفو عنهم وخلال ذلك ارسلت انجلترا حملة الى مصر بقيادة الميجور جنرال ماكنزى فريزر Mackenzie Fraser فى محرم ١٢٢٢هـ/مارس ١٨٠٧م بهدف تخويف الباب العالى والضغط عليه للانفصال عن فرنسا والانضمام الى عدوتيها انجلترا وروسيا هذا بالاضافة الى تأييد جماعة الألفى من المماليك الموالين للانجليز[٧] ، وبعد ان وصلت الحملة الى الاسكندرية سلمت المدينة دون مقاومة تذكر .

وفى التاسع والعشرين من مارس اتجه نحو الف واربعمائة جندى انجليزى لاحتلال رشيد وتمكنوا من احتلالها بسهولة مما اعطى للانجليز الأمان ، وتصوروا انفسهم وكانهم فى نزهة حربية وبداوا يلقون اسلحتهم وينتشرون فى شوارع المدينة ، وبينما هم على هذا الحال أمر حاكم رشيد اهالى المدينة باطلاق النار عليهم « من الأزقة والعطف وطيقان البيوت » [٨] ومن فوق اسطح المنازل فأبيد الكثيرون من افراد القوة الانجليزية ، وساد الهرج والمرج بينهم .

ولما وصـــل خبر الحملة الى محمد على اثنـــاء تواجده باســـيوط لمحاربة المماليك تلكأ فى اتخـــاذ قرار محدد فى بداية الأمر ، ثم مالبث ان اتخذ الأهبـــة للسفر ومواجهة الانجليز .

وفى أثناء ذلك ارســـل فريزر قوة اخرى الى رشـــيد للانتقـــام مما اصـــاب جنوده من هزيمة ، ولكن هذه القـــوة لم تفلح فى تحقيق اهدافها واخذت فى التقهقر الى الاسكندرية .

ولما خرجت قـــوات محمد على لمقـــاتلة الانجليز وجدت منهم ميـــلا الى عقد الصـــلح ، فدارت مفـــاوضات بين الفريقين واتفق فيهـــا على اخـــلاء ســـبيل الاسرى الانجليز فى مقـــابل الجـــلاء عن الاسكندرية(٩) ، ونتيجـــة لذلك تخلص محمد على من اكبر خطر كان يتهدده ، مما ادى الى تثبيت حكمـــه وتمكينه من الاستيـــلاء على الاسكندرية التى كانت خارجة عن ســـلطته وازدياد تقـــدير المصريين له فاصبح عزيز الجانب وصاحب الأمر والنهى فى البـــلاد يضـــاف الى ذلك علو منزلة محمد على لـــدى الســـلطان ورجـــالات الباب العـــالى الذى اصبحوا يقدرونه حـــــــق قـــــدره(١٠) .

وفى اعقاب ذلك رأى محمد على ضرورة التخلص من كافة العـــوائق التى تحـــول بينه وبين الانفراد بالحـــكم فعمل على التخلص من زعمـــاء الشعب الذين مهـــدوا له طريق الوصـــول للحكم وذلك عن طريق الوقيعة وبث روح التحـــاسد والنفـــور بينهم (١١) ، كمـــا قام بفرض الضرائب على المصريين دون الرجـــوع اليهم ، ولما عارضه السيد عمر مـــكرم فى ذلك أمر بنفيه الى دميـــاط فى اوائل رجب ١٢٢٤هـ/اغسطس ١٨٠٩(١٢) ثم انقلب على باقى العلمـــاء وقضى على قوتهم ، وحطم ارستقراطيتهم ولم يبـــق امامه من قوة تنـــافسه سوى المماليك ، فبدأ يعد العدة للتخلص منهـــم .

٢ ـــ مذبحـــة القلعـــة :

وبعد أن رحلت الحملة الانجليزية عن مصر اتت المكاتبـــات مـــن الســـلطان العثمـــانى الى محمد على بضرورة الاستعـــداد لمقـــاتلة رجالات الدعوة السلفية فى الجزيرة العربية .

وقد بذل محمد على جل جهوده فى تجهيز الحملة ، وبدأ يتفقد امور الاعداد لها ، وبعد أن سافر الى السويس فى أواخر يناير ١٨١١م لتفقد الأعمال التى تعمل فى مرفأها وليشاهد نزول بعض السفن الى البحر اضطر للعودة الى القاهرة مسرعا بعد ان ضبطت مكاتبات بين امراء المماليك فى الوجه القبلى ونظرائهم فى القاهرة للاطاحة به وهدم سلطانه [١٣] لذلك راى ان المسألة بينه وبين زعماء المماليك اصبحت مسألة مصير وانه يستحيل أن يرسل قواته الى الجزيرة العربية قبل ان يتخلص منهم نهائيا فدبر مذبحة القلعة فى اول مارس ١٨١١م فأذاع انه سيلبى نداء السلطان ويرسل حملة الى الجزيرة العربية ، ودعا الأمراء وكبار العسكر والأعيان للحضور بملابسهم الرسمية للمشاركة فى تقليد ابنه طوسون رياسة الحملة ، فجاءوا الى القلعة راكبين الجياد المطهمة ومرتدين الثياب الحريرية المزركشة وعلى رءوسهم العمائم الضخمة المرصعة بالجواهر وبينما كان امراء المماليك سائرون وسط الموكب الى « باب العزب » [١٤] بدأ الموكب فى الانحدار من أعلى القلعة وسط ممر وعر تحيط به الصخور من كل جانب وخلال ذلك أمر « صالح فوج » قائد قوات الالبان باغلاق الباب الحديدى الكبير ثم اعطى أوامره لعساكره بتسلق الصخور بعيدا عن الممر الوعر ، والاستعداد لاطلاق النار على المماليك . ولما وصل المماليك الى الباب الحديدى وجدوه مغلقا ، فحاولوا التقهقر الى الخلف ، ولكنهم لم يتمكنوا لضيق الممر ، ولأن خيولهم كانت تسير فى نظام خلف بعضها ، واثناء ذلك انهمرت النيران عليهم من كل جانب ، فارتبكوا وبدأوا يتساقطون من فوق جيادهم وسالت الدماء، واصبحت القلعة ميدانا للذبح والقتل ، وتكدست الجثث فى الممر الضيق وبعدها قطعت رءوس امراء المماليك ليراها الباشا وسحبت اجسادهم بالحبال ، ولم ينج من هذه المذبحة سوى مملوك واحد هو « أمين بك » الذى كان قد تأخر لظرف طارىء فلم يلحق غير الصف الأخير ولما سمع صرير الباب الحديدى وهو يغلق ودوى الرصاص رجع بجواده الى داخل القلعة واخذ يبحث عن منفذا للهرب فلم يجد امامه الا اسوارا ارتفاعها حوالى عشرين مترا فجرى بجواده الى قمة عالية ثم استنفر

الحصـــان فوثب به فى الهـــاوية التى تحت قدميه فتهشم الجواد ، واصيب امين بـــك باغماء وكســـور ، افاق منها بسرعة وهرب الى اقليم الشرقية ومنها الى خارج مصر [(١٥)] .

ونتيجـــة لهذه المذبحة استطاع محمد على ان يتخلص من اربعمائة وسبعين مملوكا من زعمـــاء المماليك .

وبعد هـــذه المذبحة امر محمد على جنوده بسلب قصـــور المماليك وقتل ابنـــائهم والاعتـــداء على نســـائهم كما أمر بادخـــال بعض ابنـــائهم فى خدمته ، وأجرى الارزاق على نســـائهم وزوج بعضهن لضباطه واتباعه، وبذلك قضى محمد على على كل اثر للمماليك فى مصر الى غير رجعة .

وقد برر محمد على هذه المذبحة امام البـــاب العـــالى بأنها كانت ضرورية قبـــل قيامه بالحملة على الجزيرة العربية وبخـــاصة انه كان يخشى من قيام المماليك بالاطاحة به بعد تحرك قواته الى الحجاز [(١٦)] .

وعلى اى حـــال فقد اختلف المؤرخون والباحثون فى تقييمهم لهـــذه المذبحة فمنهم من قال انهـــا كانت نقطـــة سوداء فى تاريخ محمد على ذلك الحـــاكم التركى الذى لا يحجم عن اى شىء فى ســـبيل مصلحته واغراضه الشخصـــية ومنهم من قال انهـــا كانت ضرورية لاستقرار البلاد وسلامتها بعد أن عاث المماليك فى ارض مصر فســـادا دون اى رادع او واعز فـــى ضمير أو شرف ، وانه كان لابد من التضحية بهم فى ســـبيل بناء حكومة مستقرة فى مصر وصفوة القول ان مجزرة القضاء على المماليك على الرغم مما فيها من غدر وسفك دماء واخذ البرىء بجريرة المذنب فانها كانت لا مفر منها لمحمد على اذا شاء أن يدعم اركان سلطانه فى مصر .

٣ — حروب محمد على فى الجزيرة العربية :

بعد أن فشـــلت الدولة العثمـــانية فى مواجهة رجالات الدعـــوة الســـلفية عن طريق ارســـال ولاة الشـــام والعراق لمحـــاربتهم طـــلب السلطان مصطفى الرابع من محمد على والى مصر القيـــام بهذه المهمة على أمل اعـــادة السيادة العثمـــانية على الحجاز ، ويبدو ان محمد على لـــم يكن راغبـــا فى القيام بهذه المهمـــة فى بداية الامر حيث تذكر الوثائق ان محمد على كان يمـــاطل فى تنفيذها ويتلكا فى ارســـال هذه الحملة بحجـــة

ســـوء احـــوال مصر الاقتصادية التى لا تمكنه من الاعداد لهذه الحـــرب ورغبة فى قيـــام الدولة العثمـــانية بامداده بالاخشـــاب التى تمكنـــه من انشـــاء السفن اللازمة لعبـــور البحر الاحمر ، وامداده بالذخائر والمهمات التى تمكنـــه من خوض المعركة (١٧) ونتيجة لتكرار مطلب الدولة العثمانية، وخشية من ان يستثير محمد على غضب الســـلطان العثمانى اضطر الى ان يصـــدر اوامره بارســـال الحملة تحت قيادة ابنه احمد طوســـون .

وفى الثالث من سبتمبر ١٨١١م ابحرت قوات محمد على من السويس الى ينبع ومنهـــا اتجهت نحـــو المدينة المنورة ، وقد استولت هذه القوات فى طريقها على قريتى « بدر » « والصفراء » الا ان رجالات الدعـــوة وقفوا لهـــا بالمرصـــادعند « الحديدة » وكادوا يقضون عليها مما اضطرها للتراجع الى « ينبع » وقد وصف انجبرتى ذلك بقوله « انهزموا جميعـــا وولوا الأدبار وطلبوا جميعا الفرار » (١٨) .

ونتيجـــة لتحرج موقف قوات طوســـون باشا قام محمد على بتعزيز قـــواته ، كما عمل على ضـــم بعض القبائل الى صفـــه مما أدى فى نهاية الأمر الى نجـــاح قوات طوســـون فى الوصول الى مكة وجدة .

وفى اواخر عام ١٨١٣م ســـافر محمد على الى الحجاز لتولى القيادة بنفســـه ، وخلال ذلك منيت قواته بهزيمة منكرة عند بلدة « تربة » بالقرب من الطـــائف (١٩) ولكنها سرعان ما استطاعت تحقيق انتصارا كبيرا فى « بسل » (٢٠) .

وخشـــية من تطور المـــوقف ضد محمد على فى مصر ، وما تـــردد حـــول هروب نابليون من منفـــاه فى « البـــا » عاد محمد على الى مصر . ونظـــرا لتدهور احوال قوات محمد على فى الحجاز ونتيجة لفشل طوسون فى الامســـاك بزمام الموقف جمع محمد على قـــواده ورجال الحكم والسلطة واعرب لهم عن رغبته فى اختيـــار قائد جديد للحملة بدلا من طوسون وخلال ذلك أمر ببســـط احدى الطنافس الكبيرة فى قصره ووضع فى وسطهـــا تفـــاحة ، وقال ان الذى يتنـــاول التفاحة بيده ، ويقدمها لى دون أن يمس الســـجادة اكلفه بقيـــادة الحملة ، فاخذ الحاضرون يتطاولون على التفاحة

بلا جــدوى الى ان جــاء دور ابراهيم وكان قصير القامة ، فلم يزد على انه تنــاول طرف الطنفســـة بيده ، وطواها الى انوصل الى التفــاحة فتنــاولها واعطاها لابيه فولاه قيادة الجيش [٢١] وبعد ان وصـــل ابراهيم باشــا الى بلاد الحجــاز بدأ فى بنــاء الحصون ، كما عمل على جـذب البدو اليه فدفع لهم رواتب منتظمـــة وهدايا مما مكنه من جذب اكبر عدد من القبائل البدويـــة اليه ، وبعد ذلك بدأ فى زحفه صوب نجد وتمكن فى نهــاية الأمر من الوصول الى الدرعية واســـقاط الدولة السعودية الأولى فى عام ١٢٣٣هـ سبتمبر ١٨١٨ .

وعند تحليلنا لأسباب الصـــدام العســـكرى بين الدولة العثمـــانية والدولة السعودية الأولى يتضح ما يلى :

١ ـــ انه كان هنـــاك سوء فهم للدعـــوة من قبل العثمـــانيين فبعد أن احدثت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فزعا لدى مناهضيهـــا حاولوا مقـــاومتها فشـــنوا عليها حربا نفســـية وفكرية لا هوادة فيهـــا بهدف ابعـــاد المســـلمين عنها فذكروا ان رجـــالات الدعوة عطلوا ســـبل الحج الى الحرمين الشريفين والحقيقة ان اتبـــاع الدعوة لم يمنعوا احدا من الحج الا اذ كان مخالفا للطرق الشرعية[٢٢] .

٢ ـــ انه على الرغم من الصـــدام بين العثمانيين واتباع الشـــيخ محمد بن عبد الوهاب فانه لم يعلن أحد من الامراء السعوديين الخروج على دولة الخلافـــة او اعلان الخلافة على المســـلمين كما ادعى بعض اعـــداء الدعـــوة وجعل السلطان يرسل الجيوش لمحاربتها .

حقيقة لقد بـــايع الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب الامـــير محمد بن ســـعود على الامـــارة ، ولكنه لم يبايعه على الخلافة العـــامة للمسلمين والدليل على ذلك أن الأمراء السعوديين ظلوا ينعتون السلاطين العثمـــانيين فى مراسلاتهم بالخلفاء والسلاطين فى الوقت الذى كانوا ينعتون فيه انفســـهم بالتابع المخلص للسلطان [٢٣] .

وعلى كل حـــال فقد عم الفرح والســـرور عاصمة الدولة العثمانية بعد سقوط الدرعية [٢٤] كمـــا كافأ السلطان العثمانى ابراهيم باشا على

هذا الانتصـــار بتعينه واليا على الحجاز ، ونتيجة لهذا الانتصار وعـــودة ابراهيم باشا الى القـــاهرة فى ٢٢ صفر ١٢٣٥هـ الموافق ٩ ديسمبر ١٨١٩ بدا محمد على يعد عدته لفتح السودان .

٤ — محمد على وفتح السودان :

اختلف المؤرخون فى اســباب حملة محمد على لفتح السودان وفيما يلى نعرض لأهم هذه الآراء :

١ — اعتقـــاد محمد على بأن ارتبـــاط مصر والســـودان ضرورة هامة لتحقيق بناء دولته الحديثة .

٢ — رغبته فى مطـــاردة بقايا المماليك الفـــارين من مصر الى دنقلة لشـــعوره انهم يمثلون خطرا ضده .

٣ — رغبته فى اكتشـــاف مناجم الذهب والماس والمعادن التى اشيع تواجدها بكثرة فى الســـودان .

٤ — رغبته فى تجنيد السودانيين فى جيشـــه النظامى[٣٥] .

٥ — سعيه الى اكتشاف منابع النيل .

٦ — توسيع نطـــاق المعاملات التجارية بين شطرى الوادى .

٧ — رغبته فى التخلص من بقايا جنوده الألبان والارناؤد وغـــيرهم من الفرق غير النظامية التى كانت تقض مضاجعه ، وتعيق عملية تحديث الجيش التى ينشـــدها ونتيجة لذلك بدا محمد على فى اعداد الحمـــلة فى يونيو ١٨٢٠م وتوغلت قواته فى الســـودان دون أن تجد مقـــاومة تذكر مع أن هذه الحمـــلة لم تحقق أطمـــاع محمد على فى الحصول عـــلى مناجم الذهب ، وفى اتســـاع نطـــاق العمليات التجارية ، وفى تجنيد السودانيين، فقـــد اهتم الباشـــا بتأسيس مدينة الخرطوم عند ملتقى النيـــل الأزرق بالابيض وادخال الزراعات المصرية الى السودان [٣٦] كما اهتم بارسال البعثـــات العلمية ، واصـــلاح الادارة والغـــاء تجـــارة الرقيق ونشـــر الأمن والحضارة .

٥ ـــ محمد على وحرب استقلال اليونان :

بعد أن قامت الثورة فى بلاد اليونان ضد الحكم العثمانى فى ١٨٢١ بتشجيع من الدول الأوربية وبخاصة الروسيا ارسلت الدولة العثمانية جيشا بقيادة خورشيد باشا لقمعها ، ولكنه منى بالفشل مما جعل السلطان محمد الثانى يفوض محمد على أمر القضاء على هذه الثورة فى نظير اضافة باشويتها اليه .

وعلى الرغم من أن بلاد اليونان لم تكن مطمعا لآمال محمد على فى اى وقت من الأوقات فانه حاول اقتناص الفرصة ليثبت للعالم مدى تعاظم قواته العسكرية وقدرتها على مساندة السلطان فى ميادين القتال .

وفى عام ١٨٢٥ أرسل محمد على قواته بقيادة ابراهيم باشا الى ارض المورة [٢٧] واستطاعت بعد عدة محاولات النزول الى بلاد اليونان، وضرب الحصار على منطقة نفارين Navarine وتمكن من اسقاطها ودخول قواته اليها فى الثامن عشر من مايو ١٨٢٥ [٢٨] ونتيجة لذلك خشيت الحكومات الأوربية من عواقب انتصار القوات المصرية ، وبدأت القضية اليونانية تستحوذ انتباه الراى العام الأوربى ، وبينما كانت الحكومات الأوربية تتهم ابراهيم باشا بخرق حرمة قوانين الحرب كان القائد المصرى يصلى اليونانيين نارا حامية ، حتى سقطت مسولنجى Missolonghi فى الثامن والعشرين من ابريل ١٨٢٦م وفتح بذلك الطريق الى اثينا [٢٩] مما جعل الدول الأوربية تتدخل فى الأمر ، فقامت اساطيلها بمظاهرة بحرية مشتركة لايقاف القتال واجبار السلطان العثمانى على اخلاء المورة ، وكانت الروسيا اكثر الدول الأوربية رغبة فى التدخل العسكرى ضد قوات محمد على ، وفى السادس من يوليو عام ١٨٢٧م اتفقت انجلترا وفرنسا والروسيا فى معاهدة عقدت بلندن على فرض هدنة حربية بين الطرفين ، ومع ان ابراهيم باشا احترم الهدنة ، فان اليونانيين قاموا باستفزاز قواته مما اضطر القوات

المصرية الى الرد عليهم ونشوب معركة بحرية بين اساطيل الدول الأوربية والاسطولين المصرى والعثمانى فى العشرين من اكتوبر ١٨٢٧م انتهت بتحطيم الأسطول المصرى الناشىء وفقدان حوالى ثلاثين الف جندى [٣٠] .

ولما رأى محمد على أنه لا فائدة من استمرار القتال وشعر بالمخاطر التى يمكن أن تسببها الدول الأوربية له تم الاتفاق بينه وبين قائد الاساطيل الأوربية المتحالفة على سحب قواته من المورة ، وتبادل الاسرى بين الطرفين [٣١] ونتيجة لذلك ارسل محمد على ابنه ابراهيم يامره بالجلاء عن المورة دون انتظار لأوامر السلطان ، فسحب ابراهيم قواته وترك الباب العالى وحيدا مما احرج موقفه .

ومع أن خسارة مصر كانت فادحة فى هذه الحرب من الناحية العسكرية فان مكاسبها السياسية كانت كبيرة [٣٢] فقد فاوضت الدول الأوربية لأول مرة مصر دون وساطة الدولة العثمانية مما اكسب مصر منزلة معنوية كبيرة ، كما أن هذه الحرب كانت أول حرب يخوضها الجيش المصرى فى أوربا ويثبت من خلالها قدرته على مواجهة الموقف ، ويؤكد فيها تمتعه بأساليب الحرب الحديثة وفنونها .

وعلى كل حال فقد اشتد ضيق السلطان من محمد على لتفاوضه مع الدول الأوربية دون اذنه ، وسحب قواته دون الرجوع اليه ، كما بدأ محمد على يراجع خطته تجاه الباب العالى الذى لم يكافاه على خدماته رغم تحطيم اسطوله ولم يمنحه سوى حكم جزيرة كريت مما جعله يفكر جديا فى الاستيلاء على بلاد الشام وتوسيع رقعة املاكه على حساب الدولة العثمانية .

٦ — حروب محمد على فى بلاد الشام :

من المعروف أن بلاد الشام كانت مطمح انظار محمد على منذ حروبه فى الجزيرة العربية فقد طلب من السلطان اضافة منصب ايالة الشام الى منصب والى مصر مبررا ذلك بامكانية الحصول على الاخشاب وجمع الجنود من هناك ولكن طلبه كان مصيره الاهمال . ولما قامت

حرب المورة كرر محمد على طلبه بحجة تعويضه عما تكبده الجيش المصرى من خسائر فى هذه الحرب ، ونظرا لرفض السلطان لهذا الطلب للمرة الثانية حاول محمد على ضم هذه البلاد بالقوة مستغلا فى ذلك انهماك الدول الأوربية فى مسائلها الداخلية وانشغال الدولة العثمانية بالثورات الداخلية وحروبها المتعددة التى خرجت منها منهوكة القوى .

وقد تزرع محمد على فى ذلك بنزاعه مع عبد الله باشا الجزار والى صيدا الذى رفض تسليم آلاف الفلاحين المصريين اللاجئين اليه[٣٤] . وعدم وفائه بدين عليه ، وابتزازه لأموال بعض التجار المصريين واستيلائه على تجارتهم فى بلاد الشام [٣٥] ومن هنا قام بارسال حملته لتأديبه فارسل طلائع جيشه الى عكا فى ١٤ من اكتوبر ١٨٣١م فاستولت فى طريقها على يافا وحيفا دون مقاومة تذكر وفى الثامن من ديسمبر من نفس العام ضربت الحملة المصرية حصارها حول عكا وارسل ابراهيم باشا انذارا الى واليها يطالبه فيه بتسليم قلعة المدينة حقنا للدماء ، ونتيجة لرفض عبد الله باشا لهذا الانذار أمر ابراهيم باشا بضرب عكا بالقنابل من جميع الجهات [٣٦] .

ونظرا لفشل المحاولات التى بذلتها السلطنة العثمانية لتسوية المشكلة طلب السلطان من والى حلب اعداد العدة لمحاربة محمد على مما أدى الى تحرج الموقف وجعل ابراهيم باشا يتحرك بجزء كبير من قواته لمواجهة الجيوش العثمانية قبل وصولها الى عكا ، وقد نجح ابراهيم باشا خلال حروبه مع القوات العثمانية فى انتزاع طرابلس منهم وتعقبهم فى حمص وهزيمتهم فى سهل الزراعة مما أوقع الاضطراب فى صفوفهم والجاهم الى الفرار [٣٧] وبعدها واصل ابراهيم باشا حصاره لعكا حتى سقطت قلعتها فى السابع والعشرين من مايو ١٨٣٢[٣٨] وكان ذلك بداية لانتصارات ساحقة لقوات ابراهيم باشا حتى تم له الاستيلاء على بلاد الشام كلها والوصول الى الحدود الفاصلة بين المتحدثين بالعربية والمتكلمين بالتركية فقد تقدمت القوات المصرية بسرعة هائلة داخل بلاد الشام واحتلت دمشق وانزلت الهزائم بالجيش العثمانى بالقرب من حمص وواصل ابراهيم باشا تقدمه فدخل حلب ثم التقى مع القائد العثمانى حسين باشا فى معركة فاصلة عند مضيق

بيلان والحق به الهزيمة [٣٩] وبعدها تقدمت قواته داخل الأناضول وهزمت القوات العثمانية فى « قونية » فى نوفمبر ١٨٣٢م ثم مضى ابراهيم باشا فى زحفه تجاه كوتاهيه فوصلها فى الثالث من فبراير ١٨٣٣م واصبح الطريق الى الآستانة مفتوحا امامه مما أزعج الدول الكبرى فابدت روسيا قلقها من هذهالانتصارات كما ابدت استعدادها لمساندة الدولة العثمانية ولما ترددت الأخبار بأن القوات الروسية قد ابحرت لنجدة السلطان العثمانى محمود انزعجت انجلترا وفرنسا التى وجدتا ان تدخل روسيا يمثل خطرا كبيرا يهدد التوازن العام فى اوربا ، ورات الدولتان وجوب اتخاذ اجراء سريع للحيلولة دون وصول النفوذ الروسى الى الآستانة فقابل قنصلا انجلترا وفرنسا فى مصر محمدا عليا ونصحاه بضرورة وقف زحف جيوشه والتفاهم مع السلطان . كما اوضحت الحكومة البريطانية لمحمد على اصرارها على ضمان استمرار كيان الدولة العثمانية وعدم تفككه [٤٠] مما جعل محمد على يرسل الى ابراهيم باشا أمرا بان يتوقف زحفه حيثما كان » وانتهى الأمر بصلح كوتاهية الذى نزل فيه السلطان لمحمد على عن كريت وسورية ماعدا اطنة وبعد قبول السلطان العثمانى لصلح كوتاهية فى مايو ١٨٣٣ بدات آمال محمد على فى تكوين دولة مستقلة تمتد حدودها الى اقصى بلاد الشام شمالا تبدو واضحة للعيان ، خصوصا وان امتلاك الشام يحميه من تربص السلطان به ، ويستر جناحه الأيمن ، ويمنحه السيادة على بيت المقدس حصن الأديان الثلاثة ، ويعطيه دمشق احدى المدن العامرة بالثقافة الاسلامية ، كما يوفر له معظم حاجياته الاقتصادية [٤١] .

ولما فاتح محمد على الدول الكبرى بشأن تطلعاته هذه عارضته انجلترا اشد المعارضة ، وحذرته من عواقب هذه الخطوة وهددته باستخدام القوة ضده اذا تمسك برأيه [٤٢] وقد استغلت الدولة العثمانية ذلك الموقف ، وبدات فى استفزاز محمد على والتحرش بقواته المرابطة فى بلاد الشام ، وترقب الفرصة السانحة للانتقام منه . ولما كانت الحرب واقعة لا محالة بين الطرفين فقد بدات القوات العثمانية تستفز القوات المصرية ، وتغير على مواقعها ، كما بدأ محمد على يطالب

السلطان محمود الثانى بأن يكون حكم مصر والشام وراثيا فى ذريته مما أغضب السلطان ، وجعله يسرع باعلان الحرب عليه فبعثت الدولة العثمانية الى بلاد الشام جيشا كبيرا فى عام ١٢٥٥هـ تحت قيادة حافظ باشا وذلك لمقاتلة القوات المصرية وطردها من هناك ، ونتيجة لذلك زحف ابراهيم باشا بقواته حيث تجمع الجيشان بالقرب من سهل « نزيب » وهناك تم الاشتباك بينهما فى الحادى عشر من ربيع الثانى ١٢٥٥ هـ الموافق الرابع والعشرين من يونيو ١٨٣٩م فى معركة حامية انتهت بهزيمة القوات العثمانية ، وفتحت أبواب عاصمة الخلافة على مصراعيها لاستقبال الجيوش المصرية المنتصرة ، مما ازعج الدول الأوربية ودفعها الى التدخل بكل ثقلها فى المسألة لانقاذ الدولة العثمانية من السقوط حتى لا يتعاظم نفوذ محمد على الى الحد الذى يضعف نفوذها فى المنطقة ، وقد تزعمت انجلترا هذه الحركة ضد محمد على وطلبت من السلطان العثمانى الا يبرم اى اتفاق مع محمد على ما لم توافق عليه الدول الكبرى [٤٣] . وفى أعقاب ذلك بدات انجلترا وفرنسا تعملان على ايجاد المصاعب أمام قوات محمد على فى بلاد الشام فشجعت الأهالى على العصيان وامدوهم بالسلاح للوقوف ضدها [٤٤] وفى أعقاب ذلك بدأت انجلترا فى التشاور مع الدول الأوربية بهدف العمل على اخضاع محمد على للسلطان وانتهى الأمر بعقد معاهدة لندن فى الخامس عشر من يوليو ١٨٤٠ والتى تضمنت أن يعرض السلطان على محمد على حكومة مصر وراثية له ولابنائه من بعده ، وحكم عكا طوال حياته ، ويحرمه من السيطرة على الجزيرة العربية ، وسورية ، وكريت فى نظير أن يكون له الاستقلال الداخلى بمصر فى ظل قيود معينة مثل دفع الأموال المربوطة على مصر للآستانة سنويا وعدم تمثيل مصر فى الخارج وتحديد الجيش والأسطول وسلطة منح الألقاب وصك النقود ، فاذا لم يقبل هذه الشروط فى مدة عشرة أيام تنقص من حقوقه ولاية عكا ، واذا تأخر عشرة ايام أخرى ولم يقبل ما عرض عليه فللسلطان

الحـــق فى اتخـــاذ اى طريق تشير به عليه مصـــالحه الخاصة ونتيجـــة لرفض محمد على لهذه الشروط فى الأيـــام العشرة الأولى ضـــاعت منـــه ولاية عكا ، ولما بدأ العد التنـــازلى للأيام العشرة الثانية ، ولم يجد محمد على المســـاندة من فرنسا او غيرها قبل شروط الدول الكبرى (٤٥) ، وعلى اثر ذلك صدر فرمان ١٨٤١ واهم شروطه .

١ ــ ان يعطى محمد على ولاية مصر وتكون وراثية فى اسرته .

٢ ــ ان يتولى حكم مصر بعد وفاة محمد على اكبر افـــراد اسرته ســـــنا .

٣ ــ تحجيم عدد الجيش المصرى بحيث لا يزيد عن ١٨ الف جندى.

٤ ــ قيام مصربدفع مبالغ سنوية للدولة العثمانية مقـــدارها ٣٢٠ الف جنيـــه .

ومما سبق يتضح ان هذه التســـوية لم تكن اجراء داخليـــا بين السلطان ومحمد على وانمـــا كانت تســـوية دولية نجحت الدول الكبرى فيها فى تحطيم آمال محمد على فعـــادت مصر الى حدودها القديمة باضافة السودان اليها ، كما اهملت مشروعات محمد على الاقتصادية والعمرانية.

٧ ــ محمد على وبناء الدولة الحديثة فى مصر :

اختلف المؤرخون فى تقـــدير اعمال محمد على بين مـــادح وقـــادح فمنهم من راى فيه الرجل الذى اسس مصر الحديثة ، وجعل منهـــا بلدا يسير فى ركب الحضارة والمدنية بعد ان كانت عبارة عن ضيعة تـــابعة للدولة العثمـــانية يتعرض اهلها لأفدح الأعبـــاء واشـــد المظالم . ومنهم من نظر اليه بمنظـــار اســـود قاتم وحط من قيمة جهوده واصلاحاته ورأى فيه الرجل المســـتبد الذى استأثر بكل السلطات من اجل مصـــلحته ، ومصلحة اسرته الشخصية وتحقيقا لأهدافها .

وحين تختلف الآراء حول شخصـــية معينة ، فلا يجد المؤرخ مناصا من الرجوع الى كتابات المعاصرين لهذه الشخصية حتى يتعرف منها على

حقـــائق الأمور ، ويستقى منها المعلومات التى تســـاعد على الوصـــول الى الحقيقة ومن هنا فقد اعتمدنا على جل المصـــادر التى عاصر أصحابها فترة حـــكم محمد على ، لتروى لنـــا أحوال مصر فى تلك الفترة بمثاليهـــا ومشاربها دون أى تحامل أو محـــاباه .

وقد اتضح لنا منها ان محمد على اقبل على اصـــلاح احوال مصر التعليمية والعسكرية والاقتصادية ، وغيرها وبذل كل الجهود من اجـــل تحقيق ذلك لاعتقاده ان مصر ليست الا ملكا خاصا له ولاسرته وفيما يلى نعرض لذلك .

أولا — محمد على والنهضة التعليمية :

على الرغم من ان محمد على لم يتعلم القراءة والكتابة الا بعـــد ان تجـــاوز الأربعين من عمره ، وبالرغم من ان التعليم فى مصر قبل عهـــده كان قد انزوى فى اروقة الازهر وصحـــون بعض المساجد وابنية الكتاتيب واقتصر على اتقـــان الأحكام الشرعية والاعتقادية [٤٦] فقد وجه محمد على جل اهتمامه الى التعليم فى مصر بكافة مراحـــله متبعا فى ذلك احدث نظم التعليم الأوربية فى ذلك الوقت حيث أيقن ان بنـــاء الدولة الحـــديثة التى ينشـــدها يحتاج الى جيش قوى لا تكتمل كفاءته الا على الأســـاليب الحربية الحديثة التى تقوم على العلم والمعرفة ، وبنـــاء الدولة الحديثـــة التى ينشدها يحتاج الى أعداد من المهندسين والأطباء والمعلمين والمترجمين ونتيجة لذلك رأى محمد على ضرورة تـــأسيس المدارس المتخصصة للوفاء باحتياجات حكومته من المتخصصين وتوفير متطلباتها من الموظفين كما قام بايفاد البعثات العلمية فى مختلف التخصصات الى الخارج [٤٧] وامر بترجمة العديد من الكتب الأجنبية الى التركية والعربية فى قسم ملحق بمكتبة بالقلعة ليسهل الافادة منها [٤٨] . وبهذه الوسائل الثلاث حاول محمد على ان ينقل الغـــرب الى مصر ليحقق أهدافه فى بنـــاء الدولـــة الحديثـــة . ولكنه لم يحـــاول أن ينقـــل مصـــر الى الغرب بل احتفظ لها بتراثها وتقاليدها الشرقيـــة وان كان قـــد مزجهـــا بحضـــارة الغـــرب وعلومه ، وبذلك أوصـــل حاضرها بغابرها واقـــام النهضـــة المصرية الحـــديثة على أسس مزجت بين التطور فى العالمين الشرقى والغربى [٤٩] .

والجدير بالذكر ان التعليم الحديث وجد من المصريين اعراضا فى بداية الأمر ، وبخاصة ان التلاميذ كانوا يعيشون فى المدارس بعيدا عن أهلهم[٥٠] ولكن ذلك لم يستمر طويلا فبعد ان راى الأهالى ان خريجى هذه المدارس يتقلدون المناصب الحكومية ويتقاضون المرتبات الكبيرة ، ويرتدون الملابس الجيدة اقبلوا على تعليم أولادهم .

فيما يلى نعرض لمراحل تطور التعليم الحديث فى عصر محمد على :

المرحلة الأولى ١٨١١ — ١٨٣٦م :

بدأ محمد على فى هذه المرحلة بانشاء المدارس العالية والخاصة والمدارس الحربية وكذلك المدارس الابتدائية[٥١] التى وصل عددها خلال هذه المرحلة سبعة وستين مدرسة [٥٢] وفى هذه المرحلة ايضا قام محمد على بارسال البعثات العلمية الى أوربا وبخاصة ايطاليا وفرنسا [٥٣] .

والمتتبع لحركة تطور التعليم خلال تلك الفترة يلاحظ ما يلى :

١ — ان المدارس كانت تابعة لديوان الجهادية وكان الغرض الأساسى منها حربيا بالدرجة الأولى .

٢ — ان نظام التعليم لم يكن مركزيا ، بحيث كان كل مدير مدرسة يضع اللوائح التى يراها مناسبة لمدرسته .

٣ — اهتمام الحكومة بتخريج الموظفين بغض النظر عن جنسياتهم جعل العنصر المصرى بين الطلاب ضعيفا .

٤ — سيطرة النفوذ الايطالى الثتاق على هذه المرحلة حيث كانت الايطالية هى أولى اللغات التى درست بالمدارس المصرية ، وكانت أولى البعثات الى أوربا توفد الى ايطاليا .

٥ — قيام الأجانب بالتدريس فى هذه المدارس [٥٤] .

المرحلة الثانية ١٨٣٦ — ١٨٤١م :

بدأ التعـليم فى هذه المرحلة يصبح اكثر تنظيما حيث اصبح هنـاك ترابطا اكثر بين المدارس ، كمـا عاد الكثير من طـلاب البعثات للمشاركة فى تنظيم التعليم ببلادهم والعمل فى المصـالح والدواوين الحكومية ، والى جـانب ذلك فقد راى محمد على فصل تبعية دور العلم عن ديوان الجهادية، وتشـكيل لجنة فنية لتنظيم أمور التعليم حتى يتحقق له التنظيم الجيـد ، وهى ما اطلق عليها فيما بعد « ديوان المدارس » وقد قامت هذه اللجنـة بوضـع لائحة لكل مرحلة من مراحل التعليم فبالنسبة للتعـليم الابتـدائى اقتصرت مدة الدراسـة فيه على ثلاث سنوات وحصر الغرض منه فى امرين همـا :

١ — نشر التعليم بين الأهالى .

٢ — اعداد التلاميذ للمدارس التجهيزية .

وبالنسبة للمرحلة التجهيزية فقد انحصر الغرض منها فى أمرين :

١ — توسيع درجة التعليم بين خريجى المدارس الابتدائية .

٢ — اعداد الطـلاب للمدارس الخصوصية التى يكون الغرض منهـا اعداد الموظفين للادارات والمصـالح الحكومية المختلفة وكان عدد المدارس التجهيزية فى ذلك الوقت مدرستين واحدة فى القاهرة واخرى فى الاسكندرية ومدة الدراسة بها اربع سنوات [٥٥] .

اما عن المدارس الخصوصية والتى كان الهدف منها تكوين كوادر مهنية خاصة فسنعرض لأهمها :

اولا : المـدارس الطبيـة :

مدرسة الطب البشرى :

انشئت فى عام ١٢٤٢هـ/١٨٢٧م لتخريج اطبـاء من ابناء البلاد وكان معظم اساتذتها من الفرنسـيين والايطاليين [٥٦] وكان المترجمون ينقـلون

دروس هؤلاء الأســاتذة الى اللغة العربيــة حتى يفهمها الطــلاب ، والى جــانب ذلك قام المترجمون بترجمــة بعض كتب الطب الى العربيــة وكان باكورة ذلك كتاب القول الصريح فى علم التشريح .

مدرسة الصــيدلة :

انشــئت فى عام ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م وكان كل طلبتهــا من المصريين ، وكانت فرعا من فروع مدرسة الطب .

مدرسة الــولادة :

انشئت فى عام ١٢٤٧هـ/١٨٣٢م ، وقد التحق بها فى السنوات الأولى من حياتها الحبشــيات والسودانيات ثم انضــم اليهــا المصريات ، وكانت طالبات هذه المدرســة يدرســن العلوم الطبية المختلفة وبخــاصة ما كتب فى فن التوليد (٥٧) .

مدرسة الطب البيطرى :

التحقت بمدرســة الطب البشرى فى عام ١٢٤٦هـ/١٨٣١م وكان معظم اساتذتها من مدرســة الطب البشرى ، وقد ترجمت فى هذه المدرسة العديد من كتب الطب البيطرى والى جــانب هذه المدرسة الطبيــة كانت هنــاك مدرسة المارستان ، والمدرسة التجهيزية للطب (٥٨) .

ثانيا : المدارس الزراعيــة :

تأسست فى عصر محمد على العديد من المدارس المتخصصة فى فنــون الزراعة كان أولها «الدرسخانة الملكية» التى انشئت فى عام ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م وكان تلاميذها يدرسون المــواد الزراعيــة الى جــانب اللغتين العربيــة والفارسية ، ومدرســة الزراعة بشــبرا الخيمــة التى انشــئت فى عــام ١٢٤٨هـ/١٨٣٣م والتى كان يقوم بالتدريس فيها المبعوثون الزراعيون الذين عادوا من اوربا ، ومدرسة الزراعة بنبروه التى انشئت فى عام ١٢٥١هـ/١٨٣٦ وكان طــلابها جميعا من المصريين (٥٩) .

ثالثا : المدارس الهندسية والصناعية والفنية :

أ ـــ المدارس الهندسية :

بلغ عدد المدارس الهندســـية التى امر محمد على بانشائها خمـــس مدارس كان اولها مدرســـة المهندسخانة التى انشئت فى عام ١٢٣١هـ/١٨١٥م بعد ان راى محمـــد على قابلية لدى ابناء مصر للدراســـة فى هذا المجـــال ومما يروى عن ذلك حـــادثة وقعت فى عام ١٢٣١هـ مفـــادها « ان شخصا من أبنـــاء البلد يســـمى حسين جلبى عجـــوة ابتكر بفكره صورة دائـــرة وهى التى يدقون بهـــا الأرز ، وعمـــل لها مثالا من الصفيح تـــدور باسهل طريقة بحيث ان الآلة المعتـــادة اذا كانت تـــدور بأربعة اثوار ، فيدير هذه ثوران ، وقـــدم ذلك المثـــال الى الباشا ، فاعجبه وانعم عليه بـــدراهم ، وامره بالمســـير الى دمياط ، ويبنى بهـــا دائرة ويهندسها برايه ومعرفته .. وراج امـــره بسبب ذلك » (٦٠) .

وبعد ان راى محمد على ذلك قال ان فى اولاد مصر نجـــابة وقـــابلية للمعـــارف وامر ببنـــاء مكتب بحوش السراية لتعليم ابنـــاء البلد قواعـــد الحســـاب والهندسة وعلم المقـــاييس والمقادير ، وفى عام ١٢٣٥هـ/١٨١٩م أمر محمد على بانشاء مدرسة تسمى المهندسخانة .

اما عن اطـــول مدارس الهندســـة عمـــرا فقـــد افتتحت فى المحـــرم ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م فى بـــولاق ، ونظمت على مثال مدرسة الهندسة بباريس، وقد نجحت هذه المدرســـة فى تخريج اجيالا من المتخصصين الذين اعتمدت عليهم مصر فى نهضتها (٦١) .

ب ـــ المدارس الصنـــاعية :

انشئت المدارس الصناعية فى عهد محمد على لتعليم الشبان المصريين اصـــول الصناعة واهم هذه المدارس :

١ ـــ مدرسة الكيمـــاء :

وقد انشئت فى عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م بمصر القديمة وكان طلابها يتعلمون فيها الصناعات الكيماوية .

٢ — مدرسة المعـادن :

وقد انشئت فى عام ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م .

٣ — مدرسة العمليات أو الفنون والصنائع :

وقد انشئت فى عام ١٢٥٢هـ/١٨٣٧م وكانت تعنى فى دراستها بالناحية العملية وقد حولت فى عام ١٨٤٤م الى ورشة صناعية (٦٢) .

جـ — المدارس العلمية والفنية :

لما كان محمد على فى حـاجة الى اعداد كبيرة من المثقفين لمساعدته فى تنفيذ قيـام الدولة الحديثة فقد بـادر بانشـاء عدد من المـدارس التى يمكن أن تحقق له هذا الغرض ومن أهمها :

١ — مدرسة الادارة الملكية :

وقد انشـئت فى عام ١٢٥٠هـ/١٨٤٣م وكان طلابها يدرسون فيهـا المحاسبة ومبادىء الهندسة واللغة الفرنسـية والجغرافيا ومبادىء الترجمة.

٢ — مدرسة التاريخ والجغرافيا :

وقد انشـئت فى عام ١٢٥٠هـ وكان القصـد من انشـائها تخـريج مدرسين للتاريخ والجغرافيا فى المدارس العسكرية .

٣ — مدرسة الألسـن :

نتيجة لاعتمـاد الحركة العلمية فى عصر محمد على اعتمادا كليا على الترجمـة ، ونظرا لرغبة البـاشا فى التعرف على تراجم القـواد والملوك السـابقين ليفيد من خبرتهم وتجـاربهم ويتجنب اخطاءهم (٦٣) فقد أمـر محمد على بانشـاء مدرسة الألسـن فى أوائل عام ١٢٥١هـ/١٨٣٥م بهدف تحقيق غرضين همـا :

١ — اعداد مترجمين فى مختلف العلوم والفنون .

٢ — اعداد مدرسـين للغة الفرنسية للتدريس فى المدارس التجهيزية والخصوصية .

وقد تولى رفاعة الطهطاوى ادارة هذه المدرسة اثر عودته من فرنسا واستطـــاع بهمته أن يحقق أهدافهـــا لدرجة ان هذه المدرسة استطـــاعت تخريج العـــديد من المترجمين الذين ترجموا عصارة الفكر الأوربى للمصريين، وكانوا كما وصفهم على باشا مبارك «أطروفة مصرهم وتحفة عصرهم»[٦٤] .

ولمـــا ظهر للباشا ما لهذه المدرسة من فوائد ذات تأثير كبير فى الحركة الثقـــافية العـــامة ظل يعمل على تنميتها كما زودها بمجموعة عجيبة مـــن المترجمين فيهم اليونانى والتركى والسورى .

ومن اشـــهر المترجمين الذين عملوا بهذه المدرسة المترجم الســـورى انطون رفائيل زاخوره الذى ترجم كتاب « الأمير فى علم التاريخ والســـياسة والتدبير » للمؤلف الايطـــالى نيقولا ميكافيللى من الايطاليـــة الى العربيـــة حتى يتعرف محمد على على ما يتضمنـــه هذا الكتاب الذى ســـمع عنه ثناء متعددا من بعض الأوربيين [٦٥] ، والذى يعد ايضـــا صاحب الســـبق فى ميدان الترجمة فى تاريخ مصر الحديث فهو صـــاحب اول كتاب ترجـــم عن الفرنســـية الى العربية وطبع فى عهد الحمـــلة الفرنسية وهـــو رســـالة « ديجينت » عن مرض الجـــدرى ، وهو ايضا صاحب أول كتاب ترجم عن الفرنسية وطبـــع فى مطبعة بولاق فى عصر محمد على ، هذا الى جـــانب قيامه بوضع قاموس ايطـــالى عربى .

واحمد عاصم افندى الذى ترجم كتاب مظهـــر التقديس بزوال دولة الفرنسيس للجبرتى من العربية الى التركيـــة وقد عاشت هذه المدرســـة نحو الخمسة عشر عاما اخرجت ابانهـــا الانتـــاج العلمى الوفير ، ولكن الأمور لم تســـتمر طويلا على هذا المنـــوال فبعد وفاة محمد على ، وتولية عباس الأول الحـــكم اندثرت أحوال هـــذه المدرسة وساءت امورها ثم الغيت فى نوفمبر ١٨٤٩ [٦٦] وابعد مديرها رفاعة الطهطاوى الى السودان ليشرف على مدرسة ابتدائية فى الخرطوم .

والجدير بالذكر أن (محمد على) لم يغفل الاهتمام بالطباعة باعتبارها اهم وســـائل نشر المعرفة فارســـل نقولا مســـابكى الى ايطـــاليا ١٨١٦ للتخصص فى فن الطبـــاعة ، وقام بانشـــاء مطبعة بولاق الاميرية وجهزها



بكل لوازم الطباعة الحديثة ، واختار من علماء الأزهر طائفة للقيام بتصحيح مطبوعاتها .

والى جانب ذلك فقد اصبح ببعض المدارس العالية مطابع خاصة فكان لكل من مدرسة المدفعية بطره ومدرسة الطب بأبى زعبل ومدرسة المهندسخانة ببولاق مطبعة تتولى طبع الكتب الخاصة بها وكان بالقلعة أيضا مطبعة تقوم من وقت لآخر بطبع الكتب (٦٧) .

المرحلة الثالثة من ١٨٤١ الى نهاية عصر محمد على :

بعد أن تمت التسوية بين محمد على والدولة العثمانية عام ١٨٤٠/١٨٤١ وبدأ عهد الاستقرار السياسى وتحجيم اعداد القوات المصرية اخذ محمد على فى تسريح العديد من جنوده ، كما أغلقت العديد من المصانع المخصصة لخدمة الأغراض العسكرية على حين استمرت المدارس فى تخريج الموظفين اللازمين للحكومة ، ونتيجة لذلك تم اعادة النظر فى نظام التعليم ، وشكلت لجنة لبحث هذه الأوضاع فى ضوء الاوضاع السياسية والاقتصادية الجديدة فقامت بوضع لوائح جديدة للتعليم انخفضت بموجبها اعداد المدرس الابتدائية فأصبحت مدرسة واحدة بالقاهرة واربع بالأقاليم ، أما عن المدارس التجهيزية والخصوصية فقد ظلت كما هى وان انقص عدد طلابها وبخاصة أن حاجة الحكومة الى الموظفين قد خفت حدتها (٦٨) .

ومما سبق يتضح ان محمدا عليا اوجد نظاما جديدا من التعليم فى مصر يختلف عن النظام التعليمى الذى كان سائدا بها قبل ذلك وذلك بهدف سد حاجة الحكومة من الموظفين ومد الجيش والادارات والدواوين باحتياجاتهم من الضباط والموظفين ويتضح ان محمدا عليا اهتم بالتعليم العالى فى بادىء الأمر لانه لم يكن مرتاحا الى سيطرة الاجانب على التعليم ويريد التعجيل باحلال المصريين محلهم فارسل البعثات الى اوربا ولما عاد طلابها حلوا محل معظم الأجانب يضاف الى ذلك ان التعليم كان يتصف بالصبغة الحربية سواء فى نظام الحياة فى المدارس أو فى طريقة جمع التلاميذ لها او فى تبعية المدارس لديوان الجهادية مما أدى

الى نفور الاهـــالى من التعليم فى أول الأمر وامتناعهم عن ارســـال أولادهم الى المدارس كما يتضح ان الحكومة المصرية كانت تعتنى بالتلاميذ وتهيىء لهم السبل الكفيلة لمســـاعدتهم على اتمام الدراسـة من النواحى المادية والصحية وغـــير ذلـــك .

ثانيا : محمد على وتكوين الجيش الحديث :

عندما وصـــل محمد على الى اريكـــة الحـــكم فى مصر كان جيشـــه من الألبـــان والشراكسـة والأرمن الذين كانت تنتشر الفـــوضى بين صفوفهم، ولما كان هذا الجيش لا يمكن محمدا عليا من بنـــاء الدولة الحديثة ولا يحقق له آمـــاله العريضة الواسعة التى ينشدها ، فقد رأى ضرورة التخلص من النظـــام العســـكرى القديم ، وبنـــاء جيش حديث عن طريق الاستعـــانة بالخبراء الأوربيين . ولم يكن تكوين هذا الجيش الحديث بالأمر الهين فقـــد صادف الباشا فى طريقه صعابا عديدة نذكر منها :

١ ــ معارضـــة الباشا فى محاولاته الاولى فى اغسطس ١٨١٥ عندما أعرب لجنـــوده عن رغبته فى تدريب احدى الفرق العســـكرية على النظم الحديثة ، وقيـــام بعض الجنود بالتمرد عليه وتآمرهم للاطاحة به (٦٩) .

٢ ــ وقوف بعض العلمـــاء بجـــانب الجنود الألبان ضد رغبة محمد على فى تحديث جيشـــه بحجة القضاء على بدعة النظـــام الجديد وترديدهم للحديث الشريف « كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضـــلالة فى النـــار » .

ونتيجـــة لذلك بدا محمد على يصطنع الحذر فى معالجة الموقف فأخـــذ ينتحل المعـــاذير لتفريق الجند (٧٠) عن طريق ارســـال بعضهم على صورة نجدات لجيوشـــه فى شبه الجزيرة العربية والســـودان وابعـــاد البعض الآخر عن القـــاهرة بحجة حمـــاية الثغور الواقعة على البحر المتوسط حتى توطد سلطـــانه وفى عام ١٨١٩ بادر محمد على بجلب عدد من الســـودانيين لاحلالهم مكان جنـــوده من الألبـــان وغيرهم ، وعهد بتدريبهم الى ابراهيم اغا أحد قواده ، ولكن هـــذه المحاولة لم تفلح لذلك رأى محمد على أن يتجـــه صـــوب أوربا للاستعـــانة بالضباط المدربين على الطرق العسكرية الحديثة

فى بنـــاء جيشـــه ، وقد ســـاعده على ذلك انتهـــاء الحروب النابليونية فى أوربا ، ورغبـــة بعض الضبـــاط الفرنســـيين الخدمة فى بلاد اخرى ، وقـــد اختـــار محمد على الكولونيل سيف Seves ليشـــغل منصب المعلم الرسمى لنظـــامه الجديد وفى حـــوالى عام ١٨٢٠ بدأ محمد على فى انشاء المـــدارس العسكرية لتلقين قواته الأصـــول العسكرية الحديثة وفيما يلى نعرض لاهم هذه المدارس .

١ ـــ مدرسة المشاة العسكرية :

وقد انشئت فى عام ١٨٢٠ ووضعت تحت ادارة الكولونيل سيف واختار محمد على طلابها من ابناء المماليك ومن أفراد اسرته ليكونوا النواة الاولى من ضـــباطه وكان مكان هذه المدرســـة بالقلعة ثم انتقل الى اسوان حتى يبتعد الطـــلاب عن القاهرة ومؤثراتها من ناحيـــة ولتكون قريبة من السودان التى كان يتوقع أن تكون من مراكز التجنيد الأساسية لجيش محمد على .

وقد لقى الكولونيل سيف متـــاعب جمة خلال تدريب طـــلاب هـــذه المدرسة خصـــوصا وانهم لم يتعـــودوا على الطـــاعة المطلقة لرؤســـائهم كما انهم لم يعتـــادوا أن يتعلموا فنـــون الحرب على ايدى النصـــارى[٧١] ومع ذلك فقد ســـاعد الكولونيل سيف مؤازرة محمد على له فى تخطى هـــذه الصعـــاب وبعد ثلاث سنوات من التدريب الشـــاق تم تخريج مجموعة من الضبـــاط وصـــل عددهم حوالى ستة آلاف ضابط والى جـــانب ذلك اهتم محمد على بتدريب الجنـــود فى هذه المدرســـة وتعليمهم ، ولما كان من غـــير المعقـــول ان يختار هؤلاء الجنود من الألبـــان فقد فكر فى تجنيد السودانيين وعهد الى ابنـــه اســـماعيل ان يجمع له حشـــودا من الجنود الســـودانيين لتدريبهم على النظـــام الحديث ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح لأسباب عديدة منها انتشـــار الأمراض بين هؤلاء الجنـــود ، ونفورهم من اعباء الخـــدمة العسكرية النظامية مما اضطر محمد على الى تجنيد الفلاحين من اهـــل مصر فى جيشـــه الجديد [٧٢] وانشاء الثكنـــات لتمرينهم فى فرشوط واسوان وبنى عـــدى .

وقـــد وجد محمد على فى بـــداية الأمر مصاعب جمة فى تجنيد المصريين

خصوصا وانهم لم يتعودوا على الخدمة العسكرية قبل عصره لذلك قابل الفلاحون الانتظام فى سلك الجندية مكرهين كما قام بعضهم بسمل عيون أولادهم او بتر اصابعهم حتى يتم اعفاؤهم من التجنيد مما دفع محمد على الى ان يصدر أوامره بالقاء الأمهات اللاتى يقمن بهذا العمل فى النهر عقابا لهن[٧٣] ، وبمرور الوقت الف المصريون الجندية ، وبداوا يعتزون بالانتساب اليها ، واتسعت دائرة تجنيدهم .

٢ ـ مدرسة اركان الحرب :

تأسست فى اكتوبر من عام ١٨٢٥ بهدف تخريج ضباط اركان الحرب وتنظيم التشكيلات الفنية لفرق المشاة .

٣ ـ مدرسة البيادة (المشاة) :

وقد انشئت فى عام ١٨٣٢ وظلت قائمة الى نهاية عصر محمد على حتى الغاها عباس الأول .

٤ ـ مدرسة السوارى :

وقد انشئت فى الجيزة عام ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م وكان معظم تلاميذها من الاتراك والمماليك وقد نظمت هذه المدرسة على غرار المدارس الحربية الفرنسية ، واستمرت فى عصر محمد على حتى الغاها عباس الأول .

٥ ـ مدرسة الطوبجية (المدفعية) :

وقد انشئت فى طره عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م وكانت مواد الدراسة فيها هى المواد الحربية بالاضافة الى اللغات الأجنبية .

والجدير بالذكر ان محمدا عليا استعان فى بداية الأمر بالأساتذة الأجانب للقيام بالتدريس فى المدارس ، والعمل فى الادارات الحكومية وتدريب الجيش .

ومع ان نظام التعليم فى هذه المدارس كان اقتباسا من نظم التعليم الأوربية[٧٤] فان القسط الاكبر من اليوم الدراسى كان يخصص لتحفيظ القرآن الكريم ، وتدريس العلوم الدينية ، واللغات الشرقية .

يضـــاف الى ذلك ان (محمد على) اسس فى باريس مدرسـة خاصـــة فى عام ١٨٤٤م لطلبة البعثة المصرية كى يتعلمون فيهـــا العـــلوم الحربيـــة وغيرها على نمط المدارس العليا بفرنسا ، وكانت هذه المدرسة تحت رئاسة وزير الحربية الفرنسية[٧٥] .

هذا عن تطــور الجيش المصرى البرى وتنظيمه ، اما عن البحـــرية فى عصر محمد على فانه لم يكن فى مصر قبيـــل عصر محمد على وحتى اواخر عام ١٨٠٩ اى ســـفن حربية ، وان محمـــد على لم يشـــرع فى الاهتمـــام بالبحرية الا بعد تكليفه بخـــوض حروب الحجـــاز ، ولرغبته ايضا فى تدعيم صلاته بدول العـــالم ، وتيســـير تصدير المنتجات المصرية اليها . ونتيجـــة لذلك امر محمد على ببنـــاء بحرية مصرية فى البحر الاحمر مستغلا فى ذلـــك وجـــود ترســـانة فى بولاق كان قد انشأها الفرنســـيون اثناء تواجـــدهم فى مصر وقد جمع محمد على فى هذه الترســـانة العمال المهرة ، واستقدم صنـــاعا من اوربا كما جلب الاخشـــاب من آســـيا الصغرى وكذلك اقام الباشـــا عدة منشئات فى السويس ليجرى فى مينائها تركيب اجزاء الســـفن بعد أن يتم نقلهـــا من بولاق على ظهـــور الجمال ، وهكذا لم تكد تنقضى عدة شـــهور حتى كانت ترسانة بولاق قد انجزت صنع قطع اسطـــول صغـــير نقلت الى الســـويس [٧٦] ، كما استمرت فى انشـــاء « المـــراكب الكبـــار والصغار التى تسرح فى النيل من قبلى الى بحرى ومن بحرى الى قبلى »[٧٦] .

وفى شهر اغسطس ١٨١١ تجمع فى مينـــاء السويس ثلاث وســـتون سفينـــة متعددة الانواع والاشـــكال استطاع محمد على عن طريقها نقـــل الجنـــود والمهمات العسكرية الى الحجاز والاستيلاء على مناطقها الساحلية لتكون ارتكازا لعملياته الحربية بشبه الجزيرة العربية [٧٨] ، كمـــا كان لهذا الأســـطول الفضـــل فى تطهير البحر الاحمر من القراصـــنة الـــذين كانوا يهاجمون الســـفن ، وفى امتداد النفوذ المصرى على شواطىء البحر الاحمر.

ولم يقتصر اهتمام محمد على بالبحر الأحمـــر فحســـب بل امتد الى البحر المتوسط ، وبخاصة انه الواجهة المطلة على اوربا ، فاهتم بالاسكندرية لتكون القاعدة الرئيسية لاسطوله بالبحر المتوسط ، وعهد الى شـــاكر

افندى الاسكندرانى والى الحاج عمر بادارة ترسانة الاسكندرية كما انشأ محمد على ادارة خاصة للاساطيل المصرية وجعل اسماعيل جبل طارق أمير البحار الأول [٧٩] أول رئيس لها . وقد كان للبحرية المصرية فى البحر المتوسط دور فعال فى معاونة الجيش المصرى خلال حروبه فى بلاد اليونان ، وبعد ان قضى على هذه البحرية فى موقعة نفارين البحرية اعتزم محمد على انشاء اسطول جديد ، ووجه جل اهتمامه الى بناء ترسانة جديدة بالاسكندرية واستعان فى بنائها بالمهندس البحرى المسيو سريزى Cerisy وذلك فى عام ١٨٢٩ [٨٠] وقد تم بناء هذه الترسانة فى عام ١٨٣١ كما تم انشاء بارجة حربية ذات مائة مدفع ، وصارت ترسانة الاسكندرية من اعظم المنشئات البحرية ، كما كانت معهدا لتدريب الشبان المصريين فن بناء السفن وترميمها ولما استولى محمد على على السودان وانشأ مدينة الخرطوم عند ملتقى النيل الأبيض بالنيل الأزرق وجعلها العاصمة شيد فيها ترسانة كبيرة لبناء السفن النيلية والى جانب ذلك اهتم محمد على بالاسطول التجارى فقام بانشاء السفن التجارية لتكون الواسطة لنقل منتجاته من الموانىء المصرية الى الموانى الاجنبية .

ولتمكين ابناء مصر من فنون البحار وبناء السفن على النمط الحديث استعان محمد على بالضباط الفرنسيين فى انشاء المدارس البحرية لتدريب البحارة المصريين على السفن الحربية ، وتعليمهم فنون البحرية كما اوفد البعثات العلمية الى اوربا للتخصص فى أعمال البحرية وهندسة بناء السفن ، وليحلوا محل الفنيين الأجانب فى ترسانة الاسكندرية بعد انتهاء دراستهم .

ولتنظيم امور البحرية المصرية والاشراف على قوات الاسطول وتدريباتها انشأ محمد على ديوانا للبحرية ونتيجة لهذا المجهودات برز دور الاسطول المصرى فى حروب الشام ، فقد حاصر الاسطول المصرى عكا لمدة ستة شهور حتى سقطت عنوة فى ٢٧ مايو ١٨٣٢ [٨١] كما تمكن هذا الاسطول من تعقب الاسطول العثمانى ومنعه من تقديم المساعدات للقوات العثمانية بالشام ، وانتهى الأمر بتسليم قائد الاسطول العثمانى

أحمد باشـــا فوزى اســـطوله المكون من خمس وعشرين سفينة الى محمد على واستمرت حـــالة الأسطول المصرى فى الازدهار حتى عقدت معـــاهدة لندن ١٨٤٠ التى حرمت محمد على من بنـــاء السفن الحربية دون اذن من البـــاب العـــالى .

ومما ســـبق يتضح ان محمدا عليا قد اهتم بالبحرية المصرية منـــذ ان شرع فى حروب الجزيرة العربية وحـــرب المورة تلبية لطلب الســـلطان ، ورغم تحطيم الأســـطول المصرى فى بـــلاد اليونان فقد تمكن محمد على من بنـــاء اســـطول جديد استطاع به منـــازلة الدولة العثمانية خلال حروب الشـــام ، ولكن تدخل الدول الأوربية فى النزاع بين السلطان ومحمد على انتهى بالاتفـــاق على تحجيم قدرات محمد على العسكرية وتحديد قوة مصر البـــرية والبحـــرية .

محمد على والزراعة :

بعد أن تولى محمد على حـــكم مصر احدث انقـــلابا زراعيا كان من أهم مظـــاهره الغـــاء نظام الالتزام[٨٢] والاستيلاء على الأراضى واعتبارها ملكا للحكومة وتأجيرها للفلاحين ونتيجة لذلك اصبحت علاقة الفلاحين مرتبطة مبـــاشرة بالحكومة [٨٣] كما انتقل محمد على الى الأراضى الموقـــوفة على المســـاجد ومؤســـســـات الخير فالغى أوقافها وضمها الى املاك الحكومة[٨٤]

وقد الزم محمد على الفـــلاحين ، باتبـــاع الأساليب الحديثة فى الزراعة مما أدى الى ترقيـــة اســـاليب الزراعة وزيادة الانتـــاج ، وادخال العديد من الزراعات الجديدة كما ســـاعدت مشروعات محمد على الخاصة بحفـــر الترع واقامة الجســـور على سهوله رى الأراضى الـــزراعية .

والى جانب ذلك قـــام محمد على بتوزيع الأراضى البور على الأعيـــان واعفـــاها من الضرائب لتشجيعهم على استصـــلاحها وقد ســـميت هـــذه الأراضى « ابعاديات » ، كمـــا خص افراد اسرته بأراضى سميت «جنالك» أو شفالك واعفاها من الضرائب .

وفى عام ١٨١٣م قـــام محمد على بمســـح الأراضى الزراعية وحصرها

وفرض ضرائب ثابتة عليها سنويا وسمى ذلك بالتاريع ، وتعد دفاتر التاريع التى أمر محمد على بانشائها المصدر الأساسى الذى تحدد فيه مساحة أطيان مصر ، ومساحة الأراضى المستعملة للمنافع العمومية فعرف كل فلاح الضرائب المقررة عليه [٨٥] ، كما أعفى بمقتضاها مشايخ البلاد من دفع الضرائب عن خمسة أفدنة من كل مائة فدان من زمام البلد الذى يعيشون فيه نظير خدماتهم للحكومة ، واستضافة من يحضر اليهم من موظفيها ، وقد سميت هذه الأراضى « مسموح المشايخ » أو « مسموح المصطبة » [٨٦] .

وبعد أن فرض محمد على نظام الاحتكار فى عام ١٨١٦م الزم الفلاحين بزراعة المحاصيل الزراعية التى راى انها ستحقق له مكاسب ضخمة ، وقيد حريتهم فى تصريف محصولاتهم وقام بشرائها منهم بالثمن الذى تحدده الحكومة .

وعلى الرغم من ان سياسة الاحتكار قد حققت لمحمد على أرباحا طائلة ساعدته فى تمويل نفقاته العسكرية والبحرية فان هذا النظام قد حرم المزارعين من التصرف فى ثمرة كدهم ومن الحصول على الربح المناسب لحاصلاتهم كما جعلهم عرضة لمظالم موظفى الشون وتلاعبهم فى الكيل والميزان ورفع اسعار احتياجاتهم الضرورية مما ادى الى زيادة تكاليف معيشتهم .

محمد على والنهضة الصناعية :

عندما تولى محمد على حكم مصر كانت الصناعة الموروثة عن المماليك بدائية ولا تفى باحتياجات البلاد ، ومن هنا اقتضى النظام الاقتصادى الذى ادخله محمد على احتكار معظم الصناعات القائمة فى البلاد ، والاكثار من انشاء المصانع .

فقد احتكر صناعة الحصر وعمل الأوانى الفخارية ومصانع النسيج .

كما انشأ العديد من المصانع لكى تغنيه عن المصنوعات الأجنبية ، وتمكنه من الاعتماد عليها فى تسليح جيشه [٨٧] وقد جلب محمد على الصناع والمهندسين والخبراء من الخارج لتدريب العمال المصريين ،

وجلب الآلات من اوربا بكميات كبيرة كما قام بتشغيل آلاف العمال من المصريين فى هذه المصانع والجدير بالذكر أن المصريين نظروا الى تلك المصانع كما ينظر الانسان الى كارثة نزلت بساحته ، فقد اعتبروها سجونا اكثر منها اداة من ادوات الانتاج ، وابتعدوا عن العمل بها لفترة ، وبخاصة انهم كانوا يفضلون العمل فى الحقول الطليقة على جو المصانع وادارتها السيئة مما اضطر الباشا الى استخدام القوة لاجبارهم على العمل بالمصانع .

واهم المصانع التى شيدت فى عصر محمد على كانت مصانع للغزل والنسيج ، ومصنع للجوخ ببولاق ومصنع للحرير فى الخرنفش ، ومصنع للحبال ، ومصنع لنسج الصوف ، ومصنع للطرابيش ، ومصنع لنسج الكتان ، ومصنع لسبك الحديد ببولاق ، ومصانع لالواح النحاس ، ومصانع للسكر ، ومصانع للنيلة ، ومصانع للصابون ، ودبغ الجلود ، والزجاج والصينى ، ومعاصر الزيوت وغيرها[٨٨] .

وقد اهتم محمد على بهذه المصانع اهتماما كبيرا ووضع بعضها تحت اشراف ديوان الجهادية والبعض الآخر تحت اشراف الخزينة مباشرة ، بيد أن هذه المصانع تطلبت عمالا مدربين واموالا طائلة ، مما جعلها تتعرض لخسائر كبيرة ، وبخاصة فى سنواتها الأولى ، ثم تغيرت الأمور بعد انتظام ادارة هذه المصانع واستطاع الباشا أن يجنى بعض الفائدة ، كما استطاع تصدير منتوجاته الصناعية الخاصة بالغزل والنسيج الى بعض ثغور ايطاليا وسورية والأناضول وبيع ما تبقى منها داخل مدن وقرى مصر[٨٩] .

وبعد أن نجح محمد على فى تشغيل مصانعه بدأ يحتكر بعض الصناعات التى يعمل بها الاهالى فعلى سبيل المثال احتكر صناعة الاقمشة ، ومنع الأهالى من تشغيل انوال الغزل والدوبارة[٩٠] .

ومع أن هذه المصانع كانت موضع عناية محمد على فى حياته ، فقد اغلق بعضها فى أواخر عصره وبخاصة بعد معاهدة لندن ١٨٤٠/١٨٤١ ، كما اغلق البعض الآخر فى عصر حفيده عباس الأول بسبب ضعف

الرقابة عليها ، وعدم توفر المواد الخـام اللازمة لتشـغيلها مثل الفحـم والحديد ، وان استيرادها من الخارج يكلف البلاد نفقات كبيرة [٩١] .

خامسا : محمد على والتطور التجارى :

كانت التجارة موردا ثابتا من الموارد الأسـاسية لحكومة محمد على ، فقد استطاع ان يقبض بكلتا يديـه على الحـركة التجارية فى الداخـل والخـارج عن طريق استخدامه لأسـلوب الاحتكار التجارى ، ففى الداخل سـيطر على محاصيل البـلاد الزراعية بأكملها عن طريق اجبار الفـلاحين على أن يبيعـوا للحكومة محصـولات الأراضى التى يزرعونها بالاثمان التى تحـددها لهم ، واذا اراد الفـلاح اى شىء منها لغـذائه ففى استطـاعته ان يشـترى من الحكومة بالاثمـان التى تحددها هى ايضا [٩٢] .

وقد نجم عن ذلك ارتفاع أسعار الحاجيات والمواد الغذائية وعـانى الفقراء بؤسـا من جرائه أما فى الخـارج فقد صـار التجـار الأجـانب لا يستطيعون التعـامل سوى مع شـخص واحد هو الباشا نفسه وبذلك سيطر محمد على منذ بداية حكمه على التجـارة الخارجية سيطرة تـامة وكان القطن هو أهم السـلع فى التجـارة الخارجية ويليه فى الأهمية القمح لذلك اهتم محمد على بهذين المحصـولين ، فادخل القطن الطويل التيلة محل القصـير التيلة ، كمـا عمل على تنشـيط زراعة القمح وزيادتها مما ادى الى فتح آفـاق جديدة للتجارة المصرية فى الأسواق الأوربية وزيادة أرباح محمد على زيادة طـائلة .

وقد عمم محمد على نظـام الاحتكار فى كل ممتلكاته ففى السـودان احتكرت الحكومة جميع محصـولات البلاد ومنتجاتها وكادت تنفـرد بشراء الصمغ وسـن الفيل والجلود وغيرها وفى سـوريا قام الباشا بتطبيق نظام الاحتكـار على محصـول الحرير مما أدى الى شكوى الأهالى من هـذا النظـام .

وفى كريت أراد محمد على ان يسيطر على تجـارة الزيت يضـاف الى ذلك أن رغبتـه فى الافـادة من تجارة الشرق دفعته الى الرغبة فى الاستيلاء على اليمن والسيطرة على تجارة البن بها .

ولتنشــيط العملية التجارية اهتم محمد على بالطرق البرية والبحرية ، فبدأ طريق الســويس البرى يســترد مكانته القديمة .

كما بدات الاسكندرية تزدهر وبخــاصة بعد حفر ترعة المحمودية(٩٣) التى ربطتها بالنيل ، وزاد نقل البضائع منها الى داخل البلاد مما أدى الى تقاطر التجار اليها من مختلف انحاء أوربا .

يضاف الى ذلك قيام محمد على باصــلاح مرفأ بولاق وغيره من الموانى المصرية ، وانشاؤه مجلســا تجاريا مؤلفا من المصريين والأجــانب للحــكم فى القضــايا التجــارية .

وقد هدف محمد على فى ان يكون الميزان التجارى فى صــالحه وذلك عن طريق زيــادة الصادرات المصرية على الواردات ، كما عمــل على ان تقوم البــلاد بانتاج حاجتها من الســلع لتكتفى بمصنوعاتها ومنتجاتها فى ســد مطالبها فلا يكون هناك حــاجة للشراء من الخارج .

وقد فرض محمد على نظام الضرائب الجمركية على تجارة الصــادر والوارد ، مما ضايق انجلترا ، ودفعها للضغط على الباب العالى وتوقيع المعاهدة الانجليزية العثمانية فى التاسع من اغسطس ١٨٣٨ والتى ادت فى النهاية الى اضعاف نظام الاحتكار فى ممتلكات الباشا والغاء هذا النظــام فى النهاية(٩٤) ، ومن ثم ركود الحركة التجارية فى الفترة الاخيرة من حكم محمد عــلى .

ومما سبق يتضح ان تجارة مصر الخارجية ازدهرت فى عصر محمد على اكثر من العصر الذى سبق وصوله الى اريكة الحكم فى مصر بشــكل ملحوظ ولكن حروبه مع الدولة العثمانية ، وموقف انجلترا المناوىء له قد أديا فى النهاية اضمحلال هذه التجارة وركودها .

سادسا : محمد على والاهتمام بالشؤن الصحيــة :

لمــا كانت مصر تعانى من انتشار الأوبئة واشتداد وطأتها وخاصــة الرمد والدوسنطاريا والجدرى والطاعون والكوليرا ، فقد اهتم محمد على

بالشئون الصحية اهتماما كبيرا وكانت الوسائل التى لجأ اليها تشتمل على نوعين اما وقائية كالحجر الصحى ، واما علاجية كالاعتماد على معاونة الأطباء الأجانب امثال « كلوت بك » و « جيطانى بك » فى بحث شئون الصحة العامة واتخاذ ما يلزم لمكافحة هذه الأمراض ، وكذلك انشاء مدرسة الطب ، واستحضار الكتب الطبية والأدوية واقامة المستشفيات وايفاد البعوث الطبية الى الخارج ، وتشجيع الأطباء والهيئات العلمية التى تفد الى مصر لمزاولة مهنة الطب[٩٥] .

كما قام محمد على بمطاردة المشعوذين والدجالين وادعياء الطب ، وكتاب الأحجبة الذين انتشروا فى البلاد .

وكذلك كان من اثر عناية محمد على بالصحة انه اصدر امرا بانشاء مارستان بأبى زعبل ، كما انشأ المدارس الطبية والمستشفيات ومجلس الصحة العمومية وعمل على ردم البرك والمستنقعات وهدم الأكواخ القذرة وقفل مدابغ الجلود من وسط المدينة .

سابعا : تقييم عصر محمد على :

وهكذا يتضح أن محمد عليا قد نجح فى توطيد دعائم النهضة المصرية الحديثة حيث أرسى دعائم النهضة التعليمية الحديثة ، ووضع قواعد النهضة الاقتصادية ، وانشأ الحكومة المركزية بأنظمتها التى لم تعرفها مصر قبل عهده ، وبنى الجيش والأسطول بهدف الاحتفاظ بمصر وتقويتها ، والقدرة على الدفاع عنها ، وحاول اقامة دولة قوية تمتد حدودها من جبال طوروس شمالا الى أقاصى السودان جنوبا ومع ذلك فان من مثالبه انه لم يؤمن بالحركة الشعبية التى مهدت له الوصول الى حكم مصر ، فقام بشل حركة رجال الدين فى كبح جماح الطبقة الحاكمة ، ونجح فى اشاعة روح الفرقة والنفور بينها[٩٦] . وقصر المناصب العليا على الارستقراطية العثمانية كما انه قام باضعاف شأن طبقات الحرفيين والتجار بعد تنفيذه لنظام الاحتكار مما ادى فى نهاية الأمر الى تغلغل الراسمالية الأجنبية داخل

البلاد ، وعدم القدرة فى السيطرة عليها ، وتزايد ارتباط المسالة المصرية بعجلة المؤثرات والدسائس التى كانت تحكيها اوربا .

يضاف الى ذلك فانه يمكن القول اذا كان الشعب المصرى قد عانى من الارهاق والمظالم المتعددة فى عصر محمد على ، فان هذه المظالم اذا قيست بالعصر الذى سبقه فاننا نجدها اخف وطأة .

وعلى كل حال فقد توفى محمد على فى الثانى من اغسطس ١٨٤٩ وخلفه حفيده عباس الأول فى الحكم .

مراجــع الفصــل الثـــانى

(١) للتفاصيل انظر عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر حـ ٢ ، القاهرة ، مطبعة النهضة ، الطبعة الأولى ١٣٤٨هـ ١٩٢٩م ص ٣٢٨ .

(٢) الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار حـ ٣ ص ٣٥٠ .

٣ — عن تفاصيل وصول محمد على كرسى الحكم فى مصر انظر :
Dodwell, H : The Founder of Modern Egypt, A Study of Muhammad Ali, Cambride, 1932 .

(٤) محمد فؤاد شكرى : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر حـ ١ ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٣٣٤ .

(٥) الرافعى : المرجع السابق حـ ٢ ص ٣٧٠ — ٣٧١ .

(٦) الجبرتى : المصدر السابق حـ ٤ ، المطبعة الشرفية ١٣٢٢ هـ ص ١٩ .

(٧) شكرى : المرجع السابق حـ ٢ ص ٥٨٢ .

(٨) الجبرتى : المصدر السابق حـ ٤ ص ٤٩ .

(٩) للتفاصيل انظر :
Dodwel, H : op. cit., p. 25 — 26 .

(١٠) كريم ثابت : محمد على ، القاهرة ، مطبعة المعارف ، ١٩٤٣ ، ص ٥٣ .

(١١) للتفاصيل انظر : الجبرتى : المصدر السابق حـ ٤ ص ٦٩ .

(١٢) نفســه ص ٢٠٦ .

(١٣) شكرى : المرجع السابق حـ ٣ ص ١٣٠٨ .

(١٤) بنى بالقلعة بعد الفتح العثمانى لمصر .

للتفاصيل انظر بول كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة القاهرة — ترجمة أحمد دراج — القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٤ ص ١٨٦ .

(١٥) عن تفاصيل ذلك انظر :

عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق حـ ٣ ص ١٠١ — ١٠٨ .

(١٦) دار الوثائق القومية : سجلات عابدين ، سجل رقم (١) وثيقة رقم (٤٠) رسالة من محمد على الى الصدر الأعظم بتاريخ ٢٠ من ربيع الاول ١٢٢٦هـ / ٩ أبريل ١٨١١م .

(١٧) دار الوثائق القومية بالقلعة : دفتر تركى رقم (١) ترجمة الوثيقة رقم ٢٣ بتاريخ ١٦ ذى الحجة ١٢٢٤هـ رسالة من محمد على الى الدولة العلية .

(١٨) الجبرتى : المصدر السابق حـ ٤ ص ١٤٦ تحت عنوان « واستهل شهر ذى الحجة ١٢٢٦ هـ » .

(١٩) لتفاصيل ذلك انظر مقالنا بمجلة العرب عدد شعبان ١٤١٠هـ تحت عنوان « امرأة عربية تقود الكفاح دفاعا عن الدعوة السلفية » .

(٢٠) بلدة واقعة بين الطائف وتربة ، وقد استطاعت قوات محمد محمد على احتلالها فى ٢٨ محرم ١٢٣٠هـ / ١٠ يناير ١٨١٥ بعد معركة عنيفة مع قوات الأمير فيصل بن سعود : للتفاصيل انظر الرافعى : عصر محمد على ص ١١٢ .

(٢١) داود بركات: البطل الفاتح ابراهيم وفتحه الشام ١٨٣٢ ، القاهرة ، المطبعة الرحمانية ص ٣ — ٤ .

(٢٢) للتفاصيل انظر بحثنا المعنون دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى كتابات الجبرتى ، مجلة جامعة الامام بن سعود الاسلامية العدد الأول ١٤٠٩هـ ص ٣١٠ — ٣١١ ، وانظر أيضا الجبرتى : المصدر السابق حـ ٤ ، ص ٥٤ .

(٢٣) احمد الشوابكة : حركة الجامعة الاسلامية ، الأردن ، مكتبة المنار ، الطبعة الأولى ١٤٠٤ ص ١٧ .

(٢٤) محافظ بحر برا — محفظة رقم ٦ وثيقة رقم ١٢ ، رسالة من احمد اديب كتخدا الصدارة العثمانية الى محمد على .

(٢٥) محمد فؤاد شكرى وآخران : بناء دولة مصر محمد على : القاهرة ، دار الفكر العربى ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م ص ١٥١ .

(٢٦) عبد الرحمن زكى : التاريخ الحربى لعصر محمد على الكبير ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٠ ص ٩٥ — ١٤٦ .

(٢٧) عن مدى حجم هذه القوات انظر : بيير كرابيتس : ابراهيم باشا — ترجمة محمد بدران ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٧ ص ٧٠ .

(٢٨) تاريخ البحرية المصرية ص ٦٣٥ — ٦٣٧ .

(٢٩) كرابيتس : المرجع السابق ص ٨١ .

(٣٠) تاريخ البحرية المصرية ص ٦٤٦ .

(٣١) عن نص شروط هذا الاتفاق انظر :

Dodwell, H. : op. cit., p. 22 .

(٣٢) الرافعي : المرجع السابق حـ ٣ ص ٢٢٩ .

(٣٣) عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ص ٣٧٦ .

(34) Dodwell, H. : op. cit., p. 108 .

(٣٥) اسد رستم : المحفوظات الملكية المصرية — بيان بوثائق الشام المجلد الأول ١٢١٥ — ١٢٤٧هـ / ١٨١٠ — ١٨٣٢م بيروت ١٩٤٠ ص ١٢١ .

(٣٦) داود بركات : المرجع السابق ص ٧ ، ٩ .

(٣٧) سليمان عز الدين : ابراهيم باشا فى سوريـــة ، بيروت ١٩٢٩ ص ٧٦ .

(٣٨) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٤ ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥١ بتاريخ ٣٠ ذى الحجة ١٢٤٧هـ ، وانظر ايضا كتابنا الجيش المصرى وفتح عكا — دراسة فى ضوء وثائق عابدين .

(٣٩) جورج انطونيوس : يقظة العرب — ترجمة على حيدر الركابى ، دمشق ، ١٩٤٦ ، ص ١٣ .

(٤٠) كريم ثابت : المرجع السابق ص ٢٠٤ .

(٤١) عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ص ٣٧٦ .

(٤٢) بيير كرابيتس : المرجع السابق — ص ٢٣١ .

(٤٣) محمد فريد : البهجـــة التوفيقيـــة فى تـــاريخ مؤسس العائلـــة الخديوية القاهرة ، مطبعة بولاق ص ١٤١ .

(٤٤) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٥٩ ترجمة الوثيقة التركية ١٦٤ — ١ بتاريخ ١١ من ربيع الآخر ١٢٥٦هـ ، وانظر ايضا كتابنا « ثورات الدروز والموارنة ضد حكم محمد على فى بلاد الشام » .

(٤٥) محمد بديع شريف وآخرون : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة ص ٥٧١ .

(٤٦) رفاعة الطهطاوى : مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية ، القاهرة ، مطبعة الرغائب ، ١٢٣٠هـ ص ٣٧٢ .

(٤٧) احمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ص ٣١ — ٣٦ وللتفاصيل انظر : عمر طوسون : البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهدى عباس الأول وسعيد ، الاسكندرية ، مطبعة صلاح الدين ١٩٣٤م ، ومن الشخصيات الفذة التى اشتركت فى هذه البعثات رفاعه الطهطاوى الذى رافق اربعين طالبا من طلبة البعثة الى باريس عام ١٨٢٦ ليكون اماما لهم ثم فتحت باريس له عالما جديدا .

(٤٨) كان كتاب الأمير لمكيافللى Machiavelli من أوائل الكتب التى أمر محمد على بترجمتها : وقد قام بترجمته مترجم سورى هو الأب انطون رفائيل زاخورة راهبة .

(٤٩) جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٥١ ص ١٠ .

(٥٠) عن تفاصيل ذلك انظر عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٣٧ .

(٥١) كانت هذه المدارس تسمى المبتديان وهى جمع مبتدىء فالألف والنون علامة الجمع فى التركية .

(٥٢) عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٨٢ — ٨٤ .

(٥٣) كان محمد على شديد الاهتمام بأعضاء البعثات يتتبع أحوالهم ويتقصى اخبارهم ، يرسل اليهم الخطابات يحثهم فيها على الدراسة والمواظبة .

انظر : رفاعة الطهطاوى : تخليص الابريز ص ١٥١ .

(٥٤) الشيال : المرجع السابق ص ٩ .

(٥٥) عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٩٣ — ١٠٣ .

(٥٦) للتفاصيل انظر : كلو تبك : لمحة عامة الى مصر حـ ٢ — ترجمة محمد مسعود ، القاهرة — مطبعة ابى المهول ص ٦٢٧ — ٦٢٨ ، وانظر ايضا :

Bowring : Report on Egypt and Candia, London 1840 p. 140.

(٥٧) كلوت بك : المرجع السابق حـ ٢ ص ٦٣٧ .

(٥٨) للتفاصيل انظر : أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٩٦ — ١٠٣ .

(٥٩) أمين سامى : تقويم النيل وعصر محمد على حـ ٢ ، القاهرة دار الكتب المصرية ، ١٣٤٦هـ / ١٩٢٨م ص ٤٧٢ — ٤٧٣ .

(٦٠) الجبرتى : المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٧٢ .

(٦١) عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٣٦٧ — ٣٦٨ .

(٦٢) جمال الدين الشيال : المرجع السابق ص ٢٨ .

(٦٣) ذكر محمد على فى حديث له مع الدكتور بورنج Bowring بأن احد من يثق فيهم من الأوربيين نصحه بأنه اذا أراد ان يصبح رجلا عظيما فيجب عليه قراءة التاريخ ليتعلم منه فنون الحكم

Bowring : Report on Egypt and Candia p. 145 .

(٦٤) الخطط التوفيقية جـ ٣ ص ٥٤ — ٥٥ .

(٦٥) لا يزال هذا الكتاب مخطوطا فى دار الكتب المصرية تحت رقم ٤٣٥ .

(٦٦) الشيال : المرجع السابق ص ٤٤ .

(٦٧) عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٤٧٨ — ٤٧٩ .

(٦٨) عزت عبد الكريم : المرجع السابق صفحات ١٢٣ — ١٢٤ ، ١٢٩ .

(٦٩) لتفاصيل ذلك انظر الجبرتى : المصدر السابق : حوادث ٢٥ شعبان ١٢٣١ هـ .

(٧٠) محمد فؤاد شكرى وآخران : المرجع السابق ص ١٤٩ .

(٧١) الرافعى : عصر محمد على ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ص ٣٨٠ .

(٧٢) شكرى : المرجع السابق ص ١٥١ .

(٧٣) عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٣٧ .

(٧٤) الرافعى : المرجع السابق ص ٤٦٤ .

(٧٥) عن تفاصيل ذلك انظر عمر طوسون : البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهد عباس الأول وسعيد ص ١٧٥ وما بعدها .

(٧٦) شكرى : المرجع السابق ص ١٣١ .

(٧٧) الجبرتى : المصدر السابق جـ ٤ القاهرة ، المطبعة الشرفيـة ١٣٢٢ هـ ص ١٠٩ .

(٧٨) نخبة من أساتذة جامعة الاسكندرية : تاريخ البحرية المصرية فى العصر الحديث ، الاهرام التجارية ، ١٩٧٠ ص ٦١٠ .

(٧٩) قائد بحرى برز اسمه فى تاريخ البحرية المصرية للتفـاصيل انظر : جميل خانكى : تاريخ البحرية المصرية ، القاهرة ، السلاح الملكى، ١٩٤٨ ص ٤٢٧ .

(٨٠) الرافعى : المرجع السابق ص ٤٢٧ .

(٨١) للتفاصيل انظر كتابنا الجيش المصرى وفتح عكا .

(٨٢) عن تفاصيل ذلك النظام انظر :

Gibb and Bowen : Islamic Society and the West. pp. 172 - 173 .

ومن المعروف أن الملتزم كان يلتزم بجبـاية الضرائب من الاهـالى فى نظير أن يدفع للحكومة المال المحـدد لسنة واحدة مقدما عن دائـرة التزامه ثم يصبـح حر التصرف فى دائرة التزامه فيستبد بالفلاحين كمـا يشـاء ، وقد الغى محمد على هذا النظـام وقـام بتعـويض الملتزمين باقطاعهم « أطيان الوسية » .

(٨٣) محمد أحمد الحته : تاريخ الزراعة المصرية فى عهد محمد على الكبير ، القـاهرة ، دار المعارف ١٩٥٠ ص ١٠٥ .

(٨٤) كريم ثابت : المرجع السابق ص ٨١ .

(٨٥) تراوحت الضريبة على الفدان ما بين اربعة قروش ونصـف على الاقـل وتسعة واربعون على الاكثر ثم عدلت هذه الضرائب بعـد ذلك بغرض زيادتهـا .

(٨٦) الرافعى : عصر محمد على ص ٦٣٦ — ٦٣٧ .

(٨٧) على الجـريتلى : تاريـخ الصنـاعة فى مصر ، القـاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٢ ص ٣٥ .

(٨٨) للتفاصيل انظر : شكرى : المرجع السابق ص ٨١ — ٨٤ .

(٨٩) الرافعى : عصر محمد على ص ٥٩٧ .

(٩٠) امين عفيفى مصطفى : تاريخ مصر الاقتصادى والمالى ، القاهرة الانجلو المصرية ، ١٩٥١ ص ٨٩ .

(٩١) امين عفيفى : المرجع السابق ص ٩٥ .

(٩٢) محمد فؤاد شكرى وآخران : المرجع السابق ص ٤٧ .

(٩٣) نسبة الى السلطان محمد الثانى .

(٩٤) شكرى : المرجع السابق ص ٥٨ — ٥٩ .

(٩٥) شكرى : المرجع السابق ص ٨٨ .

(٩٦) للتفاصيل انظر الجبرتى : المصدر السابق جـ ٤ ص ٦٩ .

الفصل الثالث

عصر خلفاء محمد على

* عصر عباس الأول ١٨٤٨ ــ ١٨٥٤
* عصر سعيد ١٨٥٤ ــ ١٨٦٣
* عصر اسماعيل ١٨٦٣ ــ ١٨٧٩

عباس باشا وعصره ١٨٤٨ ـ ١٨٥٤

نص فرمان الوراثة فى أسرة محمد على ان وراثة العرش تكون لأكبر أفراد سلالة محمد على ، ومع أن مؤسس الأسرة كان يرغب فى ان يتولى ابنه ابراهيم الحكم من بعده فقد توفى ابراهيم فى حياة ابيه[١] مما أدى الى انتقال حكم مصر الى عباس باشا حفيد محمد على[٢] فى ٢٤ نوفمبر ١٨٤٨ . ويعتبر عصر عباس الأول عهد رجعية ففيه اوقفت حركة التقدم والنهضة التى تبناها محمد على ولهذا يجمع مؤرخو عصره على وصفه بالجمود والرجعية والاستبداد والتقلب .

فيرى كرابيتس ان عصر عباس كان « مزيجا من الجهل والجبن والتعصب » وان عباسا كان « كثير التقلب متأخرا رجعيا ، يكره الأساليب الاوربية وكل ما هو غربى »[٣] ، ويرى انجلو ساماركو Sammarco ان اكثر ما تتسم به ادارة عباس هو العداء الوحشى للحضارة الأوربية وكرهه الشديد لانجازات جده محمد على[٤] .

ويرى الرافعى انه كان مشاذا وفيه ميل الى القسوة ، وسوء الظن بالناس والعزلة[٥] .

والى جانب ذلك فقد وصف الدكتور عزت عبد الكريم سيرته فى الاصلاح الداخلى بأنها كانت فشلا متصلا[٦] .

وعلى اى حال فقد كان عباس الأول يفضل ان يعيش فى عزلة عن الناس ، ولا يرغب فى ان يراه أحد ، لذلك كان يقيم فى قصور حصينة بعيدة عن الأنظار فى الصحراء أو فى سواحل البحر وحوله العديد من عبيده ومجموعة من الوحوش الضارية التى كان يلهو بجمعها وترويضها[٧] فقد بنى قصرا بالعباسية وكانت اذ ذاك فى جوف الصحراء ، وقصورا أخرى فى أماكن نائية[٨] .

وقد انتشرت الجاسوسية فى عهده انتشارا كبيرا لدرجة ان الشخص كان لا يأمن على نفسه حتى من اقرب المقربين اليه ، وخاصة وان النفى الى السودان كان من الأمور المألوفة فى ذلك الوقت[٩] .

والى جانب ذلك فقد فرض عباس باشا القيود على الأجانب المقيمين فى مصر وتخلص ممن كان يعمل منهم فى المصالح والمؤسسات الحكومية واغلق معظم المدارس الخصوصية ومنها مدرسة الألسن ونقل اساتذتها الى السودان ، واستدعى معظم اعضاء البعثات الذين كانوا يتلقون العلم فى الخارج كما اغلق المصانع والمعامل بحجة الاقتصاد فى النفقات ، وساءت حالة الجيش والبحرية ومعظم شئون العمران .

اما عن اهم اعماله التى تحققت خلال حكمه فكانت اصلاح الطريق بين القاهرة والسويس ، ومد السكة الحديدية من الاسكندرية الى القاهرة فى عام ١٨٥٢ ، هذا الى جانب اهتمامه بالأمن وقطع دابر قطاع الطرق والأشقياء ، والاهتمام ببناء الاستحكامات الحربية وانشاء الطرق الحربية ، ومد الخطوط التلغرافية .

كما وضع حجر الاساس الأول لمسجد السيدة زينب بالقاهرة [١٠] وفى عهده اشترك الجيش المصرى فى حرب القرم التى ابلى المصريون فيها بلاء حسنا ، واستطاعوا صد هجمات الروس .

ومما يذكره التاريخ لعباس الأول انه لم يفتح على مصر ابواب التدخل الأجنبى ، ولم يمد يده للاستدانة منهم كما فعل سلفيه سعيد واسماعيل بعد ذلك .

ولم يستمر حكم عباس الأول طويلا حيث لم يزد على خمس سنوات . وتتعدد الاقاويل حول وفاة عباس الاول وان كان الراى الشائع هو ان احد اقربائه[١١] ارسل اليه من الأستانة اثنين من عبيده انقضا عليه هو نائم وخنقاه فى شوال ١٢٧٠هـ / ١٤ من يوليو ١٨٥٤ وبعدها تلقى « الفى بك » محافظ القاهرة دعوة فجائية للاسراع ليلا الى قصر بنها الكائن على بعد عشرين ميلا من القاهرة ، حيث وقع الحادث . فاصدر اوامر

مشددة بالا يذيع احد خبر وفاة عباس . كما أمر باحضار المركبة الرسمية الى مدخل القصر الخاص ووضع فيها بمساعدة رئيس الخصيان جثة الميت جالسة كما يجلس الحى ، وجلس هو مواجها لها بحسب العادة . ثم سارت بهما المركبة عشرين ميلا الى القاهرة يحيط بهما الحرس بالابهة المعتادة ووصلا الى القاهرة دون أن يدرى احد بالحقيقة ، ولم يكن ذلك مستغربا اذا تذكرنا أن عباسا أعتاد أن يسير فى طريقة لا يلتفت يمنه ولا يسره . ولما وصل الموكب الى القلعة أمر « الفى بك » بتصويب مدافعها الى مدينة القاهرة ، وكانت تحرسها حامية قوية ، ثم أعلن الحقيقة للأهالى وقال انه سوف ينادى بالبرنس الهامى نجل عباس حاكما على مصر ، ولم يعبء بحقوق سعيد باشا[١٢] ، ولما كان الهامى وقتذاك فى أوربا ، فقد تم استدعاؤه لتولى الحكم .

ونظرا لأن فرمان الوراثة يحتم ان يتولى امور الحكم سعيد باشا ابن محمد على وليس الأمير الهامى الابن الأكبر لعباس باشا فان الفشل ما لبث أن أحاط بهذه الفكرة وخاصة وان ممثل انجلترا فى مصر قد تدخل فى الأمر ونصح بتنصيب الوارث الشرعى بلا ابطاء .

ومما سبق يتضح أن مصر فى عصر عباس الأول قد تردى بها الحال الى درجات سحيقة من السوء ، ويكفى أن نذكر أن عباسا قضى على مشروعات محمد على الاصلاحية الا ما ندر ، وان عصره تميز بالقسوة وايقاع الظلم بالأهالى حتى جاء عصر سعيد باشا فتغيرت الأمور الى حد كبير .



سعيد باشا وعصره ١٨٥٤ ـ ١٨٦٣م

اشـــتهر ســـعيد باشـــا ابن محمد على برحابه الصدر والعطف على الاوربيين كما امتاز بقدر كبير من النشاط والمهارة والقـدرة عـلى ادارة البلاد وكثيرا ما اقتبس عـادات الأوربيين وآدابهم الا انه كان يفضـل عادة تعدد الأزواج على الاقتصار على زوجة واحدة وكان يتكلم الفرنسية بطلاقة ، ومن رفاق صباه فردينان ديلسبس(١٣) .

والى جانب ذلك يتميز عصر سعيد بظهور وطنية جديرة بأن نعتبرها من بواكير الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث ، وساعد على ذلك ميول سعيد الوطنية ورغبته فى تحرير المصريين من المظالم الواقعة على كواهلهم وتخفيف عبء الضرائب المفروضة عليهم ، وتشجيعهم على تقلد المناصب الكبرى سواء فى الجيش او فى الادارة وعن ذلك يذكر احمـد عرابى وهو احد شهود العيان فى ذلك الوقت أن نزعة سعيد باشا الوطنية برزت فى خطبة له القاها فى حفل جمع كثيرا من كبراء القوم حيث قال « وحيث اننى أعتبر نفسى مصريا فوجب على أن أربى ابناء هذا الشعب واهذبه تهذيبا حتى اجعله صالحا لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ، ويستغنى بنفسه عن الأجانب وقد وطدت نفسى على ابراز هذا الراى من الفكر الى العمل » ويقول عرابى « لمـا انتهت الخطبة خرج المدعوون من الأمـراء والعظماء غاضبين حانقين مشدوهين مما سمعوا ، واما المصريون فخرجوا ووجوههم تتهلل فرحا استبشارا »(١٥) .

وقد بذل سعيد باشا جهودا ملحوظة لاصـلاح احـوال الفلاحين فسمح لهم بحق الملكية العقارية للأراضى الزراعية ، واصدر لهذا الغرض قانونه المعروف باللائحة السعيدية(١٦) ، كما الغى نظام احتكار الحاصلات الزراعية فصار للفلاح حرية التصرف فى حاصلاته وحرية اختيار انـواع المزروعات التى يرغب فى زراعتها وخفف عن الاهالى عبء الضرائب واعفاهم من المتأخرات القديمة عليهم ، واهتم بتطهير ترعة المحمودية ، وانشأ الخطوط التلغرافية ، ومد الخط الحديدى بين القاهرة والسويس واهتم بترقيـة شئون الجيش ، وقلل مدة الخدمة العسكرية ثم عممها بين كافة الشبان

بحيث يذهب الى الجندية ابناء المشـــايخ والعمد واقاربهم كســـائر ابناء الفلاحين ، وكان سعيد باشا ميالا الى ترقية الضباط المصريين واعطائهم حقهم فى التقدم وفى عهده ارتقى انكثيرون منهم الى الرتب العسكرية العالية ومن هؤلاء احمد عرابى . كما وجه سعيد باشا جـــل اهتمامه الى ترقيـــة شأن الأسطول المصرى ، ولكن الدول الأوربية وقفت حجر عثرة امامـــه مما ادى الى اضمحلال البحرية المصرية فى عهده[١٧] .

وفى عهده اشتركت مصر فى حربين هما حرب القرم التى استمرت بعد وفاة عباس الأول ، وأرسل سعيد باشا نجـدات الى الجيش المصرى خلالها حتى تم انتصار الدولة العثمانية على الروسيا وابرام معاهدة الصلح فى عام ١٨٥٦ فى مؤتمر باريس الذى سلمت فيه الروسيا بمطالب العثمانيين ، أما عن الحرب الثانية فكانت حرب المكسيك وموضوعها انه نتيجة لاصرار نابليون الثالث على عدم الجلاء عن المكسيك بعد صدور مبدأ مونرو ، كان الصعوبة التى تواجهه هى ان جنوده لا يستطيعون احتمال جو المكسيك حيث كانت الحمى الصفراء تحصدهم حصدا ، ونتيجـــة لذلك سعى لدى صديقه سعيد باشا بأن يقدم القوات اللازمـــة لحـــرب المكسيك . وبعد موافقة سعيد باشا على اشراك مصر فى هذه الحرب التى ليس لها فيها لا ناقة ولا جمل ، غادرت حملة مؤلفة من اربعمائة وخمسين جنديا[١٨] مينـــاء الاسكندرية فى ٢٨ ديسمبر ١٨٦٢ على ظهر بارجة حربيـــة فرنسية الى المكسيك ، وقد ابلت هذه القوات بلاء حســـنا حتى فنى معظم رجالها ، واضطر الجيش الفرنسى الى الجلاء عن المكسيك .

وهكذا ورط سعيد باشا بلاده فى حرب طاحنة فى بلاد نائية ليس فيها مصلحة على الاطلاق اذ لم يكن معقولا ان بلاد المكسيك تهم مصر بأى شكل من الاشـــكال .

وعلى كل حال فقد عاد من تبقى من هـــذه المجموعـــة الى مصر فى مايو ١٨٦٧ حيث كان الخديو اسماعيل قد تولى زمام الامور ومما يؤخذ على سعيد باشا ثقته المفرطة بالاجانب بحيث لم يكن يقوى على أن يخالف لهم رأيا أو يرد لهم طلبا مما شجع على فتح الثغرات أمام التدخل الاجنبى وكانت أهم هذه الثغرات امتياز قناة السويس والاستدانة من البيـــوت المـــالية الأوربيـــة .

ويرجع موضوع امتياز قناة السويس الى ان سعيد باشا كان مولعا باكل المكرونة ، وانه اثناء تواجده بفرنسا لاتمام تعليمه التقى بالشاب فرديناند دلسبس واستحكمت عرى المودة بينهما وخاصة وان كل منهما كان مفرما بالتهام قصاع المكرونة .

وخلال ذلك لم يخطر ببال دلسبس ان صداقته للأمير سعيد ستحدث انقلابا هاما فى طرق التجارة العالمية ، ولكن الفرصة واتته بعد ان علم بوفاة عباس باشا وارتقاء سعيد العرش ، فارسل الى صديقه سعيد يهنئه بارتقاء العرش ، فاستدعاه الى مصر فوصل الى الاسكندرية فى الخامس من نوفمبر ١٨٥٤م وفى جيبه مذكرة توضيحية عن فكرته لحفر قناة السويس[١٩] ، وقد قابله الباشا بحفاوة كبيرة ثم اصطحبه معه فى رحلة من الاسكندرية الى الصحراء الغربية كان يقودها بصحبة جيش مؤلف من عشرة آلاف جندى[٢٠] وفى هذه المرحلة بدأ جنود سعيد باشا يتمرنون على اطلاق النار على اهداف تبعد حوالى خمسمائة متر ، ولكن لم يستطيع احد منهم اصابة الهدف وعندئذ اخذ ديلسبس يشرح لهم الأخطاء التى ابعدتهم عن تسديد الهدف فاستهوى لب سعيد بحديثه .

ولما طلب منه سعيد باشا اثبات مهارته اصاب رميته ، والى جانب ذلك استطاع دلسبس اثبات مهارته فى الفروسية أمام الباشا مما زاد من اعجابه بشجاعته ، وقد انتهز دلسبس هذه الفرصة وبسط عليه مشروعه ، فوافق عليه ووعد بمساندته وتحقيقه ، ووقع على مرسوم الامتياز اللازم لهذا المشروع فى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤[٢١] ، والذى يقضى بمنح دلسبس امتياز شركة عامة لحفر قناة السويس واستثمارها لمدة ٩٩ سنة ابتداء من تاريخ افتتاحها وقد صدر المرسوم بالكلمات الآتية « حيث ان صديقنا المسيو فرديناند ديلسبس قد وجه نظرنا الى الفائدة التى سوف تعود على مصر من توصيل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر بترعة مائية تستطيع السفن اجتيازها ، ولما كان حضرته قد اعلمنا بأن فى الامكان انشاء شركة مالية لهذا الغرض يكون اعضاؤها رجالا ماليين من جميع الأمم ، فقد نظرنا الى الاقتراح الذى عرضه صديقنا بعين العطف وخولناه بموجب هذه الوثيقة السلطة التامة لتاليف شركة عامة لخرق برزخ السويس»[٢٢] .

والجدير بالذكر ان هذا المشروع لم يكتمل فى عهد سعيد بل انتهى فى عهد اسماعيل[٢٣] .

اما عن لجوء سعيد باشا الى الاستدانة من البنوك الأوربية فانه نظرا لأن سعيد باشا كان يميل الى الانفاق والتبذير على قصوره ، ومعيشته الخاصة ، فقد ارهق ميزانية البلاد ، واضطر فى النهاية الى الالتجاء للمرابين الأوربيين والاقتراض منهم مما أدى الى نذير من الكوارث والأحداث السياسية التى اصابت البلاد فيما بعد وادت الى فتح باب التدخل الأجنبى .

ومع ان الآراء قد اختلفت فى احصاء ديون سعيد باشا ، فان الراى الراجح ان القروض الثابتة قد وصلت الى ٣٫٢٩٢٫٣٠٠ جنيها استرلينيا . وقد استمر سعيد باشا فى الحكم حوالى ثمان سنوات وتسعة اشهر حتى ادركته المنية وله من العمر اثنتان واربعون عاما[٢٤] .

وهكذا توفى سعيد بعد ان اورث خلفه شعبا موثق اليدين والقدمين بمشروع ترعة السويس وبلادا الى الجنوب كانت النخاسة فيها رائجة ، وسياسة خارجية قد أملتها باريس ، وديونا تكاد تبهظ عاتق البلاد ، ويااليت ذلك النزيف قد توقف بوفاة سعيد ، بل استمر وزداد فى عصر خلفه اسماعيل .

عصر اسماعيل ١٨٦٣ ــ ١٨٧٩

ارتقى اسماعيل باشا بن ابراهيم بن محمد على عرش مصر فى الثامن عشر من يناير ١٨٦٣ وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره[٢٥] ، ويعد بذلك الحاكم الخامس من اسرة محمد على لمصر .

وقد اختلف المؤرخون وشهود العيان فى حكمهم عليه وعلى عصره فمنهم من حكم عليه احكاما قاسية أمثال ملنر وكرومر وكولفن والجود ودى فريسينية وزيتلند وغيرهم فوصفه ملنر Milner بانه المثل الكامل للتبذير واعظم من عرف فى التاريخ بالسفه مع عدم الاكتراث بالعواقب مما أدى الى الاندفاع بالبلاد فى طريق الخراب اندفاعا سريعا وبانه « لم تكن له مبادىء يصدر عنها افعاله بل كانت له اعمال جنونية تمتاز

بأنها تشبه فى ضخامتها الأهرامات أو معبد الكرنك »[٣٦] ووصف زيتلند Zetland حكمه بأنه كان مليئا بالشرور والمساوىء[٣٧] .

وقال عن فارمان انه فتح الباب على مصراعيه للأجانب وعقد قروضا فاحشة مع البيوت المالية الأجنبية[٣٨] ومنهم من انصفه ووصفه بحب العمل والنشاط فقال المستر ليون قنصل الولايات المتحدة والذى اقام سنوات عديدة بمصر « ان الخديوى رجلا كثير العمل يشرف على كل كبيرة وصغيرة وانه كان يستيقظ مبكرا فى الصباح ويسهر على شئون الدولة[٣٩] ، وقال القاضى الأمريكى كرابيتس انه عمل على تحسين احوال الفلاح المصرى[٣٠] وعمل على محاربة النخاسة ، وحبب الاوربيين فى سكنى الديار المصرية ، وقال جون مارلو انه كان يجهد نفسه عادة فى العمل فيعقد المقابلات مع رجال المال ، ويتفاوض مع الدبلوماسيين ويرسل التعليمات الى رجاله لجباية الأموال من الفلاحين ، وانه كان يعتبر الحفلات والولائم عملا من اعمال العلاقات العامة بالدرجة الأولى للحصول على تأييد أوربا فى مفاوضاته مع الدولة العثمانية من أجل مزيد من الاستقلال[٣١] .

والى جانب ذلك فهناك من قال انه كان لاسماعيل باشا طبيعتين متناقضتين ، فهو وان لم يكن كسولا فقد كان محبا للترف والانغماس فى الملذات .

ولتوضيح هذه الآراء واثبات مدى صحتها من عدمه سنعرض لعصر اسماعيل بما فيه من مثالب ومشارب وسنخص بالذكر علاقته مع الدولة العثمانية ومع الدول الأوربية ، وأحوال مصر العمرانية والعلمية فى عصره والأزمة المالية وما أعقبها من تطورات .

اولا — اسماعيل والدولة العثمانية :

بعد ان تولى اسماعيل اريكة الحكم فى مصر حاول توسيع نطاق استقلالها عن الدولة العثمانية ، وازالة القيود التى فرضتها معاهدة لندن ١٨٤٠ وفرمان ١٨٤١ . وذلك عن طريق قوة المال وليس قوة السيف كما فعل جده محمد على ، وقد استغل اسماعيل فى ذلك ضيق احوال الدولة العثمانية المالية ورغبة السلطان فى الحصول على الأموال مراح

ينفق مئات الالوف من الجنيهات فى الآستانة عن طريق مندوبه ابراهام بك الأرمنى ليحصل على الفرمانات التى تحقق رغبته فى توسيع نطاق الاستقلال وتغيير نظام الوراثة لصالح أولاده ويقوم بسد ابـــواب الدسائس ضده هناك[٣٢] كما بدأ بالتودد الى السلطان عبد العزيز ورجال حكومته بزيارته للآستانة لتقديم فروض الولاء ودعوته الى السلطان بزيارة مصر[٣٣] .

وقد استغل اسماعيل فرصة زيارة السلطان لمصر فى ابريل ١٨٦٣ ، وحاول الحصول على مزايا جديدة لحكمه ولمـــا كان يدرك أن الحكومـــة العثمانية لا تصدر فرمانا الا فى مقابل الأموا لالطائلة والهدايا غمر السلطان وحاشيته بالهدايا والتحف الفاخرة حتى ملأ بها سفينة بأكملها ، ثم دارت بعد ذلك مفاوضات سرية بينه وبين السلطان حول تعديل نظام توارث العرش فى مصر بحيث يؤول العرش لأكبر أنجاله بدلا من أكبر أفراد الأسرة العلوية ، وقد اشترط السلطان العثمانى زيادة الأموال المخصصـــة للاستانة من ٤٠٠ ألف جنيه عثمانى الى ٧٥٠ الفا مقابل هذا التعديل ، وبعد أن رحب الباشا بذلك الشرط صدر فرمان ١٢ محرم ١٢٨٣هـ / ٢٧ مايو ١٨٦٦ القاضى يجعل ولاية مصر وملحقاتها وراثية فى اكبـــر ابناء الوالى الجالس عـــلى العرش ونص الفرمان على امكانية زيادة عدد الجيش الى ٣٠ الف رجل ، وتشكيل مجلس وصاية ، واقرار حق الحكومة المصرية فى سك النقود ، ومنح الرتب المدنية لغاية الرتبة الثانيـــة[٣٤] .

وقد تبع ذلك صدور ارادة سلطانية فى الخامس من صفر ١٢٨٤هـ الموافق الثامن من يونيو ١٨٦٧ بالانعام عـــلى اسماعيل باشا وخلفائه بلقب خديو[٣٥] حتى يتميز مقامه عن مقام سائر الولاة العثمانيين ، ويعد اسماعيل باشا اول وال عثمانى ينال هذا اللقب . وقد منح هذا الفرمان خديو مصر حق اعلان التنظيمات الخاصة بادارة البلاد ، وعقد الاتفاقيات مـــع الدول الاجنبية بشأن الجمارك والبريد والنقل وغيرها على الا تتخذ طابع المعاهدات الدوليـــة وهذا يعنى منح مصر حقوقا كاملة فى التفاوض الاقتصـــادى فى الدول الأجنبيـــة[٣٦] .

ولم تستمر علاقة الخديو بالدولة العثمانية على هذا النحو من الود والصفاء طويلا فسرعان ما اعتراها الفتـــور والعداء خاصـــة فى عـــامى

١٨٦٩ — ١٨٧٠ ذلك ان دعوة اسماعيل لملوك أوربا بمناسبة افتتاح قناة السويس قد اقلقت الباب العالى الذى كان يخشى من جنوح اسماعيل نحو الاستقلال[٣٧] ولكن ذلك لم يستمر طويلا حيث نجحت هدايا اسماعيل الى استنبول فى تقريب وجهات النظر بين الطرفين . ولما ازدادت حاجة الخديو الى معاضدة الدولة له قصد الآستانة فى صيف ١٨٧٢ بصحبة اسماعيل صديق وزير المالية ونوبار باشا وزير الخارجية ، وخلال ذلك تمكن اسماعيل من استصدار فرمان سلطانى يخوله صراحة حق الاستدانة من الخارج ، وقد شجعه الحصول على هذا الفرمان القيام بزيارة ثانية للآستانة فى صيف ١٨٧٣ حصل خلالها على فرمان جامع للمزايا التى نالتها مصر منذ عصر محمد على الى عهده .

وقد صدر هذا الفرمان الجامع فى الثامن من يونيو ١٨٧٣م وبمقتضاه حصلت مصر على حقوقها الكاملة فى الاستقلال التام باعتبارها دولة وليست مجرد ولاية ، واكد استمرار سلطة الخديوى على سواكن ومصوع وحقه فى عقد المعاهدات والاتفاقيات فى المجال الاقتصادى ، زيادة عدد الجيش ، ومنح الترقيات حتى رتبة عقيد[٣٨] .

ثانيا — اسماعيل والدول الأوربية :

انحصرت سياسة الخديو تجاه الدول الأوربية فى العمل على كسب رضاها واظهار حسن النوايا تجاهها فسعى الى كسب ود فرنسا بهدف معاضدتها له ومساندتها لسياسته كما سعى للوفاق مع بريطانيا التى لم تكن مرتاحة لتغلغل النفوذ الفرنسى فى مصر فى عهد سعيد[٣٩] واتجه الى الولايات المتحدة للاستفادة من خبراتها العسكرية فى تنظيم جيشه وتدريبه .

وقد ادت هذه السياسة الى تعاظم النفوذ الأوربى فى البلاد ، وفتح ابوابها على مصراعيها لتغلغل الأجانب فى مرافقها ، كما أدت فى النهاية الى شل سلطة الخديو وتصدع بناء الاستقلال المالى والسياسى الذى حققته مصر منذ عصر محمد على[٤٠] .

ثالثا — أحوال مصر العمرانية والعلمية فى عصر اسماعيل :

صاحب عصر الخديو اسماعيل جهودا كبيرة فى الأعمال العمرانية والعلمية فانتعشت حركة البناء فى القاهرة والاسكندرية ، وازدهرت النهضة العلمية والفنية والزراعية والصناعية وغيرها وفيما يلى نعرض لذلك :

١ — النهضة العمرانية :

انتعشت حركة البناءفىالقاهرة والاسكندرية ففى الاسكندرية ظهرت فى الرمل شرقى المدينة ضاحية جميلة مليئة بالحدائق يسكنها كبار المضاربين فى القطن من الاوربيين بصفة خاصة ، وفى القاهرة ظهر حى كبير آخر على الطراز الاوربى وهو حى الاسماعيلية ويقع بين حديقة الأزبكية والنيل ، وكان يتكون من منازل خاصة ذات حدائق كبيرة ، ومن فنادق ومحلات ومكاتب على جانبى شوارع واسعة ممهدة مزروعة تحف بها الاشجار ، وكانت الحكومة تشجع حركة البناء هذه بمنح سخية من الأرض للأفراد الذين يتعهدون بتجديدها بشكل مناسب ، كما بنيت قصور كبيرة مثل قصر عابدين ، وقصر النيل والجزيرة كذلك بنيت دار الأوبرا على الطراز الفرنسى[٤١] .

٢ — تطور الحياة النيابية :

كون اسماعيل مجلسا لشورى النواب فى مصر حتى يعطى للعالم الاوربى صورة عن رغبته فى مسايرة الحياة البرلمانية فى اوربا .

ومع أن ممثلى المجلس لم تكن لديهم الصلاحيات والحصانة التى تؤهلهم للتعبير عن شئون مواطنيهم فقد بدأ المجلس يتحدث عن حدود سلطة الخديو ، وحدود سلطة نوبار ، ويتألم للتدخل الأجنبى فى شئون البلاد ويتطرق الى أهمية السيادة الاسمية للدولة العثمانية على مصر .

وقد ساير الخديو هذه التيارات الوطنية ، واستطاع ان يحولها ضد التدخل الأجنبى فى شئون البلاد فى بعض الأوقات[٤٢] .

٣ — النهضـــة العلميـــة والأدبيـــة :

تميز عصر اسماعيل على قصره بتعدد نواحيه ، وتنوع اتجاهاتـه ، فأخذت النهضة العلمية والأدبية تتفتح وتزدهر ، كما حفـلت بجمهرة من الأدباء والكتاب والصحفيين ، وفيما يلى نعرض لذلك :

(أ) التعـــليم :

نال التعليم فى عصر اسماعيل اهتماما كبيرا وخاصة انه تولى الحكم ومعظم المدارس التى أنشأها محمد على كانت مغلقة ، فأعاد اليها النشاط ، واعاد تأليف ديوان المدارس كما وجه همته الى انشاء العديد من المدارس والتى من أبرزها مدرسة الحقوق ومدرسة دار العلوم[٤٣] وكان عماد هذه النهضة وراسها المدبر على باشا مبارك ، ومن ابرز الأعمال التى اسندت الى على مبارك فى عصر اسماعيل كانت نظارة القنـــاطر الخيرية ووزارة المعارف والاشغال والأوقاف ، اما عن اجل المنشئات الذى ساهم فيهـا على مبارك بفكره وعلمه فكانت دار الكتب فى عام ١٨٧٠ وفتحها امام طلاب العلم والمعرفة ، وانشاء دار العلوم فى عام ١٨٧٢ لتخريج اساتذة للغـــة العربيـــة ، وانشاء مجلة روضة المدارس .

(ب) الصحافـــــة :

ارتكزت الصحافة المصرية حتى نهاية عصر سعيد فى جريدة الوقائع المصرية ، ثم اخذت الصحافة الشـــعبية تخطو خطـــواتها الأولى بوصول اسماعيل الى اريكة الخديوية فأنشأ الدكتور محمد عـــلى البقلى والشيخ ابراهيم الدسوقى مجلة اليعسوب الطبية فى عام ١٨٦٥ ، وانشأ الشاعر عبد الله أبو السعود جريدة وادى النيل الأدبية السياسية الاخباريـــة فى عام ١٨٦٧ ، وانشأ ابراهيم المويلحى ومحمد عثمان جلال جريدة « نزهة الأفكار » فى عام ١٨٦٩ ، وفى عام ١٨٧٠ ظهـــرت روضـــة المدارس التى انشأها على باشا مبارك .

وانشأ الأديب اللبنانى سليم الحموى « الكوكب الشرقى » فى عام ١٨٧٣ ومجلة « الاسكندرية » فى عام ١٨٧٨ .

كما صدرت جريدة الأهرام فى عام ١٨٧٦ وفى عام ١٨٧٧ ظهرت جريدة الوطن ، وجريدة مصر و فى عام ١٨٧٨ انشأ اديب اسحق وسليم النقاش جريدة التجارة ، و فى نفس هذا العام ظهرت مجلة « أبو نضارة » ليعقوب صنوع اليهودى المصرى والتى كان يسميها أحيانا بأسماء مختلفة مثل « أبو زمارة » و « أبو صفارة » و « الحاوى » يضاف الى ذلك انه كان يصدر فى عصر اسماعيل عدة صحف أجنبية فى مقدمتها « الفارد السكندرى Le Phared Aexandrie التى انشئت بالاسكندرية فى عام ١٨٧٤ وجريدة البروجريه اجبسيان Le Progrés Egyptien وغيرها .

وهكذا يتضح تطور الحركة الصحفية فى عصر اسماعيل بشكل كبير ، مما كان لها اكبر الأثر فى تنوير الرأى العام المصرى ، وتحضيره لمرحلة جديدة خصوصا وان المصريين بدأوا يتكلمون بصراحة فى شئون بلادهم .

وفى عهد اسماعيل ايضا تقدمت الطباعة ، وتأسست الجمعيات العلمية والأدبية وتزايد عددها ، ونشط الأدب والشعر وحركة التاليف والترجمة والنشر هذا الى جانب تاسيس مجلس شورى النواب فى عام ١٨٦٦ ، كل ذلك كان له اثره فى تقدم الحياة الاجتماعية والسياسية والوطنية[٤٤] .

(د) النهضة الفنية :

اهتم الخديو اسماعيل بالحياة الفنية فى مصر اهتماما بالغا وبخاصة التمثيل والموسيقى والغناء . وفيما يلى نعرض لذلك :

اولا — التمثيل :

أمر الخديو بانشاء اول مسرح بالقاهرة وهو المسرح الكوميدى بالأزبكية فى عام ١٨٦٨ وبنى دار الأوبرا فى عام ١٨٦٩ لمناسبة الاحتفال بافتتاح قناة السويس[٤٥] والتى مثلت عليها أوبرا عايدة للموسيقى الايطالى « فردى » ثم أمر بانشاء مسرح زيزينيا بالاسكندرية وقد ساعد على انعكاس هذه النهضة وفود العديد من الفرق المسرحية والممثلين

الشوام من سورية الى مصر وبخاصة فرق « يوسف خياط » و « سليم النقاش » و « اديب اسحق » التى مثلت العديد من المسرحيات على مسرح زيزينيا .

ثانيا ــ الموسيقى والغنــاء :

نظرا لرغبة الخديو فى سماع الطرب وحب المسرات ولميل المجتمع المصرى الى روح الطرب والمرح فقد سرت روح التجديد فى الموسيقى والغناء . ومن اشهر المطربين فى ذلك الوقت عبده الحمولى الذى اخذت شهرته تنتشر فى كافة الأوساط وخاصة بعد ان ابتكر اساليب جديدة فى الغناء اتفقت مع روح عصره مما جعله ينال اعجاب اهل الفن وعشاق الطرب ، وبعد ان وصلت شهرته الى الخديو اسماعيل الحقه بمعيته ، واتخذه نديمه فى حفلاته واغدق عليه الهبات ، ومن اشهر الموسيقيين ايضا فى ذلك الوقت « محمد العقاد » عازف القانون الذى حاكى عبده الحمولى فى انغامه الموسيقية ، ومن اشهر المطربات « المـاس » التى تزوج بها عبده الحمولى ومنعها من الغناء فى المجالس ، مما جعله يستهدف غضب الخديو اذ طلب يوما أن تحضر « المـاس » الى قصره وتغنى فيه فرفض عبده ان تذهب مما اغضب الخديو وجعله يأمر باحضارها بالقوة لولا توسط الشيخ « على الليثى » شاعر الخديو فى الأمر وانتهاء الأزمة بعدول الخديو عن طلبــه[٤٦] .

وهكذا يتضح مدى اهتمام الخديو اسماعيل بالتمثيل والموسيقى ، مما كان له اثره فى النهضة الفنية التى تعيشها مصر الآن .

رابعا ــ النهضــة الزراعيــة والصناعيــة :

وجه اسماعيل جل اهتمامه على انماء ثروة مصر الزراعية بتوفير وسائل الرى ، ففى عهده شقت ترع جديدة مثل ترعة الابراهيمية فى الصعيد والاسماعيلية فى شرق الدلتا واصلحت حوالى مائة واثنتى عشرة ترعة[٤٧] ، وفى عهده اتسعت رقعة الارض الزراعية وزاد محصول القطن الى ثلاثة او اربعة امثال ما كان عليه ، وكان معظمه يصدر الى الخارج وساعد على ذلك قيام الحرب الاهلية الأمريكيةوتاثر زراعة القطن فى

الولايات الجنوبية فى أمريكا نظرا لتوقف الأهالى عن الزراعة وحملهم السلاح واغلاق موانى التصدير ، مما اسفر عن توقف تصدير القطن الأمريكى للعالم وارتفاع ثمن القطن المصرى بشكل كبير مما جعل الخديو يأمر بزراعة القطن فى كل بقعة من وادى النيل واهمال زراعة السكر والحبوب .

وظلت الأمور على ذلك بين عامى ١٨٦٣ — ١٨٦٥ ثم بدأ الموقف يتغير تماما فى عام ١٨٦٦ حيث بدأ القطن الأمريكى ينزل الى الأسواق العالمية ، وكان من نتيجة ذلك هبوط اسعار القطن المصرى وتعرض اقتصاد البلاد لكساد كبير[٤٨] تزعزع رخاء مصر على أثره ، ولكى يتلافى الخديو الخسائر الهائلة التى بدأت تلحق ببلاده وجه اهتمامه الى الاكثار من زراعة قصب السكر ، وخاصة فى أملاكه بالوجه القبلى[٤٩] ، كما قام بانشاء مصانع للسكر واستورد آلات باهظة الثمن لذلك ، ولكن هذا المشروع اهمل ولم يكلل بالنجاح[٥٠] .

يضاف الى ذلك أن التوسع الهائل فى زراعة القطن والسكر قد تم على حساب المزروعات الاخرى لدرجة ان اصبحت مصر تعتمد فى مواردها الغذائية على البلدان الأخرى .

خامسا — النظام القضائى :

ان ولاية القضاء ركن من اركان السيادة الاهلية لكل بلد مستقل ، ولكن اعترض تطبيق ذلك فى مصر ما منحه سلاطين آل عثمان لرعايا الدول الأوربية من امتيازات واعفاءات واسعة ، وقد صارت هذه الامتيازات عبئا ثقيلا على البلاد وخاصة بعد أن انتابها الضعف وطغت سلطة الاجانب على سيادة الحكومة وانتزع القناصل سلطة الحكم فيما يقترف رعاياهم على الجرائم التى تقع على الوطنيين[٥١] فكانت هناك ست عشرة محكمة قنصلية تطبق ستة عشر تشريعا مختلفا . وقد اغتصبت هذه المحاكم سلطة الحكم على الحكومة المصرية فى القضايا التى يرفعها رعاياها عليها وعلى الأهالى ، واصبحت تمثل دولة حقيقية داخل الدولة .

وتفصيل ذلك هو أن مصر كانت من البلاد التى تتمتع الدول الأجنبية فيها بامتيازات خاصة ، فكان الأجانب لا يحاكمون بمقتضى القانون المصرى[٥٢] فمثلا اذا باع انجليزى بضاعة لأسبانى فى مصر وحدث بينهما نزاع لا يقيم الانجليزى قضية فى محكمة مصر استصدارا لحكم يؤيد حقه بل كان يقيمها فى القنصلية الأسبانية مما ادى الى بث الاضطراب فى المعاملات التجارية داخل مصر ، واتهام الناس للحكومة بالضعف والخطأ ، والتفريط فى حقوقهم ، وبعد ان تولى اسماعيل الحكم عقد نيته على اصلاح ذلك الخلل ، باعادة تنظيم القضاء المصرى ذلك عن طريق نقل سلطة المحاكم القنصلية الى قضاء دولى ، والى اصدار قانون متناسق يطبق فى البلاد[٥٣] .

وفى عام ١٨٦٩ رفع نوبار باشا تقريرا الى اللجنة الدولية يقوم على ثلاث افكار رئيسية هى ، تحرير الحياة المدنية للمواطنين او الاوربيين من كل فكرة طائفية ، وانشاء جهاز قضائى وطنى نزيه ، قادر على تشكيل محاكم ذات سلطة قوية ، ثم تنظيم قضائى كامل يضم دوائر تحاكم الوطنيين بجانب دوائر تحاكم الأجانب .

وقد استمرت المفاوضات بين مصر والدول الاوربية عدة سنوات ثم انتهت فى عام ١٨٧٥ بانشاء المحاكم المختلطة على اساس تخويلها سلطة الفصل فى جميع المنازعات ، وكان غالبية القضاة فى هذه المحاكم من الاجانب وقد أوضح اللورد كرومر اختصاص هذه المحاكم بقوله انها تفصل فى القضايا والمنازعات المدنية والتجارية بين الاوربيين وبعضهم من جهة وبين الاوربيين والمصريين من جهة اخرى[٥٤] .

وعلى الرغم من ان اسماعيل حاول بانشاء القضاء المختلط اصلاح امور القضاء فانه افقد مصر استقلالها التشريعى ، واصبح بمثابة اعتداء على السيادة الأهلية وعلى الاستقلال القومى للبلاد ، وكان ضررها كبيرا على الشعب المصرى ولا سيما الفلاحين حيث ساعدت على استغلال الأجانب للبلاد بطريقة قانونية ، وكانت مظهرا من مظاهر الوصاية الأجنبية التى تعددت اشكالها فى مصر[٥٥] .

سادسا ــ تكوين امبراطورية مصرية فى افريقيا :

راودت الخديو اسماعيل أفكار وطموحات حول تكوين امبراطوريــة مصرية فى افريقية ، وتوسيع رقعة السودان المصرى ومد النفوذ المصرى بصفة فعالة جنوبا من انيل الأبيض الى البحيرات العظمى بهدف ضم حوض النيل باكمله داخل الأراضى المصرية ، وفى عهده تم ضم سواكن ومصوع الى أملاك مصر ، والحقت المقاطعات الاستوائية بالحكومة المصرية ، ووصــل النفوذ المصرى الى سواحل بلاد الصومال والحبشة ، وتمكنت هذه المناطق من الانفتاح على الحضارة الحديثة . وخلال ذلك وقع الخديو مع بريطانيا معاهدة اتفق بمقتضاها على قطع دابر النخاسة وتجارة الرقيق فى ممتلكات مصر الأفريقيــة[٥٦] .

كما اتجه الى الولايات المتحدة لتدريب ضباطه وتكوين الجغرافيين والمهندسين والمستكشفين[٥٧] .

غير ان الفشل كان نهاية ذلك العمل الكبير الذى بلغ ذروته بــين عامى ١٨٧٢ ــ ١٨٧٩ ، فلم تستطع هذه الامبراطورية الجديدة ان تستمر طويلا . ويرى اغلب المؤرخين ان سبب ذلك يعود الى ان اسماعيل عهد بأمور فتوحاته الأفريقية للأجانب أمثال « بيكر » و « جوردون » بمعنى انها كانت اجنبية عند القمة ، ومصرية عند القاع مما افقدها استمراريتها وعلى اى حال فقد جاء عزل اسماعيل ليضع حدا لأية سياسة افريقيــة فعالة من جانب مصر[٥٨] .

سابعا : اسماعيل والأزمة المالية والتدخل الاجنبى :

تعاظم أمر الديون على مصر فى عصر اسماعيل نتيجة لبذخه والمبالغ التى أنفقها فى التشييد والبناء ، واندفاعه السريع الى الاستدانة فكان اذا أراد عملا جنح الى الاقتراض دون ان يبالى بعواقب ذلك لدرجة ان ازدادت الديــون من ٣٫٢٩٣٫٠٠٠ فى أوائل عهــده الى حــوالى ٩١ مليــونا من الجنيهات[٥٩] فى عام ١٨٧٦ فأصبحت حملا ثقيلا على الخــزينة المصرية وعلى اهالى البلاد ، ونتيجة لتوقف البيوت المــالية عن اقراض الخديو وذلك لعدم وفائه بسداد أقساط الديون ابتدع اسماعيل طريقة يستطيع

الحصول بها على الأموال من الأهالى فاصدر « لائحة المقابلة » فى ٣٠ من اغسطس ١٨٧١ والتى تقضى بان تنزل الحكومة لملاك الاراضى الزراعية عن نصف الضريبة المفروضة على اطيانهم بصفة دائمة اذا دفعوا للحكومة ستة أمثال هذه الضريبة مقدما [٦٠] .

ونتيجة لفشل الخديو فى تسديد اقساط الديون ، وتوقفه عن سداد سندات الخزانة المستحقة ، وظهور شبح افلاس مصر ، تدخلت الدول الأوربية فى شئون البلاد بحجة المحافظة على اموال رعاياها من اصحاب الديون .

وفيما يلى نعرض لأهم مظاهر التدخل الأجنبى فى مصر خلال هـــذه الفترة .

١ — بعثة كيف Cave

هى لجنة انجليزية برئاسة الخبير المالى البريطانى « ستيفن كيف » وانحصرت مهمتها فى دراسة احوال مصر المالية وكتابة تقرير عنها [٦١] وقد اقترحت البعثة كشرط اساسى لاصلاح أحوال مصر المالية ان تصبح الحكومة المصرية تحت المشورة الأوربية ، وان يكون هناك جهاز للرقابة عليها تحت اشراف موظف انجليزى ، وأن يحترم الخديو ما تصدره هذه اللجنة من قرارات ولا يعقد اية قروض قبل الحصول على موافقتها .

وعند دراسة هذه الاقتراحات يتضح ان اللجنة ابتعدت عن مهمتها الاساسية وهى دراسة احوال مصر المالية واقتراح السبل الكفيلة باصلاحها الى محاولتها لتمهيد السبيل للتدخل الانجليزى فى شئون مصر ، مما جعل فرنسا تحاول اللحاق بانجلترا فى ذلك المجال حتى لا تنفــرد الحكومــة الانجليزية بذلك .

ولمـــا سارت الضائقة المـــالية فى طريقها وعجزت الحكـــومة عن الوفاء بالتزاماتها اصدر الخديوى مرسوما فى ١٦ ابريل ١٨٧٦ بتأجيل دفع السندات والاقساط المسحقة على الحكومة ، وتحت ضغوط الدائنين وافق الخديو على انشاء صندوق الدين [٦٢] .

٢ ــ صندوق الدين العمومى :

اصدر الخديو اسماعيل مرسوما فى الثانى من مايو ١٨٧٦ بانشاء صندوق الدين العمومى ، بهدف جمع المبالغ المخصصة للديون من المصالح الحكومية وتسديد اقساط الديون وما يستحق عليها من فوائد .

وقد تولى ادارة هذا الصندوق موظفون اوربيون تم ترشيحهم من قبل الدول الدائنة ثم صدق الخديو على تعيينهم .

وقد نص المرسوم الصادر بانشاء هذا الصندوق على ان تختص المحاكم المختلطة بالنظر فى القضايا التى يرى صندوق الدين اقامتها ضد الحكومة (٦٣) .

وكانت الديون المصرية قسمين دين الحكومة ودين الدائرة السنية ثم ضمت الى دين واحد قدره ٩١ مليون جنيه سمى بالدين الموحد بفائدة ٧ بالمائة . ولما راى الخديو اسماعيل ان توحيد الدين على هذه الصورة لا يمكن الحكومة من سداده أصدر أمرا بأن تصدر الحكومة المصرية سندات عليها بمبلغ ١٧ مليون جنيه فى نظير رهن السكك الحديدية وميناء الاسكندرية، وان تكون فائدته خمسة بالمائة وسماه الدين الممتاز .

ونتيجة لعدم اقتناع الدول صاحبة الديون بهذه الاجراءات تشكلت لجنة مالية مختلطة لمراقبة حساب الحكومة وهى التى اطلق عليها بعثة جوشن وجوبير .

بعثة جوشن وجوبير :

عرضت بريطانيا على فرنسا تنسيق موقفيهما ازاء الأزمة المالية فى مصر واتفقتا على ارسال مندوبين لبحث هذه المسألة ، فأوفدت بريطانيا جوشن Goschen وانتدبت فرنسا جوبير Jiubert مندوبا عن الدائنين الفرنسيين ليشترك مع المندوب الانجليزى فى عرض مطالب الدائنين على الخديو . وقد حضر جوشن الى مصر فى اكتوبر ١٨٧٦ ثم تبعه جوبير وطلبا الى اسماعيل فرض الرقابة الثنائية على المالية المصرية وجعل السكك الحديدية وميناء الاسكندرية تحت ادارة لجنة مختلطة ، وقد

وافق الخديو اسماعيل على هذا المطلب فى ١٨ من نوفمبر ١٨٧٦ [٦٤] كما اضطر بعد ذلك الى التنازل عن أملاكه الخاصة واملاك أسرته للحكومة وهى التى تعرف باملاك الدومين .

بعد ان ازداد التدخل الأجنبى فى شئون مصر المالية رأى اسماعيل ان يجعل حكومته شورية فشكل مجلسا للنظار برئاسة نوبار باشا ووافق على تعيين وزيرين اوربيين فى هذه الوزارة احدهما انجليزى للمالية وهو المستر ولسن والآخر فرنسى للاشغال العمومية وهو المسيو بلينير ، واثناء اجتماعات هذه الوزارة عمل نوبار الى انقاص عدد الجيش ، واحاله عدد كبير من الضباط الى الاستيداع بحجة الاقتصاد مما ادى الى فصل بعض الضباط والجنود دون حصولهم على رواتبهم المتأخرة ، وقد أدى ذلك الى قيام حوالى ٤٠٠ ضابط بمظاهرة أمام نظارة المالية فى ١٨ فبراير ١٨٧٩ اهانوا خلالها نوبار باشا رئيس النظار والمستر ولسن وانقلبت الأمور الى ما يشبه الثورة لولا ان اقبل اسماعيل باشا ، وقام بتهدئة الجنود ووعدهم بصرف مستحقاتهم وطالبهم بالانصراف ، وأعلن انه لن يكون مسئولا بعد ذلك عن الأمن والنظام اذا لم يعزل نوبار ونتيجة لما حدث استقالت وزارة نوبار فشكل الخديو مجلسا آخر للنظار برئاسة ابنه محمد توفيق ولما فشل هذا المجلس فى مواجهة الموقف ، شكل الخديو وزارة جديدة برئاسة شريف باشا ، واخرج منها الوزيرين الأوربيين مما ادى الى غضب انجلترا وفرنسا والاتفاق على عزله .

ففى ١٩ يونيو وبناء على تعليمات اللورد سالسبورى تم تبليغ الخديو بما يأتى :

« اتفقت الحكومتان الفرنسية والانجليزية على الاشارة على سموكم رسميا بالنزول عن العرش ، ومغادرة القطر المصرى فاذا قبلتم هذه المشورة عملت حكومتانا معا على تقرير مخصصات كافية لسموكم ، ولا يحدث خلل فى نظام وراثة العرش فهو ينتقل بمقتضاه الى البرنس توفيق ؛ ويجب الا نخفى عن سموكم أن رفضكم للتنحى واجباركم بذلك وزارتى لندن وباريس على التوجه بالطلب الى السلطان رأسا يحلهما من وعدهما

لكم بالمخصصات ومن المحافظة على وراثـة العـرش لمصلحة البـرنس تـوفيق » [٦٥] .

ولمـا عرض هذا الانذار على الخديو رفضه بحجة انه لا يستطيع التخلى عن حكم مصر الا بأوامر من السلطان ، ونتيجة لضـغوط الـدول الأوربية على السلطان العثمانى صدرت أوامر السلطان بعزل اسـماعيل وتوليه ابنه توفيق مكانه وذلك فى ٢٦ يونيو ١٨٧٩ فغادر الخديو المعزول مصر الى نابولى عن طريق الاسكندرية وانتهت به الأمور الى الاقامة فى الآستانة حتى توفى فى السادس من مارس ١٨٩٥ .

تقييم عصر اسـماعيل

وهكذا يتضح ان أحوال مصر فى عصر اسماعيل كانت ابعد ما تكون عن الاستقرار حيث تفاقمت الازمة المالية [٦٦] واتخذت شكلا سياسـيا بسبب اسراف الخديو اسماعيل ، وانفاقه أموالا طائلة سواء فى مشروعاته وبذخه او لارضاء الدول الأوربية والسلطان ، كما تحملت الخزانة المصرية نفقات باهظة فى سبيل تسوية النزاع الخاص بمشروع القناة ومحـاولات الخديو ارضاء السلطان ورشوة رجاله مقابل فرمان الوراثة ومنحه لقب خديو كما انفق على حفلات افتتاح القناة مليونا واربعمائة الف جنيه [٦٧] .

زد على ذلك فشل مشروعاته الاقتصادية بعد توقف الحرب الاهلية الأمريكية وانخفاض اسعار القطن وما واكب ذلك من انتشار حالات الافلاس فاضطر الى أن يستدين بشروط باهظة [٦٨] ففتح الباب عـلى مصراعيه للاجانب وعقد قروضا واتفاقات مع البيوت المـالية الأجنبية [٦٩] التـى تآمرت على سلب الخديو ارادته وتسابقت فى اغرائه على عقد قروض جديدة بفوائد فاحشة مما ادى الى زيادة التدخل الأوربى فى شئون البلاد الداخلية خصوصا بعد أن وافق على تأسيس صندوق الدين والمراقبة الثنائية وعلى أن يشترك فى الوزارة التى الفها نوبار عام ١٨٧٨ وزيران اجنبيان انجليزى للمالية وفرنسى للاشغال ، كما انتشرت فى عهده عمليات التهريب التى يقوم بها الاجانب بصورة كبيرة [٧٠] ، مما ساعد على خراب البلاد وفسـاد احوالها [٧١] ، حيث ساءت احوال الفلاحين واشتد الظلم فى جمع الضرائب،

لدرجة ان بلغ البؤس بالفلاحين انهم كانوا ينزلون عن أطيانهم فرارا من الضرائب ، ونتيجة لافلاس خزائن الحكومة حرم الموظفون من صرف مرتباتهم ثمانية عشر شهرا ، كما احيل الفان وخمسون ضابطا الى الاستيداع توفيرا للنفقات [(٧٢)] ، واضطر الخديو الى بيع اسهم قناة السويس ، وابتـــدع قانون المقابلة .

ونتيجة لاستحكام الازمة راى الوطنيون التخلص من الخديو الـــذى لا يحسن تصريف امور البلاد فتألف الحزب الوطنى للدفـــاع عن حقـــوق الأمة [(٧٣)] ، وجعلوا مركزهم مدينة حلوان ، ونشروا عدة منشورات اشاروا فيها على الحكومة بمراعاة مصلحة البلاد .

وفى هـــذا الجـــو المشوب بالقلق والتوتر تم عزل الخديو اسماعيل واحلال ابنه توفيق محله ، قد استقبلت البلاد هذا النبأ بالابتهـــاج وعم الناس السرور لحدوث مثل هذا الامر الخطير دون وقوع اختلال يعكر صفو الأمن فى البلاد .

مراجـــع الفصـــل الثالث

(١) توفى ابراهيم باشا فى ابريل ١٨٤٧ على حين توفى محمد على فى الثانى من اغسطس ١٨٤٩ .

(٢) هو ابن طوسون بن محمد على ، وكان اكبر افراد أسرة محمد على سنا وبالتالى أحقهم بولاية الحكم بعد ابراهيم باشا .

(٣) بيير كرابيتس : اسماعيل المفترى عليه — ترجمة فـؤاد صروف — القاهرة ، دار النشر الحديث ص ١٢ .

(4) Sammarco : Précis de Histore d'Egypte, IV, p. 4 .

(٥) انظر عصر اسماعيل حـ ١ ، الطبعة الأولى ١٣٥١هـ — ١٩٣٢م ص ١٠ .

(٦) انظر : تاريخ التعليم فى عصر عباس وسعيد ص ٥ — ٦ .

(٧) كرابيتس : المرجـــع السابق ص ١٣ .

(٨) انظر على سبيل المثال . على مبارك : الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها حـ ٧ ص ٦٣ .

(٩) من أبرز الأمثلة على ذلك انـــه أبعد رفاعـــة الطهطـــاوى الى الخرطوم ليكون السودان منفى له .

(١٠) جرجى زيدان : تاريخ مصر الحديث حـ ٢ ، القاهرة ، مطبعة الهلال ١٩٢٥ ص ٢٠٢ .

(١١) تردد أن الأمير نازلى هانم عمة عباس باشا هى التى ائتمرت به نتيجة لأنه حاول قتلها ، واضطرها للرحيل الى الاستانة .

(١٢) كرابييتس : المرجع السابق ص ١٣ .

(١٣) كرابييتس : المرجع السابق ص ١٤ .

(١٤) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٣ .

(١٥) أحمد عـــرابى : كشف الســـتار عن سر الأسرار — ج ١ ص ٧ — ٨ .

(١٦) للتفاصيل عن هذه اللائحة انظر : فيليب جلاد : قاموس الادارة والقضا . الاسكندرية ، المجلد الاول ص ١١٨ .

(١٧) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٥ — ٣٤ .

(١٨) كرابيتس : المرجع السابق ص ٢٧ على حين يذكر الرافعى أن عددهم ١٢٠٠ مقاتل وان معظمهم فى السودانيين .

انظر : عصر اسماعيل ص ٤٠ .

(١٩) كرابيتس : المرجع السابق ص ١٥ — ١٦ .

(٢٠) الرافعى : المرجع السابق ص ٥٩ .

(٢١) كرابيتس : المرجع السابق ص ٥٩ .

(٢١) كرابيتس : المرجع السابق ص ١٧ — ١٨ .

(٢٢) كرابيتس : المرجع السابق ص ٢١ .

(٢٣) عن تفاصيل ذلك انظر الفصل الخاص بانجازات مصر الحضارية .

(٢٤) الرافعى : المرجع السابق ص ٧١ .

(٢٥) كان قبل ذلك فى عزلة تامة عن امور الدولة خصوصا وان عمه سعيد باشا لم يكن يشجعه على ذلك .

(26) Milner : England in Egypt, London p. 176, 263

(27) Zetland : Lord Cromer, London 1933 p. 72 .

(28) Farman, E : Egypt and Its Betrayal .

(29) Leon : The Khedive's Egypt, London 1877 .

(٣٠) انظر اسماعيل المفترى عليه ص ٥٨ .

(٣١) جون مارلو : تاريخ النهب الاستعمارى لمصر من الحملة الفرنسية الى الاحتلال البريطانى ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦ ص ١٥٥ .

(٣٢) جورج يانج : تاريخ مصر من عهد المماليك الى نهاية حكم اسماعيل ، ص ١٠ .

(٣٣) الرافعى : عصر اسماعيل حـ ١ ، القاهرة، مطبعة النهضة ، الطبعة الأولى ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م ص ٧٨ .

(٣٤) للتفاصيل انظر قاموس الادارة والقضاء حـ ٦ ص ٧٣٠ .

(٣٥) هذا اللقب نعت فارسى مشتق من كلمة « خيفا » وهى اسم فارسى من اسماء الله يعنى « ربانى » أو الهى ولما كان الأتراك والمصريون لا يعرفون الفارسية فقد كان لهذا اللقب الجديد سحر خاص مشتق مما يحيط به من خفاء معناه ، فرضى عنه السلطان لأنه اقتنع انه لا يعنى شيئا ، وسر به الباشا لأنه اقتنع بأنه يعنى كل شىء .

بيير كرابيتس : اسماعيل المفترى عليه ص ١٤٨ .

(36) A. Sammarco : Said et Ismaïl p. 209 — 210 .

(٣٧) للتفاصيل انظر اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار حـ ٢ القاهرة ، ١٣١٢هـ ص ١٩٩ ، ومحمود فهمى باشا : البحر الزاخر فى تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر القاهرة ١٣١٢هـ حـ ١ ، ص ١٩٩ .

(٣٨) عن نص هذا الفرمان : انظر الوقائع المصرية العدد ٥١٧ فى ١٧ من يوليو ١٨٧٣ .

(٣٩) لتفاصيل ذلك انظر جورج جندى : اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية ص ٤٨ .

(٤٠) الرافعى : المرجع السابق ص ٧٦ .

(٤١) مارلو : المرجع السابق ص ١٥٢ — ١٥٣ .

(٤٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : الخديو اسماعيل وعلاقته بالباب العالى رسالة ماجستير ، مكتبة جامعة القاهرة ص ١٤٦ .

(٤٣) الرافعى : المرجع السابق حـ ١ ص ٢٠٨ — ٢٠٩ ولمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر أمين سامى : التعليم فى مصر ، وعلى مبارك : الخطط التوفيقية .

(٤٤) الرافعى : المرجع السابق حـ ١ ص ٢٥٦ — ٢٦٨ .

(٤٥) الرافعى : المرجع السابق حـ ١ ص ٢٩٩ وجرجى زيدان تاريخ مصر الحديث حـ ٢ ص ٢٠٨ .

(٤٦) الرافعى : المرجع السابق حـ ١ ص ٣٠٠ — ٣٠٢ .

(47) Mac Coan : Egypt as it is p. 246 .

(٤٨) كرابيتس : المرجع السابق ص ١٣٢ — ١٣٣ .

(٤٩) الرافعى : المرجع السابق حـ ٢ ص ١٠ — ١١ .

(٥٠) كرابييتس : المرجع السابق ص ١٣١ .

(٥١) الرافعى : المرجع السابق حـ ٢ ، ص ٢٨٥ .

(٥٢) اصدر سعيد باشا مرسوما فى عام ١٨٥٧ جعل الأجانب فى مأمن تام من أحكام المحاكم المصرية .

A. Sammarco : Said et Ismail, p. 273 .

(٥٣) كرابييتس : المرجع السابق ص ١٩٤ — ١٩٥ .

(54) Lord Lioyd : Egypt Since Cromer London 1933 Vol 1 p. 17 .

(٥٥) الرافعى : المرجع السابق حـ ٢ ص ٣٠٠ .

(٥٦) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار حـ ٢ القاهرة ، المطبعة الأميرية ببولاق ، ١٣١٤ هـ ص ٣٤٨ .

(٥٧) من ابرز الادلة على ذلك بعثة الجنرال ستون فى عام ١٨٧٠ .

(٥٨) انور عبد الملك : نهضة مصر ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٣ ص ٢٧١ .

(٥٩) انفق منها الخديو ١٦ مليون جنيه خلال حفر قناة السويس .

(٦٠) احمد شفيق : حوليات مصر السياسية حـ ١ القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٢٦ ، ص ٩ .

(٦١) حول نص هذا التقرير انظر :

Blue Book : Egypt No. 7 (1876) Report by Mr, Cave on the Financial Condition of Egypt .

(٦٢) الرافعى : المرجع السابق حـ ٢ ص ٦٨ .

(٦٣) فيليب جلاد : قاموس الادارة والقضا ، حـ ٢ ، ص ١٤٤ .

(٦٤) عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها حـ ٤ ، القاهرة ، الانجلو المصرية ، ١٩٨٦ ص ٢٠٦٨ ، د. عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق حـ ٢ ص ٧٣ .

(٦٥) كرابييتس : المرجع السابق ص ٢٥٣ وايضا :

Cromer : Modern Egypt Vol 1 p. 135 .

(66) Hansard's Parliamentary Debats Vol 231, 28 July 1876 p. 635 .

(٦٧) المجلة التاريخية المصرية المجلد السادس ١٩٥٧ مقال للدكتــور عبد العزيز الشناوى تحت عنوان « ما تكلفته مصر فى انشاء قناة السويس » ص ١٥٣ .

(٦٨) احمد شفيق : حوليات مصر السياســية حـ ١ ، القــاهرة ، مطبعة شفيق باشا ١٩٢٦ ص ٩ .

للتفاصيل انظــر :

(69) Farman, E : Egypt and its Betrayal U. S. A., 1908 .

(٧٠) دار المحفوظات العمومية بالقلعة : دفتــر كوببا عموم خفــر السواحل صفحة ٦٤ وما بعدها .

(٧١) دار الوثائق : أوراق خاصة بالسيد جمال الدين الأفغانى .

(٧٢) اسماعيل الايوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل المجلد الثانى ١٨٦٣ — ١٨٧٩ ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ١٩٢٣ ص ٤٧٠ .

(٧٣) انظر عبد المنعم الجميعى : عبد الله النديم ودوره فى الحــركة السياسية والاجتماعيــة ، القــاهرة ، دار الكتب الجــامعى ، ١٩٨٠ ص ٣٠ — ٣١ .

الفصل الرابع

الثورة العرابية والاحتلال الانجـليزى لمصر

- أحوال مصر قبيل قيام الثورة العرابية .
- حـــادث قصر النيـــل .
- مظاهرة عابدين ٩ سبتمبر ١٨٨١ ونتائجها .
- العرابيون ووزارة شريف باشا .
- وزارة البارودى وانتصـــار الثـــورة .
- مؤامرة الجراكســـــة .
- العرابيون والتـــدخل الأجنبى .
- بعثة درويش باشـــا .
- العرابيون ومذبحة الاسكندرية .
- مؤتمر الآســـتانة .
- ضرب الاسكندرية .
- التعاطف الوطنى والاسلامى ضد الانجليز .
- منشور السلطان بعزل عرابى .
- معركة التل الكبير .
- محاولات الدفاع عن القاهرة والتسليم .

الثـــورة العرابيـــة

احوال مصر قبيل قيام الثورة العرابية :

كانت مصر فى عصر الخديو اسماعيل أبعد ما تكون عن الاســـتقرار فسياسته ادت الى ارتباك أحوالها المالية ذلك أن اسراف الخديو المتزايد سواء فى محاولاته ارضاء السلطان العثمانى ورشوة رجاله كى يحصــل على فرمان تصدره الدولة العثمانية بتعديل فرمان الوراثة ومنحه لقب خديو مصر او فى محاولاتـــه تعـــديل شروط حفــر القنـــاة ، ثـــم ما انفقـــه على افتتاح القناة من مبالغ تصـــل الى مليون واربعمائة الف جنيـــه ، ويضاف الى ذلك فشـــل مشروعات الخديو الاقتصادية بعد توقف الحرب الأهلية الأمريكية وانخفاض اســـعار القطن وما واكب ذلك من انتشـــار حالات الافلاس الأمـــر الذى جعل الخديو يســـتدين بشروط باهظة وهـــو ما فتح الباب على مصراعيه للاجانب وأدى الى زيادة التدخل الأوربـــى فى شئون مصر [(١)] .

كل هـــذه الأحـــداث ادت الى اضـــطراب الأوضـــاع الســـياسية والاقتصادية والاجتماعية فى البلاد ، وفى تلك الفتـــرة وفد اليها الـــداعية الاسلامى الكبير جمال الدين الأفغانى فكانت الفرصـــة مهياة له لكى ينشر افكاره الثورية والاصلاحية فلعب دورا بارزا فى ايقاظ الـــوعى الوطنى واستطاع أن يبث مبادئه الاصـــلاحية فى نفوس المصريين فى وقت كانت جذوة الوطنية تتقد فى نفوســـهم ، فاعطى دفعة قوية للحـــركة الوطنيـــة المصرية ، وبعث فى نفوس قادتها الامل فى امكان تغيير الأوضـــــاع فى مصـــــــر .

ولكى تنتشر روح الثورة بين أكبـــر عدد من الأهالى فى مصر شجع جمال الدين الأفغانى على انشاء الصحف لتكوين راى عام يقف فى وجـــه الظلم والتدخل الأجنبى ، وقد ادى هذا كله الى تعبيـــر بعض الوطنيين عن تذمرهم مما تعانيه البلاد ، فالفـــوا فى ابريل عام ١٨٧٩ جمعية سرية

أطلق عليها جمعية حلوان بهـدف الحد من سيطرة الأجانب ونفوذهم فى الحكومة ، وقد ضمت شريف باشا واسماعيل راغب ومحمـد سلطان وغـيرهم .

واذا كانت أحوال البلاد بصفة عامة سيئة ، فان احـوال الجيش بصفة خاصة كانت اكثر سوءا ، فالأجانب خصوصا الشراكسة كانت لهم الاولوية فى الترقى على المصريين ، ويستأثرون بالنفوذ فى كافة اسـلحة الجيش وقيادته رغم افتقارهم الى الخبـرة والكفاية فى التدريب ، وقـد ظهر ذلك واضحا فى الحملة التى ارسلها الخديو اسماعيل الى الحبشـة لتوسيع املاك مصر الافريقية هناك ، ونتيجة لمـا احس به المصريـون فى اثناء هذه الحملة من سوء معاملة الضباط الشراكسة لهم ، وضياع دمـاء المصريين رخيصة بسبب اخطاء هؤلاء القـادة فى ادارة العمليات الحربية انتاب الضباط الوطنيين السخط ، وزاد من تذمرهم ان الخديو اسـماعيل لم يحاسـب الضباط الشراكسـة على اهمالهم الذى ادى الى هـزيمة الجيش المصرى فى الحبشـة ، وقد دفع ذلك الضباط الوطنيين الى تاليف جمعية سرية هدفها التخلص من الطبقة الجركسية المسيطرة على امـور الجيش ، وفتح باب الترقى أمام المصريين وعـزل الخـديو اسـماعيل وتوليه البرنس حليم مكانه ، وقـد عرفت هذه الجمعيـة السرية باسـم جمعية مصر الفتاة ويبدو أنها اسست خلال السنوات من ١٨٧٦ الى سنة ١٨٧٨ [٣] ، وقد اسس هذه الجمعية على الروبى الذى كان يعمل رئيسا لفرع المهمات خلال الحملة على الحبشة ثم انضم احمد عرابى الى هـذه الجمعية ولم يلبث ان اصبح عضوا بارزا فيها ، وكان لسـان حال هـذه الجمعية جريدة « ابو نظارة » التى كان يحررها يعقـوب صنوع . وقـد اتصل العسكريون فى جمعية مصر الفتاة بجمعية حلوان لتوحيد الصفوف والبحث عن الطرق الموصلة لاصلاح البلاد .

ولمـا قامت وزارة نوبار فى عام ١٨٧٩ باحـالة الفين وخمسـين ضابطا ومنهم احمد عرابى الى الاستيداع توفيرا للنفقات دون ان تصرف لهم شيئا من رواتبهم المتأخرة تذمر الضباط وكتبوا عريضـتين احـداها لمجلس النظار ، والأخرى للخديو اعربوا فيهما عن سوء احوالهم لعـدم

صرف رواتبهم مـــدة ثمانية عشرة شـــهرا ، واستيائهم الشـــديد بسببه ذلك ، كما عقد حوالى ٦٠٠ ضابط اجتماعا فى ثكنات الجيش بالعباســية يوم ١٨ فبراير ١٨٧٩ خرجوا على اثره فى مظاهرة عسكرية اشترك فيها طلاب المدارس العسكرية ، وبعض الجنود وثلاثـــة من اعضـــاء مجلس شورى النـــواب وذهبوا الى مقر وزارة المـــالية يتقدمهم البكباشى لطيف سليم وتربصوا لنوبار باشا وويلسون عند خروجهما من وزارة المـــالية وقابلوهما بالاهانة والاعتـــداء ، وســـجنوهما فى مبنى نظارة المـــالية ، ولمـــا ابلغ الخديو بثـــورة الضباط توجه الى مكان الحادث ، ونجح فى تهدئة الموقف ولولا تدخله فى الوقت المناســـب لتفاقمت الأزمـــة [٣] ، وقد ترتب على هذه المظاهـــرة ان ســـقطت الوزارة الاوربية فى ١٩ فبـــراير ١٨٧٩ وفيها تخلص الخديو من نوبار .

وهكذا اثبتت مظاهـــرة ١٨ فبراير ١٨٧٩ قدرة رجال الجيش على تســـيير الأحداث وامكانية وقف تغلغل النفـــوذ الأجنبى فى البلاد والوقوف فى وجه المظالم التى يتعرضون لها .

واسفر الاتصـــال بين تنظيم الجيش وجمعيـــة حلـــوان عن تأليف الحزب الوطنى . وقـــد نشر اعضاء هذا الحزب عدة منشورات اشـــاروا فيها على الحكومة بمراعاة مصالح البلاد ، واعترضـــوا على الدين الممتاز واختصاصه [٤] ، ومع ان الخديو اسماعيل لم يكن مستريحا لافكار هذا الحزب الا انه اضطر الى غض الطرف عنه بسبب الشعور المعادى من جانب الأوربيين للخديو .

ولمـــا ضاقت الدول الأوربية بسياســـة الخديو اســـماعيل حاولت اقناعه بالتنازل عن العرش ، ولكنه ماطل فى الـــرد على طلبهم بحجـــة احالة المسألة على الســـلطان وانتظـــار اوامـــره عندئذ ضغطت الدول الأوربية على الســـلطان فى الاستانة لكى يصدر امرا بعزل اسماعيل فوافق على طلبهم ، وبذلك انتهى حكم اســـماعيل بعـــد أن رزحت مصر خلاله تحت وطأة الظلم والاستبداد ، وتولى توفيق الحـــكم فى ٢٦ يونية ١٨٧٩ فى جو مشحون بالمصاعب فالخزانة خاوية ، والجيش مختل النظـــام ،

والاهالى ساخطون لما اصابهم من مظالم يضاف الى ذلك ان الخديو توفيق لم يكن بالرجل الذى يستطيع مواجهة كل هذه المخاطر .

حادث قصر النيل (أول فبراير ١٨٨١) :

ولما كانت الفروق الطبقية والميل الى التعصب الجنسى واضحين فى صفوف الجيش نظرا لتعصب عثمان رفقى ناظر الجهادية لأبناء جلدته من الشراكسة واستخفافه بالعنصر الوطنى فكانت الوظائف الهامة والرتب والنياشين تعطى للضباط الشراكسة وغيرهم (٥) بينما حرم منها الضباط المصريون كما ان عثمان رفقى اخرج معظم الضباط المصريين فى الجيش الى المعاش قبل السن القانونى كما كلف بعضهم باعمال بعيدة عن الجندية مثل حفر الترع ومباشرة الاعمال الزراعية فى أراضى الخديو يضاف الى ذلك انه سن قانون للقرعة العسكرية يمنع بمقتضاه الترقى من تحت السلاح الى رتبة الضباط مما يعوق ترقى الجنود المصريين العاملين فى الآلايات تحت السلاح ، ويجعلهم أنفارا تحت تسلط الضباط من الاتراك والشراكسة .

وقد دفعت كل هذه المظالم الضباط الوطنيين الى التذمر (٦) فكتبوا عريضة وقعوا عليها وسلمها كل من « احمد عرابى كولونيل الفرقة الرابعة للبيادة ، وعبد العال بك حشيش كولونيل الفرقة السادسة للبيادة » الى رياض باشا رئيس مجلس النظار فى يناير ١٨٨١ يطالبون فيما بوقف المحسوبية والظلم ، وأن يكون وزير الحربية مصريا .

ولما احس رياض بخطورة الموقف قام باستدعاء عرابى وعبد العال حشيش ، فحضرا يصحبهما « على بك فهمى كولونيل الفرقة الأولى من البيادة » فأخذ فى توجيه النصائح لهم موضحا خطورة ما يترتب عليه عرض شكواهم من مخاطر ، ولكن الضباط تمسكوا بموقفهم فعرض رياض باشا المسألة على مجلس النظار الذى عقد بقصر عابدين تحت رئاسة الخديو ، فقرر المجلس القبض على الضباط الثلاثة واحالتهم الى مجلس عسكرى غير عادى يشكل لمحاكمتهم بمقتضى القوانين العسكرية (٧) واخفى الامر على الضباط .

ولمـــا استدعى الضباط الثلاثة لوزارة الحـــربية بحجـــة المداولة فى بعض الترتيبات التى كانت تعد لموكب كان سيصـــاحب احدى الأميرات بمناسبة زواجهـــا احســـوا بأن هناك مكيدة مبيتة لهم ، فأخذوا حذرهم ، وقبل انتقالهم الى الوزارة تركوا تعليمات لضـــباطهم بالتوجه الى مقـــر الوزارة لانقاذهم اذا لم يعودوا فى ظرف ساعتين (٨) .

وقد تحقق ما توقعه القادة الثلاثة فعنـــد وصولهم الى مبنى الوزارة تم اعتقـــالهم ثم انعقـــد مجلس فى وزارة الحـــربية لمحاكمتهم ، وتحددت المحاكمة فى انيوم نفسه (أول فبراير ١٨٨١) الســـاعة الثانيـــة عشر الا ربعـــا وقـــد عقد هذا المجلس تحت رئاسة الجنرال استون وعضوية كل من ابراهيم باشا ولارمى باشا وبلونز باشـــا واللواء خورشيد عاكف باشا واللواء محمد رضا باشـــا واللواء متقـــاعد نجم الدين باشـــــا ، وبينما كانت جلسة المحاكمة منعقدة اقتحمت الفرقة الأولى مشاة بقيـــادة انبكباشى محمد عبيد مبنى الوزارة ، واحدثوا فيها ضجة ودخلوا الحجرة التى كانت تجـــرى فيها المحاكمة ، وعاملوا عثمان رفقى وزيـــر الحـــربية معاملة ســـيئة . وكادوا يفتكون به لولا انه هـــرب من احدى النـــوافذ واختفى فى أحد المخازن ، كما دمر الضباط الوطنيين بعض اثاث الـــوزارة واطلقـــوا سراح الضـــباط المحجوزين بالقـــوة ثم ســـاروا بعـــد ذلك فى مظاهرة عسكرية الى قصر الخديـــو مطالبين بعزل وزيـــر الحربية والنظر فى شـــكواهم الخاصـــة بوضعهم على قدم المساواة مع الضباط الشراكسة فى الترقية ، ولمـــا احس الخديو بعـــدم جدوى المقاومة خصوصا وانه لم يكن لديه فى الجيش فرقة يمكن الاعتماد عليها رضخ للامـــر الواقع وعـــزل عثمان رفقى وبذلك نجح العرابيون فى فـــرض ارادتهم ، وخضع الخديو لمطالبهم ، وتأكدت زعامة عـــرابى على الجيش بعد ان نجح فى بث روح التضامن والاقدام بين الضباط مما كان له أكبر الأثر فى تطور الأحداث ، فقـــد احس الخديـــو بخطـــورة الموقف فحـــاول تســـكينه واكتســـاب ثقة العسكرين فعين محمـــود ســـامى البارودى وزيرا للحـــربية ، كما دعـــا الضباط من رتبـــة البكباشى الى رتبـــة فـــريق ، والقى فيهم خطابا فى حضـــور وزيـــر الحـــربية أوضح فيه حبه للعسكرية وعفـــوه عما حـــدث فى قصر النيل ، ونصـــحهم باهمية التمســـك بقوانين الجهـــادية ،

وعدم الخروج عن حدود وظائفهم والاجتهاد فى أداء واجبـــاتهم العسكرية ، ولمـــا انتهى الاجتماع اعطى الخديو للبارودى التعليمات بانتقليل من نفوذ عرابى وزملائه ، ولكن البارودى لم ينفذ تعليمات الخديو بل قام بالاتحاد الكامل مع العرابيين ، وطالب بزيادة مرتبات الضباط والعساكر لعـــدم تناسبها مع لوازم المعيشة [٩] فاجيب الى طلبه كما اعلنت قوانين عادلة للجيش تعد بالمساواة للجميع .

ورغم هذا النجاح السريع الذى حققه الضباط الوطنيين فانهم لـــم يطمئنوا الى الخديو خصوصـــا بعد انتشار الشائعات بأنه ينتظر الفرصة المناسبة للتخلص منهم نتيجة لما أفقدوه له من هيبة ، وأن رياض باشـــا أيضـــا ينتظر أى فرصـــة للانتقام منهم لذلك زادوا من احتيـــاطات الأمن الخاصـــة منهم وبوجه خاص بعد الدســـائس والمؤامرات التى تعرضوا لهـــا .

ولمـــا كان الشـــعب المصرى يرزح تحت المظـــالم التى لا تقل عن المظـــالم التى كان يعانى منهـــا رجال الجيش فقـــد بارك حركة الضباط حيث وجد فيها تنفيسا عن آلامه ، وتقـــديرا لآماله فى التخلص من ربقـــة التـــدخل الأجنبى ، كما اصبح عـــرابى وزملاؤه موضـــع اعجاب الأمة وتقديرها وتـــردد اسمه على أفواه الناس كأول فلاح مصرى يقف فى وجه الطغيان ويعبر عن آمال الشـــعب وآلامه فلم تمض عـــدة اسابيع على حادث قصر النيل حتى انهالت عـــرائض الفلاحين من جميع انحاء البلاد على عرابى يبثون اليه شكواهم وما يقـــع عليهم من مظالم ففتح عـــرابى قلبه للجميع كما وجدت الطبقـــة المصرية المثقفة والتى تنشـــد الحيـــاة الدستورية انها لو اتحدت مع الحركة الوطنية فى الجيش لعجلت بوضـــع حد فاصل لشقاء البلاد ولأنقذت الوطن من التغلغل الأجنبى ، ونتيجـــة لتزايد شـــعبية عـــرابى اشـــار عليه عبد الله النـــديم الذى انضـــم الى العسكريين ووقف بجانبهم بطبـــع منشور يطلب فيه من الشعب أن ينيبه — أى عرابى — فى المطالبة بحقوقه والتحدث باســـمه فيما يتعلق بشـــئون البلاد [١٠] فوافق عرابى وقام النديم بتوزيع هـــذا المنشور فى كافة انحاء البلاد كما اخذ يبث الافكار الثورية بين مشـــايخ العربان وعمـــد البـــلاد واعيانهـــا وعلمائهـــا وتجارها وكافة الاهـــالى استجلابا لمساعدتهم [١١] ثم

اخذ فى جمع التوقيعات منهم ودعاهم الى نصرة عرابى ، واخــذ يعلمهم فوائد الحرية ومعانى الدستور .

وبعد أن جمع النديم توقيعات الأهالى عاد الى القاهــرة ، ومعــه التوكيلات التى وقع عليها النــاس بانابة عــرابى فى الدفاع عن حقوقهم ففرح بها عرابى وشدت من ازره ، وكان لها اثــرا كبيرا فى تقوية العزائم وعلى اثر ذلك جاءت الوفود من الأقاليم الى القاهرة لمبايعة عــرابى على تخليصهم من الظلم الذى ضيق عليهم حياتهم وافســدها واســتقبل عرابى هذه الوفود فى منزله الذى كان يمتلأ بالنــاس يوميــا ، واخــذ ينشــر اراءه بينهم ، وبذلك تضامن الشعب مع الجيش من اجل الاصلاح واصبح عرابى نائبا عن الأمة المصرية يتحدث باسمها ويدافع عن حقوقها .

مظاهــرة عابدين ٩ سبتمبر ١٨٨١ ونتائجها :

ولمــا برزت خطورة العرابيين وخصوصــا بعد ان تكاتف الشــعب معهم أحس الخديو بالخطــر على مركزه ، ورأى ضرورة الســيطرة على الجيش فأقال البارودى من نظارة الحــربية فى ١٣ أغســطس ١٨٨١ ، وعين مكانه صهره داود يكن وطلب منه الحــد من نشاط الوطنيين داخل صــفوف الجيش فقــام وزير الحــربية الجــديد بفرض الرقابــة على العــرابيين وملاحقتهم بالجواسيس ، كما حاول تشتيت شملهم فأصــدر اوامره بنقل الفرقة الثالثة المشاة التى يقودها عــرابى من القاهــرة الى الأسكندرية والآلاى السودانى الذى يقوده عبد العال حلمى الى دميــاط ، ونظرا للخطورة التى تترتب على تشتيت شمل الجيش توقف عرابى وصاحبه عن اطاعة الأوامر وأرسل خطابا الى وزير الحربية وضح له فيه أن صدور الأوامر بنقله يعنى تشتيت القوات العسكرية بغرض الانتقام منه وانــه وزملاءه لا يستطيعون تسليم انفسهم للموت ، ولذلك ستحتشد قواته فى ميدان عابدين الساعة الثالثة والنصف من مساء يوم ٩ سبتمبر لعــرض مطالبها ، وانهى عــرابى خطابه بأن وزير الحربية لن يجــد اى فــرقة عسكرية تتقدم لاطاعة أوامره .

وكان نبأ احتشاد العرابيين بقواتهم فى عابدين مفاجأة للخديو حيث

كان قبل الحادث بيوم فى زيارة لطنطا مع بعض وزرائه ، ولـم يتـوقع تطور الموقف الى هذا الحد .

ولمـا علم الخديو بتصميم العرابيين على التجمع أمام قصر عابدين اخـذ رأى المستر كولفن Colvin المراقب المـالى الانجليزى فيمـا يجب عمله فنصحه باستدعاء القوات الموالية له ، واستدعاء البـوليس الحربى الى ميدان عابدين وقيادة هـذه القوات واعتقال عـرابى عنـد اقترابه من الميدان ، ولكن الخديو رفض النصيحة على اساس أن المدفعية وسلاح الفرسان مع عرابى ، وقد يطلقون النار ، ولكن المستر كوكسن شجعه واوضح له بأنه اذا لم تكن لديه الشجاعة لاتخاذ المبادرة فستكون العواقب وخيمة .

وقد ذهب الخديو مع المستر كولفن وبعض الوزراء والضباط الموالين له الى قصر عابدين حيث اقسمت له فرقة الحراسة يمين الولاء ثم ذهب للقلعة حيث حدث نفس الشىء ، ولكن اتضح لهم أن الفرقة الموجـودة بالقلعة كانت تعطى اشارات لفرقة عرابى فى العباسية قبل وصولهم وحاول الخديو الذهاب الى ثكنات العباسية ، ولكن الساعة كانت قد اقتربت من الثالثة والنصف وهو الموعد الذى حدده عرابى للاحتشاد فى عابدين فحثه كولفن على الرجوع الى ميدان عابدين آخذا معه فرقة القلعة ، وعنـد وصوله للميدان يضع نفسـه على رأس تلك الفرقة وفرقـة الحراسـة والبوليس الحربى ، ولكن الخديو ذهب الى العباسية ، وكانت السـاعة حوالى الرابعة فوجد أن عرابى سار بفرقته الى ميدان عابدين فتبعوه ودخل الخديو القصر من باب جانبى ، وتجمعت قوات العرابيين فى ميدان عابدين فى مظاهرة عسكرية قوامهـا اربعة آلاف ضابط وجندى تصحبهم فرسانهم ومدفعياتهم على النحو التالى : ثلاثة فرق مشاة فى الجوانب الأربعة للميدان، والمدفعية وقوة الفرسان ومجموعة من الضباط حول عرابى فى الوسـط ، كما ازدحمت ساحة عابدين بجماهير المواطنين ، وامتلأت نوافذ البيـوت المجاورة للسراى واسطحها بالمتفرجين .

ونزل الخديو من القصر وتقدم الى الميدان بناء على نصيحة المسـتر كولفن وكان عرابى راكبا حصانه فطلب منه الخديو أن ينزل من على جواده

ففعل وتقدم عرابى مع بعض ضباطه الى الخديو الذى طلب منه أن يغمد سيفه فأطاع عرابى الأمر [١٢] وسأل الخديو عرابى عن أسباب حضوره بالجيش فأجاب عرابى « جئنا يا مولاى لنعرض عليك طلبات الأمة وطلبات الجيش وكلها طلبات عادلة » فسأل الخديو « وما هى هذه الطلبات ؟ » فأجاب عرابى بأنها « اسقاط وزارة رياض المستبدة وتشكيل مجلس للنواب على النسق الأوربى وزيادة عدد الجيش الى القدر المعين فى الفرمانات السلطانية والتصديق على القوانين العسكرية » فقال له الخديو « كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى واجدادى وما انتم الا عبيد احساننا » فرد عرابى « لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا ، فوالله الذى لا اله الا هو اننا لا نورث ولا نستعبد بعد هذا اليوم » [١٣] .

ولما اوضح الخديو لعرابى أن مطالبه ليست من اختصاص رجال الجيش كان رد عرابى « لست أطلبه وأنا عسكرى الصفة بل أنا نائب هذه الأمة الواقفة » [١٤] ، وهذا يعنى أن عرابى وقف فى ساحة عابدين مستندا فى تقديم مطالبه الى الخديو على التوكيلات التى أرسلها له الشعب ليكون متحدثا باسمه ، وممثلا للأمة المصرية كلها ينطق باسمها ويعبر عن ارادتها عن طريق الجيش الذى اجتمع ليفرض بقوة السلاح مطالب الشعب المصرى فى الحرية والعدالة على الخديو ، ثم تطورت مطالب العرابيين وهى المساواة بين الضباط المصريين والشراكسة ، بتغيير شكل الحكومة من نظام استبدادى الى نظام دستورى .

ولما تحرج الموقف بالنسبة للخديو وخصوصا بعد أن رفض عرابى أن تترك قواته ساحة عابدين الا بعد أن تجاب مطالبه نصح المستر كولفن الخديو بالعودة الى القصر ، وأن يترك له مهمة التحدث مع عرابى وزملائه ففعل ، وقام كولفن بشرح خطورة الموقف للعرابيين ، واخذ يحثهم على سحب قواتهم ، ولما لم ينجح فى محاولاته اقترح على الخديو ان يقوم بابلاغ الضباط انه على اتصال بالباب العالى لعرض مطالبهم ، ويجب عليهم التفرق حتى يصل الرد من القسطنطينية ، ووافق الخديو على الاقتراح وذهب القنصل الانجليزى المستر كوكسن واخبر عرابى بذلك فكان رد عرابى انه سيبقى وقواته

فى الميدان الى أن يصل الرد ، وانهم لن يعترفوا بالخديو حتى يصل مندوب من الباب العالى لتسوية هذه المسائل ، فابلغ كوكسن الخديو بالأمر ، واوضح له ان الطلب الذى يعطيه الضباط اهمية حقيقية هو عزل الوزارة ، وبعد اجتماع قصير بين الخديو ورياض خول الخديو المستر كوكسن اخبار عرابى بانه وافق على تغيير الوزارة على أن تبقى النقاط الأخرى التى طلبها الضباط معلقة الى ان يصل الرد من الباب العالى ، وقد وافق عرابى على ذلك وعزل رياض باشا ، ولما عرض على عرابى تعيين حيدر باشا او اسماعيل أيوب رئيسا للوزارة رفض كليهما ، وطلب تعيين شريف باشا لثقة العسكريين فيه ، فوافق الخديو ، ودعا شريف الى تاليف وزارة جديدة فقبلها بعد أن اشترط نقل الفرق العسكرية التى اشتركت فى المظاهرة خارج القاهرة ، وقد وافق العرابيون على طلب شريف ، وغادر عرابى وجنوده ساحة عابدين تصحبهم نشوة النصر .

ولما شرع شريف باشا فى اختيار النظار طلب منه العسكريون تعيين محمود سامى البارودى ناظرا للجهادية فلم يرق له طلبهم ، واخبرهم بانه « ترك الجهادية لنفسه » ، لكنهم اصروا على طلبهم مما اضطر شريف باشا الى اختياره .

وهكذا انتصرت الأمة بواسطة جيشها ، ونالت مطلبها بعد أن قبل الخديو مطالب العرابيين .

ولكى ينقذ الخديو موقفه المتدهور أرسل الى السلطان العثمانى يبلغه بتطورات الموقف وتعاظم نفوذ العرابيين ، ويطلب منه « ارسال قوة عسكرية يبلغ تعدادها عشرين طابورا على وجه السرعة على ان تكون قيادتها منوطة به خاصة ، ولكن السلطان أهمل طلبه خصوصا وان انجلترا حاولت منع تركيا من استغلال الموقف للتدخل فى شئون مصر فطلبت من مندوبها فى الآستانة اقناع السلطان بذلك ، وقد استعاض السلطان عن ارسال قوات عسكرية بارسال بعثة لتقصى الحقائق فى مصر برئاسة على نظامى باشا .

وقد وصل الوفد الى القاهرة فى ٦ أكتوبر ١٨٨١ ، وزار آلاى قصر النيل الذى كان تحت قيادة طلبة عصمت ، والقى نظامى باشا خطابه بالتركية ترجمه البارودى للضباط ، وردا على الخطاب اعلن طلبة عصمت انه نيابة عن الضباط والجنود يعرب عن اعترافه بسيادة السلطان على مصر وتأييده لسلطة الخديو .

وقد غادر الوفد القاهرة الى الاسكندرية فى ١٨ أكتوبر ١٨٨١ .

والجدير بالذكر ان انجلترا وفرنسا استاءتا من حضور الوفد العثمانى الى مصر على غير اتفاق معهما واعتبرتاه تدخل فى شئون مصر الداخلية ، كما انتهز السير ادوارد مالت القنصل الانجليزى الفرصة لكى تبسط بلاده نفوذها على مصر فطلب من حكومته ارسال بارجة حربية الى مياه الاسكندرية فأجابته الى طلبه كما اتفقت الحكومة الفرنسية على ان ترسل هى الأخرى بارجة على أن تغادر البارجتان الاسكندرية حين مبارحة الوفد العثمانى مصر ، وفعلا حدث ذلك حيث غادرت البارجتان ميناء الاسكندرية فى ٢٠ أكتوبر ١٨٨١ أى غداة سفر الوفد العثمانى .

ومما سبق يتضح أن موقف الدولة العثمانية كان قائما على أهمية تثبيت السيادة التركية على مصر دون الاهتمام بمصالح مصر ومصيرها .

العرابيون ووزارة شريف باشا :

واستقرت الأمور فى البلاد وخصوصا بعد أن وافق العسكريون على طلب شريف باشا بالتنحى عن مسرح السياسة والعودة الى معسكراتهم فنقل آلاى عبد العال حلمى الى دمياط ، وآلاى عرابى الى راس الوادى بالشرقية وذلك استجابة لطلب شريف باشا .

ومع أن شريف حاول تشتيت شمل الجيش حتى يبعده عن التدخل فى السياسة ويزيل الصفة التى اكتسبها عرابى بأنه نائب عن الأمة فقد خاب تقديره لان خروج عرابى من القاهرة الى راس الوادى لم يفقده شعبيته ، ولم يبعده عن قيادة الحركة الوطنية فقد تجمع حوله

الفلاحون وتردد عليه الأهالى والعربان الذين وجدوا فيه متنفسا لآمالهم والمدافع عن حقوقهم ، وتسابق أعيان الشرقية وفلاحوها للاحتفاء به ، وكانت مواكب عرابى كالمظاهرات الوطنية ، كما أصبحت الشرقية مجالا خصبا لنشر المبادىء الوطنية فى نفوس عمد البلاد ومشايخ العربان .

ولم يكد شريف باشا يسمع بأخبار الاستقبالات الشعبية التى تحيط بعرابى والعرابيين فى الشرقية حتى ضاق ذرعا وازداد حنقا على عرابى فاستدعاه الى القاهرة ليبعده عن الفلاحين ، وحتى يتيسر له — كما يذكر — « اعطاؤه النصائح فى كل وقت »[١٨] ونتيجة لاصرار البارودى واستحسان باقى النظار لرايه اضطر شريف الى تعيين عرابى وكيلا لنظارة الجهادية ، كما عرض عليه رتبة اللواء ، ولكنه رفضها حتى يبقى الآلاى فى عهدته .

وهكذا سار العرابيون من نصر الى نصر ، يحدوهم الأمل فى تحرير بلادهم من ربقة الظلم الداخلى والتدخل الخارجى .

وبعد أن تمت انتخابات مجلس النواب افتتح الخديو المجلس بالقاء خطبة العرش .

وعين سلطان باشا رئيسا للمجلس لمدة خمس سنوات ابتداء من ٧ فبراير ١٨٨٢ ، وسارت حكومة شريف تؤدى وظيفتها بطريقة ديمقراطية فانفسحت صدرها للنقد والملاحظة ، وكادت تستقر لها الأمور وتتمكن الحياة الدستورية من السير فى الطريق السليم لولا ان ذلك لم يوافق هوى كل من انجلترا وفرنسا لان مصر متى أصبحت فى يد ابنائها لابد أن تعيد النظر فى الامتيازات الأجنبية ، وتوقف مد التدخل الأوربى فراحت الدولتان تدبران لافساد الموقف فافتعلت سلسلة من الازمات لعرقلة الامور ، وبدأ تدخلهما يظهر بصورة سافرة ، فلما اجتمع مجلس النواب فى ٢٦ ديسمبر ١٨٨١[١٩] بدأ فى ترتيب لائحته الداخلية ومناقشتها ، وفى أثناء مناقشة اللائحة وقع خلاف بين النواب والوزراء حول سلطة المجلس فى اقرار الميزانية ، وأثناء بحث هذا الخلاف طلب المراقبان الماليان الحد من سلطة البرلمان فى تقرير الميزانية بحجة ان ذلك

من اختصاصها وأن ميول المجلس عدائية نحو الجانب الأوربى فى الحكومة ، ولبث روح انشقاق بين نواب الأمة والخديو ارسلت كل من انجلترا وفرنسا فى ٧ يناير ١٨٨٢ مذكرة مشتركة الى الخديو تتضمن تأييد الدولتين له بكل الوسائل للتغلب على الصعوبات التى تواجهه [٣٠] حيث انهما اتفقتا على بذل الجهود المشتركة لمقاومة كل اسباب المشاكل الداخلية والخارجية التى تهدد النظام القائم فى مصر ، وقد قوبلت هذه المذكرة بثورة عارمة ادت الى تكاتف الجيش والوطنيين ومجلس النواب ضد انجلترا وفرنسا ومع ان الحكومة رفضت المذكرة فان الخديو قبلها بالشكر والعرفان مما كان له أبعد الأثر فى تطور الحوادث فقد نجحت انجلترا وفرنسا بذلك فى زيادة الهوة والانقسام بين العرابيين والخديو ولم يكتفيا بذلك بل ارسلتا مذكرة مشتركة أخرى فى ١٨٨٢/١/٢٦ تؤيدان ما طلبه المراقبان الماليان فى ان مجلس النواب ليس من حقه الاقتراع على الميزانيـــة .

ولما احس شريف باشا بخطورة الموقف ، والضغط الأوروبى تقدم بقانون تأسيس المجلس الذى تضمن منع النواب من الاشراف على الميزانية مما اثار ثائرة اعضاء المجلس ، فرفضوا هذا القانون واصروا على ضرورة اشراف المجلس على الميزانية واخذ الاعراض عن شريف يتمكن من نفوسهم ، وطالب البارودى النواب بضرورة الاطلاع على الميزانية ، ومناقشتها وعزل شريف باشا اذا لم يوافق على ذلك .

والواضح انه كان يوجد داخل مجلس النواب اتجاهان احدهما دستورى معتدل وعلى راسه شريف باشا والآخر دستورى ثورى يستند على العسكريين .

ولما زاد التدخل الاوربى فى شئون مصر برز دور العناصر الدستورية الثورية فحين تدخل قنصلا انجلترا وفرنسا فى الأمر رفض مجلس النواب تدخلهما ، وارسل النواب لجنة الى الخديو مطالبين بالاشراف على الميزانية او استعفاء الوزارة فثارت ثائرة شريف باشا واضطر الى الاستقالة مما ادى الى انتقال مقاليد الأمور الى الحزب العسكرى وانصاره .

وهكذا تطورت الأمور الى درجة التحدى الواضح بين العناصر الوطنية

التى تريد وقف النفوذ الاجنبى وبين الدول الأوربية التى لم تكن تسمح بقبول الوضع الذى مكن الوطنيين من ادارة شئون بلادهم .

وزارة البارودى وانتصار ارادة الثورة :

وبعد استقالة وزارة شريف باشا جمع البارودى الضباط والنواب فى تشلاق عابدين ، وطلب منهم تعيينه رئيسا لمجلس النظار خلفا لشريف ، فذهب النواب الى الخديو وطالبوا بتعيينه فوافق على طلبهم ، وكلف محمود سامى البارودى بتشكيل الوزارة على أن تحال اليه نظارة الداخلية كما أمر الخديو بتعيين عرابى وزيرا للحربية فى الوزارة الجديدة .

وقد استهلت وزارة البارودى عهدها بأن جعلت من حق مجلس النواب النظر فى الميزانية والاشراف على احوال البلاد المالية مع تعهدها باحترام الارتباطات الدولية والالتزامات المالية المرتبطة بالديون ، كما كونت مجلس شورى الحكومة لرفع الاستبداد الادارى عن الشعب(٢١) وللمساعدة فى تجهيز القوانين واللوائح الادارية وهكذا استطاع العرابيون السيطرة على زمام الموقف والحد من سلطة الخديو الذى اصبح لا حول له ولا قوة وسارت الحركة الوطنية يحدوها الرغبة فى السير بالبلاد الى بر الأمان ، ولكن تطورات الأحداث اعاقت حركتهم .

مؤامرة الجراكسة :

وقام عرابى بتمصير الجيش باحالة عدد كبير من الضباط الأتراك والشراكسة على الاستيداع واصدار قوانين فى صالح الوطنيين ، وترقية حوالى ٥٦٠ ضابطا منهم ، فأحدث ذلك ضجر بين الجراكسة وزاد من ضجرهم ان عرابى ادخلهم ضمن تشكيل الآلاى المقترح ارساله الى السودان للحد من انتشار الثورة المهدية فتآمروا على اغتيال زعماء الثورة وقد علم عرابى بهذه المؤامرة عن طريق شخص يدعى راشد نور فقبض على المتآمرين ومنهم عثمان رفقى وعقد لهم مجلسا عسكريا برئاسة على الروبى لمحاكمتهم وقد اصدر هذا المجلس احكامه بنفى اربعين من المتهمين الى اقاصى السودان مدى الحياة وتجريدهم من الرتب العسكرية والنياشين(٢٢) ولكن القنصلين الانجليزى والفرنسى اوعزا الى الخديو

بعدم التصديق على هذه الأحكام ، فوافق الخديو على طلب القنصلين بحجة أن الأحكام صادرة على الأربعين ضابط على سياق واحد ولا يصح ان تكون جنحة الجميع مثل بعضهم بل لابد من التفاوت واصدر أمرا بتخفيف العقوبة الى مغادرة المتهمين للبلاد ، والغاء بقية الأحكام مما أثار حنق العرابيين على الخديو الى حد ان البارودى دخل ثائرا على الخديو ، وطلب منه اصدار أمر يقضى بنفى المحكوم عليهم ، ومحو أسمائهم من دفاتر العسكرية والا فانه لن يكون « آمنا على نفسه ولا على مسند حكومته ، ولا على حياة الأوربيين الموجودين بالقطر المصرى » كما هدده بأنه ستحدث مجزرة كبيرة لن ينفع الخديو فيها القناصل ولا الدول الأجنبية ، ولكن الخديو أصر على رايه وفى نفس الوقت عرض الأمر على السلطان العثمانى ، وطلب منه ارسال هيئة تحقيق تركية تحت رئاسة مشير لاعادة التحقيق مما زاد من سخط العرابيين على الخديو خصوصا وانهم اعتبروا أن عرض الأمر على السلطان بمثابة تنازل عن الامتيازات التى نالتها مصر فى استقلالها بشئونها الداخلية فطلب محمود سامى البارودى بصفته رئيسا للنظار دعوة البرلمان للتشاور فى هذا الأمر منكرا على الخديو حق العفو ، ولكن الخديو رفض دعوة المجلس مما دفع البارودى الى دعوته بدون أمر الخديو[٢٣] مخالفا بذلك المادة التاسعة من الدستور التى تنص على انه « اذا مست الحاجة الى تكرار اجتماع المجلس فى غير مدته المعتادة فيكون ذلك بمقتضى أمر يصدر من الحضرة الخديوية تتقرر فيه مدة ذلك الاجتماع »[٢٤] . وقد تم الاجتماع بمنزل محمد سلطان باشا رئيس المجلس ، وحضره معظم النواب وكثير من رجال الجيش ، وقد القى عرابى خطبة طلب فيها خلع الخديو ولكن سلطان باشا رفض ذلك بقوة وطالب بتأييد الخديو ولم يستطع العرابيون رغم تهديدهم لسلطان باشا ومحاصرة منزله بما يقرب من الفى عسكرى الحصول على موافقة المجلس ، وقد انتهز الخديو هذه الفرصة واستطاع احداث انقسام بين أعضاء البرلمان فأغرى محمد سلطان باشا رئيس المجلس وستة آخرين بالانضمام اليه ، ومع ذلك قرر المجلس مؤازرة الوزارة كما قرر باغلبية ٤٥ ضد ٣٠ صوتا بأنه اذا استمر الخديو فى الاستماع الى النصائح الأجنبية فلابد من خلعه ومحاكمته ، وبذلك وقف النواب مع الجيش تساندهم الوزارة ضد الخديو مما زاد من مشاكله .

واشتدت الأزمة بين العرابيين والخديو ، وتدخل النواب ورجـال الدين للتوفيق بين الطرفين فطلبوا من الخديو ابقاء الوزارة حلا للاشكال ، وبعد مشاورات وافق عـلى طلبهم ، وذهب الوزراء اليـه أعلنوا ولائهم التام له .

والجدير بالذكر ان العرابيين كانوا ينقسمون الى متطرفين امثال طلبة عصمت وعبد العال حلمي ومحمد عبيد وعبد الله النديم ، ومعتدلين امثال البارودى وعبد السلام المويلحى اما عرابى فكان يحتل المركز الوسط ؛ وفى حين كان يزج المتطرفين بعـرابى الى مواقف خطـيرة كان المعتدلون يحاولون تهدئة الموقف .

العرابيون والتدخل الأجنبى :

وقد سارت الأمور بما لا يعطى مجالا لاى تدخـل اجنبى ، وضمن عرابى مسئولية حفظ النظام وصيانة الأمن ، ولكن انجلترا وفرنسا ما ان وصلت اساطيلهما الحربية الى الاسـكندرية حتى تقدمتا بمذكرة مشتركة اخرى فى ١٨٨٢/٥/٢٥ تطلبان فيها اسقاط وزارة محمود سامى البارودى ، وابعاد احمد عرابى من مصر ، وتحديد اقامة على فهمى وعبد العال حلمى فى الريف .

وقد رفضت وزارة البارودى هذه المذكرة كما رفضتها الأمة كلها ، وارسلت التلغرافات لتأييد الوزارة الوطنية ، ومـع ذلك فقد وافق عليها الخديو ، وطلب من النظار قبولها منعا لحدث ارتباكات سياسية وسـفك دماء ولكنهم اعترضوا عـلى ذلك ، وقـدم محمـود سـامى البارودى استقالته فى ٢٦ مايو احتجاجا على التدخل الأجنبى وقبول الخديو له ، فقبلها الخديو بناء على نصيحة انجلترا وفرنسا ، وتولى امـور الجيش بنفسه . وقد ادى هذا الاستفزاز من الخـديو للعرابيين الى تذمر كبار الضباط الوطنيين فاظهر طلبه عصمت العصيان وقـال للخديو « انـه بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن اخوانه بالجهادية لا يقبلوا ذلك » وانهم يرفضون المذكرة المقدمة من انجلترا وفرنسا ولا يقبلون عز لعرابى عن نظارة الجهادية ثم خرج طلبة عصمت غاضبا ومعه عـلى فهمى ويعقوب سامى وبعض الضباط ومع ذلك فقد اصر الخديو على رايـه واصـدر

أوامره الى العسكريين بالتزام ثكناتهم والى المديرين بعدم تنفيذ الأوامر التى كانت وزارة البارودى قد ابلغتهم بها بعد ان اصبحت مستقيلة ، واخذ رجال الجيش من انصار عرابى فى عمل محاضر ضد الخديو[٣٥] كما اعلن الضباط انهم لن يقبلوا ناظرا للجهادية غـــير عرابى باشـــا وارسل كبار الضباط وافراد الآلايات وقائمقامات البوليس والمستحفظين بالاســـكندرية تلغرافات الى الخديو بانه اذا لم يعد عرابى الى وظيفته فلن يكونوا مسئولين عن الأمن فى المدينة ، وحدد بعضهم مهلة اثنى عشر ساعة لعودة عرابى الى وظيفتـــه . كما وردت التلغرافات من كافـــة طبقات الشعب تؤيـــد العرابيين فى موقفهم الوطنى واراد قناصل الدول الأجنبية ضمان حمايـــة رعاياهم فاجتمعوا بعرابى والزموه مسئولية حماية الأوربيين فاجابهم عرابى بأنه لم يعد له صفة رســـمية تمكنه من تحقيق مطالبهم ، ولكنـــه بصفته الشخصية كمواطن يؤكد لهم حماية الأجانب . واجتمع عرابى برجال الجيش وهدد بمحاصرة سراى الاسماعيلية اذا لم يصدر له امرا بابقائه فى نظارة الحربية كما طلب من رجال الجيش الا يتصرفوا الا بناء عـــلى تعليماته ، ولا يفعلوا شيئا الا بأوامره ، ويذكر الخديو توفيق فى رساله له الى الباب العالى ان عرابى وان كان قد استقال (لفظا) فانه لم يتخل عن القيادة ، وهو يتابع اصدار المنشورات الى العساكر حيث يضمنها تعليماته كما ان الضباط والعساكر يأبون سواه للجهادية .

والواقع أن عرابى لم يكن خلال هذه الأزمة على اتصال بالجيش فقط بل أيضا بالوطنيين من غير العسكريين ويبدو ذلك واضحا من خطـــاب لعرابى يذكر فيه انه وان كان قد استعفى من نظارة الجهادية فانـــه لم يستعف من رئاسة الحزب الوطنى وقـــد حاول سلطان باشـــا وبعض النواب حسم الخلاف فذهبوا الى الخديو وطلبوا منه أن يظل عرابى ناظرا للحربية فرفض فالتحمت طبقات الشعب وخرج علماء الأزهـــر والمشـــايخ والنواب والاعيان ومجموعة من التجار واصحاب الحرف الى الخديـــو ، وطلبوا أن يستمر عرابى فى نظارة الجهادية حفظا للامن تسكينا للاضطراب ، وانه « فى حالة عدم قبول ملتمسهم سيحصـــل قتل عام » وتحت هذا الضغط الشعبى اضطر الخديو الى اعادة عرابى ناظرا للجهادية والبحرية والاكتفاء به ليدير شئون البلاد مع وكلاء الوزارات المختلفة[٣٦] بمعنى انه رغم عودة

عرابى فان مصر ظلت بدون مجلس وزراء ، واستمر هــذا الوضــع لمدة ٢١ يوما مما يدفعنا الى التساءل عن سبب ذلك ولمـــاذا لم يكلف الخديو احد بتشكيل الوزارة مع انه اعاد عرابى الى نظارة الجهادية .

الواقع أن الخديو توفيق طلب من شريف باشا تشــكيل الوزارة ، ولكن شريف اشترط تعيين عمر لطفى محــافظ الاسكندرية ناظرا للجهادية ولمـــا رفض رجال العسكرية ذلك واصروا على بقاء عرابى تأخر تشكيل الوزارة .

بعثـــة درويش باشـــا :

ونتيجة لتطور الأحداث حاول السلطان العثمـــانى استغلال الموقف بهدف عودة سلطانه المتدهــور فى مصر وتثبيت السيادة التركية عليهـــا فأرسل بعثة الى مصر وصلت اليها فى ٧ يونية ١٨٨٢ تحت رئاسة درويش باشا لتقصى حقائق الأمور والتحقيق فى امر الخلاف بين الخديو والوزارة فأرسل كل من الخديو وعرابى مندوبين لاستقبال البعثة فى الاسكندرية فكان ذو الفقار باشا ينوب عن الخديو ، ويعقوب ســـامى ينـــوب عن عرابى ولمـــا حضر درويش باشا الى القاهرة اســـتقبله الشـــعب فى الطريق بشعارات يمدحون فيها عرابى ويخفضون من شأن الخديو وكان يشجعهم على ذلك حسن موسى العقاد ويعطيهم النقود ، ولم يعترض مأمور ضبطية مصر على ذلك[٢٧] .

وكانت خطـــة درويش باشـــا الاستفادة من الخـــلاف بين الخديو والعرابيين وكان العثمانيون يرون فى استفحال امر الوطنيين على الخديو فائدة لهم آملين من ذلك بقاء مصر تحت حوزتهم ، ورغبة فى ان يؤدى هذا الانقسام الى تثبيت مركزالسلطان اظهر درويش باشا لكل طرف انه معه ولمـــا اتضحت نواياه بعد ذلك أعلن انضمامه الى الخديو علانيـــة ، ومع ذلك فقد ظل مركز العرابيين قويا وخصوصا أن الأمة كانت تقف صفا واحدا خلف عرابى مما ضايق الخديو وحاول زعزعة الثقة فى العرابيين وخصوصا امام الدول الأوروبية ، قد تم له ما أراد بقيام مذبحة الاسكندرية .

العرابيين ومذبحــة الاسكندرية :

حاول الخديو ان يحرج مركز العرابيين خصوصا بعد ان تعهد عرابى بمسئولية حفظ الامن والنظام ، وذلك باحداث شغب وفوضى مما يزعزع الثقة فى النفوس ، وخصوصا الجاليات الأوروبية مما يؤدى الى التدخـل الأوروبى بحجة أن الحكومة غير قادرة على حماية ارواح الأجانب فسعى بواسطة بعض اتباعه الى احداث شغب فى القاهرة « الى حد ان الوزارة احتاطت لمنع الفتنة » .

واستدعى الخديو ابراهيم بك توفيق مدير البحـيرة ، وطلب اليـه أن يجمع مشايخ قبائل البدو ، ويحضرهم اليه ففعل ثم اوعز الى المديـر ان يامرهم بحشد ٣٠٠٠ بدوى ، واحضـارهم الى العاصمة عن طريق الجيزة ليحدثوا فتنة فى البلد ولكن تعـذر ذلك ، ولمـا فشل الخـديو فى مسعاه ارسل برقية الى عمر لطفى محافظ الاسكندرية جاء فيها ما يـلى « قد ضمن عرابى امر الأمن العام ، ونشر ذلك فى الصحف ، وجعل نفسه مسئولا لدى القناصل ،واذا نجح فى ضمانه هذا وثقت به الدول وصغر شأننا ، اما الآن واساطيل الدول فى ميـاه الاسكندرية وعقـول الناس متهيجة ، فوقوع الخلاف بين الأوربيين وغيرهم آمر محتمل ، فاختر لنفسك اما خدمة عرابى فى ضمانه او خدمتنا » .

ويذكر تيودور روزشتين انه استتبع هـذه البرقية مفاوضات اخرى جرت على يد ابن عم الخديو الأمير حيدر باشا الذى تنقل عدة مـرات بين القاهرة والاسكندرية حاملا رسائل المتآمرين كما سافر عمـر لطفى الى القاهرة فى ٩ يونية ليقف على خطة المؤامرة . وقـد طلب الخديو منـه احداث شغب فى المدينة حتى يكون ذلك وسيلة الى افشال تعهد عرابى وتوجيه اللوم عليه ، وهكذا دبرت مذبحة الاسكندرية ، وقد بدات الحوادث فى يوم الأحد ١١ يونية ١٨٨٢ فى الساعة الثانية ظهرا على اثر مشـاجرة فردية بين مالطى من اتباع الانجليز وبين مكارى مصرى بسبب خلاف على أجر حمار كان الأول قد استأجره من الثانى وتطور الأمر بينهما الى حـد أن المالطى طعن المصرى بسكين[٢٨] فجرحه وتجمـع الناس ، وتدخـل جاويش مصرى من قسم اللبان ضد المالطى ، كما انتصر للمالطى احـد

ابناء جلدته ، وفى اثر ذلك كثرت الغوغاء وعلت الضوضاء وسلت الخناجر وجردت المدى من الاغماد ، واشتعل الموقف وتطور الأمر الى حد ضرب بعض الأجانب للاهالى بالرصاص من نوافذ واسطح المنازل وامتدت المشاجرات حتى عمت ارجاء الثغر فهجم الرعاع على المارة واصحاب الدكاكين واخذوا يسطون على كل أجنبى وجدوه فى طريقهم كائنا ما كان ويوسعونه ضربا بالعصى والهراوات كما انتشروا فى الشوارع وانبثوا فى احياء الأوروبيين منادين بالجهاد وساعد على ذلك القلق والاضطراب اللذان استوليا على اهالى الاسكندرية نتيجة للشائعات حول تواجد الاسطول المشترك فى مياه الاسكندرية واستمر القتال نحو خمس ساعات لم يستطع احد خلالها السيطرة على زمامه الا بعد تدخل القوات العسكرية المرسلة بأمر عرابى والواقع أنه لولا تدخل عرابى فى الوقت المناسب لانتهى الشغب بمجزرة عنيفة أودت بحياة الأوروبيين .

ان اصابع الاتهام تشير الى ان مدبرى هذه المذبحة هم عمر لطفى محافظ الاسكندرية بالاتفاق مع الخديو والسيد قنديل مأمور الضبطية فى حى اللبان بالاسكندرية وعبد الله النديم خطيب الثورة العرابية والانجليز وفيما يلى نعرض للتهم الموجهة الى كل هؤلاء ، ووجهات النظر المختلفة حولها .

ان اتهام عمر لطفى بالتحريض على هذه المذبحة (٣٩) امر له ما يبرره وفيما يلى نعرض لذلك .

١ — ذكر محمد رشيد رضا ان الشيخ محمد عبده قال « كنت فى الاسكندرية فسمعت الناس اجمع يقولون ان المحافظ عمر لطفى سمح بانتشار الفتنة الى هذا الحد لانه كان مقيما فى البلد ، ولم يصدر امرا بتوقيفها ، ولم يذهب الى مكان الفتنة . ولم يطلب مساعدة العسكر النظامى مع انهم كانوا على مقربة منه واجمع الناس على ان عمله هذا موعز به من الخديو » حيث كان جميع مستخدمى المعية فى ثانى يوم الحادثة فى غاية الفرح والسرور لما حدث ساخرين من التزام عرابى بالمحافظة على الأمن العام كما ذكر الشيخ محمد عبده فى مذكراته عن الثورة العرابية أن عمر لطفى كان بالقرب من زيزينيا « فسأله سائل

كيف تكون هنا ، والمذابح على خطوات منك فقال لست بقائد ، وهـذا لا يعنينى فسـأله لم لا تحضر بلباسك الرسمى على حصانك شاهرا سيفك فى خمسين من العساكر وبذلك ينتهى الأمر فأجابه انصرف ليس هذا من شأنك » ويتفق برودلى مع الشيخ محمد عبده فى أن عمر لطفى لم يعط الأوامر بوقف المذبحة (٣٠) كما يتفق معه جون مارلو فى ان عمر لطفى لم يذهب الى مكان الحادث فى الوقت المناسب (٣١) .

٢ — ان عمـر لطفى حرض بعض الناس على الاشتراك فى المذبحة ، وشجعهم على ذلك كما انه اشار على رجال البوليس بعـدم التدخل بل وطلب من أحد البدو اطلاق الرصاص على كل أوربى كان يقف فى شباك وبيده مسدس وذلك لزيادة اشعال الموقف .

٣ — ان عمر لطفى جلب الى الاسكندرية عصبة من البدو المستأجرين وسلحها بالنبابيت ، كما امـر رجال البوليس فى السر بأن يشهدوا مـا سيجرى ولا يتعرضوا .

٤ — ان عمر لطفى استحوذ على محل التلغراف بالاسكندرية ليكون على اتصال بالخديو ولم يخبر سليمان سامى قائد الحامية بشىء الا بعد مضى الساعة الرابعة ، وقد أمره بأن يقود جنده عزلا من السلاح .

٥ — ان عمر لطفى طلب انزال عساكر انجليزية الى الميناء لعجـز عرابى عن الأمن .

٦ — ان عمر لطفى بحكم وظيفته كمحافظ للاسكندرية وقت الفتنـة كان مسنودا اليه ملاحظة اشغال الضبطية والدائرة البلدية بالاسـكندرية وهذه الوظيفة كانت تابعة رأسا للخديو ، ومع ذلك فانه لم يسـأل عن الأحداث التى وقعت بالمدينة بل اعفى من مسئوليتها واوعز اليه الخديو أن يستعفى بدعوى المرض .

٦ — ان الخديو امر بتعيين عمر لطفى وزير للحربية والبحرية جزاء لخـدماته .

وكما أن اتهام عمر لطفى بالاشتراك فى تدبير المذبحة أمر له ما يبرره فان التهم قوية ايضا ضد السيد قنديل مأمور ضبطية الاسكندرية لأن رجال الشرطة التابعين له تراخوا فى اتخاذ الاجراءات الكفيلة وقت الفتنة بل كانوا يحثون الأهالى على الشغب ، وقدموا النبابيت والعصى لاولاد البلد ولم يتدخلوا لحماية الاوربيين بل ان بعض الأوربيين الذين ذهبوا الى الضبطية للاحتماء بها قتلوا داخلها أو طردوا منها ليقتلهم الرعاع كما انه قد ألقى من على سطح ضبطية الاسكندرية الى الشارع عصى ونبابيت لاستعمالها فى الضرب واشعال الموقف ، واشترك بعض رجال الشرطة فى القتل والاعتداء ويثبت ذلك الفحص الذى قام به بعض أطباء القنصليات الأجنبية فى مصر على جثث القتلى ان هؤلاء قد قتلوا اما باطلاق الرصاص عليهم أو بآلات حادة جارحة كالسكين ، ومن ناحية اخرى فان السيد قنديل الذى كان متكفلا بتوفير الأمن فى المدينة تمارض ؛ واحتجب وقت المذبحة ولم يتحرك من منزله بحجة اصابته بشلل نصفى مع ان هذا لم يثبت بشهادة الأطباء الذين كشفوا عليه ابان محاكمته ، كما ان الطبيب مصطفى النجدى الذى زاره يوم احتجابه ذكر أنه كان يمكنه الخروج من منزله لانه لم يصب بشلل كما ادعى ، ولما أخبر بالواقعة وكان لابسا ثياب النوم ، ومضجعا على مرقده مشروح الصدر فلم يجب المعاونين مطلقا ، ومن لهجة حديثه كان يظهر رضاه عما حدث بل ويذكر البعض انه اعطى أوامره بقتل الأوربيين .

اما عن النديم فقد اتهم بانه شجع المشاغبين على المذبحة ، وانه كان السبب المباشر فى توتر النفوس بالاسكندرية لخطبه المؤثرة التى القاها قبل المذبحة واجتماعه بشبانها ، وتأثيره عليهم بخطبه المهيجة [٣٢] وتحريضه لهم على الفتك بالاجانب مما دفع الأوربيين الى الاستعداد للدفاع عن انفسهم عند الحاجة ، وذكر عمر لطفى فى تقريره أمام قومسيون التحقيق فى ٣ اكتوبر ٨٨٢ ان النديم هيج وحرك افكار « الأهالى » بالخطب والدسائس التى اعقبت مقتله ١١ يونية مما كان له ابلغ الأثر فى أذهان العامة ، ولا سيما من الشبان الذين ضمهم اليه ، وجعلهم آلة فى انجاز اغراضه ، فأدام التردد اليهم ، والجامعة عليهم حتى انقاد له الكثير ورغم التنبيه بمغادرة الاسكندرية وعدم العودة اليها عاد وعمل ما عمله من

الخطابة فى الجهة المعروفة بالأنفوشى . ثم ذهب ولم نشعر به الا فى اليوم الثانى ، وقد أعقب ذلك المذبحة وانهى عمر لطفى تقريره باتهام النديم وغيره من العرابيين بأنهم كانوا سبب هذه الحادثة ويؤكد ما ذكره عمر لطفى التقارير الانجليزية الخاصة بمذبحة الاسكندرية اذ يتضح منها أن هـذا الحادث كان نتيجة لخطة مدبرة من قبل العرابيين وان حسن موسى العقاد كان قد ذهب الى الاسكندرية موفدا من قبل العرابيين قبل الحادث بيوم ، وغادرها ليلة الحادث .

وذكر الياس ملحمة الشامى ان خطب النديم كانت « تهيج الافكار ، وتحرض المصريين ضد الأوربيين والأتراك » ، كما كان يحث الشبان على حمل السلاح وتعلم استعماله حتى استجاب له بعضهم ، وتوجهـوا الى معسكر راس التين للتدريب .

وذكر محمد تامى أثناء استجوابه ان النديم كان يحضر الى الاسكندرية ويلقى فيها خطب ضد الحضرة الخديوية وضد الاوربيين .

وذكر ابراهيم الناضورى أثناء استجوابه عن حادثة الاسكندرية ان الخطب المهيجة التى كان يلقيها النديم ، وخصوصا الخطبة الاخيرة التـى القاها على شاطىء البحر بجهة السيالة ، والتى كانت قبل الحادثة بيومين كان لها اكبر الأثر فى هذه الحوادث [٣٣] ، ويتفق مع هـذا القول محمد طاهر ، ويزيد عليه أن موضوع هذه الخطب هى « مصر للمصريين » وان السلطنة ايضا كانت للمصريين قديما وليست لأحد من الأوربيين أو الترك ويذكر احمد سلامة انه قد بلغه قبل الواقعة بيومين ان نديم القى خطبا فى جهة الانفوشى هيج فيها الأهالى وحرضهم على قتل الاوربيين وحثهم على الحرب وحفظ الوطن .

وذكر جون مارلو أن مذبحة الاسكندرية كانت النتيجة التلقائية للدعاية المضادة للاوربيين والمسيحيين [٣٤] ويؤكد على حلمى بك وكان من كبـار الضباط فى محضر استجوابه ان عبد الله النديم اخبره قبل الحادث بيوم انه سيحدث بالاسكندرية أمر خطير ، وهذه هى نص روايته « انى قبل حصول المذبحة بيوم واحد قابلت عبد الله النديم فى وقت الصباح بمصر فسألته فى

اى وقت حضرت من الاسكندرية فقال حضرت منها ليلة أمس لاشغال مهمة وانى متوجه اليها فى هذا اليوم بعد الظهر فقلت له لماذا هذه العجلة ، ولأى سبب ستحضر من الاسكندرية فى ليلة أمس وتتوجه اليها فى هذا اليوم فقال لى انا حضرت من اجل مسالة مهمة ، ومتوجه الى الاسكندرية فى هذا اليوم لأن اسكندرية سيحصل فيها بكرة حركة جسيمة جدا ، وفى ثانى يوم حصلت تلك المذبحة فتحقق لى بذلك ان عرابى كان له دخل فى هذه الحركة الفظيعة » .

وذكر على داود فى محضر استجوابه أن النديم كان يحرض الشبان ويتكلم فى الديانات ، ويلقى الخطب وان سعادة المحافظ نبه عليه بالخروج من الاسكندرية .

ذكر لويس صابونجى فى رسالة منه الى بلنت أن شخصية النديم السريعة الاثارة يمكنها اشعال النار فى اى وقت لحرب دينية .

وعندما سئل احمد عرابى اثناء محاكمته عن صلته بالنديم ، وعن مدى معرفة انه سافر الى الاسكندرية قبيل المذبحة ، وان محافظ المدينة اراد ان يخرجه منها ، ولكنه لم يستطيع لصلته بالعرابيين لم ينكر عرابى هذا بل قال بأنه ليس مسئولا عن النديم ولا عن تصرفاته .

ورغم ان هذه الشهادات والتقارير تؤكد ان للنديم يدا فى احداث فتنة ١١ يونية فقد ذكر بلنت ان خطب النديم فى ذلك الوقت كانت تحض الناس على الهدوء ، وأنه كان يشرح لهم عدم التورط فى اى اشتباك مع الأوربيين حتى لا تعطى الفرصة للاسطول الانجليزى بالتدخل وضرب المدينة .

كما ذكر محمد حندق صاغقول مستحفظين الاسكندرية فى محضر استجوابه ان النديم لم يشجع الاهالى ضد الاوربيين بل كان يطلب منهم الاتحاد والا يعتدوا على احد . كما انه لم يكن موجودا بالاسكندرية وقت الحادث بل كان بالقاهرة .

والواضح ان هذه المذبحة احزنت عرابى ورفاقه ، لأن عدم استتباب الأمن قد اساء اليهم ، وقلل من عطف الدول الأوربية على حركتهم .

وقد انكر بلنت وبرودلى اتهام العرابيين بتدبيرها ، ومع اننا نضع فى الحسبان أن شهادات وتقارير الشهود كانت بعد هزيمة العرابيين وخروجهم من ساحة المعارك ، وان المغلوب كثيرا ما تلصق به التهم جزافا فاننا نرى ان طبيعة النديم الثورية ولهجته الخطابية التى تستثير الشعور دون حيطة أو تبصر ، وكراهيته للاجانب كان لها اكبر الأثر فى اثارة الأهالى الذين تشبعوا بكراهية الأجنبى المستغل فكتموا غيظهم فى نفسهم حتى حدثت الفتنة وكان دويها واضحا فى ١١ يونية ١٨٨٢ .

اما عن اتهام الانجليز بانهم هم الذين دبروا هذه المذبحة ، واصطنعوا حادثة المالطى مع المكارى لاثبات عجز الحكومة عن حماية الأمن استنادا على ان المالطى الذى تشاجر مع السيد العجان كان من اتباع الانجليز ، واخا لخادم المستر كوكسن القنصل الانجليزى (٣٥) فان هناك من المواقف ما يؤكد ذلك كما ان هناك من المواقف ما ينفيه .

ومن الموقف الأول يتضح حرص كولفن على اظهار البلاد بأنها غير مستقرة وبلا حكومة وان الفوضى تضرب اطنابها والخراب يتسع نطاقه ، ففى مذكرة له يذكر انه يتوقع فى اى لحظة أن يسمع عن حادثة خطيرة لا يمكن التنبؤ بعواقبها .

ويتهم عبد الله النديم المستر كولفن بتدبير احداث مذبحة الاسكندرية فيذكر ان هناك اتفاق مع السير مالت والمستر كولفن على أحداث فتنة فى الاسكندرية بين الأجانب والمصريين لاتخاذ ذلك ذريعة لتدخل الأساطيل الأجنبية فى الموقف واحتلال المدينة كما ذكر جون نينيه بأن كوكسن شجع المالطيين على التسلح غير أن هناك ما يدل على أن تسليح الأجانب لم تكن فكرة كوكسن وحده فبعد أن انتشرت الشائعات بحدوث مذبحة للأجانب فى الاسكندرية اقترحت القنصلية اليونانية على قنصل انجلترا وغيره من القناصل وضع خطة سرية لتسليح الأجانب للدفاع عن أنفسهم وقت الحاجة ، ولكن هذه الخطة لم تنفذ خشية ما قد يترتب على ذيوعها بين الاسكندريين من حوادث خطيرة .

اما عن الموقف الثانى فيتضح من محاضر جلسات العموم البريطانى

ان ما حدث فى الاسكندرية كان كارثة بالنسبة للانجليز راح ضحيتها بعض رعايا الانجليز الذين ذبحوا برغم أنهم فى حماية الاسطول البريطانى وتؤكد الأحداث ذلك فالقنصل البريطانى كوكسن ضرب وجرح فى راسه جرحا خطيرا بعد أن هجم عليه الغوغاء (٣٦) ولم يفلت من ايديهم الا باعجوبة كما قتل ضابط انجليزى مما دفع احد اعضاء مجلس العموم البريطانى الى ان يتساءل على من تقع مسئولية هذه الأحداث فى الاسكندرية (٣٧) .

ومهما كان الأمر فان ما حدث فى الاسكندرية قد اعطى الفرصة للانجليز لاتخاذ هذه الأحداث ذريعة للتدخل المباشر بحجة عجز العرابيين عن حماية أرواح الرعايا والقناصل الاجانب فى مصر .

وعقب الحادث سافر الخديو الى الاسكندرية مع درويش باشا بحجة العمل — كما ذكر الخديو لثابت باشا مندوبه فى استنبول — على تهدئة الخواطر وتقوية أسباب الأمان وتخليص الأذهان من المخاوف حيث هرب معظم السكان الأوربيين من البلاد والتجأوا للاسطول والبواخر الموجودة فى الميناء بعد أن تعرضوا للمحن التى صحبت مثل هذه الأحداث، ولكن كان واضحا من ذهاب الخديو الى الاسكندرية رغبته فى أن يكون على مقربة من الاسطولين الانجليزى والفرنسى بعد ان اعيد تدبيرها بواسطة الجيش ورغم ان السلطان قد طلب من الخديو ودرويش باشا الانتقال الى القاهرة للسيطرة على زمام الأمور فانه ظل بالاسكندرية بحجة تسكين الاضطراب وازالة الخوف من نفوس الأوربيين والاهالى ، كما ان الباب العالى احتج لدى الحكومة البريطانية على اى تدخل سياسى فى مصر دون موافقة سابقة من السلطان ، وقد حاول السلطان العثمانى استغلال هذه الأحداث بارسال قوات عسكرية تركية الى مصر تكون قيادتها لدرويش باشا ولكن تلك المحاولة قوبلت بعاصفة استنكار شديدة ضد السلطان فقد انكر علماء المسلمين ان يرفع مسلما سلاحا فى وجه أخيه المسلم ، واعلنت انجلترا ان هذا الضغط من السلطان ليس له ما يبرره وتحت هذه الضغوط سحب السلطان قراره بالتدخل المسلح فى مصر .

والجدير بالذكر انه بعد قبول استقالة البارودى لم تتألف الوزارة الجديدة برئاسة راغب باشا الا فى ٢١ يونية ١٨٨٢ وقد طلب الخديو ى

الأمر العالى الذى وجهه الى رئيس النظار الجديد ابقاء عرابى ناظرا للجهادية والبحرية [٣٨] .

وقد اهتمت وزارة راغب باشا بتهدئة الخواطر فى محاولة منها لاعادة العلاقات الطيبة بين اهالى الاسكندرية والأجانب الذين كانوا فى حالة انزعاج شديد فأصدرت تعليمات لخطباء المساجد ووعاظها « بان ينصحوا الناس بمواده النصارى وغيرهم من المخالفين فى الدين » كما اعتزمت الوزارة تأليف لجنة مختلطة من المصريين والأجانب مهمتها اجراء تحقيق فى حوادث الاسكندرية لمعاقبة المتسببين فيها ، وبدات الأمور تستقر فى بعض احياء المدينة ووزع العرابيون منشورا على الأهالى بأن الاساطيل على وشك الانسحاب من الاسكندرية ، وما ان اخذت الأمور تستقر حتى أصدر الخديو توفيق منشورا فى ٢١ يونية اتهم فيه عرابى بالتقصير فى المحافظة على ارواح الاجانب وابدى اسفه لاحداث الاسكندرية .

والواضح ان مركز الخديو فى تلك الفترة كان ضعيفا وسلطته مسلوبة وقد وضح ذلك للانجليز فقد ورد فى مناقشات احد اعضاء مجلس العموم البريطانى تساؤل عن مركز الخديو ، وعما اذا كان هو الحاكم الحقيقى فى مصر وهل يمكن ان يستمر كخديو للبلد [٣٩] ام لا .

ونظرا للخطورة المترتبة على ضعف سلطة الخديو ، وخشية الدول الأوربية وخصوصا فرنسا من انفراد انجلترا باحتلال مصر تقرر عقد مؤتمر دولى لبحث المسألة المصرية .

مؤتمر الآستانة :

دعت فرنسا الى عقد مؤتمر للنظر فى المسألة المصرية فوافقت انجلترا وروسيا والمانيا والنمسا وايطاليا على الدعوة بينما رفضت تركيا الفكرة فى بداية الأمر بحجة ان ايفاد درويش باشا الى مصر كاف لحل مشكلتها ولان تركيا رات فى بحث الموقف فى مصر على النطاق الدولى بمثابة تدخل فى شئون سيادتها غير ان السلطان عاد ووافق على حضور المؤتمر الذى انعقد فى احدى ضواحى الاستانة فى ٢٣ يونيو ١٨٨٢ . وانتهى الى عقد اتفاق أطلق عليه ميثاق النزاهة وبمقتضاه « تتعهد الحكومات التى يوقع

مندوبها على هذا القرار بأنها فى كل اتفاق يحصل بشأن تسوية المسألة المصرية لا تبحث عن احتلال اى جزء من أراضى مصر ولا الحصول على امتياز خاص بها ، ولا على نيل امتياز تجارى لرعاياها لا يخول لرعايا الحكومات الأخرى » .

وقد وقعه أعضاء المؤتمر جميعا ، كما قرر المؤتمر فى ٢٧ يونية ، وبعد ان انضمت اليه تركيا وجوب التدخل فى شئون مصر لاخماد الثورة على أن تعهد لتركيا بهذه المهمة ، ولكن انجلترا حين ابرمت القرار كانت تنوى نقضه فحين اقترح مندوب ايطاليا المفوض بانه ليس من حق اى دولة مشتركة فى المؤتمر أن تقوم بأى عمل انفرادى ضد مصر طالما ظل المؤتمر منعقدا طلب مندوب انجلترا أن يضاف الى الاقتراح جملة « الا فى حالة الضرورة القصوى » ليضمن بذلك لبلاده حق التدخل فى شئون مصر بحجة ما تقتضيه الظروف القاهرة ، وفعلا فانه لم يمض على توقيع انجلترا على قرارات المؤتمر ستة عشر يوما حتى ضرب اسطولها الاسكندرية بمدافعه فى ١١ يوليو (٤٠) .

ضـرب الاسـكندرية :

وفى يوم ٦ يوليو شرع الادميرال سيمور قائد الاسطول الانجليزى فى استفزاز العرابيين ، وانتحال الأسباب لمباشرة الاعمال الحربية فارسل الى قائد القوات العسكرية فى الاسكندرية يطلب منه وقف التدابير الحربية التى تجرى فى الطابيات وتسكين النشاط العسكرى فى الاسكندرية ووقف التحصينات القائمة ، واذا لم يتحقق ذلك فى مدى اثنى عشر ساعة فان الاسطول الانجليزى سيضرب مدينة الاسكندرية .

والواقع أن سيمور قد حاول انتحال الذرائع للعدوان على مصر ، وكانت لديه أيضا أسباب شخصية تدفعه الى الاسراع فى مباشرة الأعمال الحربية ، فاسطول بحر المانش كان قد تلقى الاوامر بالانضمام الى اسطول سيمور ، وكان قائد أسطول المانش ارقى رتبة من سيمور ، فاذا انضم اليه تكون الرئاسة له ، لذلك اسرع سيمور فى اختلاق الاسباب لضرب الاسكندرية قبل مجيء اسطول المانش .

وذكر جون نينه Ninet وكان شاهد عيان لضرب الاسكندرية انه كان يزور الحصون بصحبة كبار الضباط يوميا ، ولم ير بها اى ترميم ولم ينصب فيها اى مدفع جديد منذ وصول اوامر السلطان واكد ذلك ايضا « وكيل عموم الاستحكامات المصرية » ولكنه ذكر ان حكمدار طابية السلسلة كان لديه ثلاثة قواعد خشبية للمدافع الصغيرة ارسلها للتصليح واعيد تركيبها بعد صدور اوامر السلطان مما جعل البعض يظن بأنه تم تركيب مدافع جديدة (٤١) .

وذكر القائمقام فرج عبد العال فى تقريره المقدم الى الخديو انه « لما صدر الأمر السلطانى بتوقيف اشغال الطوابى ، حصل الامتثال من الجميع » (٤٢) .

وذكر محمد شكرى بك انه « لم يكن جاريا وقتها تصليح وترميم شىء بالاستحكامات نفسها بل الذى كان جاريا هو بياض وترميم القشلاقات » .

وذكر الخديو توفيق « ان ادعاءات الادميرال سيمور انما تقوم على الظن والشبهة ، فليس هناك مدافع وضعت فى الطوابى غير مدافعها القديمة ، ولم يعمد الى اية ترميمات جديدة فى الطابيات ، وليس ثمة حركات فى الطابيات سوى تنظيف المدافع ومسحها كالمعتاد واجراء بعض التمرينات دون اطلاق المقذوفات » .

ومهما كان الأمر فاننا نرى انه من حق العرابيين تحصين وترميم مواقعهم الدفاعية ، وان الحجة التى تذرع بها الانجليز لضرب الاسكندرية هى حجة واهية .

وطلب الادميرال سيمور من العرابيين رفع مدافع الاستحكامات الموجودة بطوابى راس التين ، وعلى الساحل الجنوبى للميناء الشرقية لان ذلك من وجهة نظره يعتبر تهديدا للسفن الانجليزية وهدد سيمور بانه فى حالة رفض طلبه سوف يطلق النار على الاسكندرية فى شروق شمس يوم الثلاثاء ١١ يوليو ١٨٨٢ ، وقد ردت الحكومة المصرية على انذار الادميرال بانه ليس هناك اية تدابير حربية تجرى فى الطابيات وانها على الحالة التى كانت عليها عند وصول الأساطيل ، ورات تفاديا

للعواقب التفاهم مع الادميرال سيمور بفك ثلاثة مدافع من الطوابى التى ادعى بتركيبها ، على أن يختـــار سيمور الأماكن التى يتم رفع المدافـــع عنها سواء من طابية واحدة أو من كل طابية مدفع واحد ولكنه اصر على مطالبه بتسليم الطوابى أو ضربها ، وكان الرد معارضة طلبه حتى لو أدى ذلك الى الحرب مع عدم مقابلة ضرب المدافع بالمثل الا بعد خمس طلقات من مدافع الاسطول ، ونفذ سيمور تهديده وبدأ فى ضرب الاسكندرية فى الساعة السابعة من صباح يوم ١١ يولية ١٨٨٢ وفتحت سفن الاسطول الانجليزى نيـــرانها على القلاع والســفن بعد ان غادر الاسطول الفرنسى بأوامر من حكومته الميناء الى البحر (٤٣) .

ولكى يجعل الانجليز عملهم العسكرى ذا صبغة شرعية عرضوا على الخديو الضيافة على ظهر احدى سفنهم حتى ينتهى الضرب، ، ولكن الخديو اعتـــــذر .

واستمر الاسطول الانجليزى فى ضرب الاسكندرية نحو عشر ساعات تمكن خلالها من اسكات المدفعية الساحلية وتخريب الاستحكامات بالمدينة وهدم واحراق معظم مبانيها .

وجاء ضرب الاسكندرية تجاهلا للمؤتمر اتذى كان لا يزال منعقدا فى الآستانة ، فلا السلطان ولا الدول المجتمعة طلبوا من انجلترا القضاء على الثورة المصرية ، وهكذا اهان الانجليز المؤتمر الذى دعوا اليه بأن بدأوا الحرب بغير توصية منه أو حتى موافقته ، كما اعتدوا على حقوق الباب العالى .

ولقد أثار ضرب الاســـكندرية الجـــدل العنيف فى مناقشات مجلس العموم البريطانى فاستنكر بعض الاعضاء هذا العمل ، واعتبروه تصرفا خاطئا وغير مدروس ووصفوا السياسة الخارجية لانجلترا فى مصر بأنها نفرت حلفائها ، وورطتها — اى انجلترا — بصورة واضحة فى حـــرب مع مصر .

وعلى كل حال فقد صـــمدت القـــوات المصرية فى مراكزها بعض الوقت ، وبذلت جهدها (٤٤) أمام قذائف الاسطول الانجليزى للطـــوابى ،

واشترك الرجـــال والنساء من اهالى الاسكندرية فى نقل الذخـــائر الى المدافعين رغم نيران المدافع والقنابل . ولكن ضعف المدفعيـــة المصريـــة وقدمها لم يحقق لهم استمرار الصمود والقتال .

ولمـــا نزلت القوات الانجليزية الى الاسكندرية اظهر الخديو انحيازه اليها وسارع هو وشيعته الضئيلة بتهنئتها ووضع نفسه تحت حمايتها ؛ وهنا يجـــدر بنا أن نتســـاءل هل كان هنـــاك اعـــلان حرب من انجلترا على مصر ؟

يذكر المستر جلادستون بأن ما اتخذ كان اجراءا دفاعيا لامن الاسطول كما صرح السير تشارلز ديلك وكيل الخارجية البريطانية بأن القوات التى انزلت كانت مهمتها الحفاظ على النظام والأمن فى الاسكندرية . وقد ارسل الخديو رسله الى المصريين الذين هجروا الاسكندرية يطلب منهم العودة اليها حتى تستقر الأحوال ، وكان موقف درويش باشا متفقا مـــع الخديو فى الانحياز الى الانجليز . وعلى اى حال فبعد ان اصبحت الاسكندرية غير صالحة كمنطقة دفاعية ، قرر العرابيون الانسحاب منها ، وفى اعقاب ذلك تم احراقها ويتهم حسين باشا الدرملى العرابيين بحرق الاسكندرية فذكر ان النديم كان من المشجعين على حرق المدينة ونهبها حتى لا يجـــد الانجليز شيئا عند احتلالهم لها .

كما اكد ذلك احمدسلامة فذكر انه راى النديم بعد الحادث فى محطة سيدى جابر راكبا فى صهريج الوابور وفى يده طبنجة ، وسمعه يقول أنه قتل بها ثلاثة اشخاص ، وأن حرق البلد كان بواسطة غاز أحضر بمعرفتهم وصب على الدكاكين والمنازل حتى يتم حرق البلد بسرعة .

وايد حسن واصف هذا الكلام فقـــال انـــه كان راكبا وابور السكة الحديد القادم من الاسكندرية للقاهرة والذى كان به عبد الله النديم وانـــه سأله عن حالة الاسكندرية فأجابه بقوله « اننا أوقدنا فيها النار بعد السلب والنهب ولمـــا سأله عن حالة الطوابى قال له انها هدمت ، ولكننا مستعدين للمقاومة فى البر » ، واصر النديم على المقاومة وقال « فمع أنه ضعيف فقد قتل ثلاثة من الأوربيين بالطبنجة التى معه »[٤٥] واخـــرج من جيبه طبنجـــة ..

واكد ذلك ما تردد من أن سليمان سامى كان قد شرع فى حرق الاسكندرية فعلا وبداه فى جهة المنشية ، وذكر محمد شكرى أن ما فعله سليمان سامى كان بالاتفاق مع عرابى بينما يذكر آخرون أن ذلك كان بدون علمه .

وعلى كل حال فقد بيعت البضائع التى نهبها العساكر والأهالى من الاسكندرية بسوق كفر الدوار دون أن يتعرض أحد من العسكريين لضبطها أو لجمعها وتسليمها للمديرية[٤٦] واذا كان البعض يحاول ابعاد العرابيين عن هذه التهمة فاننا نرى أن طبيعة المتطرفين من قادة الثورة العرابية كانت تأبى أن تترك الاسكندرية سليمة تستفيد منها القوات الانجليزية وتدخلها آمنة فاشعلت فيها الحرائق ونهبت المحلات .

واذا كان بلنت وسليم النقاش قد ذكرا بأن العرابيين حرقوا الاسكندرية وفقا لتكتيك عسكرى سليم بالا يستفيد العدو من البلد الذى يدخله كما فعل الروس فى موسكو فى اثناء الغزو النابليونى حتى لا يجد العدو مأوى ولا مئونة ولا ذخيرة لرجاله وحتى يستطيع عرابى التقهقر لاتخاذ أماكن استراتيجية للقتال فان شهادة أحمد رفعت تؤكد أن عرابى قد ذكر بانه « اذا تداخل احد لازم نموت لآخرنا ، ونفنى كل شىء » كما أن وثائق الثورة العرابية تؤكد ان عرابى لم يصدر منهاى تانيب لسليمان سامى بل اشركه معه فى الاستعدادات بكفر الدوار ، ولم يحاكمه .

وذكر محمود فهمى ان عساكر آلاى مصطفى عبد الرحيم وسليمان داود كسروا ابواب الدكاكين والمخازن ونهبوا ما فيها واوقدوا النيران فى الأماكن والابنية الفاخرة كما دخل ايضا عربان البحيرة والبرابرة وسلبوا الحوانيت والمخازن واشعلوا فيها النيران علما بأن العرابيين قبل انسحابهم من الاسكندرية اطلقوا سراح جميع المسجونين .

والجدير بالذكر ان احد اعضاء مجلس العموم البريطانى قد نبه الحكومة البريطانية الى ما يتسبب عن ضرب الاسطول للاسكندرية بأنه فى حالة يأس الجيش المصرى فقد يقوم بتدمير المدينة .

اننا نتفق مع راى الشيخ محمد عبده فى ان تهمة حرق الاسكندرية

ينبغى ان توجه لأكثر من طرف ، فقد عثر على جثث أروام بلباس عرب أثناء الحريق ، كما اشترك فيه عربان من أولاد على ممن كانوا على صلة بالخديو ، ومنهم اهالى الاسكندرية ومنهم أوربيون بقصد المبالغة فى التعويضات .

ونتيجة لضرب الاسطول الانجليزى للاسكندرية تحطمت حصونها ، ولم تعد صالحة للدفاع مما دفع العرابيين الى الانسحاب منها الى منطقة كفر الدوار واعادة تنظيم الاستعدادات الحربية ، ولما علم الخديو بنية العرابيين أرسل الى عرابى يطلب منه وقف كل التجهيزات العسكرية والسماح للمهاجرين بالعودة الى الاسكندرية والحضور اليه فى قصر راس التين لاعطائه التنبيهات اللازمة والغاء الادارة العسكرية واعادة الادارة المدنية ولما استشار عرابى المقربين اليه نصحوه بعدم التوجه الى راس التين فرفض عرابى طلب الخديو واستمر فى استعداداته واتهم الخديو بخيانة البلاد ، وانه سبب ما نزل بها من مصائب ، وطالب الوطنيين بتدبير المساعدات اللازمة للمهاجرين الذين اضيروا من اجل بلادهم .

ونتيجة لتطور الأحداث واتضاح موقف الخديو المؤيد للانجليز دعا عرابى الى عقد جمعية عمومية من الأعيان والعلماء والموظفين وممثلين عن كافة الطوائف ليعرض عليهم الموقف ، وما يجب عمله ردا على موقف الخديو كما أرسل خطابا بذلك الى جميع مديرى المديريات .

وعقدت الجمعية العمومية اجتماعها فى مساء يوم ١٨٨٢/٧/١٧ ، وانتخب حسين باشا الدرملى رئيسا للجلسة[٤٧] كما اتخذ المجلس قراراته بالاجماع ، وكان اهمها الاستمرار فى قتال الانجليز وارسال وفد الى الخديو بالاسكندرية يطلبون منه العودة هو والوزراء الى العاصمة كما طالب بعض الأعضاء بعزل الخديو ولكن استقر الأمر على الرجوع الى السلطان فيما يختص بالخديو .

وقد رفض الخديو قرارات المجلس العرفى مما جعل المجلس يطلب من ديوان المالية وقف صرف مرتبات الخديو والوزراء عن شهر يولية ١٨٨٢ .

وفى ٢٠ يوليو ١٨٨٢ أعلن الخديو عصيان عرابى واصدر امرا بعزله من منصبه وتعيين عمر لطفى مكانه ، وقد ارجع الخديو ذلك الى عدم اطاعة عرابى للأوامر ورفضه عودة المهاجرين الى الاسكندرية وحجزه مياه ترعة المحمودية[٤٨] واستمراره فى التجهيزات الحربية وقطعه للاتصالات التلغرافية والبريدية عنه حتى ان اخباره الخاصة لم يستطيع معرفتها مما سبب له الضيق والاضطراب واضطر الى الاستعانة بتلغراف الجيش الانجليزى[٤٩] . وقد برر الخديو نزول القوات البريطانية الى الاسكندرية بالقضاء على الحرائق وطرد اللصوص وحماية المدينة .

ولم يهتم عرابى بعزل الخديو له وطلب من يعقوب سامى وكيل وزارة الحربية ان يدعو الجمعية العمومية للانعقاد والتشاور فى الأمر ، وقد عقدت الجمعية العمومية اجتماعها الثانى فى ١٨٨٢/٧/٢٢ فى جو ذكره شهود العيان بأنه ملىء بالرهبة والعنف فالضباط والجنود شاهرين سلاحهم خارج الاجتماع وداخله ، وعلى الروبى يخطب خطبة عنيفة يهاجم فيها الخديو ويتهمه ببيع البلاد للانجليز الذين عاثوا فى البلاد فسادا وأعقبه محمد عبيد الذى رفع سيفه واقسم يمينا بقطع يد من يؤيد عزل عرابى ، وارتجل الشيخ محمد عبده خطبة قال فيها « ان الخديو انحاز للانجليز ، ويريد تسليم القطر لهم كما حصل فى الاسكندرية والمراد بعقد هذه الجمعية هو هل يصح عزل عرابى باشا او يبقى ناظرا على الجهادية » . ونظرا لما حدث فلم يتجاسر احدعلى رفع يده بالمعارضة وانتهى الاجتماع الى ضرورة بقاء عرابى ناظرا للجهادية واهمال اوامر الخديو وما يصدر من نظاره الموجودين معه فى الاسكندرية وخصوصا بعد ان خرج الخديو على قواعد الشرع والقانون[٥٠] .

وقد ختمت الجمعية العمومية قراراتها بضرورة عرض الأمر على الباب العالى بواسطة وكلاء النظارات ، وارسل العرابيون الى المديريات ودواوين الحكومة منشورا باعلان انضمام الخديو الى الانجليز وأمروا بخلع طاعته « لأنه باع البلاد لألد اعدائها » وضرورة المداومة على الاستعداد للقتال وعدم التسليم كما أمر عرابى بسد ترعة المحمودية لقطع المياه عن الخديو واعوانه فى الاسكندرية .

وفى ٧ أغسطس ١٨٨٢ أصدر الخديو امرا لجميع سكان مصر انهم فيه عرابى بالسعى لخراب مصر ، وبأنه السبب الأول فى مذبحة الاسكندرية وما حدث بطنطا وغيرها ، وانـــه سبب شل الحيـــاة التجارية والزراعية فى البـــلاد .

وفى وسط هذا الجو من الانقسام بين الخديو والعرابيين نشبت الحرب مع الانجليز ، وكانت الخزانة المصرية خاوية لأن المراقب الانجليزى كولفن اخذ الأموال المصرية الموجودة فى الخزانة العامة ، ووضعها فى احدى سفن الاسطول الانجليزى قبل الحرب بأيام وكذلك نقـلت الأمـــوال الموجودة بصندوق الدين الى السفن الحربية بالاسكندرية لذلك تزاحم الأهـــالى على اعانة الجيش بما يلزمه(٥١) .

التعاطف الوطنى والاسلامى ضد الانجليز :

قامت البلاد تدافع عن شرفها وتحارب عدوها ، فانضم الرجال الى معسكرات التدريب لخوض المعركة وتركوا محـــلاتهم وعائلاتهم ومزارعهم وامتلأت نفوس أفراد الأمة المصرية بالرغبة فى الانتظام فى سلك العسكرية والاستشهاد فى سبيل الله والوطن وتبرعت النساء بحليهن عن طيب خاطر ، وهرع الشيوخ الى المساجد يدعون الله كى ينصر عرابى حامى البـــلاد وتحت وطأة هذا الحماس الشعبى فكر عرابى فى تشـــكيل وحـــدات من الأهالى يجرى تدريبهم على حمل السلاح ، وأن يعهد اليهم بحماية العاصمة والأقاليم عند خروج الجيش الى مناطق القتال ، ولكنه عدل عن الفـــكرة بعد أن اتضح انه يخشى على العاصمة اذا سلمت حراستها الى الأهالى وذلك لأن معظم من تطوع منهم هم الفقراء المحتاجون للقوت والعاصـــمة مكتظة بالأموال الأميرية وغيرها ، وتقرر ان يجرى تدريب المتطوعـــين من الأهالى على الآليات وارسالهم الى جبهة القتال اذا لزم الأمر .

والواقع ان مصر لم تكن وحدها فى ازمتها فقد اثار ضرب الانجـليز للاسكندرية هزة عنيفة بين المسلمين فى كافة البلدان الاسلامية فدعا علماء تركيا الى حمل السلاح ، ومســـاعدة اخوانهم فى الدين ، كما ثار مسلمو الهند على الانجليز مما جعلهم يسرعون الى تجديد اقامـــة جمـــال الدين الأفغانى الذى كان بالهند وقتذاك وفى الشام حمل الرجال السلاح ، وأعدوا

كتائب من المتطوعين ولكن السلطان منعهم من التوجه الى مصر ، وفى تونس ناصرت صحافتها عرابى ومثلته فى صورة البطل الذى سينقذ مصر والبلاد العربية من التدخل الأجنبى ، واتصل عرابى بالسنوسى « وحرضه على القتال والمجاهدة فى سبيل الله » . كما اتصل بعبد القادر الجزائرى فى منفاه بدمشق وبأبناء فلسطين وبثوار السودان بزعامة المهدى حتى اضطرت الحكومة الى ارسال تعليمات الى عبد القادر باشا حكمدار السودان بعدم الاصغاء الى تعليمات العرابيين ، ولما أيد عرب برقة نداء عرابى اجبرت انجلترا السلطان العثمانى على ان يرسل بتعليمات الى والى طرابلس ومتصرف بنى غازى باتباع الحزم والشدة مع الأهالى بخصوص ذلك ، كما طلب الانجليز من الحاكم التركى فى فلسطين منع تقديم المساعدة الى عرابى فألقى القبض على كثير من شيوخ العرب المتعاطفين مع عرابى .

معارك كفر الدوار :

أحكم عرابى تحصين مواقعه فى كفر الدوار ، مما أعاق تقدم القوات الانجليزية فى هذه المنطقة ، فقد استطاع عصمت قومندان فرقة كفر الدوار وجنوده صد هجوم الانجليز المتوالى على هذه المنطقة حتى اضطرت القوات الانجليزية الى الانسحاب أكثر من مرة امام بسالة الجنود المصريين .

ولما لم تستطع القوات الانجليزية اقتحام استحكاما تالعرابيين فى كفر الدوار نقلوا العمليات الحربية الى منطقة قناة السويس حتى يتمكنوا من استخدام قواتهم البحرية مما اضطر العرابيين الى جعل نقطة التل الكبير مركزا لتجميع قواتهم العسكرية تبعا لاستعداد العدو وحركاته . ولما كان عبور القوات الانجليزية للقناة يمثل خطورة على العرابيين فقد نصح بعض الضباط عرابى بردم القناة ، ولكنه لم يستمع لنصائحهم مؤمنا بوعود ديلسبس التى كانت تنحصر فى ضمان حياد المرور فى القنال للجميع ، وحماية ارواح ومصالح الأوروبيين المقيمين فى مصر[٥٢] فكان ذلك من الاخطاء الجسيمة التى غيرت مجرى الحرب . فقد اخترق الانجليز القناة ، وانتقلت المعركة الى الجبهة الشرقية فى اواخر اغسطس ١٨٨٢ .

وأمام هذا التحول المفاجىء فى جبها تالقتال أعاد عرابى حساباته فانتقل محمود فهمى رئيس اركان الحــرب الى « المسخوطــة » واخــذ العرابيون فى انشاء خطوط دفاعية هناك ، وقاموا بسد ترعة الاسماعيلية عند « المجفر » لمنع وصول المياه العذبة الى الانجليز ، ولكن الجنــرال ولسلى قائد القوات الانجليزية احبط هذه المحــاولة فقد احتــل نقطــة « المجفر » ثم تابع الجيش الانجليزى تقدمه ، ونجح فى الاستيلاء عــلى « المسخوطة » و « المحسمة » كما نجح فى اسر محمود باشا فهمى مما ادى الى تصدع الجبهة الشرقية .

منشور السلطان بعزل عرابى :

واستطاعت انجلترا تغيير ميزان المعركة ليس حربيا فقط بل وسياسيا أيضــا فتمكنت نتيجــة للاتصــالات المكثفة التى دارت بينها وبين الدولة العثمانية ونتيجة لجهود اللورد دفرين مندوبها فى الآستانة من الضغط عــلى السلطان بالتهديد تارة ، وباستخدام كل الوسائط ومنها الرشوة تــارة أخرى حتى يصف عرابى بالعصيان ، وتحقق لها الوصول الى ذلك فاصدر السلطان منشورا بعصيان عرابى والتزام الدولة العثمانية بالمحافظة على الخديو مما قلب ميزان الحماس الشعبى واضاع التأييد الاسلامى والعربى للثورة العرابية حيث كان عرابى يعلن انه يدافع عن حقوق السلطان .

وحينما بلغ عرابى المنشور استشار عبد الله النديم فيما يجب عمله فاشــار عليه كما يذكر « سليم النقاش » نشره فى جريدة الطائف والرد عليه مع الاستمرار فى الدفاع عنالبلاد حتى لو اشتركت عســاكر عثمانية ضدهم لأن توزيع المنشور سرا سيكون له رد فعل اســوأ مما لو نشر فى الصحف ورد عليــه ، ولكن عــرابى لم يستحسن نشره خشية تحــول القلوب عنــه .

ويذكر اسماعيل سرهنك أنه لمــا قرأ عــرابى منشور الباب العالى بعصيانه فى جريدة الجوائب[٥٣] « وقع فى قلبــه اليأس لان حجته الكبرى

كانت بدعوى انه قائم بالمدافعة عن حقوق الدولة العلية فى مصر فتشاور مع صديقه الحميم عبد الله النديم واقرا على اخفاء ذلك عن الجند » .

وعلى كل حال فقد تمكن جواسيس الخديو وعلى راسهم سلطان باشا من توزيع المنشور فتمكن بعض العربان من التسلل الى المعسكرات المصرية وتوزيع المنشور على الضباط والجنود الذين أحسوا بصدمة عنيفة بعد الاطلاع عليه فخارت قواهم ويئسوا من الفوز وضعفت حميتهم الدينية اذ اعتبروا أنفسهم « عصاة على السلطان مخالفين لكتاب الله وسنة رسوله » .

ومع اننا لا نلصق هزيمة عرابى بهذا المنشور وحده كما يذكر البعض فاننا نعتبره احد الأسباب فى صرف القلوب عن عرابى وحركته .

وقد أرسل الخديو الى عمد البلاد واعيانها مكاتبات يدعوهم فيها الى مخالفة عرابى واعوانه ، وانه سيدخل تحت طائلة المحاكمة الشديدة والعقاب كل من يسانده(٥٤) .

معركة التل الكبير :

ونجحت جبهة الخيانة فى تنفيذ مخططها فاتصل الخديو وسلطان باشا بأحد الضباط ويدعى على يوسف (خنفس) ووعداه بالنياشين فكانت خطط الجيش السرية ترسل اليهم عن طريقه ، كما كانت أعداد وتحركات قوات عرابى وتوزيعها وخططها معروفة لدى الانجليز والخديو فهجم الانجليز فجاة يتقدمهم البدو وانصار الخديو ومعهم خطة جيش عرابى ومواقعه ، وكانت المعركة الفاصلة فى التل الكبير والتى فوجىء فيها المصريون بالهجوم الانجليزى الذى لم يكن متوقعا فى حساباتهم حيث انه فى الليلة التى استعد فيها الانجليز للهجوم على التل الكبير كتب على يوسف (خنفس) الى عرابى وكان فى مقدمة الجيش يخبره بعدم وجود تحركات للعدو « فقعد عرابى طوال الليل مع الفقراء فى الصيوان .. يذكرون الى آخر النصف الأخير من الليل وعند الفجر ناموا جميعا » ولم يستيقظوا الا على طلقات البنادق واستمرت المعركة حوالى عشرين دقيقة حطم فيها الجيش الانجليزى متاريس التل الكبير تحت قيادة السير ولسلى ، وتشتت قوات عرابى .

لقد كانت معركة التل الكبير سلسلة من المـــآسى قوامها الخيانة حيث كان بالاسكندرية مكتبا يسمى « قسم المخابرات العسكرية » مهمته تنظيم شبكة الدسائس والجاسوسية فى البلاد(٥٥) وكان على رأس هؤلاء محمد سلطان ، كما أن معارك التل الكبير كانت غير متكافئة وقد ساعد عـلى هزيمة عرابى فيها عدة عوامل منها نجاح الخديو فى ضم البدو الى الانجليز بعد رشوتهم وخيانة بعض الضباط الذين انضموا الى الخديو وأبلغـوه بخطط العرابيين ومواقعهم .

محاولات الدفاع عن القاهرة والتسليم :

اسرع عرابى الى القاهرة بعد هزيمته فى التل الكبير وذهب الى مقر وزارة الحربية حيث كان المجلس العرفى مجتمعا ، وأخبرهم بأمر الهزيمة واسبابها واستشارهم فيما يفعله ، وبعد استعراض الموقف استقر الرأى على المقاومة بحجة أن القاهرة « غاصة بالجند ومخازن الجهادية مـلأى بالمؤن والذخائر والأسلحة ومعدات الدفاع متوفرة » .

وقد حاول العرابيون منع الانجـــليز من دخـــول القاهرة بمد خطوط الاستحكامات أمام العباسية فتوجه عرابى وبعض الضباط الى العباســية لاجراء ترتيب النقط العسكرية ، ووضع التصميمات لانشاء خط دفــاعى ولمـــا استعرضوا الجند هناك وجدوا أن اعدادهم قليلة ، وروحهم المعنوية منخفضة حتى أن احد الضباط هاجم فـــكرة الدفـــاع عن القاهرة فقـــال لعرابى « اذا كان مقصودك فى الباطن اعمال خط نار كما هو متبادر لنا من أفكارك فهذا غلط ولا ينفع بشىء ... والأوفق ترك هذه التشبثات التى لا تفيد سوى الوبال والدمار وتلف البلد فقال عرابى ان قصده ليس ذلك بل مرامه التوجه للعباسية لترتيب النقط والعساكر بصـــفة كردون فقط للحفظ أولى من ترك البلد سايبة .

ولمـــا وجد عرابى أن شبح الهزيمة باديا على الضباط والجنود عاد الى المجلس العرفى وعرض عليه الأمــــر فتقرر الكف عن القتال والتسليم وتحرير عريضة للخديو يلتمسون فيها العفو والاعتذار عما حدث منهم .

وفى ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ دخلت القـــوات الانجليزيـــة القاهرة بدون

مقاومة تذكر وسلم عرابى نفسه للقوات الانجليزية كما تم القبض على قادة الثورة ووضعوا فى اضيق السجون واصعبها كما امتلأت السجون بمن ناصر الثورة من العلماء المديرين وعمد البلاد والأعيان والتجار حتى بلغ عدد المقبوض عليهم ثلاثين الفا من المصريين . وبعد ان وضعت الحكومة يدها على معظم زعماء الثورة اصدر الخديو امرا عاليا فى ٢٨ سبتمبر ١٨٨٢ بتشكيل قومسيون « لتحقيق اقامة الدعوى على كل من ارتكب جريمة العصيان والتعدى على السلطة الخديوية سواء اكان مرتكبو هذه الجرائم مدنيين أم من العسكريين وصدرت الأوامر بتقديم عرابى وزملائه للمحاكمة كما اصدر الخديو توفيق عدة أوامر بهدف القضاء على العسكرية المصرية وروح الجندية اهمها حل الجيش المصرى[٥٦] والغاء الرتب العسكرية المعطاة فى مدة الثورة . كما اصدر بعد ذلك امرا عاليا بجواز التخلص من الخدمة العسكرية بدفع البدل النقدى وقيمته خمسون جنيها كما نص هذا القانون على استثناء العلماء والمدرسين والطلبة وحفظة القرآن وائمة المساجد ورجال الدين والمثقفين من الخدمة العسكرية كما أصدر أوامر الى سائر المديرين بتسهيل عبور العساكر الانجليزية فى انحاء القرى والبلدان التابعة لمديريتهم ، وتقديم كافة المساعدات لهم .

وبذلك يتضح رغبة الخديو فى وضع البلاد فى جو من الاستانكة الدائمة .

وهكذا انتكست أعلام الثورة العرابية التى قامت من أجل الدفاع عن شرف البلاد وكرامتها ضد الظلم الداخلى والتدخل الخارجى ، وابتلعت السجون رجالها واحس الشعب المصرى بمرارة الهزيمة ، ولكنه سرعان ما التقط أنفاسه فانتقلت الشعلة من جيل الثورة العرابية الى الجيل الذى حمل الراية بعدها بزعامة مصطفى كامل .

مراجــع الفصــل الرابــع

(١) دار الوثائق : اوراق خاصة بالسيد جمال الدين الأفغانى .

(2) Public Record Office : F. O. 407/21 Inclosure in No 931 Extract From the Observer of July 23, 1882.

(٣) الياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل باشا ١٨٦٣ — ١٨٧٩ . المجلد الثانى . القاهرة — دار الكتب المصرية ١٩٢٣ ص ٤٧٠ .

(٤) أحمد عرابى : كشف الستار عن سر الأسرار . مخطوط . القاهرة — دار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٤٢ س ٩٩ — ١٠٠ .

(٥) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار . الجزء الثانى — القاهرة — المطبعة الأميرية ببولاق — الطبعة الأولى ١٨٩٤ ص ٣٧٥ .

(6) F. O. 407/18 No. 38 Memorandum of Events in Egypt Sinec the Deposition of the Late Khedive, Leading to the Recent Military Insurection, by P. Currie, sep. 17, 1881 .

(٧) دار الوثائق : أوراق الحضرة الخديوية بصدد الثورة العرابية — صورة خطاب من رئيس مجلس النظار الى القائد العام بتاريخ ٣٠ يناير ١٨٨١ .

(8) F. O. 407/18 No. 80. Mr. Malet to Earl Granville, Sep. 23, 1881 .

(٩) دار الوثائق — محافظ مجلس النظار محفظة ٥/د تحت عنوان : « جلسات مجلس النظار » فى ٣ ابريل ١٨٨١ ، محافظ مجلس الوزراء . نظارة الحربية . محفظة رقم ١١ تقرير مقدم للخديو بخصوص مرتبات الضباط والعساكر بتاريخ ١٩ ابريل ١٨٨١ .

(١٠) سليم النقاش : مصر للمصريين جـ ٤ . الاسكندرية — مطبعة جريدة المحروسة ١٨٨٤ ص ٩٠ .

(١١) محمد مهرى كركوكى : رحلة مصر والسودان : القاهرة — مطبعة الهلال ١٩١٤ ص ٤٦٠ .

(12) F. O. 407/18 Inclosure 1 in No. 47, Memorandum by A. Colvin sep. 15, 1881.

(١٣) احمد عرابى : المخطوط السابق .

(١٤) د. محمد احمد خلف الله : عبد النديم ومذكراته السياسية . القاهرة — الأنجلو المصرية ١٩٥٦ .

(١٥) الوقائع المصرية العدد ١٢١١ فى ١٧ سبتمبر ١٨٨١ تحت عنوان : « تشكيل وزارة شريف باشا » .

(16) F. O. 407/18 No. 55 Mr. Malet to Earl Granville, sep. 22, 1881 Telegraphic No. 66 .

(١٧) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ٢٠ دوسيه ١٧٨ .
شهادة محمد شريف باشا رئيس مجلس النظار أمام لجنة التحقيق فى الحوادث العرابيـــة .

(١٨) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ٢٠ ملف ١٧٨ . شهادة محمد شريف باشا رئيس مجلس النظار امام لجنة تحقيق الحوادث العرابية .

(١٩) الوقائع المصرية : العدد ١٢٩١ فى ٢٦ ديسمبر ١٨٨١ .

(٢٠) يذكر جون مارلو ان الحكومة والرأى العام الانجليزى كان لديهم عدم ثقة فى اى شىء ، له صلة بالدكتاتورية العسكرية .
Marlowe (John) Anglo Egyptian Relations p. 126 .

(٢١) محفوظات مجلس الوزراء — الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين . محفظة رقم (٢) .

(22) F. O. 407/20 Inclosure in No. 77 Memorandum by Edward Malet May 16, 1882 .

(٢٣) محفوظات مجلس الوزراء — محافظ الداخلية — محفظة رقم (٦) خطاب من رئيس قومسيون التحقيق الى رئيس مجلس النظار بتاريخ ٧ اكتوبر ١٨٨٢ .

(٢٤) دار الوثائق : محافظ مجلس النواب . محفظة رقم (١) لائحة مجلس النواب الصادرة فى ٧ فبراير ١٨٨٢ .

(٢٥) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ٢٠ دوســـيه ١٧٩ ، وسجلات الثورة العرابية سجل رقم ٩٠ ص ١٤ .

(٢٦) دار الوثائق . أرشيف الحكومة النمساوية : المسألة المصرية — المجموعة ٢٤/٣١ ملخص تقرير سياسى رقم ١١٥ ب بتاريخ ٢٩ مايو ١٨٨٢ (مترجم من الألمانية الى العربية) .

(٢٧) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ١٩ دوسية ١١٧ استجواب عبد الرحمن البحراوى .

(٢٨) الوقائع المصرية : العدد ١٤٣٢ فى ١٣ يونيو ١٨٨٢ .

(٢٩) مذكرات محمد فريد — تاريخ مصر من ابتداء ١٨٩١ — القسم الأول — الجزء الرابع ص ٨٩ .

(30) Broadley : How we Defendod Arabi p. 235 .

(31) Marlowe : op. cit., p. 135 .

(٣٢) دار المحفوظات . محافظ الداخلية . محفوظات العرضحالا ت— محفظة ٤٤ ملف ١٠٠ عين ١٥١ مخزن ٥٠ .

(٣٣) محافظ الثورة العرابية — محفظة رقم ١٩ دوسيه ١٢ محضر استجواب ابراهيم بك الناضورى ومعلوماته عن حادثة ١١ يونيه بالاسكندرية .

(34) Marlowe, John : Anglo Egyptian Relations 1800-1953 p. 135 .

(35) F. O. 407/19 Inclosure in 411 Memorandum by sir A Colvin, March 16, 1882 .

(36) Parliamentary Papers. Egypt No 11 (1882) .

(37) Parliamentary Debates, Vol 270 p. 818 .

سؤال من مستر بوكر لوكيل وزارة الخارجية .

(٣٨) محفوظات مجلس الوزراء — محافظ الداخلية . محفظة رقم ٧٠ تحت عنوان صورة الأمر العالى الصادر الى راغب باشا فى ٤ شعبان ١٢٩٩ هـ .

(39) Parliamentary Papers. Egypt No. 8 (1882) .

Affairs of Egypt. No. 57 .

(٤٠) الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى . القــاهرة ــ النهضة المصرية الطبعة الثانية ١٩٤٩ ص ٣١٦ .

(٤١) محافظ الثورة العرابية : محفظــة رقم ٢٠ دوسية ١٧٩ محضر استجواب محمد شكرى باشا .

(٤٢) أوراق الحضرة الخديوية بصدد الثورة العرابية والبرقيات التى ضبطت لدى المتهمين فيها . مخطوط بدار الوثائق . تقرير مقدم الى الحضرة الخديوية من القائمقام فرج عبد العال ص ٤ .

(43) Dicey : The Egypt of the Future p. 171 .

(٤٤) محافظ الثورة العرابية : محفظة رقم ٨ دوسيه ٥٣ ــ د ــ ٦ ملف ٢٢٠ .

(٤٥) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ١٨ دوسيه ٦٩ . محضر استجواب حسن واصف التاجر بالاسكندرية ومعلوماته عن حريق الاسكندرية وما سمعه من عبد الله نديم .

(٤٦) محافظ الثورة العرابية . محفظة ١٩ دوسيه ٩٤ ، ومحفظة رقم ٢٠ دوسيه ١٧٩ .

(47) F. O. 407/21. Inclosure in No 762, Memorndum From Information Supplied by Omer Pacha Loutfi by G. H. Portal «Tonjore» at Alexandria. July 21, 1882 .

(٤٨) محافظ مجلس الوزراء ــ الثورة العرابية ــ محفظة رقم ٣٨ ــ مجموعة ٤٧ حربيــة .

(٤٩) ديوان المعية السنية عربى . المجموعة ٣٥ سجل رقم ٤٥٣٦٦ ص ٤ .

(٥٠) محافظ الثورة العرابية : محفظة ٤١ وثيقة تحت عنوان صورة القرار المعطى من الأمة المصرية بديوان الداخلية يوم السبت ٢٩ يوليــو ١٨٨٢ .

(٥١) للتفاصيل نظر محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ٨ دوسيــة ٥٣ ــ د ــ ٨ ملف ٢٢٢ وايضا محفظة رقم ٩ دوسيه ٨٦ تحت عنــوان « الثورة العرابية وقضايا المتهمين » .

(٥٢) محافظ الثورة العرابية محفظة رقم ١٩ دوسيه ٩١ تلغراف من دلسبس الى رئيس المحكمة العسكرية بالقاهرة .

(٥٣) انظر : الجوانب العدد ١١٠٥ فى الثلاثاء ٢٩ شوال ١٢٩٩ .

(٥٤) محافظ الثورة العرابية . محفظة ٤١ وثيقة تحت عنوان « صورة ارادة سنية صادرة من الحضرة الفخيمة الى كافة أهالى القطــر المصرى بتاريخ ٧ اغسطس ١٨٨٢ .

(٥٥) من محافظ الثورة العرابية يتضح اتهام عبد الله المصرى وخليل المصرى ومصطفى رمزى وكانوا من ضباط الجيش بمراسلة العدو والتجسس على قوات عرابى . انظر : محفظة رقم ٤ تلغرافات ـــ دوسيه رقم ٥٠ .

(٥٦) محافظ مجلس الوزراء ـــ نظارة الحربية . مجموعة رقم ٧٠٥ حربية ـــ محفظة رقم (١) دكريتو فى ١٩ سبتمبر ١٨٨٢ .

الفصل الخامس

حركة البعث الوطنى
بعـد الاحتـلال

١ — انبعاث الحركة الوطنية فى مصر بعد هزيمة الثورة العرابية .

٢ — مصطفى كامل وتاسيس الحزب الوطنى .

٣ — محمد فريد وزعامته للحزب الوطنى .

٤ — الزعامة الوطنية بين مصطفى كامل ومحمد فريد .

١ ـ انبعاث الحركة الوطنية في مصر بعد هزيمة الثورة العرابية

ظروف تولية عباس الثانى الخديوية :

بعد ضرب الثورة العرابية صفيت الحركة الوطنية ، وأصبحت الحياة السياسية فى مصر تدور حول الخديوية من ناحية وسلطات الاحتلال من ناحية اخرى وظل هذا الموقف سائدا فى السنوات الأولى للاحتلال ، وفى يناير ١٨٩٢ اشتد المرض بالخديو توفيق حتى بلغ مرحلة الخطر فى وقت كان فيه الموقف فى مصر دقيقا فسلطة الخديو كانت ضائعة ومسلوبة لقضاء الانجليز عليها والحكومة الموجودة على راسها صديق الاحتلال مصطفى فهمى الذى كان مكروها من الشعب وكان الانجليز يتصرفون فى شئون البلاد كما يشاءون ولخشية تدخل السلطان العثمانى فى امر مصر بعد وفاة الخديو توفيق اجتمع كرومر مع مصطفى فهمى رئيس النظار وغيره من المسئولين وتباحثوا فى الأمر واتفقوا على استدعاء نجله عباس من فينا وتوليته العرش حيث أنه أكبر انجال الخديو توفيق ، ولكن اتضح أن هناك مشكلة شائكة حين توفى توفيق وهى أن عباس لم يكن قد بلغ سن الرشد بعد فالأمر يقتضى أن لا يكون سن الأمير اقل من ثمانية عشر عاما وبما ان عباس ولد فى ١٤ يوليو ١٨٧٤ فانه لم يبلغ سن الرشد الا فى ١٤ يوليو ١٨٩٢ بينما كانت وفاة والده المفاجئة فى السابع من يناير ١٨٩٢ مما أظهر شبح تكوين مجلس وصاية مادام الأمير لم يبلغ سن الرشد ، ويذكر كرومر انه سمع احد العلماء يقول ان سن الأمير المسلم ينبغى ان يحسب بالسنين الهجرية التى تبلغ أيامها ٣٥٤ يوما فتمسك بذلك وبحساب سن عباس بالتاريخ الهجرى اتضح أنه بلغ سن الرشد فى ٢٤ ديسمبر ١٨٩١ أى قبل وفاة ابيه بأربعة عشر يوما .

وصل عباس الى مصر واخذ يضطلع بمهام الخديوية ، وقد تملكه فى الفترة الأولى من حكمه شعور حماسى فاستبدل رجال الحاشية الموالين

للاحتلال بغيرهم كما اصدر عفوه عن عدد كبير ممن اشـــتركوا فى احــداث الثورة العرابية واخذ يوطد علاقته بالشعب .

الأزمة الــوزارية ١٨٩٣ :

وجد الخديو عباس الثانى فى رئيس النظار مصطفى فهمى خضوعا كاملا للانجليز فكان ينفذ اوامرهم ولا يتصرف فى اى شأن من شــئون الحكــومة الا بعد اخذ رايهم مما ضــايق عباس فانتهز فرصـــة مرضه وارسل اليــه خطــابا باقالته وكلف حسين فخرى بتأليف النظارة الجديدة .

ثــار اللورد كرومر على ذلك التغيير وذهب لمقابلة الخديو فأجــابه أن من حقـــه اختيار الوزراء بنفســـه دون الرجوع الى احد ، فهدده كرومر بأنه اذا قاوم انجلترا فمعنى ذلك الاطــاحة بعرشــه ، وتعكر الجو وحدثت ازمة وارســلت الحكومة البريطانية برقية مضمونها ان الخديو لابد ان ياخذ رايها فى المســائل الخطيرة مثل مســألة تغيير النظـــار ، وانها لا ترى هناك ضرورة لتغيير رئيس النظار وانها لا توافق على تعيين فخرى باشا .

قــابل كرومر الخديو وابلغه بالبرقية وطلب منه ارجاع مصطفى فهمى فرفض الخــديو وقال ان من حقه تعيين الوزراء فهدده كرومر فرد الخــديو بأن تنـــازله عن العرش اهــون عليه من ارجاع مصطفى فهمى ، وتدخــل بطرس غالى وآخرون لحل الأزمة ، واخيرا ســويت الأزمة على اســاس الا يتمســـك كرومر باعادة مصطفى فهمى لأنه ليس من الصواب اذلال الخديو الشـــاب كثيرا على ان يعزل فخرى باشـــا ويتم تعيين رياض باشا مكانه ، وبذلك انتهت الأزمة الوزارية دون أن ينال احد من الفريقين فوزا فاصــــلا ، ومع ذلك فقد التفت الأمة المصرية حــول الخديو وشجعته على موقفـــه واقبلت عليه الوفود للتهنئة .

وزارة رياض وازمة الحدود :

شكلت وزارة رياض فى ١٩ من يناير ١٨٩٣ ، وقد شـــجع ريـــــاض الخديو على معاكسة انجلترا وحـــاول الحد من تغلغل النفـــوذ الانجليزى فى البـــلاد ، والجدير بالذكر أن الخديو عباس الثانى اهتم منذ اعتلائه عرش

الخديوية بأمر الجيش وفى ٨ يناير ١٨٩٤ استعرض الخديو بعض وحدات الجيش المصرى فى القاهرة وفى اليوم التالى سافر الى الصعيد لتفقد احوال الجيش هناك ، وبينما كان الخديو يستعرض الجيش فى وادى حلفا أبدى بعض الملاحظات والانتقادات التى تمس كفاءة الضباط الانجليز مما ضايق الانجليز فارسل كتشنر الى كرومر بذلك وقدم استقالته احتجاجا على ان الخديو أهان الكرامة العسكرية للانجليز ، وانتهز كرومر الفرصة حتى يوجه الى الخديو ضربة قاصمة فارسل الى الحكومة البريطانية التى اعتبرت الأمر خطيرا وطلبت أن يقدم الخديو اعتذارا يثنى فيه على الضباط الانجليز وفى حالة رفضه تستعمل الشدة معه وهددت بخلع الخديو اذا لم يسحب انتقاداته ، فهرع رياض باشا الى الصعيد وقابل الخديو وأخبره بالأمر ونصحه بالاستسلام فاصدر الخديو منشورا يعلن فيه رضاءه عن حالة الجيش بالحدود وعلى الضباط الانجليز ، وبذلك تم اذعان الخديو لمطالب الانجليز واصيب نفوذه من جراء هذه الأزمة بضربة شديدة وفقد هيبته فى نفوس أفراد الجيش ، كما يتضح ان حادث الحدود كان نصرا كبيرا لكرومر وسياسته فى مصر .

اطلاق يد الانجليز فى شئون الادارة المصرية :

تميزت الفترة التى تلت حادث الحدود بأن الخديو عباس الثانى وان كان لم يكف عن مقاومة الاحتلال الا انه سلك طريق المقاومة السرية بتشجيع العناصر المناوئة لتواجد الاحتلال ، وكان شديد الحذر فى ذلك يظهر الوفاق ويبطن المقاومة ، وان كانت الظروف قد اضطرته الى المقاومة الصريحة للاحتلال بعد ذلك .

والجدير بالذكر أن تقرب الخديو الى الأمة قد ازداد بعد حادث الحدود وفشله فى السيطرة على الجيش فأخذ يدعو اليه المثقفين من ابناء البلاد والعلماء امثال الشيخ محمد عبده وعبد الله النديم وغيرهم ، وكان يسمح لهم بأن يعقدوا الجلسات فى قصره .

نشاط الخديو السرى ضد الاحتلال :

تألفت جمعية سرية بعد حادث الحدود من بعض ضباط الجيش عرفت باسم جمعية المودة السرية ، كما شهدت مصر مولد جمعية سرية

قدر لهـا ان تكون نواة للحزب الوطنى فيمـا بعد ، وقد تمكن لطيف سليم المؤسس الفعلى لهـا من ان يحتفظ بافكاره الثورية محبذا اسلوب العمل السرى لتحرير الشعب بعيدا عن وصاية اى سـلطة وقد انضم مصطفى كامل ومحمد فريد وغيرهم الى هذه الجمعية فى عـام ١٨٩٣ وقد تعـاون الخديو عباس الثانى مع هذه الجمعية ورحب اعضاء الجمعية بذلك حيث كان تواجده ضرورة ملحـة اقتضتها الظروف الصعبة التى كانت تلك الحـركة تشق طريقها وسـطها لمقاومة الاحتلال الجـاثم على صدر الوطن ، كمـا ادار الخديو من قصره اللجنة الفرنسية المصرية ، وقد قامت هذه اللجنـة بالدعاية لقضية استقلال مصر فى أوربا وبالذات فى فرنسا .

والجدير بالذكر انه تأسست جمعية سرية فى بنى سويف فى عام ١٨٩٦ اطلق عليهـا جمعية تحرير مصر ، كمـا ارسل الخديو مصطفى كامل الى بعض دول أوربـا ليكسب العـون الدولى لقضية استقلال مصر ، فركـز نشاطه بصفـة خاصة على فرنسـا وتركيا والمانيا والنمسا ، وقد خرج مصطفى بعد عام واحد من نشاطه فى أوربا بحقيقة واضحة وهى ان النشاط فى الخـارج وحده لا يكفى لحدوث استقلال مصر بل ان العبء الأكبر يجب ان يكون على عـاتق المصريين بالدرجة الأولى .

حـادث دنشـواى (*) :

خلاصته ان خمسـة من الضباط الانجليز من كتيبة كانت فى طريقهـا من الاسكندرية الى القـاهرة عسكرت فى قرية كمشوش التابعة لمديرية المنوفية ارادوا الترويح عن انفسـهم بصيد الحمام فذهبوا الى بلدة دنشواى التـابعة لمركز شبين الكـوم ودخلوا ضيعة احد الملاك لصيد حمام وجدوه واقفـا على جرن مؤذن القرية محمد عبد النبى فانحرفت رصـاصة احدهم عن هدفها مما ادى الى اشتعـال النار فى جرن محمد عبد النبى وجعـل الأهـالى — وخصوصا اصحاب ابراج الحمـام الذين كانوا فى ضيق واستياء من صيد الانجليز لحمامهم — يحـاولون انتزاع اسلحة هؤلاء الضبـاط وضربهم وفى تلك الاثنـاء وصل الخفراء وشيخهم لفض النزاع واخمـاد

(*) للتفاصيل انظر جمال المسدى ، دنشواى ، القاهرة ، الهيئـة العامة للكتاب .

النيران ولكنهم فشلوا فى ذلك مما دفع بعض الضباط الانجليز الى اطلاق الاعيرة النارية وفى تلك الاثناء انطلقت بعض الرصاصات التى اصابت سيدة تدعى ام محمد وشيخ الخفراء واحد الخفراء مما زاد من ثورة الأهالى فاشتدوا فى هجومهم على الضباط وضربوهم ففر منهم اثنين جريا فى اتجاه معسكرهم اصيب احدهم بضربة شمس اودت بحياته ، وفر الآخر حيث ابلغ بالحادث زملائه فاسرعت دورية انجليزية لانقاذ الضباط فصادفت الضابط المغشى عليه وقد احاط به احد الاهالى عند سوق سرسنا يقدم له الماء فانهالوا عليه ضربا بكعوب البنادق والسونكى حتى هشموا راسه ، ولما علمت سلطات الاحتلال بالحادث طلبت تقديم المتهمين الى المحاكمة ، وعلى الرغم من ثبوت أن المشاجرة لم تكن بسبق اصرار وان وفاة الضابط الانجليزى كان بسبب ضربة الشمس التى لم يتحملها فقد درست المحكمة القضية ولم تعط للمتهمين (عددهم) ٥٢ فرصا للدفاع عن أنفسهم الا ثلاثين دقيقة فقط وحكمت المحكمة باعدام اربعة شنقا وصدرت احكام اخرى بين الاشغال الشاقة المؤبدة والاشغال الشاقة على الآخرين كما عزل عمدة دنشواى .

وقد نفذت الأحكام علنا فى قرية دنشواى بين عويل النساء وصراخ الأطفال ووجوم الرجال الذين شاهدوا التعذيب .

واذا تفحصنا أسباب هذه الحادثة والأحكام التى صدرت نخرج بالنتائج التالية :

١ — ان المعتدى فى هذه الحادثة انما هم الانجليز ، فقد فاجئوا قرية آهلة بالسكان ليصطادوا الحمام كما لو كانت قرية مهجورة لا سكان فيها

٢ — انه لا يمكن للأهالى وقد رأوا احدى نسائهم تسقط جريحة والنار تشتعل فى جرن القمح وشيخ الخفراء وآخرين مصابين برصاص الانجليز ان يقفوا مكتوفى الأيدى دون ان يدافعوا عن اهلهم وبلدتهم وانفسهم.

٣ — ان احكام المحكمة المخصوصة تجافى العدالة لان أغلب اعضائها من الانجليز ومعنى ذلك أن الانجليز جعلوا من انفسهم حكاما وخصوما.

٤ — اثبت تقرير الطب الشرعى أن الضابط المتوف انما مات لاصابته بضربة الشمس وذلك لأن الـوقت كان صيفـا ودرجة الحرارة ٤٢ درجة.

٥ — ان المحاكمة كانت شـبه صورية لان النيـة كانت مبيتـة على الانتقام فلم تستغرق المحاكمة سـوى ثلاثة ايام ، وقبل ان تنهى المحكمـة اجراءاتها صـدر الأمر الى المخـازن باعداد المشانق والآلات الخاصـة بالجلد وارسـالها الى دنشواى .

لقد استنكرت الأمم المتمدينة هـذه المأساة الوحشية ، وكادت الأمة المصرية تستسلم لليأس لولا دوى صوت مصطفى كامل الذى بدد سـحب اليأس فقد كان فى باريس للاستشـفاء وقت الحادث ورغم نصيحة الأطباء له بالراحة فانه ما ان وصـله خبر الحادث حتى كتب مقالته المشـهورة « الى الأمة الانجليزية والعالم المتمدين » فى جريدة « الفيجارو » تناول فيه ملابسـات الحادث وطريقة الحـكم وتنفيذه فكان لهذه المقالة وقع شـديد زعزع مركز اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر .

نتـائج الحـادث :

١ — كان لهذا الحـادث اكبر الأثر فى ايقاظ الأمة المصرية حيث جمع قلوب الشعب المصرى واحى شعور التضامن القومى بين ابنائه .

٢ — اطـلاع الراى العام الأوربى والانجليزى على ما يرتكبه الاحتلال فى مصر من فظـائع .

٣ — زيادة قوة الحركة الوطنيـة التى يتزعمها مصطفى كامل وانضمام كثير من المترددين الى صفـوف الحركة الوطنية ثم تعديل سياسة الاحتلال.

٤ — استغلال مصطفى كامل للحادث فى التشهير بالسياسة الانجليزية واثارة الراى العـام فى أوربا على قسوة ما اتخذ من اجراءات .

٥ — اظهرت حادثة دنشواى للعالم ان المصريين يكرهون الاحتـلال خلافا للشائعات المخالفة لذلك .

٦ — ساعدت حادثة دنشواى على بلورة الوضع الداخلى فى مصر فظهرت الأحزاب الرئيسية الثلاثة (حزب الأمة — الحزب الوطنى — حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية) .

٧ — اشتراك الأدباء والشعراء فى التعبير عما حدث فى دنشواى وبروز الملاحم الشعبية والأدب الشعبى للتعبير عن المظالم التى وقعت على الأهالى واحكام الشنق والجلد وشنق زهران بالذات وفيما يلى الزجل الذى يعبر عن ذلك .

يوم شنق زهران كانت صعب وجفاته
امه تبكى عليه فوق السطح واخواته
لو كان له اب ساعة الشنق ما فاته
لاجل نصر الديانة اتانا مصطفى كامل

٨ — اضافت حادثة دنشواى المزيد من احقاد القرية المصرية على الاحتلال حتى ان الظل القبيح لأحكام دنشواى اقتم السنة الاخيرة من حكم اللورد كرومر لدرجة أن تحركاته فى مصر كانت تحت الحراسة المسلحة .

٩ — ازدياد الشائعات عن أن أيام كرومر فى مصر اصبحت معدودة، وقد تحقق ذلك فعلا فى ابريل ١٩٠٧ وعينت الحكومة الانجليزية السير « الدون جورست » .

الدون جورست والحركة الوطنية المصرية :

تمكن جورست من اجتذاب الخديو اليه تماما حتى تطورت العلاقات بينهما الى صداقة متينة وذلك بهدف الوقيعة بين الخديو والحركة الوطنية (سياسة فرق تسد) والواقع أن جورست قد نجح فى الوقيعة بين الخديو والحزب الوطنى وخصوصا مصطفى كامل مع ذلك فانه لم ينجح فى القضاء على الحركة الوطنية وان ساعد بسياسته على تجزئتها فظهرت الأحزاب فى مصر لأول مرة فى تاريخها .



٢ ـ مصطفى كامل وتأسيس الحزب الوطنى

هناك انـــاس خلقوا للكفاح يستعذبونه ويستطيبـــون كل شىء فـــى سبيله يرون فيه اداء للواجب وارضاء للضمير وسبيلا ناجحا لاعلاء كلمـــة الحق واصلاح امور بلادهم ومن هؤلاء الزعيم الوطنى الشاب مصطفى كامل .

ولعل اهم عمـــل قام به مصطفى كامل من اجل مصر هو انه اعـــاد للمصريين الثقـــة فى انفســـهم بعد هزيمة العرابيين فى التل الكبير وبعـــد نجـــاح الاحتلال فى احداث حـــالة من البلبلة والاضطراب فى تفكير المصريين تسبب عنهـــا ايجاد نـــوع من القنوط واليأس والحيرة استولت على قلوبهم والأمثلة على ذلك كثيرة منها المثل القائل « اتفق المصريون على الا يتفقوا » ومنها ما قاله شاعر النيل حافظ ابراهيم :

ان عشرين حجة بعـــد خمس	علمتنـــا السكوت مهمـــا تمادى
امـــة النيل اكبرت أن تعـــاد	من رماها واشفقت أن تعـــادى
ليس فيها الا كلام والا حسرة	بعـــــد حســـرة تتهـــــادى
لاجرى النيل فى نواحيك يامصر	ولا جـــادك الحيـــا حيث جادا
انت انبت ذلك النبـــت يامصر	فاضحى عليـــك شوكا قتـــادا

وكان ما فعله مصطفى كامل هو انه ذكر المصريين بماضيهم وجلال تاريخهم وســـما بالوطنية المصرية الى مرتبة العقيدة حتى اصبحت اسلوبا فى الكفاح وكان طريقه الى ذلك الاســـلوب السهل المؤثر على ســـامعيه لدرجة ان خطبه جرت على السنة الناس وكانها اناشـــيد واغان ، وساعده على ذلك اســـلوبه الوجدانى الذى اعتمد على الجمل الضخمة التى رددتها الجماهير « لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة » .

« بلادى بلادى ، لك حبى وفؤادى لك حياتى ووجودى ، لك دمى ونفسى لك عقلى ولســـانى لك لبى وجنانى فانت أنت الحياة ولا حيـــاة الا بك يامصر » .

بهذا الأسلوب الوجدانى ، وبهذه القوة الخطابية خاطب مصطفى كامل شعور الشبيبة المصرية واستنهض همتهم يضــاف الى ذلك ما كان يكتبه من مقالات تتقد بالوطنية بالجرائد خاصة فى جريدة اللواء .

بكل ذلك استطاع مصطفى كامل ان ينهض بأعباء دعوته متقدما الى الأمام رافعــا علم النهضة ومرددا نشــيد الأمل بصوت تهتز له الأفئدة حتى لقد وصفه لطفى السيد بأن شعاره الوطنية وغرضه الوطنية وكلماته الوطنية وكتابته الوطنية وحياته الوطنية حتى لبسها ولبسته فصار بينهما تلازم مستمر فى كافة المواقف .

ولعل أدق تحليل لدور مصطفى كامل فى قيادة الحركة الوطنية هــو ما ذكره الأستاذ محمد شفيق غربال اذ يقول « ابســط استجــابة كانت استجابة مصطفى كامل تقــوم على قاعدة خالية من كل تعقيــد ومن كل شــطارة لمصر عدو واحد هو الاحتــلال ، ولمصر مقصد واحد وهو الجلاء وما عدا ذلك فتفصيل له وقته .. ومصدر العقيدة ايضا بسيط كل البساطة فكانت حمــلة مصطفى كامل تستخدم ثلاث وسائل هى :

١ ــ الا يأس مطلقــا ولا تصدقوا أيها المصريون كلام الانجليز او كلام مأجــوريهم بأن مركزهم فى مصر لا يتزعزع ولن يتزعزع .

٢ ــ لا تثقوا مطلقا بوعودهم ولا تركنوا الى محــاولاتهم تبســيط مركز البــلاد الدولى بل تذرعوا بتلك العناصر الدولية والعثمــانية التى يكرهها الانجليز ويكفى كرههم لها لتمسككم بها .

٣ ــ لا تصدقوا أن الاحتلال يمكن ان يبطن خيرا لكم او لبعضــكم فهو يفعل ذلك ليفرق كلمتكم ويجعل من بعضكم أعداء البعض الآخر[١] .

ولقــد اتبع مصطفى كامل سيــاسة مترامية الاطــراف تعتمد على أساليب متعددة من اجــل اجلاء الانجليز عن مصر فلم يتــرك وســيلة لخدمة القضــية المصرية الا ولجأ اليها فاعتمــد على فرنســا والــدولة العثمانية كمــا وطد علاقته بالخديو فى أول الأمــر خصوصا وان الحركة الوطنية لم تكن قــادرة وحدها على الصمود فى وجه الاحتلال ، ولما يئس

من هؤلاء جميعا لم يجد خير وسيلة أمامه سوى الاعتماد على الرأى العام وتربيته .

وعلى الرغم من ان فكرة تأسيس حزب لم تكن بعيدة عن ذهن مصطفى كامل ، وبالرغم من انه كان يلم بطبيعة العمل الحزبى التى كان قد عرفها جيدا اثناء وجوده بفرنسا وتجواله فى أوربا فقد آثر الا يكون البادىء بتكوين الأحزاب لقناعته بضررة توحيد كافة القوى فى مصر لاجلاء المحتل الغاصب اولا ولأن انشاء احزاب فى تلك الفترة ربما يؤدى الى تفتيت الجهود الوطنية وتصارعها ، واستمر مصطفى كامل متمسكا بهذا الموقف كما تمسكت به القوى الوطنية الأخرى لفترة من الوقت ، ولكن تطور الأحداث فى مصر ويأس الوطنيين من الحصول على مساعدات فعالة ضد الاحتلال من اوربا أو الدولة العثمانية أو من الخديو خصوصا بعد عقد الاتفاق الودى عام ١٩٠٤ وازمة طابة ١٩٠٦ وأحداث دنشواى عام ١٩٠٦ ايضا كل هذا أدى الى ضعف الحركة الوطنية وانقسامها الى ثلاثة اقسام :

القسم الأول : ويشمل بعض كبار الملاك والمثقفين من اتباع الشيخ محمد عبده وكان هدفهم حماية مصالحهم بالتعاون مع الاحتلال بعد أن رأوا ثمار اصلاحاتهم فى الزراعة والرى .

والقسم الثانى : ويشمل انصار الخديو وعلى راسهم الشيخ على يوسف وكان هدفهم تحقيق الاستقلال الادارى ثم اقامة حكم نيابى مقيد بسلطة الخديو ، وكان هؤلاء ينتقدون سلطات الاحتلال نقدا معتدلا .

أما القسم الثالث : فكان فريق مصطفى كامل ، وكان يعتمد على المثقفين بوجه خاص [٢] وهو الذى حمل لواء المعارضة ضد الاحتلال

ومن هذه الأقسام الثلاثة تكونت الاحزاب المصرية الثلاثة الكبرى وهى حزب الأمة وحزب الاصلاح على المبادىء الدستورية والحزب الوطنى .

وقد يجرنا الحديث عن الحزب الوطنى الى ان نتساءل هل عبارة الحزب الوطنى جديدة أم كانت معروفة قبل مصطفى كامل .

الواقع أن تعبير الحزب الوطنى كان معـــروفا فى مصر قبل ظهــور مصطفى كامل بعشرات الســـنين فقد تردد هذا الاسم اكثر من مرة فـــى كتـــابات وخطب الوطنيين المصريين وغيرهم كما اطلق على بعض الهيئـــات الوطنية ســـــواء السرية منها أو العلنية فعندما احس المصريون بالخطر على مصـــير بلادهم ، وفكروا فى التخلص من الخديو اسماعيل الذى لا يحسن تصريف شئون البـــلاد تم الاتفاق بين الجمعية السرية التى تكونت مـــن ضباط الجيش [٣] عام ١٨٧٦ وجمعية حلوان التى تكونت فى ابريل ١٨٧٩ [٤] على تأليف « حزب خفى من العظمـــاء والكبراء والعلماء سموا انفســـهم بالحزب الوطنى ، وقد اتيح لعرابى تزعم هذا الحـــزب بجناحيـــه المـــدنى والعسكرى [٥] .

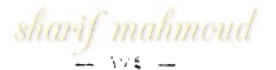
وعندما ناشد الأفغـــانى ابناء مصر بالاقبال على العلوم والمعـــارف أوضح لهم ان حزبهم الوطنى لا تحصل له القوة ولا يكون له البقاء الا اذا استقرت فيهم المعارف [٦] .

وعندما اشـــتد التآمر على الثورة العـــرابية واقال الخـــديو وزارة البارودى التى كان عرابى وزيرا للحربية فيها ، تمسك عرابى بمركزه كرئيس للحركة الوطنية واعلن انه لم يستعف من رئاسة الحزب الـــوطنى رغـــم استعفائه من نظارة الجهادية [٧] .

وعندما سافر مصطفى كامل الى باريس عام ١٨٩٥ للدعاية للقضية المصرية صرح بانه موفد من قبل الحزب الوطنى علما بأن هذا الحزب لم يكن له وجود فى تلك الفترة .

وعندما تأسست جمعية سرية لمناهضة الاحتلال تحت رئاسة الخديو فى عام ١٨٩٦ عبر عنها مصطفى كامل بانها حزب سرى مخلص للغاية وعلى استعداد للتضحية بذاته فى سبيل الوطن المقدس [٨] .

وهذا الحزب أطلق عليه اسم الحزب الوطنى ، وقد اكد لطفى السيد ذلك بقوله « كونا تحت رعاية الخديو عباس جمعية سرية فى بادىء الأمر، وكانت هذه الجمعية هى الحزب الوطنى[٩] .



لماذا اطلق تعبير الحزب الوطنى على هذه الهيئات السياسية رغم انها لم تكن حزبا سياسيا بالمعنى المفهوم فالحزب لابد ان يقابله احزاب اخرى تتعارض فى المبادى والبرامج على النحو الذى نعهده فى الأحزاب السياسية .

يذكر عرابى ان مصر مسكونة باجناس مختلفة وكل جنس منها يعتبر حزبا كما ان لأهل البلاد حزب قائم بذاته هو الحزب الوطنى(١٠) .

ويذكر مصطفى كامل ان الحزب الوطنى موجود فعلا قبل اعلانه بثلاثة عشر عاما فهو وان لم يظهر بشكل نظامى وبلائحة ولجنة ادارة فقد ظهر بأعماله واتفاق اعضائه على خدمة البلاد بكل قوة (١١) وان هذا الحزب هو حزب الامة كلها الذى ايقظ العواطف الوطنية فى البلاد(١٢) ويذكر الأستاذ عباس محمود العقاد ان تسمية تلك الهيئة السياسية بالحزب ترجع الى أن افرادها يواجهون جماعة الأتراك والشراكسة والألبانيين والأرمن الذين كانوا يتبعون الدولة العثمانية وينفردون بولاية الحكم فى الوظائف الكبيرة واكثر الوظائف الصغيرة ، لذلك فتعبير الحزب الوطنى على هذا الأساس كان هو حزب الفلاحين أو حزب الأمة المصرية(١٣) .

والواقع ان اطلاق تعبير حزب على تلك الهيئات الوطنية من الممكن الاستعاضة عنه بتعبير جبهة وطنية او اتجاه وطنى بدلا من حزب لانه لم يحمل مضمون الحزب او ابعاده فقد كانت له اهداف عامة تعكس الآمال الشعبية ، ومع ذلك فقد كان يفتقد الى التنظيم اللازم للعمل الحزبى ، ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط فقد ظهرت احزاب فى ظل الاحتلال كان لها برامج واطلق عليها اسم الحزب الوطنى قبل ان يؤسس مصطفى كامل حزبه مثل الحزب الوطنى الحر (١٤) الذى تأسس فى ٢٦ يوليو ١٩٠٧ برئاسة محمد وحيد الايوبى ، وكان مناصرا للاحتلال ، ويرى ان رقى البلاد لم يتم الا على يديه كما كان معاديا لمصطفى كامل وحركته .

وحزب آخر سمى الحزب الوطنى اسسه حافظ عوض صاحب جريدة المنبر فى اغسطس ١٩٠٧ وكان شديد الولاء للاحتلال البريطانى ايضا ولكنه لم يستمر طويلا بل انضم الى حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية بعد ذلك .

وعلى كل حال فان فكرة تأسيس حزب بمفهـوم حقيقى قد راودت مصطفى كامل قبل الاعلان عنه بمدة ، ففى عام ١٩٠٠ فـكر فى اقامـة حزب على غـرار الأحزاب الأوربيـة واوضح عن ذلك فى اللواء معـربا عن أمنيتـه فى تأسيس هذا الحزب [١٥] ولكن خشـيته من تفتيت الجبهة الداخلية جعـله يحجم عن تنفيذ فـكرته ، ولعله تعلم هذا الدرس مـن عبد الله النديم خطيب الثـورة العرابية ، ومع ذلك فقد ظلت فكرة تأسيس حزب تراود خياله فعندما اجتمـع بالخديو فى خريف ١٩٠٦ اتفق معه على تأسيس الحزب الوطنى ، وكانت نقطـة الخـلاف حوله هل سيكون الحزب سريا أم علنيـا ، وكان رأى الخديو ان يكون سريا ثم انتهى الأمر بأن كان علنيـا [١٦] ومع ذلك لم يسرع مصطفى كامل فى تكوين حزبه ، بـل تريث فى الأمـر حتى أواخر ١٩٠٧ خشـية تفتيت الجبهة الداخلية ، ولكن ظهور حزبى الأمة والاصـلاح على المبادىء الدسـتورية قد دفعاه الى الاسراع فى تأسيس حـزبه وقد أوضح مصطفى كامل ذلك فى خطـاب أرسـله الى محمد فريد قال فيه « ان ظهور حزب الأمة المؤلف من أولئك الذين خبـرنا نفسيتهم وميلهم الى مسـايرة المحتلين وفقـا لما يسـمونه سياسة اللين والتدرج وان ما علمته كذلك من صـاحب المؤيد عن تاليف حزب باسـم « حزب الاصلاح » لخدمة السراى ، هذان الأمران يحتمان علينا كل الحتم أن نظهر حزبنا الوطنى بالرغم منا بمظهره الحقيقى حتى يعلم العالم كافة أن للوطن المصرى حـزبا يطلب بعزيمة صـادقة الجـلاء والدستور اى انه لا يقبل حـكم الأجنبى ولا حكم الفـرد » ثم أوضـح مصطفى كامل الأسباب التى تجعـله لا يرغب فى تعدد الأحزاب فقال « نعم انى ارغب الآن كل الرغبـة فى ظهور هذا الحـزب بحال منتظمة بالرغم من وطنيتى التى تـرى فى تعدد الأحزاب حـربا أهلية لا مندوحة منها ، حربا تعوق ولو الى حين ما نرمى اليه من حرية واستقلال بتقوية مركز المحتل لبلادنا ولكن ما العمـل ونحن لو سكتنـا أمام هذه الحـال التى ما اوجـدها الا دهـاء جورست وقصر نظر المؤلفين لهذين الحزبين لفقـدنا كل شىء ولاصبحت الوطنية المصرية عدما فى عدم بتغليب المبادىء السقيمة عليهـا وتقاعس المخلصين لنصرتها وانمائها [١٧] .

وهكذا يتضح ان مصطفى كامل رغم امنيته فى ان يرى فى مصر حـــزبا وطنيا منظمـــا الا انـــه خشى ان يبدأ بهذه الخطوة حتى لا تنقسم الجبهـــة الداخلية ، واستمر على هذه السياسة حتى ظهر حزبا الأمـــة والاصلاح على المبادىء الدستورية ، فاضطر الى أن يعلن عن حـــزبه حتى لا تضيـــع الأهـــداف الوطنية وسط المتاهات الحزبية ففى الثـــانى والعشرين مـــن اكتوبر ١٩٠٧ دعا مصطفى كامل الـــوطنيين لمؤتمـــر عام بمسرح زيزنيـــا بالاسكندرية فلبى الدعـــوة عدد تدرته الصحف بين خمسة وسبعة آلافه القى فيهم مصطفى كامل خطبـــة طويلة تحدث فيها عن الحياة الوطنية فى مصر بعد الاتفـــاق الودى والتقدم الذى احرزه العمل الوطنى وثقته الكبيرة فى أن المصريين قادرون على الوصول الى الاستقلال ، كما أعلن عن قيـــام الحزب الوطنى ودعا افراد الأمة الى الانضمام اليه [١٨] .

وقد احدث ذلك الخطاب دويا كبيرا ، ونشرت الجرائد فقرات طويلة منه وانهالت للانضمام للحزب من كل جانب .

وفى ٢٧ ديسمبر عقدت اول جمعية عمومية للحزب بدار جريدة اللواء بالقاهرة اطلق عليها اسم المؤتمر الوطنى وكان عدد الحاضرين ١٠١٩ مندوبا من كافة الطبقـــات يمثل كلا منهم مئتـــا عضو طبقا لقانون الحزب[١٩] ، وافتتح مصطفى كامل هذه الجمعية العمـــومية بخطبة نوه فيها بان الحزب الوطنى موجـــود منذ وقت طويل ، وان ما يحدث هو اعـــادة تنظيمـــه ، كما أوضح أن الحزب الوطنى لم يكن حزبا ســـياسيا فحسب بل هو قبل كل شىء حزب حيـــاة الامة وانهـــاض لها ، كما انه حزب يهتم بتعليم سائر طبقـــات الشعب ، ويرى ان استقلال البلاد هو اســـاس كل سعـــادة ويسعى للوفاق بين افراد الامة كما يقم بتحسين حال الفلاح[٢٠] .

وبعد خطاب مصطفى كامل انتخبـــه الحاضرون بالاجماع رئيســـا للحزب الوطنى مدى الحياة ، وبعد التصـــديق على لائحة الحزب قـــام الحاضرون بانتخاب الاعضاء الثلاثين للجنة الادارية الأولى للحزب[٢١] .

والجدير بالذكر ان الحزب الوطنى كان الحزب الوحيد — من الاحزاب الثلاثة الكبيرة — الذى التزم بنهج ديمقراطى فى تنظيمه فقد بدأ من القاعدة

وتدرج الى القمة كما هو متبعـــا فى الأحزاب الديمقراطية فرفض ان يفرض على اعضـــائه لجنة ادارية معينـــة كما حدث فى حزبى الأمة والاصـــلاح بل تـــرك الأمر للجمعية العمـــومية التى قامت بانتخاب اعضـــاء اللجنـــة الادارية المكونة من ثلاثين عضوا والتى قامت بدورها فى انتخاب اللجنـــة التنفيذية للحزب المكونة من تسعة اعضاء [٣٢] الا ان ما يؤخذ على الحزب أن انتخـــاب رئيسه مدى الحيـــاة أمر غير مفهوم فى الأحزاب الديمقراطية وهذا هو ما أخذه سعد زغلول على الحزب الوطنى [٣٣] وما دفع محمـــد فريد بعد ذلك بتعديل هذه المادة وتجديد المدة التى ينتخب لها الرئيس بثلاث ســـنوات .

أما عن برنامج الحزب فقد تضمن مبادىء عشرة هى :

١ ـــ استقلال مصر كما قررته معاهدة لندن ١٨٤٠ وضمنته الفرامانات الســـلطانية ذلك الاستقلال الضامن عرش مصر لعائلة محمد على والضامن للاستقلال الداخلى للبلاد وهو الاستقلال الذى تعهـــدت انجلترا رســـميا باحتـــرامه .

٢ ـــ ايجاد حكومة دستورية فى البلاد بحيث تكون الهيئة الحـــاكمة مسئولة أمام مجلس نيابى تام السلطة كمجالس النواب فى أوربا .

٣ ـــ احترام المعاهدات الدولية والاتفاقات المالية التى ارتبطت بهـــا الحكومة المصرية لسدد الديون ، وقبول مراقبة مالية كالمـــراقبة الثنـــائية مادامت مصر مدينة لأوربا ومادامت اوربا تطلب هذه المراقبة .

٤ ـــ انتقاد الأعمال الضـــارة بكل صراحة والاعتراف بالأعمال النافعة والتشـــجيع عليها وارشـــاد الحكومة الى خير الامة ورغائبها والاصلاحات اللازمة لهـــا .

٥ ـــ العمل على نشر التعليم فى انحـــاء الديار على اســـاس وطنى صحيح بحيث ينـــال الفقراء النصيب الأوفر منه ، ومحـــاربة الخزعبـــلات والترهات ونشر المبـــادىء الدينية الســـليمية الداعية للرقى وحث الاغنياء والقـــادرين على بذل كل المســـاعدات لنشر التعـــليم بتأسيس الكليـــات

فى البلاد ، وارســـال الارسـاليات لأوربا وفتح المــدارس الليلية للعمـــال والصنـــاع .

٦ ـــ ترقية الزراعة والصناعة والتجـــارة ، وكل فـــروع الحياة ، والعمل والجـــد حتى تنال الأمة استقلالها العلمى والاقتصادى .

٧ ـــ ارشاد الأهالى بكافة الوسائل الممكنة الى حقـــائق الأحـــوال وبث الشعور الوطنى فيهـــم ، ودعوتهم الى الاتحـــاد والائتـــلاف وتمكين المحبـــة بين عنصرى الأمة المسلمين الأقبـــاط وتنبيههم الى واجبـــاتهم نحو بـــلادهم .

٨ ـــ مساعدة كل مشروع يعود على القطر بالنجاح والاجتهـــاد فى تحسين الأحوال الصحية حتى يزداد عدد الســـكان فتزداد الأمـــة قـــوة على قوتهـــا .

٩ ـــ تقوية العلاقات الودية بين تركيا ومصر من جهة ، وبين مصر والدول الأوربية من جهة اخرى ونفى كل تهمة عن مصر ، والعمل لايجاد انصـــار لها فى انحاء العالم حتى تكون لها قوة أدبية سامية تســـاعدها على اعتراف الغير بحقوقها الشرعية ، والتغلب على المســـاعى التى تعمـــل ضدها ويراد بها اخفاء الحقيقة (٢٤) .

وعند تحليل المبادىء التى ارتكن عليها الحزب الوطنى نجـــد أنهـــا قريبة الشـــبه بالبرنامج الذى ســـار عليه الوطنيون فى عام ١٨٨١ وأطلق عليه برنامج الحزب الوطنى المصرى خصوصا فى اعـــلان ولاء كل منهمـــا للدولة العثمانية ، وضرورة المحافظة على العلاقات الودية معها والارتكان فى ذلك فى مواجهة القوى الخارجية .

ففى البند الأول من برنـــامج الحـــزب الوطنى المصرى ما نصـــه « يرى الحزب الوطنى المحافظة على العلاقات الودية بين الحكومة المصرية والبـــاب العالى ، واتخاذ ذلك البـــاب ركنا يستند عليه » ثم يعتـــرف باستحقـــاق البـــاب العالى لما يأخذه من امـــوال من الخـــزانة المصرية وما يلزمه من المســـاعدة بشرط المحـــافظة على الحقوق الوطنية ومقاومة

من يحاول اخضاع مصر او ان يسلب امتيازاتها الادارية التى منحتها الفرامانات ، وفى البند الأول من برنامج الحزب الوطنى الذى اسسه مصطفى كامل نجد المطالبة بالاستقلال الذاتى لمصر فى ظل السيادة العثمانية مما اثار البعض على مصطفى كامل خصوصا جريدة المقطم التى اتهمته وحزبه بانهم يعملون على استبدال الانجليز بالاتراك وبانهم يفضلون الولاء للعثمانية على الولاء للمصرية ، وقامت بحملة شديدة على الحزب الوطنى ومؤسسه مما دفع مصطفى كامل الى دحض هذه التهم ، مبينا ان الفرامانات السلطانية تثبت عدم شرعية الاحتلال الانجليزى لمصر ، وان الباب العالى يحترم دائما استقلال مصر كما انه ضد أى تغيير للمعاهدات الدولية التى نظمت علاقة مصر بالدولة العثمانية [٢٥] .

ويرجع الدكتور هيكل اسباب تمسك الحزب الوطنى بهذا البند فى حياة مصطفى كامل [٢٦] الى محاولته تفادى معارضة القانون او ان ينسب اليه أحد تهمة التآمر على النظام القائم [٢٧] .

ومع وجاهة هذا الراى فاننا اذا تفحصنا الخطبة التى القاها مصطفى كامل على مسرح زيزينيا بالاسكندرية واعلن فيها قيام الحزب الوطنى نجده يذكر ما نصه « اننا اذا خطبنا السود لامة او لدولة فاننا نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون » ومعنى ذلك انه اذا كان مصطفى كامل قد نادى بضرورة التمسك بالرابطة العثمانية فيرجع ذلك الى انه رأى فى التعاون مع الدولة العثمانية ورقة سياسية ذات فاعلية ضد محاولات انجلترا اعلان الحماية على مصر .

وحتى يحول دون استمالة انجلترا للسلطان العثمانى وايقاعها بينه وبين مصر فليس من الحكمة ان ينادى مصطفى كامل بجلاء الاحتلال البريطانى وبالغاء السيادة العثمانية معا [٢٨] لانه اذا فعل ذلك سيثير غضب تركيا ويجعلها تنضم الى جانب انجلترا ضد المصالح المصرية، كما انه راى ان التخلص من السيادة العثمانية كان امرا هينا بعد التخلص من الاحتلال يضاف الى ذلك ان الراى العام فى مصر كان

متمسكا بالخلافة ، وكان يعتبر السلطان العثمانى خليفة المسلمين، لذلك فان دعوة مصطفى كامل للتمسك بالخلافة كانت تساير روح العصر وتتفق مع راى غالبية المصريين [(٣٩)] .

وفى البند الثانى لكل من الحزبين نرى هناك تشابها ايضا فقد نص برنامج الحزب الوطنى أيام عرابى على عدم عودة الاستبداد والاحكام الظالمة ، واتباع حكم اشورى بواسطة مجلس شورى النواب واطلاق عنان الحرية للمصريين ، ودعا برنامج الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل الى أن تكون الحكومة دستورية ومسئولة امام مجلس النواب .

اما البند الثالث فنجد فيه تشابها ايضا من ناحية احترام الاتفاقات والمعاهدات التى عقدت مع الدول الأوربية حتى تهدأ خواطر اصحاب الديون فقد نص برنامج الحزب الأول على احترام الاتفاقات الدولية خصوصا الديون الأجنبية وقبول استمرار المراقبة الأوربية كما نص برنامج حزب مصطفى كامل على احترام ارتباطات الحكومة بسداد الديون وقبول مراقبة مالية كالمراقبة الثنائية مادامت مصر مدينة لاوربا .

يضاف الى ذلك أن كل من الحزبين نادى بتعميم التعليم والعمل على نشر المعارف وتقوية عنصر الوئام والمحبة بين كافة الأديان ونفى تهمة التعصب عن المصريين واشتراك رجال مختلفى العقيدة والمذهب فى كل منهما .

وعلى كل حال فقد كان برنامج الحزب الوطنى برنامجا عمليا بشكل عام واقرب ما يكون الى نشاط مصطفى كامل قبل اعلان الحزب رسميا .

وقد كانت الجمعية العمومية للحزب الوطنى تجتمع مرة فى شهر ديسمبر من كل عام تحت اسم المؤتمر الوطنى لمناقشة ميزانية الحزب واعماله ومراجعة نشاطه ووضع القرارات .

وعن اللجنة الادارية للحزب فكانت تنعقد مرة كل شهر للنظر فى الأمور الخاصة بالحزب .

أما عن اللجنة التنفيذية فكانت تتكون من ثمانية اعضاء ينتخبون من اعضاء اللجنة الادارية بخلاف الرئيس يكون منهم نائبان للرئيس وسكرتير وامين صندوق وكانت هذه اللجنة تجتمع اسبوعيا لتسيير امور الحزب وما يطرأ عليه من تطورات (٣٠) .

وبالنسبة لاشتراكات الأعضاء فلم يتحدد اشتراك معين بل ترك لكل عضو يدفع ما يريد حسب مقدرته .

وقد نمت حركة الحزب الوطنى واتسع نطاقها بازدياد عدد الذين انضموا الى صفوفه .

وتختلف الآراء التى قيلت عن تأسيس الحزب الوطنى بين مادح وقادح فهناك رأى يرى انه كان من الواجب على مصطفى كامل وجماعته محاربة حركة تجزئة الأمة وتفتيت وحدتها بأن تبادر بكشف اساليب الاستعمار واعوانه بدلا من أن تسارع الى تنظيم نفسها على شكل حزب بعد الاعلان عن حزبى الأمة والاصلاح على المبادىء الدستورية(٣١) ولكن ردنا على ذلك هو انه بالرغم من اختمار فكرة تكوين الحزب الوطنى فى ذهن مصطفى كامل كما سبق ان اوضحنا الا انه لم يقدم على هذه الخطوة الا بعد الاعلان عن حزبى الأمة والاصلاح وبعد ان كاد صوت الجلاء يضيع وسط المتاهات الحزبية ، فالواضح ان الحزب الوطنى كان آخر الأحزاب الكبيرة التى اعلنت عن نفسها حيث اعلن عن قيام حزب الأمة فى ٢١ سبتمبر ١٩٠٧ وحزب الاصلاح فى ٩ ديسمبر بينما الحزب الوطنى لم يعلن قيامه الا فى ٢٧ ديسمبر من نفس العام يضاف الى ذلك أن مصطفى كامل رغم انه اضطر الى قبول مبدأ تكوين الحزب السياسى فانه ظل يدافع عن فكرة مبدأ الحزب الواحد ، وكان من رأيه أن تعدد الاحزاب ممكن طالما أن الوطن ليس معرضا للخطر أما وقد اصبحت مصر محتلة من الانجليز ، فان مواجهة الخطر تقتضى الاكتفاء بحزب سياسى واحد هو الحزب الوطنى حتى يتمكن من توحيد الأمة وتجنيد وحشد كافة طاقاتها لتحقيق الاستقلال (٣٢) .

اما الرأى الثانى فكان يرى فى تعـــدد الاحزاب قوة للامة وتاكيـــدا لصلابتها وتقدمهـــا اذ انه لا توجـــد الأحـــزاب الا فى الأمم القـــوية التى بلغت اشـــدها ، وتكون الأحـــزاب كالشجرة التى تتفـــرع الى اغصـــان كثيرة لكنها ترتبط بالجـــذع الراســـخ بجـــذوره فى اعمـــاق الأرض ، فكذلك الأمة القـــوية هى الجذع الراسخ وفروعها بمثابة الاحزاب المختلفة الاتجـــاهات [٣٣] .

ثم هنـــاك راى آخـــر يرى ان العمل الحزبى افضـــل من العمـــل الفردى الذى يمكن ان ينتهى بمـــوت الفرد ، كمـــا ان وجـــود احـــزاب معتدلة بجانب متطرفة يعطى للانجليز الفرصة فى التفاهم معهم فيكون احدهم حلقة اتصال بين الأمة والاحتلال [٣٤] .

ومع وجـــاهة الآراء السابقة فاننا نرى ان ظروف مصر فى تلك الفترة وهى فترة الاحتـــلال كانت تتطلب وجود حزب واحـــد قـــوى يســـتطيع قيادة الأمة نحو الاستقلال بعيـــدا عن المهـــاترات الحـــزبية التى غـــالبا ما تنشـــأ نتيجة الصراع بين مختلف الاتجـــاهات والنزاعات الحزبيـــة ، اما بعد أن يتحقق الجـــلاء فتعدد الأحـــزاب مطلوب لممارســـة الحيـــاة الديمقراطية .

وعلى كل حـــال فقد خاضت مصر غمار الحزبية ، واصبح لزاما على الحزب الوطنى ان يحمل لواء الاستقلال وقيادة الحركة الوطنية المطـــالبة بالجـــلاء العـــاجل .

ولقد ارتبطت الطبقـــة المتوسطة وبوجه خاص الكامنة منها فى المدن بشخصية مصطفى كامل الرومانســـية أشد الارتبـــاط كما ارتبط الشباب بصفة عامة والطلبـــة بصفة خـــاصة بمصطفى كامل لدرجـــة ان اصبحت بعض المدارس مكانا للمناقشات السياسية التى اثارها الحزب الوطنى [٣٥] ومع ذلك فانه لا يمكن القول بأن الحزب الوطنى كان يمثل كافة المثقفين لان هـــؤلاء وزعوا بين كافة الأحزاب [٣٦] كمـــا ان الحزب الوطنى فى بـــداية تكوينه لم يهتم بجـــذب الفلاحين اليه وذلك لان دعوته بالتقـــارب من الدولة العثمـــانية جعلت الفلاحين يبتعدون عنه نظـــرا لما لاقوه من العسف اثنـــاء الحـــكم العثمانى واستمر الحال على هذا المنـــوال حتى

حادثة دنشــواى التى كانت فرصــة لوصــول صــوت مصطفى كامل للفلاحين [٣٧] ، يضاف الى ذلك ان نشـاط الحزب الوطنى تركز فى المدن، وبوجه خـاص فى الاسكندرية والقاهرة والمدن الكبرى بالوجه البحـرى اما فى الوجه القبلى فلم يكن للحزب الوطنى نفوذ يذكر .

ولقد تميز برنامج الحزب الوطنى بالوضـوح ورتب مطالبه الوطنية حسب اهميتها فأعطى للجـلاء الأولوية على الدستور ، وبذلك كان حـزب التعبير عن الواقع مما كفل له تأييد اغلبية الجماهير فكان له اعظم وزن فى الحركة السياسية المصرية فى تلك الفترة [٣٨] .

وقد اثمرت دعـوة الحزب الوطنى فى جمع شمل المصريين حـول مطلب الجـلاء الذى اقترن بفكرة الحيـاة الدستورية ، ولما اتضـح ان ذلك لا يتم الا بالارتقـاء بأفراد الأمة اهتم الحزب الوطنى بنشر التعـليم كما نادى برفع الغبن عن الطبقات الكادحة من ابناء الشعب [٣٩] .

ومما يؤخذ على الحزب الوطنى موقفه من القضـايا الاجتمـاعية ، فرغم ان مؤسسه تعلم فى اوربـا فقد ظل متمسكا بالقديم اشد استمساك فهاجم قاسـم امين عندما اصدر كتابه تحرير المـراة واتهمـه بمخـالفة الدين [٤٠] كما هاجم الشيخ على يوسف لموقفه من قضية الزوجية .

ويمكننا أن نرجع ذلك الى ان مصطفى كامل حاول التقرب الى الشعب فيما هو عزيز لديه من عادات واوهام لاستغلاله فى الغايات السياسية .

ويؤخذ على الحزب الوطنى ايضـا انه لم يكن له دور بـارز داخل القرية المصرية فاعتمـد على الطبقـة المثقفة مع ان الحركات الجماهيرية لا تتعمق جـذورها الا بالاعتماد على القوى الفلاحية التى تمثل غـالبية افراد المجتمع كما يؤخذ عليه انه لم يطرح على جماهير الشعب المصـرى تصورات لآفاق جديدة مثل التى طرحتها الأحزاب الأخرى [٤١] .

ولعل الخديو عبـاس الثانى كان محقـا فيما قاله عن مصطفى كامل بأنه لم يكن منـرطا فى عصريته وان افكـاره كانت اقـرب الى التقليـد الشرقى [٤٢] يضاف الى ذلك ما ذكرته جوليت آدم من ان مصطفى كـامل

كان يشفع اعمـــاله بالتقاليد العربية الأصيلة حتى يرضى شمم عنصـــره الذى لا يقبل فى ذلك الوقت الا أن يسترد ما اعاره لأوربا (٤٣) .

وعلى كل حال فقد أسس مصطفى كامل حزبا ذو تنظيم اتسم بالقوة والثبـــات أمام الضربات التى وجهت اليه وصار يؤدى واجبه فى حـــركة النضـــال الوطنى حتى يمكن القول انه كان صاحب الفضل فى تهيئة الطريق أمام ثورة ١٩١٩ .

٣ ـ محمد فريد وزعامته للحزب الوطنى

حيـــاة محمد فريد الزعيم الثـــانى للحزب الوطنى مليئة بالتضحيات فى سبيل المبـــادىء من اجل الدفاع عن حرية مصر وحقوقها المســلوبة فقد انضم فريد الى قافلة المجـــاهدين بعد ان اتم تعليمه ، وبدأ حيـــاته الســـياسية بالاستقـــالة من وظيفته كوكيل للنـــائب العام بعد موقفـــه الوطنى فى قضية التلغراف ، ثم ضحى بعمله فى المحاماة لكى يتفرغ للجهاد، كمـــا ضحى بأمواله لمساندة الحركة الوطنية فباع كل ما تركه والده مـــن أرض زراعية من اجـــل تمويل الحزب الوطنى حتى يقف على قدميه ثابت الأركان ، ورفض الاشـــتراك فى أى وزارة . أو تولى أى منصب طـــالما الاحتلال جاثمـــا على صـــدر الوطن يضاف الى ذلك انه ضحى براحتـــه وحـــريته فتعرض للســـجن والنفى ومـــات بعيدا عن الوطن الذى أحبه وعمل من اجـــله .

ورغم الظروف الســـياسية التى احاطت بفريد عقب توليه رئاســـة الحزب الوطنى ورغم ما تعـــرضت له الحركة الوطنية من ضربات متلاحقة ســـواء من الخديو أو من الاحتلال نتيجة ســـياسة الوفاق التى اتبعهـــا الانجليز لاجتذاب الخديو الى صفهم واحتواء الحركة الوطنية فقد ظـــل فريد متمســـكا بمبادئه متحملا للمصـــاعب والعقبات التى واجهته بـــكل عزيمة وجـــلد ليس فقط من جـــانب الانجليز والخديو ، ولكن ايضـــا من جانب بعض أعضـــاء الحزب الوطنى وبوجـــه خاص من على فهمى كامل شقيق مصطفى كامل .

فبعد وفاة مصطفى كامل اتجهت أنظـــار الوطنيين الى محمد فريد ليخلفه فى تحمـــل أعباء زعامة الحزب الا أن الخـــديو كان له موقف آخر وهو رغبته فى احتواء الحزب الوطنى عن طريق ترشـــيح من يتوســـم فيه السير فى ركابه خلفـــا لمصطفى كامل فى زعامة الحـــزب ، ولما كان الخديو يدرك ان فريدا ليس بالرجل الذى يســـير طوع ارادته ، أو ممن يدينـــون بالطـــاعة او الولاء له فقد حـــاول منع انتخـــابه رئيسا للحزب الوطنى وذلك عن طريق تقريب أعضاء الحـــزب منه وامـــلاء ارشـــاداته وتوجيهاته عليهم ، ودس دســـائسه لانتخـــاب من يكون طوع ارادتـــه ، فأوعز الى على فهمى كامل ان يرشح نفسه لرئاسة الحزب الوطنى ووعده بالمســـاعدة المادية والأدبيـــة على اســـاس انه أحـــق الناس بـــوراثة اخيه فى زعـــامة الحركة الوطنية ، ورغم أن مصطفى كامل كان قد رشح فريدا بأن يكون رئيســـا للحزب من بعده فان على فهمى كامل حبذ فكرة الخـــديو ، وعمل من أجل تحقيقها ، ولكنه رأى التيـــار داخل الحـــزب فى صـــالح فريد فتراجـــع عن موقفه ، ويتضح ذلك مما كتبـــه فريد فـــى مذكراته فقال « كان يريد ان ينتخب بصفتـــه أخ الفقيد وجهـــز أوراقـــا مكتوبا عليها اســـمه ووزعها على بعض الحـــاضرين ، وأدخل فى محضر الاجتمـــاع الكثيرين من غير الأعضـــاء بواســـطة من وضعهم على الباب من رجـــاله ، ولكنه لما رأى التيـــار قويا ضـــده حول الدفة ، وخطب فى الحاضرين مرشحـــا لى بناء على جواب كتبـــه له أخوه من أوربا يوصيه فيه بانتخابى لو فاجأه القدر المحتوم [(٤٤)] » .

وعلى كل حال فقد فشـــلت محـــاولات الخديو فى اســـقاط فـــريد خصوصا بعد ان وقف الأســـتاذ عثمان صبرى صهر مصطفى كـــامل ، ومدير جريدة ذى اجبشيان استاندارد والتى خطبـــة أوضح فيهـــا ان فريد هو المرشـــح الوحيد لرئاســـة الحزب بعد مصطفى كامل ، وقد وجـــدت هذه الفكرة ترحيبـــا من اجماع الحاضرين ونودى بفـــريد رئيسا للحزب الوطنى [(٤٥)] مما قلب خطط الخديو رأسا على عقب .

ولما علم الخديو بما حدث حاول الا تفلت الأمـــور من يده اكثر مـــن ذلك فطلب من فريد تليفونيا مقـــابلته بسراى عابدين ، وهناك هنأه على على انتخـــابه وكان من ضمن عبـــاراته له « أن وجـــود مثلك على كرسى

الحركة الوطنية مفيــدا جدا لانك لست محتــاجا ، ولا طالبا للمـــال ، ولانك من عائلة خدمت البـــلاد .. ولا يمكن للانجليز ان يقــولوا عنــك بأنك طالب شهرة أو مال أو وظيفـــة »(٤٦) كمـــا عرض الخديو على فريد استعداده للمســـاعدة بالمال ، ولكن فريد رفض ذلك بشـــدة حتى لايكون مرتبطـــا بالولاء لأحد .

وهكذا نجـــح رجال الحزب الوطنى فى احبـــاط محاولات الخـــديو بمنع انتخاب فريد ، واحـــداث انشقـــاق ونزاع بين اعضـــاء الحـــزب فقضوا على المؤامرة فى مهدها ، ورابوا الصـــدع ، وتم انتخـــاب فريد رئيســـا للحزب الوطنى ، وكذلك حدد فريد فى أول لقـــاء له مع الخديو بعد انتخـــابه استقلاله عنه ، ورفض أمواله حتى لا يســـير طوع ارادته مما زاد من اصرار الخـــديو على ضرورة اســـقاطه ، ووضع العقبـــات أمـــامه .

وقد حمل فريد زعامة الحزب الوطنى وســـط مصـــاعب جمة فـــلم تسر الأمور على المنوال الذى ســـارت عليه رئاسة مصطفى كامل للحزب، ويرجع ذلك الى أن فريد تولى زعامة الحزب فى وقت ظهرت فيه سياسة الوفاق بين الخديو والاحتلال فصـــارت الحـــركة الوطنية بزعامة فـــريد هدفا لحرب شديدة من جانب الاحتلال والخديو معا (٤٧) مما جعل فريـــد يضـــاعف من جهـــاده .

وقد أخذ فريد يشرف على تحرير جرائد الحزب الثـــلاثة ويوجـــه سياستها كما أنشىء فى أوائل عهـــده بالرئاسة نـــادى الحزب الوطنى ، وتولى هو رئاسته .

وقد حدد فريد مطـــالب الحـــركة الوطنية فى مطلبين همـــا الجـــلاء والدستور وبذلك كان متفقا فى خطته مع مصطفى كامل الا انه ابرز دعوة المطالبة بالدســـتور وجعل منها حركة عامة دعـــا اليها الأمة ، ووجهـــا الى مطـــالبة الخديو بالدستور بكتابة العرائض الى قصر عـــابدين(٤٨) ، وقد أعد الحزب الوطنى عرائض لتقديمها الى الخـــديو بطلب مجـــلس نيـــابى (٤٩) واعادة دستور ١٨٨١ الذى ألغى بعد هزيمة العرابيين .

ويبدو أن فريدا كان قد اقنــع الخديو بضرورة منح الأمة المصــرية مجلســا نيابيا ، وأن الخديو وافق على كتــابة العرائض بطلب الدستور حتى اذا سافر الى انجلترا يتكلم مع الملك ادوارد بخصوص منح المصريين الدستور ويثبت ذلك ما كتبه محمد فريد فى مذكراته « كان الشــروع فــى هذا العمل بالاتفــاق مع الخديو حتى اذا سافر الى انجلترا يتكلم مــع الملك ادوارد فى ذلك ويظهر له ان الأمة المصرية تطلب الدستور وانه يوافق على ذلك لأنه من حقوقها »(٥٠) .

وعلى كل حال فقد اخذ الحزب الوطنى يجمع التوقيعــات بطــلب المجلس النيــابى حتى وصــل الى حوالى خمســة وسبعين الف توقيع، ولما تبلورت خطــورة هــذه الحركة داخــل البــلاد ســعى الاحتــلال لاحباطها فأعلن وزير الخــارجية البريطانية فى مجلس العموم أن الخديو لا يمكنه أن يمنــح بلاده دستورا أو مجلسا نيابيا الا بعــد استشــارة الحكومة البريطانية ، وقــد احتج الحزب الوطنى على ذلك بشدة وانتقد ما تخــوله انجلترا لنفســها من الحق غير الشرعى فى التدخل بين الامة والخــديو صــاحب السلطة فى منح امته الدستور (٥١) فذكر فريد بانه خير لنــا أن نبقى بلا دستور من أن ننــاله بالاعتراف بان للانجليز حقــا او شــبه حق فى بلادنا .

وعلى الرغم مما ابداه الخديو من ارتيــاح فى بداية الأمر الى تقــديم العرائض فانه قابل اتســاع هذه الحركة بالفتــور ثم تغير موقفه حيالها وبوجه خــاص بعد أن اظهر الاحتــلال استيــاءه وأعلن جورســت ان الشروط اللازمة لاقامة مجلس نيــابى فى مصر غير متوفرة والتفــكير فيهــا يعتبر ضربا من الحمــاقة والجنون فخشى الخــديو أن تتعرض ســياسة الوفاق بينه وبين الانجليز للخطر يضــاف الى ذلك أن فريدا اشترط أن يضع أحكام الدستور المنتظر مجلس منتخب من الأمة ممــا جعل الخــديو يتردد فى الأمــر .

ورغم ذلك فان الحزب الوطنى استمر فى مطالبته بالدستور ، وجدد اساليبه فى مطــالبته به فبعد أن كانت المطــالبة تقتصر على العــرائض اتبع الحزب اســلوب المظاهرات الشعبية ، فكان يتجمع فى حديقة الجزيرة الآلاف ثم تســير المظاهرة الى قلب القاهرة منادية بالدستور ، وكان دور

الطلبة خصوصا طلبة المدارس العليا بارزا فى هذه المظاهرات ففى محطة طنطا قام الطلبة بمظاهرة وطنية اثناء مرور الخديو بها يطالبون بالدستور ، كما تظاهر الطلبة أثناء مرور موكب الخديو فى القاهرة هاتفين « الدستور يا افندينا »[٥٢] وكان طلبة الحقوق يصعدون على سطح مدرسة مجاورة لقصر عابدين يرددون الهتاف للدستور[٥٣] ولم يتوقف الأمر عند ذلك الحد فقد تعقبت هذه الدعوة الخديو خارج مصر أيضا فقد طالبه المصريون الموجودون فى تركيا بالدستور اثناء زيارته للسلطان وعلا هتافهم « الدستور يا افندينا » كما طالبه به الطلاب المصريون بانجلترا اثناء زيارته لها[٥٤] .

وقد تزايدت الهتافات بالدستور فى كل مكان حتى اصبحت اقرب الى نشيد وطنى لا يظهر الخديو فى اى مكان عام الا ويواجه بها واحيانا تختلط هذه الهتافات بزغاريد النساء[٥٥] .

يضاف الى ذلك أن الحزب الوطنى حاول اتباع اساليب الضغط والتهديد مع الخديو حتى يمنح الأمة الدستور وذلك بأن يقدم اعضاؤه عريضة للخديو يطلبون فيها الدستور ، واذا لم يتحقق مطلبهم فى مدة شهر يتوقف المصريون كافة عن دفع الضرائب للحكومة[٥٦] ولم يقتصر الأمر على ذلك بل قام بعض رجال الحزب الوطنى بارهاب الخديو فأرسلوا اله خطابات تهديد بنسف موكبه كما قاموا بوضع عوائق أمام القطار الخاص الذى كان يقوده الخديو بنفسه من مريوط الى الاسكندرية ، ولكن الخديو تمكن من ايقاف القطار بصعوبة .

وبالرغم من أن حركة المطالبة بالدستور لم تسفر عن اعلانه بل زادت من تقرب الخديو لقصر الدوبارة فانها غرست فى نفوس المصريين التعلق بالحكم الدستورى والكراهية للحكم الاستبدادى[٥٧] كما انها زادت من متاعب رجال البوليس فى حفظ النظام فى شوارع القاهرة[٥٨] مما سبب قلقا لسلطات الاحتلال .

وبالرغم من احساس فريد بخطورة التصدى للخديو والانجليز معا فانه لم يجد بدا من التصدى لهما دون أن يبالى بغضبهما

أو تحالفهما ضـده فانتقد زيـارات جورسـت المستمرة لقصر عابدين ، واعلن عن تخوفه من النتـائج السـلبية التى تعود على الحركة الوطنية من جراء توثيق العلاقات بين الخديو والمعتمد البريطانى وكتب مقـالات فى اللواء تحت عنوان « ماذا يقولون » بدأ اولهـا فى ١١ ابـريل ١٩٠٨ وفيها عرض بالخـديو وسياسته وذكره بمواقفـه السابقة من الانتصـار للحركة الوطنية والدستور [٥٩] كما فتـح باب المناقشة فى سياسة الوفاق يضاف الى ذلك أنه سـافر الى فرنسا فى مايو ١٩٠٨ للدفاع عن القضية المصرية والتقى ببعض رجـال السياسة والقلم هنـاك كمـا سـافر الى انجلترا ، وقابل المستر بلنت وبعض اعضاء انبرلمان الانجليزى [٦٠] وهناك طـالب بالجـلاء واعادة الدستور ، واوضح ان الحركة الوطنية لم تمت بوفاة مصطفى لانهـا لم تكن قائمة على اشخـاص بل لهـا اسس وجذور فى داخل الشعب المصرى ، ومهما تغيرت الاشخـاص فالمبدأ ثابت لا يتغير وهو جلاء الانجليز عن مصر .

ولما حاول بعض النواب الانجليز اقنـاع فريد بالتخلى عن مطـلب الجلاء فى سبيل بحث اعطاء مصر الدستور ، رفض ذلك الطلب بشـدة واوضح أنه لا مساومة فى موضوع جلاء المحتلين عن مصر [٦١] .

وقد تضـايق الخديو من محاولات فريد افساد سـياسة الـوفاق فحاول ابعـاده عن الاتصـال بالجماهير وتخريب الندوات السياسية التى يقيمها الحزب الوطنى فعندما سـافر فريد الى الزقازيق مع بعض رجال الحزب لالقاء خطبة بمناسبة دخول انجليز مصر تصدى لهم أنصار الخديو بالمحطة وحاولوا منع الاحتفال ، ولكن لم يتحقق مسعاهم .

وقد جاهر الخديو بعدائه لفريد بعـد ان فشل فى احتـوائه فرماه وانصـاره بالتسرع فى حديث له مع مكاتب جريدة الطـان الباريسية فقال « لقد اشتغلت دائمـا فى ترقية بـلادى وتقدمها فى الحضارة ، ولـكن للاسـف وجد قوم متسرعون جدا اخروا تقدمها الطبيعى بالحاقهم فـى مطـالب سـابقة لأوانها ومصحوبة بالضوضاء » وعرج فى حديثه على الاحتلال وجورسـت فقال « ولى وطيد الأمل فى انقيام بمهمتنا بمسـاعدة البلد الذى يؤيد مصر تأييدا عظيما فى رفع شأنها وتمدينها ، وان وجود ممثل هذا البلد السير الدون جورست بيننا يعتبر وثيقة لنا لتحقيق ذلك » [٦٢] .

وقد رد فريد على ذلك بمقالتين تحدث فيهما عن خطر سياسة الوفاق على القضية المصرية وانتقد الخديو له بالتسرع .

وعلى كل حال فانه يتضح من أحاديث الخديو انتقاده للسياسة العدائية التى كان يجرى عليها الحزب الوطنى ضد الانجليز وتمسكه بسياسة الوفاق التى سار عليها جورست .

ولم تقتصر المضايقات الموجهة الى فريد على الخديو والمحتلين فحسب بل شاركهم فى ذلك على فهمى كامل وبعض المنشقين على سياسة فريد ، فقد عمل على فهمى كامل على تعطيل جريدة اللواء لاحراج مركز فريد فحرض عمال الجريدة على الاضراب عن العمل فى نوفمبر ١٩٠٨ حتى تتحقق مطالبهم ، ولما لم ينجحوا فى مسعاهم فى تعطيل الجريدة أو السيطرة عليها قاموا بانشاء جريدة مصر الفتاة لتعبر عن آرائهم وتنتقد سياسة فريد وتحارب اللواء ، ومع كل ذلك فقد تذرع فريد بالصبر ودعا كافة أعضاء الحزب الى ضرورة لم الشمل والتضامن لمجابهة الدسائس التى تحاك ضد الحزب .

وقد تدفعنا مضايقات على فهمى كامل لمحمد فريد الى التساؤل عن سبب الخلاف الاساسى بينهما .

الواقع ان الخلاف كان يكمن فى علاقة كل منهما بالخديو ففريد كان يمثل التيار المتشدد تجاه الخديو بينما على فهمى كامل كان يتمسك بمبدأ الموالاة الشديدة له يضاف الى ذلك ان على فهمى كامل كان يعتبر انه أحق من فريد برئاسة الحزب الوطنى ، وان فريدا اختلسها منه لذلك كان يحاربه فى الباطن بينما يظهر له الود كما ان حب على فهمى كامل الشديد للمال جعل من السهل على الخديو اجتذابه الى صفه ضد محمد فريد ومحاولة اظهاره بمظهر عدم القدرة على ادارة الحزب وصحافته .

ورغم كل هذه العقبات التى اعترضت فريد فقد سار فى برنامجه الوطنى لتحقيق الجلاء والدستور ، ومن أجل ذلك عمل فريد على تعليم الشباب حتى يتعرف على حقوقه وواجباته فطالب بنشر التعليم الابتدائى

بين جميع طبقـــاته فقيرها وغنيها ، وان يكون هذا التعليم الزاميا ومجانيا لكل مصرى ومصرية حتى يشب التلاميذ على حب المساواة ، ويعرفون منذ نعـــومة اظفارهم الا تفـــاوت بين الناس الا بخدمة الوطن كما تبنى فريد مع نـــادى المدارس العليا فكرة انشـــاء مدارس ليلية لتعـــليم الفقـــراء والعمال مجانا ، وقد عرفت هذه المدارس باسم مدارس الشعب ، وبدأت الدراســـة بأولها وهى مدرســـة بولاق فى نوفمبر ١٩٠٨ وعهد بالتدريس فيها الى رجـــال الحزب الوطنى وانصاره فكان المحامى والطبيب والمهندس وغيرهم يخصصـــون من أوقاتهم ساعة أو اكثر كل مساء يقفون فيهـــا فى حجرة ضيقـــة خشنة يعلمون الفقراء مبادىء القراءة والكتابة ، وجغرافية بلادهم وتاريخها وقـــوانين المعـــاملات اليـــومية والاخلاق والآداب وغير ذلك من العلوم ، ومن داخل هذه المدارس نبتت بذور فكرة انشاء نقـــابة الصنـــائع اليدوية من أجل حماية العامل والفـــلاح من الفقر ، ومساعدته عند الشـــيخوخة ، ورغم اهمية هذه المدارس فى القضـــاء على الجهـــل والامية فان الحـــزب الوطنى اقتصر على افتتـــاحها فى القاهرة ولم يـــكن للاقاليم منها نصيب .

وقد دعا فريد الى وضـــع التشريعات لحمـــاية العمـــال والعنـــاية بشئونهم وتحديد ساعات العمل بالنسبة لهم ، وتحريم اشتغال الاطفـــال الذين تقل اعمـــارهم عن تسع سنوات فى محالج القطن ، وتحريم عملهم فى كافة المصـــانع ليلا ، كما عنى بتأسيس النقابات للدفاع عن حقـــوق العمال والمطالبة بترقية أحوالهم المادية والمعنوية فانشئتببولاق عام ١٩٠٩ أول نقـــابة للعمال فى مصر باسم نقـــابة عمال الصنائع اليدوية ، كمـــا دعا الى ايجاد النقابات الزراعية لتقف ضـــد الظلم الفادح الذى يتعرض له الفلاح من الحكومة والملاك والمرابين كمـــا طالب بتخفيف الضرائب عن الأطيـــان ، وتحســـين حالة الفلاح المسكين الذى يعمـــل هو وزوجتـــه واولاده ورغم ذلك لا يحصلون الا على القوت الضرورى .

وقد سرت فكرة تأسيس النقابات فى عاصم الأقاليم فانشئت نقابات لعمال الصنـــائع اليدوية فى الاسكندرية والمنصورة وطنطـــا وغيرها على غرار نقابة القاهرة .

ونتيجة لدعوة فريد بالاهتمام بالعمال والفلاحين ذكر البعض ان الحزب الوطنى ايام فريد كانت به لمسات اشتراكية ، ولكن الواضح ان مخطط الحزب الوطنى كان يفتقر الى مثل هذه اللمسات الحقيقية لانه لم يقدم على سبيل المثال منهجا عمليا للاسهام فى حل مشاكل الشعب الاقتصادية والاجتماعية ، ولم يتعد دفاعه عن العمال والفلاحين الخطب والمقالات بهدف جذبهم اليه وبث روح النضال الوطنى فيهم ، وتنظيمهم ليكونوا ركيزة للعمل الوطنى الى جانب المثقفين من ابناء الطبقة المتوسطة ولم يقتصر دور فريد الوطنى فى الكفاح على ذلك بل شجع على تأسيس جمعيات للطلاب المصريين الذين يدرسون فى الخارج بهدف الدفاع عن قضية استقلال مصر [٦٢] ثم عقد المؤتمرات فى أوربا لشرح حقيقة القضية المصرية يضاف الى ذلك الاشتراك فى المؤتمرات التى تعقد فى أوربا لاظهار حقوق الشعوب المغتصبة بهدف تكوين رأى عام يناصر القضية المصرية .

وفى محاولة للحد من نشاط فريد الثورى والقضاء على الروح الوطنية قامت حكومة بطرس غالى بتقييد حركة الصحافة فاعادت فى مارس ١٩٠٩ العمل بقانون الصحافة القديم الصادر فى نوفمبر ١٨٨١ والذى يخول لوزارة الداخلية حق انذار الصحف وتعطيلها مؤقتا او نهائيا دون محاكمة أو دفاع ، كانت حجة الوزارة فى ذلك هو ردع الجرائد ألتى تجاوزت الحدود ، ووقف الفوضى التى تتعرض لها البلاد .

وقد احتج الحزب الوطنى على اعادة هذا القانون الذى يكمم أفواه الوطنيين وظهر ذلك واضحا فى المظاهرات التى قامت فى القاهرة احتجاجا على تقييد حرية الصحافة ، وفى برقيات الاحتجاج التى ارسلت الى الخديو والوزراء وعلى كل حال فقد حوكم الشيخ جاويش بمقتضى هذا القانون لنشره مقالا باللواء تحت عنوان « ذكرى دنشواى » اعتبرته النيابة طعنا فى حق بطرس غالى رئيس المحكمة المخصوصة التى حاكمت المتهمين ، وحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثة شهور ، كما انذرت جريدة اللواء لنشرها مقالا عن شاب هندى يدعى (دنجرا) عدتها تحريضا على ارتكاب الجرائم والاخلال بالأمن والنظام كما امعنت الحكومة فى عدوانها على ضمانات الحرية الشخصية فاصدرت

ما يعرف بقانون النفى الادارى وبمقتضـــاه يكون الحق للحكومة ان تنفى الاشخـــاص الذين تـــرى فيهم خطورة على الأمن العام ولم تقتصر جهود الحكومة البطرسية على الافتئات على حقـــوق الأفراد بل حاولت أيضـــا الافتئات على حقوق الأمة بمد فترة امتيـــاز قناة السويس الذى كان ينتهى العمل به عام ١٩٦٨ أربعين عاما اخرى فى نظير مبلغ اربعة ملايين مـــن الجنيهـــات تدفعها الشركة لهـــا ، ورغم ان هذا المشروع قد ظل فى طى الكتمان حوالى سنة فان محمد فـــريد تمكن من الحصـــول على نســـخة المشروع فى اكتوبر ١٩٠٩ ونشرها فى جريدة اللواء موضحـــا مدى الغبن الذى ستتعرض له مصر من ورائه وكان ذلك بمثابة صيحة الخطر فاهتمت الأمة بطوائفها وصحافتها بهذا الموضوع فرأت الاحزاب ضرورة الاتفـــاق على طريقة واحدة (٦٤) كمـــا طالبت الصحـــافة بعـــرض المشروع على الجمعية العمومية قبيل البت فيه ونظرا لخطـــورة المسألة اجتمعت اللجنة الادارية للحزب الوطنى فى ٢٩ اكتوبر ١٩٠٩ وهـــاجمت قيمـــة المشروع السياسية والمالية ، وطالبت الحكـــومة بأخـــذ رأى الأمـــة قبـــل تنفيـــذ المشروع (٦٥) كما ارســـلت البرقيات الجماعية الى الخديـــو رفض فيهـــا اصحـــابها تجديد امتياز القنـــاة ، وطالبوا بعرض الموضوع على الجمعية العمـــومية (٦٦) .

ونظرا لما آلت اليه البـــلاد من الغليان حاول الخديو اقناع جورست بعرض المشروع على الجمعية العمومية ومع ان جورست لم يعتـــرض على ذلك الا انه اشـــترط ان توافق الحكومة على المشروع اولا ثم تترك امر تنفيذه لموافقة الجمعية العمومية (٦٧) على ان يدافع سعـــد زغلول عـــن المشروع أمامها ونتيجة لذلك قامت الوزارة بدعوة الجمعية العمومية للانعقاد لاحـــالة المشروع عليهـــا .

ولكى تتضح مخاطر المشروع أمام الرأى العـــام قـــام فريد بتوضيح ابعـــاده السياسية فقال « كيف يجوز لهذه الحكومة أن تتســـاهل فـــى أمر اطـــالة أمد هذه الشركة مع علمها ان هذه القناة كانت السبب فـــى ضياع استقلال مصر ، وان كل مصرى يتوق لأن يراها ملكا لمصر » كمـــا طالب فريد بحفظ مرافق الأمة فى أيـــدى ابنائها ، وهاجم تمليك مرافـــق البلاد الى الشركات الانجليزية ، وناشد اعضاء الجمعية العمومية الاستقلال

فى الفكر والشجاعة الأدبية لأن مصالح الأمة فوق كل شىء كما دعا الحزب الوطنى الى القيام بمظاهرة وطنية عند اجتماع الجمعية العمومية للمناداة برفض المشروع .

وعندما افتتحت جلسات الجمعية العمومية برئاسة الأمير حسين كامل فى ٩ فبراير ١٩٠٩ لمناقشة هذا الموضوع حاولت الحكومة استعمال الشدة مع الاعضاء لكى يوافقوا على المشروع فقد كان بطرس غالى يعتقد ان المشروع نافع للبلاد كما كان الأمير حسين كامل يؤيد المشروع[٦٨] ولكن الاعضاء اصروا على رفضه ، وفى ١٠ فبراير شكلت لجنة مكونة من خمسة عشر عضوا لدراسة المشروع وكتابة تقرير عنه ، وقد انتهت اللجنة الى عدة قرارات اهمها .

عدم قبول مشروع الاتفاق المعروض على الجمعية لانه ليس فى صالح البلاد بل يعد غبنا فاحشا على مصر ، ونظرا للمعارضة الشديدة للمشروع فى الجمعية العمومية لم يجد الأمير حسين كامل بدا من الاستقالة من رئاسة جلسات الجمعية خصوصا بعد أن فشل فى تحويل دفة المناقشات لصالح الحكومة .

واستمرت المناقشات فى الجمعية العمومية ، وفى النهاية تقرر رفض المشروع باغلبية الآراء ، فكانت هذه المرة الأولى التى استطاعت فيها الجمعية العمومية فرض رأيها على الحكومة .

وهكذا نجح ضغط الراى العام المصرى فى اجبار الانجليز والوزارة على العدول عن مشروع له مساس كبير بالاقتصاد المصرى مما اقلق مضاجع الانجليز والحكومة فبداوا فى تحين الفرص لارهاب زعماء الحركة الوطنية ، ومهدت لذلك جريدة المقطم باتهامها لرجال الحزب الوطنى بالثورية المتطرفة التى تختزن السلاح وتتحين الفرصة للقيام بثورة تطيح بالنظام القائم[٦٩] .

ونتيجة للارهاب السياسى الذى تعرض له زعماء الحزب الوطنى وانصاره تحولت سياسة الحزب الى تشجيع الأفكار الارهابية[٧٠] وتدعيم

التنظيمات السرية ، كما ابرزت اللواء أساليب الكفاح الثورى فى الهند ، واشادت بدور الطلاب الهنود فى مقاومة الاستعمار البريطانى[٧١] .

ويبدو أن فريدا قد شجع على أسلوب العنف الثورى فتألفت تحت رعايته جمعيات فى البلدان الأوربية التى بها طلاب مصريون للدعاية للقضية المصرية ، وقد استطاع هؤلاء الشبان ان يثيروا قضية مصر فى البلدان التى يقيمون فيها ، ومن خلال هؤلاء تكونت الجمعيات السرية ، وتدرب الطلاب على استعمال الأسلحة والمفرقعات لتخليص بلادهم بالقوة، وكان فريد يزورهم وقد أهدى اليهم فى احدى هذه الزيارات مسدسات ، كما كان ابراهيم الوردانى وشفيق منصور يزوران هؤلاء الطلاب لتجديد العهد معهم كل عام[٧٢] .

ومع ازدياد نشاط هذه الجمعيات السرية الذى صحبه ازدياد فى شعبية الحزب الوطنى توقع البعض انه كان من الممكن حدوث ثورة مسلحة فى البلاد ، ولكنها لم تحدث أمام سياسة الاضطهاد التى اتبعها الانجليز والحكومة ضد الحزب الوطنى[٧٣] .

وعلى كل حال فقد ظل فريد متمسكا باستقلاله عن الخديو مما جعل العداء مستحكما بينهما حتى وصل الأمر بفريد ان رفض الوقوف اثناء عزف السلام الخديو فى حفل لرعاية الأطفال بدار الأوبرا مما استرعى انظار الحاضرين ، وأحدث ضجة فى داخل السراى ، ولما خاطب حسين رشدى محمد فريد فى هذا الشأن أجابه بأنه ليس هناك قانون يحتم عليه الوقوف ، وكانت هذه الظاهرة بمثابة اعلان محمد فريد حربا عدائية ضد الخديو وخروجا على التقاليد المرعية[٧٤] .

ولتمكين قبضة الحكومة من السيطرة على الموقف قام رجال البوليس السياسى بمراقبة اعضاء الحزب الوطنى ، وكتابة التقارير اليومية عن أحوال البلاد ، وذلك بناء على طلب اللورد كتشنر[٧٥] الذى أراد تصفية العناصر الوطنية ذات الميول المتطرفة عن طريق تعريضهم للمحاكمات والارهاب وشتى ضروب الاضطهاد .

ونتيجة لاغتيال بطرس غالى امعنت الحكومة فى محاربة الحركة

الوطنيــة فصدرت ثلاثة قوانين تعطى الصفة القانونيــة للحكومــة فى تصرفاتها المطلقة تجاه الصحافة والمطبوعات ، ومظاهرات طلاب المدارس ، وتعديل قانون العقوبات ، وقد استهدفت الحكومة من هذه القوانين التنكيل برجال الحــزب الوطنى وهــذا ما حدث فعــلا فقــدم كل من الشيخ عبد العزيز جاويش ومحمد فريد فى أغسطس ١٩١٠ الى المحاكمة بتهمــة كتابة مقدمــة لكتاب وطنيتى الذى أنفه الشيخ عــلى الغاياتى وتضمن التنديد بالظلم وبحكم الفرد ، فقد تحدث الغاياتى عن استسلام ملك فرنسا لويس السادس عشر لارادة حاشيته الظالمه وزوجته المسرفــة المستبدة مارى انطوانيت التى كانت تحتقر الشعب الفرنسى ، كما بين هذا الكتاب ان ارادة الشعب كانت دائما فــوق كل ارادة ، وان الويــل دائما يلحق بالحكومات اذا غضبت عليها الشعوب[٧٦] .

كما تضمن هذا الكتاب تنديدا بحكم الخديو المطلق واسرافه فكتب على الغاياتى يقول « يأخذ الحاكم المستبد اموال الأمة باحــدى يديــه ، ويسومها سوء العذاب باليد الاخرى فهو يجبيها ليشبع ويفقرها ليغنى ، ويذلها ليعتز ثم يسد فى وجهها مناهل العلم لتنفسح أمامه مناهج الظلم » ثم هدد الحكام الظالمين بقوله « لكن يوم الظالمين يوم عصيب . هنــالك يغير الله حالا بعد حال وتستوى الأمــة على عرشها تدير دفــة الحــكم بيدهــا »[٧٧] .

ومع أن جميع القصــائد التى احتواها الكتاب كان قدسبق للصحف نشرها فقد نبهت جريدة المؤيد السلطات الى خطورة الكتاب مما دفــع الحكومة الى مطالبة النيابة بالتحقيق فيما ورد بالكتاب فأمرت بمصادرته ووجهت تهمة التحريض على جريمة القتل السياسى والعيب فى حق الذات الخديوية ، والحض على كراهية الحكومة[٧٨] الى محمد فريد وعبد العزيز جاويش وعلى الغاياتى ، ولمــا كان محمد فريد فى أوربا فى ذلك الــوقت للدفاع عن القضية المصرية بمؤتمر السلام باستوكهلم فقد أجلت محاكمته لحين عودته بينمــا حكم على الشيخ الغاياتى غيابيا (وكان قد خــرج سرا من القاهرة الى الآستانة) بالحبس لمدة سنة ، كما حكم على الشيخ عبد العزيز جاويش بالحبس ثلاثة شهور .

ومع أن خصوم محمــد فريد قد اشاعوا انه لن يعود خوفــا من الحكم عليه ، فانه نفى هذه الشائعة وهو فى اوربا وعاد الى مصر بعد ان كتبت كبرى بناته الآنسة فريدة خطابا تذكر له فيه الشائعات وتطلب منه العودة الى بلاده بقولها « ولنفرض انهم يحكمون عليك بمثل ما حكموا به على الشيخ جاويش فذلك اشرف من ان يقال انكم هربتم وما تحملتم الهوان فى سبيل وطنكم وباسم الوطنية والحرية التى تضحون بكل عزيز فى سبيل نصرتها أن تعودوا وتتحملوا آلام السجن »[٧٩] .

وعاد فريد الى مصر بعد ان جاهد فى اوربا فى سبيل الدفــاع عن قضيتها ، وبدأت النيابة التحقيق معــه فى ٤ ينــاير ١٩١١ وقــد تولى استجوابه محمد توفيق نسيم ، ونظرت القضية امام محــكمة الجنايات بالقــاهرة فى ٢٣ ينــاير ١٩١١ ، واصــدرت المحكمة حكمها بحبس فريد لمدة ستة شهور مع النفــاذ ، فقابلت الأمــة من كبيرها الى صغيرهــا هذا الحكم بالاستياء الشديد .

وعند مراجعتنا للمقدمة التى كتبها محمد فريد لكتاب الشيخ الغاياتى وهى بعنوان « تأثير الشعر فى تربية الأمم » والتى حــكم عليــه بسببها بالسجن ستة اشهر نجد انها لا تمثل اى مسئولية قانونية فقد تحدث فريد عن اثر الشعر فى ايقاظ الأمم من سباتها ، وهاجم استبداد حكومة الفرد لاماتتها للشعر الحماسى دون أن يذكر اسم هذه الحكومة ودعا الشــعراء الى عدم تملق الأمراء والتقرب من الوزراء لأن « الحكام زائلون والأمــة باقية »[٨٠] وهذا التعبير ربما لا يختلف فيه اثنان .

ويبقى لنا أن نتساءل لمــاذا حكم على فريد بستة شهور وحكم على الشيخ جاويش بثلاثة مع ان التهمة الموجهة اليهما واحدة .

والواقع ان محاولة الحكومة التنكيل بفريد وارهابه حتى يعــدل عن موقفه العــدائى من الاحتــلال كانت الســبب وراء هــذا الحــكم الذى لا يتناسب مع التهمة الموجهة اليــه فمسئولية فريد فى نظر الحكومة لا تقف عند المقدمة التى كتبها لكتاب وطنيتى بل ترجع الى خططه المناوئة لها ، والى مبادئه التى نشرها والى خطبه التى اثرت فى نفوس الكثيرين وقــد

يسال البعض أن القضاء وليس الحكومة هو الذى حكم على فريد بذلك الحكم الجائر اقول ان احالة الحكومة لجنح الصحافة الى محكمة الجنايات مع حرمان المتهم من الضمانات ربما تكون هى التى ادت الى مثل هــذا الحكم الجائر .

وعلى كل حال فانه بعد صدور الحكم على فريد تم عمــل استفتاء فى جريدة الشعب لمعرفة راى علماء القانون عن السبب فى الحكم عــلى فريد بستة شهور بينمـــا حكم على الشيخ جاويش بثلاثـــة شهور مـــع ان التهمة واحدة فكانت الحجة أن فريد يعرف القانون اكثر من الشـــيخ جـــاويش .

ولقد تلقى فريد الحكم برباطة جاش ودخـــل السجن ، وهناك بدأت مساومته فوعده بعض أنصار الاحتلال والخديو بالعفو عنه اذا وعد بتغيير خطته فرفض بكل شمم وقضى مدة الحبس فى سجن الاستئناف ببـــاب الخلق صابرا ثابتا[٨١] وبعــد خروجه من السجن كتب مقالا عنوانه من سجن الى سجن عبر فيـــه عن شعوره وهو فى السجن عند خروجه منـــه فقال « مضى عـــلى ستة اشـــهر فى غيابات السجن ، ولم استشعر أبدا بالضيق الا عند اقتراب اجل خروجى لعلمى انى خـــارج الى سجن آخر هو سجن الأمة المصرية الذى تحده سلطة الفرد ويحرسه الاحتلال » . كما اعلن فريد ان حبسه لم يؤثر فى نمو الحزب الوطنى وانتشـــاره ومبادئه بين طبقات الشعب .

وهكذا كان مسلك فريدقبـــل وبعـــد دخوله السجن تشريفا للوطنية المصرية ، ومثلا ينير طريق المجاهدين ، فرغم انه سليل الاغنياء والأمراء فقد دخل السجن وتحمل مشاقه ، ولم يقبل مساومة الخديو وانصـــاره ، وخرج من السجن وهو اقوى صلابة .

والجدير بالذكر انه فى أثناء سجن فريد تصدعت سياســـة الوفـــاق بوفاة المعتمد البريطانى جورست فى ١٢ يولية ١٩١١ وتعيين كتشنر الذى لم يكن من انصار سياسة الوفاق ونتيجة لذلك سعى الخديو الى الحـــزب الوطنى ليعدل من موقفه حياله ، ولكن فريدا رفض ان يجعل للحزب ايـــة صلة به ، ورغم الاضطهاد الذى تعرضت له جرائد الحزب خصوصا صدور



الاوامر بغلقها بحجة سلوكها المناوىء للحكومة فقد كان فريد يتغلب علـى ذلك باصدار صحيفة اخرى فى نفس اليوم الذى يتقرر فيـه غلق صحيفة الحزب تحت اسم آخر فأصدر الحزب الوطنى جريدة الشعب بعد ان اغلقت السلطات جريدة العلم ، كما استانف فريد نشاطه فى اوربا وتركيا دفاعا القضية المصريـــة .

وعندما القى فريد خطابه السنوى فى الجمعيـــة العموميـــة للحـزب الوطنى فى ٢٢ مارس ١٩١٢ ندد فيه باقتراح اللورد كتشنر انشاء صندوق توفير للزراع ، وطـــالب ان يكون ذلك بأيدى صرافى البـــلاد كما طالب بالدستور وانهى حديثه بقوله « اللهم طهر قلوبنا من ادراء النفاق ونق افئدتنا من جراثيم الخنوع والاستسلام حتى ندرك ان لنـــا كـــرامة تجب المحافظة عليها ، ووطنا يجب الدفاع عنـــه بالأنفس والأموال وحقا فى الحرية تجب المطالبة به » .

ومع ان هذه الخطبة كانت خفيفة اللهجة عن خطب فريد السابقـــة فان الحكومة التى كانت تتربص به رات أن القاء فريد فى السجن يحد من نشاطه الوطنى ، ويرهب باقى الوطنيين لذلك ارسلت له اخطارا على يد ضابط بوليس يتضمن استدعاءه الى النيابـــة لاستجوابه عما ورد بخطبته ، ولمـــا احس فريد بنية الحكومة تجاهه فكر فى مغادرة البلاد الى الخـــارج وقد أوضـــح ذلك فى مذكرة بقوله « ومن هـــذه اللحظـــة صممت عـــلى ترك مصر »[(٨٢)] .

ولمـــا كان امر مغادرة زعيمالحزب الوطنى للبـــلاد له خطورته فى التأثير عـــلى الحزب فقد استشار فريد اعضـــاء اللجنة الخاصة بمناقشة المسائل المهمة فى الحزب ، وعن ذلك يذكر « خابرت صادق بـــك رمضان وفؤاد بك سليم ومحمود بك فهمى المحامى واسماعيل لبيب واسماعيل حافظ اعضاء اللجنة الخصوصية التى كنا قد شكلناها للمداولة فى مسائل الحزب الهامة قبل عرضها على اللجنة الادارية ، وفى صبـــاح يوم الاثنين نـــزلت بالقطار من محطة الحلمية حيث كنت ساكنا الى محطة الزيتون وقصدت منزل الدكتور صادق واخبرته بالحادثة وبعزمى على السفر فوافق واتفقنا على الاجتماع بمنزل اسماعيل بك لبيب بالحلمية الجديدة بعد الاستجواب » .

وذهب فريد الى النيابة لاستجوابه وبعد الاستجواب سمح له بالانصراف فذهب الى منزل اسماعيل لبيب حسب الاتفاق ، وهنـاك قص علـى زملائه ما دار فى التحقيق فقرروا بالاجماع ضرورة مغادرته للبلاد(٨٣) .

وقد أوضح فريـد الطريقـة التى غـادر بها أرض الوطن فقـال « ذهبت الى نادى الحزب الوطنى وذهب اسماعيل بك الى محـل كوك للاستعلام عن السفن المسافرة الى الخـارج فوجدنا ان الوابور الروسى « الملكة أواجـا » يسـافر الى الآسـتانة وبيريه فى يوم الثلاثاء فقـررنا السفر بالكيفية الآتيـة وهى ان اسماعيل لبيب يقطع تذكرة لنفسـه للآستانة وانا اسافر من مصر يوم الثلاثاء باكسبريس الصباح السـاعة السابعة كأنى مسافر الى الاسكندرية للمرافعة فى قضية بمحكمة الاستئناف المختلطة ثم ارافقه الى الوابور فان ضبطت أو تعرف البوليس على أقول بأنى حاجز لوداعه وبما انى ساكون بمفردى بلا شنط أو ملابس بل بلا تذكرة سفر فلا يمكن لأحد ان يظن بأنى مسافر .

ومع أن الوقت كان ضيقا أمام فريد ، والظروف تقتضى منه الاسراع فى العمل لان الحكومة كانت جادة فى استصدار أمر بالقبض عليه فـان أمرا هاما كان يشغل باله وهو الطريقة التى يمكنه عن طريقها ابلاغ زوجته بما اعتزم عليه فقد حرص على عدم ازعاجها ، ولكنه لم ير بدا من أن يفضى اليها بالأمر فأفهمها بضرورة سفره وأوصاها بالصبر والجلد وطلب منها أن لا تخبر أولاده ولا أحدا من أسرته بما اعتزم عليه حتى لا ينزعجوا .

وفى صباح الثلاثاء ٢٦ مارس استقل فريد القطار فقابله كثيرون من اخوانه وأصدقائه فاخبرهم انه ذاهب الى الاسكندرية للترافـع فى قضية بالمحكمة المختلطة ، وقد رافقه فى القطار اسماعيل لبيب وتغذيا بالاسكندرية ثم قصدا الباخرة الروسية المزمع ركوبها ، وكان اسماعيل لبيب قد اشترى لنفسه تذكرة السفر أما محمد فريد فقد ركب بدون تذكرة حتى لا يعرف أحد عزمه على السفر فيحجزوه(٨٤) .

واحتجب فريد فى محل الادب نحو عشر دقـائق عنـد مرور مفتش الباخرة فلم يلحظ احد وجـوده(٨٥) وبعـد تحرك الباخرة دفع فريد ثمن

التذكرة معتذرا بانــه لم يجــد الوقت الكافى لادائــه فى مكتب الشركة بالاسكندريــة[٨٦] .

وعلى كل حال فقد خرج فريد من مصر واختلف الكتاب والباحثون حول طبيعة هذا التصرف فمنهم من يعتبر خروجه تصرفا خاطئا لأن مكان المناضل يجب ان يكون فى ارض المعركة لا فى خارجها وان خروجه من مصر قد عزل قيــادة الحركة الوطنية عن الجماهير ونقل قيادتها من مركز اشعاعة الى الآستانة ودول أوربا ، وانه ترك شعبا أحبه والتف حوله وأعجب به ومنح التأييد لحزبه ما لم يمنحه لأى حزب آخر وكان يجب عليه الا يترك مصر لأنها مركز الجهاد الحقيقى وان دخوله السجن فيــه تعبئة للرأى العــام وايقاظها لهمم الناس ، وشحذا لوطنيتهم[٨٧] وانه كان من الممكن الافراج عنه بقوة الضغط الشعبى .

ومن الكتاب والباحثين من يرى أن خروج فريد من مصر كان تصرفــا صحيحا لأنه كان فى نية الحكومة شل حركته وابقاؤه رهن السجون بواسطة سلسلة من المحاكمات التى لا تنتهى بحيث اذا خرج من سجنه تدبر له تهمة جديدة يدخل بسببها السجن ثانية كما أن خروج فريد من مصر سيتيح لــه متابعة جهاده فى الخارج ويمكنه من أن يسمع العالم صوت مصر ، ويدافع عن قضيتها فى عالم الحرية حيث كان الرأى العام العالمى فى حاجة الى فهم واضح لأبعاد القضية المصرية ، كما أن التنظيمات الطلابية خارج مصر كانت فى حاجة الى جهود فريد الذى يعتبر رجل التنظيم السياسى فى مصر[٨٨] .

وهناك فريق يرى أن خروج فريد من مصر كان من أجل ملاحقة امرأة فرنسية كان يحبها وهى « دى روشبرون » .

ومن وجهة نظرنا فان نقل فريد لميدان الكفاح فى الخارج رغم انــه يعتبر استمرارا لمواصلة الجهاد وتأليبا للرأى العام الاوربى على الانجليــز فانه قد أضر بالحركة الوطنية فى الداخل ، وأصاب حركة الانبعاث الثورى بالانكماش والعنف لأن مكان الزعيم لابد أن يكون فى قلب المعركة لا فى خارجها مهما كانت ضراوة المؤامرات أو قسوة الاضطهاد .



وعلى كل حال فقد تابع فريد جهاده فى الخارج وكان اول عمل بارز هناك هو حضوره مؤتمر السلام فى جنيف فى ٢٢ سبتمبر ١٩١٢ ومطالبته بجلاء الانجليز عن مصر ، واقناع اعضاء المؤتمر بأن الجلاء عن مصر هو خدمة للسلام العالمى ، وقد اقر المؤتمر بوجوب الجلاء عن مصر وعدم مشروعية الاحتـــلال .

والجدير بالذكر انه بعد خروج فريد من مصر سادها جو من الارهاب وكثرة الوشايات ، واستهدف الوطنيون لشتى ضروب الاضطهاد فأخـــذت الحكومة فى مطاردة الحركة الوطنية وضرب نطاق من التجسس حولها كما انها اخذت تراقب تحركات فريد بأوربا فارسلت محمد بدر رئيس قلم الضبط بوزارة الداخلية لمراقبته ، خصوصا وانها كانت تخشى تأثيره على الطلبـــة المصريين فى اوربا[٨٩] .

وكان طبيعيا بعد هجرة فريد من مصر وماتبعه من هجرة العشرات من قادة الحزب الوطنى أن تبددت جهود الحركة الوطنية فتوقفت حركة انشاء النقابات ومدارس الشعب ، وانقسمت اللجنة الادارية للحزب على نفسها . فقد زاول الحزب نشاطه فى مصر دون قيادة مباشرة مما ادى الى تدهـــور احواله ويتضح ذلك جليا من الرســـالة التى بعث بها أحمـــد وفيق احـــد اعضاء الحزب الى فريد اذ يقول فيها « أما نوم الحـــزب من بعد سبتمبر ١٩١٢ ... فقد كان عميقا فاذا سمحت لى ان اقول ان النـــوم ابتـــدأ بعد مفارقتكم لهذه البلاد التعسة ، وانى اقسم لك انى لو كنت أعرف أن مصير حركتنا سيكون كذلك بعدهجرتكم لكنت اول من القى القبض عليك[٩٠] .

وقد صـــار الحزب يتدهور من سىء الى اسوأ فقد بيعت أمتعـــة نادى الحزب الوطنى بالمزاد العلنى فى ٢٢ مايو ١٩١٣ وفاء للديون المستحقة على ايجار المبنى ، وبدا أن الحزب قد صفى ، ولم تبق الا جريدة الشعب التى كان محرروها لا يبحثون الا عما يسد رمقهم[٩١] .

ويبدو أن فريدا قد شعربفداحة خطأ خروجه من مصر ففكر فى العودة اليها ، وطلب من مدام روشبرون السعى له لدى كتشنر والحكومة المصرية للسماح له بالعودة الى مصر[٩٢] ولكنها لم توفق فى مسعاها .

وفى الوقت الذى كان فيه فريد فى منفاه بأوربايدافع عن القضية المصرية دبر بعض عملاء الخديو من اللجنة الادارية للحزب الوطنى مؤامرة لاقصائه عن رئاسة الحزب بعد هجومه العنيف على الخديو فى الصحف الاوربية واتهامه بالاتفاق مع بريطانيا على اعلان الحماية على مصر وفصلها عن الدولة العثمانية فى مقابل تسميته خليفة للمسلمين .

ومن اجل هذا الغرض عقدت اللجنة الادارية للحزب اجتماعا استنكرت فيه مقالات فريد ضد الخديو ، وقررت مساءلته فيما نسب اليه ولما بلغ فريدا ذلك ارسل برقية الى على فهمى كامل وكيل الحزب يعلن فيها استقالته بشرط عرض هذا الأمر على الجمعية العمومية للحزب ، ولكن على فهمى كامل لم يجرؤ على دعوة الجمعية العمومية لبحث استقالة فريد ففشلت المؤامرة[٩٣] .

ونتيجة لمحاولات كتشنر المستمرة لسلب حقوق الخديو والغض من شأنه سعى الخديو لاستعادة علاقته بزعماء الحزب الوطنى حتى يتمكن من مواجهة تسلط المعتمد البريطانى فبدأ اتصالاته بمحمد فريد سرا خشية عيون الاحتلال ، ولكن فريد تشكك فى نوايا الخديو ، ورفض ان يجعل للحزب الوطنى اية صلة به .

وتعددت المساعى من اجل التوفيق بين فريد والخديو فتقابلت مدام روشبرون مع فريد فى محاولة لاقناعه بالصلح مع الخديو وقد اخبرها فريد بأنه يقبل الصلح بشرط ان يكون الكلام بينه وبين الخديو بدون وسيط[٩٤] ولما كان الخديو يخشى أن يصل نبأ مقابلته لفريد الى عيون الاحتلال تأخر اتمام الصلح وارسل الخديو الى فريد احد اصدقائه منذ عهد الدراسة وهو توفيق بك زاهر القاضى لمفاتحته فى موضوع الصلح بينهما ، ولما عرض الأمر على فريد ذكر انه لا يعارض فى اتمام الصلح بشرط ان يتصل الخديو برجال الحزب الوطنى فى مصر ويقبل شروطهم .

واستمر الخديو يبذل محاولاته لجذب فريد الى صفه فأرسل بعض رجاله لهذا الغرض ، واخيرا وافق فريد على الصلح مع الخديو بشرط ان يوافق الخديو على اعلان الدستور .

وقد تمت المقابلة بين فريد والخديو فى الآستانة حيث تم الصلح

بينهما ووعد الخديو باصدار مرسوم يعلن فيـه الدسـتور كما عبر عن ارتياحه للصلح مع فريد الذى وصفه بأنه رجل مبادىء لا يتغـير مهما قاسى فى سبل المحافظة على مبادئه ، وتنفيذا لوعد الخديو اصـدر منشورا فى ١١ نوفمبر ١٩١٤ باعلان الدسـتور الكامل فى مصر[٩٥] ولكن قيـام الحـرب واعـلان الأحكام العرفية وعزل عبـاس الثـانى حالت جميعا دون تنفيذه .

وكان طبيعيا بعد ان اعـلن الانجليز حمايتهم على مصر وتمسكوا باحتلالها أن ينضم فريد الى الجانب المعادى لانجلترا ، وكان عليـه ان يستعين بالقوى الدولية المناوئة لهم وبوجه خاص تركيا والمـانيا ، ولمـا اتفقت مصلحة كل من تركيا والمانيا مع مصلحة الحزب الوطنى على ضرورة ارسال حملة عسـكرية الى مصر بقصد طرد الانجليز منها تشكك فريد فى نوايا الأتراك اذا ما نجحت الحملة مما دفعه الى ان يطالب زعماء الأتراك ان يعلنوا ان هدفهم من الحملة هو استقلال مصر وجعلها ولاية ذات طابع خاص كما أن فريدا كان يتشكك ايضا فى نوايا الألمان نحـو الوطنية المصرية وعلى كل حال فقد فشلت الحملة التركية على مصر كما حالت الحرب بين فريد ومن بين نشاطه الوطنى فى أوربا ، وذلك لتوقف معظم الصحف عن الصدور ، وصعوبة اتصال الدول ببعضها ، وانشغال الناس بأخبار الحرب يضاف الى ذلك ان الدعم المـادى الذى كان يصل الى فريد من مصر قد توقف فقد كان يصله قبيل نشوب الحرب من عائلته مبلغ عشرين جنيها شهريا ، ولكن نشوب الحرب أدى الى انقطاع هذا المبلغ عنه فاشتدت به الضائقة المالية لدرجة انه رهن بعض ثيابه لدى المرابين اليهود فى المانيا، كما كان يقتصد من نفقاته فسكن فى غرفة واحدة ، وكان يتغذى بفرنك واحد ثم يأكل غذاءه بكوز من الذرة المشوى وذلك اقتصادا فى النفقة[٩٦]

كما انه لم يجد العناية الطبية الكافية عند اصابته بمرض الاستسقاء لقلة نقوده ، واشيع انه كان يحتطب لكسب قوت يومه وانه كان يلبس بدلة مرقعـة[٩٧] .

وهذا لا يعيب فريدا فى شىء ، ولا يخجلنا ان نذكـره ففريد الذى ولد كما يولد ابناء الأمراء ، وعاش فى بداية حياته كما كان يعيش ابنـاء

الحكام وصل به الحال كما ذكرنا من اجل مصر ، ومن أجل التمسك بالمبادىء ، وهذا شرف كبير ليس لفريد فحسب بل يعتبر هالة فخار للوطنية المصرية ايضا .

ولما وضعت الحرب اوزارها فى نوفمبر ١٩١٨ وعقد الصلح فى باريس ارسل محمد فريد تقريرا فى ٥ ديسمبر ١٩١٨ الى الرئيس الأمريكى ويلسون يطلب فيه استقلال وادى النيل وضرورة تمثيل مصر فى مؤتمر الصلح وقبولها فى عصبة الامم .

وعندما قامت ثورة ١٩١٩ لاحت على شفتى محمد فريد ذلك الزعيم الغائب عن وطنه وامته واهله وزوجته ابتسامة الأمل ، ووجه لأمته من بعيد اعظم تحية لثورتها [٩٨] فقال « نشكر الله على هذه النتيجة الحسنة التى دلت على ان ما ألقاه مؤسسوا الحركة الوطنية من البذور فى تلك الأراضى الخصبة قد نبت وترعرع ساقه ثم ازهر وظهرت ثماره[٩٩] .

كما ارسل فريد يطلب من مؤتمر الصلح التدخل لتقرير مصير الأمة المصرية والاعتراف باستقلال وادى النيل استقلالا تاما ، ومنع عسف المحتلين بمقدرات الشعب المصرى .

وعندما سافر الوفد المصرى الى باريس برئاسة سعد زغلول لم يتصل احد من اعضائه بفريد رغم تأييده لهم وكتابته برقية الى سعد يتمنى فيها التوفيق والنجاح للوفد فى مهمته فان سعدا لم يرد عليه ، وقد يرجع ذلك الى سببين :

١ — رغبة سعد فى الا تعرقل مساعى الوفد فى مؤتمر الصلح بسبب انحياز فريد الى جانب الالمان خلال الحرب .

٢ — ما بين سعد وفريد من حزازات قديمة ، وان كانت الوطنية الحقة تجعل الأفراد يتركون حزازاتهم جانبا فى مواجهة الاخطار التى يتعرض لها الوطن .

وبعيدا عن الأهل والوطن اشتدت علة المرض بفريد حتى وافاه الاجل فى ١٥ نوفمبر ١٩١٩ ، وكان رجال الوفد فى باريس فى ذلك الوقت

فعرض بعضهم على سعد زغلول السفر الى المانيا لنقل رفات فريد الى مصر وعمل اللازم نحو تكريمه ، ومشاركة الأمة فى أحزانها فكان رد سعد هو رفض طلبهم باصرار بحجة ان أموال الوفد يلزم ان تصرف على القضية المصرية لا على جنازات الأفراد .

ولم ينل شرف نقل رفات فريد أحد من رجال الوفد بل نال هذا الشرف الحاج خليل عفيفى أحد التجار بالزقازيق فنقل رفاته على نفقته الخاصة ، ووصل جثمان فريد الى القاهرة فى يونية ١٩٢٠ [١٠٠] .

وهكذا كانت حياة فريد سلسلة من التضحيات فى سبيل مصر فقد احتمل الفقر وهو ابن الاثرياء ، وقضى زهرة حياته فى سبيل مصر ، وضحى بمستقبله من اجلها ، ولم يتحول عن مبادئه بالرغم من التهديد والوعيد ، وكانت آراؤه توضح بعد نظره السياسى وفكره الناضج فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية فقد ابتكر اساليب جديدة فى الكفاح لم تكن موجودة أيام مصطفى كامل فمد فروع الحزب فى الاقاليم حتى تزداد شعبيته فى انحاء البلاد ، وطرح افكارا سياسية واجتماعية جديدة فنادى بالعدل الاجتماعى والاهتمام بأحوال العمال والفلاحين ، وحاول الربط بين حركة المثقفين والطبقة العاملة فى مواجهة الاحتلال ، وعمل على انشاء مدارس الشعب الليلية لتعليم العمال بالمجان ، ولم يترك منبرا عاليا الا وارتقاه ولا هيئة داعية لنصرة الشعوب والأمم الا وتعاون معها .

وكان فريد أول من ربط حركة الوطنية فى مصر بحركة السلام العالمى فاعتبر أن الجلاء عن مصر خدمة للسلام العالمى كما ربط استقلال مصر بقضية الاشتراكية الدولية بعد أن ارسل لينين رئيس الحكومة الروسية تلغرافا الى دول العالم يطلب فيه تحرير مصر والهند [١٠١] .

يضاف الى ذلك تنظيمه للعمل الوطنى بين الطلبة المصريين فى أوروبا ومع ذلك فالزعماء بشر وكل زعيم عرضة لان يصيب وان يخطىء فى آرائه وقراراته وفريد كان يفتقر فى زعامته الى المرونة السياسية فقد نظر الى الخديو بمنظار اسود فى كل الأمور ، ولم يستطع ان يستثمر

الجوانب المفيدة منه للحركة الوطنية كما فعل سلفه مصطفى كامل كما انه لم يستطع واد الخلافات التى نشبت داخل الحزب بل كان تشدده فى بعض المواقف يزيد من حدتها لدرجة أن استقال من اللجنة الادارية بعد توليه الرئاسة بعض مؤسسى الحزب مثل احمد غائق ومحمود انيس وعمر سلطان وويصا واصف يضاف الى ذلك ان خروجه من مصر ، ونقل مركز الكفاح الى أوربا كان خطأ فادحا ادى الى عزل الحركة الوطنية عن جماهيرها كما أدى الى انحسار دور الحزب الوطنى فى قيادة الأمة .

وعلى كل حال فان ذلك لم يقلل من تضحيات فريد من اجل مصر ، فهو الذى ضحى بكل ما هو عزيز لدى الانسان ، فجعل حياته فداء لوطنه ، وقضى عمره يزكى روح الوطنية فى البلاد ، وينفخ فى رمادها حتى تأججت نيران ثورة ١٩١٩ .

الزعامة الوطنية بين مصطفى كامل ومحمد فريد

هذان الزعيمان كل منهما جاء من نبع وكان يمثل طبقة معينة تختلف كل منها عن الأخرى اختلافا بينا : مصطفى كامل مصرى صميم اجداده من الفلاحين وابوه نشأ فى بلد كتامة الغاب من اعمال مركز طنطا ، وعمل موظفا صغيرا فى خدمة الحكومة المصرية وربما نجد بين افراد اسرته من يحملون اسم حفيظة ، وست الدار ، وشلبى ، ونفيسة ، وحسنين، ومحمدين ، ونعناعة ، وخضرة .

اما فريد ابن الذوات فقد نشأ فى بيت عز وجاه وسلطان فجده الاعلى عثمان افندى قدم الى مصر مع الفتح العثمانى لها ، وتولى ارفع المناصب بها وكان ابوه ناظرا للدائرة السنية ، وكان من بين أفراد أسرته من يعرف التركية ويتحدث بها بطلاقة .

ورغم هذا التباين الطبقى بين هذين الزعيمين ، ورغم أن نشأة فريد العائلية كانت تؤهله للعيش منعما فانه ترك انتماءه الطبقى ، واقتحم ميدان الجهاد ، وتحمل مشاقه ، واتصل بمصطفى كامل وتوثقت الصداقة

بينهما منذ عام ١٨٩٥ حينما التقيا بباريس ونسقا معا خطط الكفاح من أجل اجلاء المحتلين عن مصر .

والشيء المثير للتساؤل والدهشة هو ان فريد الارستقراطى النشأة والذى كان يمكنه أن يأمر فيطاع انضوى تحت زعامة مصطفى كامل الأصغر منه سنا ، والاقل طبقة رغم ان المجتمع فى ذلك الوقت كان يفضل دائما الأكبر سنا باعتباره اكثر خبرة ودراية .

والواقع ان فريد وجد فى مصطفى كامل الاخلاص للقضية الوطنية ، ذلك الاخلاص الذى كان ينشده ويبحث عنه بين زملائه فلم يجده الا نادرا ، ومن هنا التقيا معا فى الكفاح دون النظر الى الزعامة أو المكانة .

وقبل ان نتطرق الى موضوع زعامة كل من مصطفى كامل وفريد للحركة الوطنية المصرية تطرح عدة اسئلة علينا نفسها : هل طبيعة المناخ السياسى والاجتماعى فى مصر بعد الاحتلال هو الذى اتاح لزعامة كل من مصطفى كامل وفريد الانبثاق والظهور ؟ وهل ترتبط الزعامة دائما بالمواقف والأزمات التى يتعرض لها الوطن ؟ هل التغيرات التى يحدثها الزعيم تستمد مقوماتها منه أم من البيئة التى يعيش فيها ومن ظروف الأجيال التى انحدر منها ؟

الواقع ان ظروف مصر بعد انكسار العرابيين فى التل الكبير واستيلاء الانجليز على البلاد ، والجو لنفسى الكئيب الذى عاش فيه ابناء الوطن هو الذى هيأ المناخ لوجود زعامات من الطبقة المثقفة امثال مصطفى كامل ومحمد فريد . فالهزيمة العسكرية غيرت من واقع المجتمع المصرى الذى كان على شفا الانهيار ، ومن اجل ذلك انتقلت القيادة الوطنية من طبقة العسكريين امثال عرابى وزملائه الى طبقة اخرى من طبقات المجتمع المصرى كانت قادرة على امتصاص روح الهزيمة من نفوس ابناء الشعب ، وانارة طريق الكفاح أمامه وهى طبقة المثقفين فالموقف الذى طرأ على البلاد فرض زعامة من نوع معين زعامة تتسق مع ملابسات وظروف المجتمع المصرى الذى كان فى حاجة الى من يرسم له طريق الخلاص ويستطيع التعبير الحقيقى عن آرائه ، وهنا كان المفتاح الرئيسى لقيام زعامة مصطفى كامل ومحمد فريد .

فمصطفى كامل كان يمثل جيل ما بعد الثورة العرابية ، وهو الجيل الذى حاول أن يتجاوز كل مظاهر الاحباط والكآبة التى حدثت نتيجة للهزيمة ، هذا الجيل كان يتميز بالحس الثقاف والفكرى والقدرة على استيعاب خبرات الماضى وطرح رؤية جديدة تحدد مسار الأمة المهيضة الجناح ، وهكذا تزعم الحركة الوطنية المصرية لأول مرة رجال ينتمون الى الصفوة العلمانية المثقفة التى تمزج بين الفكر السلفى والفكر الليبرالى ، وهذا ما يختلف عن الزعامات المصرية السابقة كعمر مكرم باعتباره من الصفوة الدينية المستنيرة او كأحمد عرابى بصفة احد زعماء العسكريين [(١٠٢)] .

وهكذا فان دور المجتمع فى تكوين الزعيم يبدو واضحا عند نظرتنا الى التطورات الطارئة التى لحقت به ، وجعلته فى حاجة الى زعامة معينة تلعب دورها وهى متأثرة بالظروف التى يمر بها هذا المجتمع يضاف الى ذلك أن ظروف المجتمع هى التى تحدد الطريق للزعيم حتى يصبح عنصرا مؤثرا فيه تارة ومتأثرا به تارة اخرى فالزعيم الحق هو الذى يعى بثاقب نظره ما يعانيه مجتمعه ، ويعرف المتطلبات التى ترفع عن كاهله هذه المعاناة ويعمل من اجل تحقيقها أو يحاول ايجاد الحلول الملائمة لها ، وبعبارة أخرى فان الانسان الذى تتاح له فرصة الزعامة لم يولد زعيما بل أن الظروف والمتغيرات التى يتعرض لها المجتمع هى التى تؤهله لتولى الزعامة وهى التى تتيح الفرصة لابراز قدراته اذ كانت لديه الاستعدادات اللازمة لذلك . ومن هنا يكون الزعيم هو الشخصية التى يتجه أو يتطلع اليها الوطن لحاجته الماسة لها أو لشعوره بأن هذه الشخصية هى التى تحقق امانيه [(١٠٣)] ، وقد وجد الشعب المصرى فى مصطفى كامل الزعيم الشاب الذى يستطيع انتشاله من وهدة الهزيمة ومن براثن الذل والهوان الذى تعرض له ، ونظرا لأن النفوس كانت متعطشة الى نغمة جديدة تجدد فيها الأمل بحياة حرة كريمة بعد أن تسرب اليأس اليها . لذلك اعتبر الشعب مصطفى كامل رسول الوطنية الذى جاء لتثبيت العزائم بعد أن خارت قواها أو قربت من ذلك ، ومن لاجل هذا اقبل عليه بحماس وآزره فى كل مواقفه وتعلق به .

وقد يدفعنا هذا الى ان نتساءل هل كان مصطفى كامل الشخص الوحيد الذى كانت لديه القدرة على تحمل الرسالة بعد انكسار العرابيين؟ الواقع انه كان يوجد بين المصريين من يستطيع حمل هذه الرسالة ومن هم اكثر نضجا من مصطفى كامل وتفكيره ، ولكن ما هى متطلبات المجتمع فى الرجل الذى يستطيع ان يتحمل عبء الزعامة فى ذلك الوقت ؟

ان متطلبات المجتمع كانت تنحصر فى شخص لديه الاقدام والشجاعة وحمية الشباب ، شخص يستطيع ازالة آثار اليأس الكريهة التى عششت على المجتمع باتباع اسلوب جديد يشمل حماس الناس ويخاطب شعورهم واحاسيسهم ، وكانت هذه الصفات تنطبق على مصطفى كامل .

فمصطفى كامل يختلف عن غيره فى انه كان لديه الاقدام ، كما كانت لديه حمية الشباب الملتهبة يضاف الى ذلك أنه كان لديه اسلوب جديد فى الخطابة ، وهو الأسلوب الوجدانى الذى يخاطب عواطف الناس وقلوبهم قبل ان يخاطب عقولهم هذا الأسلوب الذى يعتمد على الجمل الضخمة التى تثير شعور الجماهير دون روية للوصول الى الغاية التى تنشدها وتتمناها [(١٠٤)] .

هذا هو الذى فرض مصطفى كامل كزعيم دون غيره لأن الظروف التى كانت تمر بها مصر كانت تتطلب مواصفات زعامته .

وهنا يمكننا ان نتساءل مرة اخرى هل الزعيم المؤسس لاى حركة يكون اقدر ممن ياتى بعده فى زعامة هذه الحركة أم العكس .

هناك راى يرى ان الزعيم المؤسس للحركة يكون اكثر دراية وتجربة ومعرفة بحركته ممن ياتى بعده لأنه هو الذى وضع نواة حركته وعمل على ابرازها ، وهناك راى آخر يرى ان الزعيم الذى يخلف غيره فى زعامة الحركة يكون اكثر معرفة باخطاء سلفه واكثر دراية بها ولذلك يستطيع تصحيح مسيرة الحركة .

وعلى الرغم من وجاهة كل من الرايين فالواضح ان الظروف السياسية والاجتماعية المتغيرة التى تعرض لها الوطن ثم ظروف تكوين الزعيم

هى التى تؤثر فى حركة الزعامة اكثر من أى شىء آخر ، وعلى سبيل المثال فظروف زعامة مصطفى كامل تختلف عن ظروف زعامة محمد فريد ، فمصطفى استفاد من نزاع الخديو مع كرومر وحاول عن طريق ذلك تحقيق بعض الأهداف الوطنية ، كما أنه اعتمد على استغلال التناقض بين انجلترا وفرنسا من اجل اجلاء الاحتلال أما فريد فقد جاءت زعامته بعد أن تغيرت كل هذه الظروف فقد تولى الزعامة مع سياسة الوفاق التى اتبعها جورست مع الخديو ، والتى أدت الى ضرب الحركة الوطنية من كلا الطرفين فكان فريد هدفا لحرب مزدوجة لم يتعرض لها مصطفى كامل كما ان زعامة فريد جاءت بعد وفاق انجلترا وفرنسا لذلك كان من الصعب استغلال التناقض القائم بينهما كما فعل مصطفى كامل فى اول الأمر ، ومن هنا اختلفت سياسة محمد فريد عن سياسة سلفه يضاف الى ذلك أن فريدا الزعيم الثانى للحزب الوطنى بدا من حيث انتهى مصطفى كامل ، فالمعروف أن مصطفى كامل لم يضع منهاجا واضحا فى طريقه كفاحه السياسى فقد اعتمد على تناقض مصالح فرنسا وبعض الدول الأوربية مع انجلترا من اجل تحقيق الجلاء واثبت الاتفاق الودى انهيار هذا الأساس كما اعتمد مصطفى كامل على الدولة العثمانية والخديو واتضح ان لكل منهما مصالحه الخاصة التى يفضلها عما عداها وانتهى به الأمر الى الاعتماد على الراى العام أما فريد فقد اعتمد على الشعب المصرى منذ أن تولى رئاسة الحزب ولم يقتصر اعتماده على المثقفين كما فعل مصطفى كامل بل جذب اليه الكوادر العمالية والفلاحية ثم حاول الربط بينها وبين حركة المثقفين فى مواجهة الاحتلال ، ومد فروع الحزب الى الاقاليم لتزداد شعبيته كما قام بتنظيم الطلبة المصريين فى أوربا .

ومن هنا لا نستطيع ان نقول أن الزعيم الاول افضل ممن يأتى بعده او العكس بل نقول ان ظروف المجتمع هى التى تحدد مسار الزعامة ولما كان لكل زعامة من معلم او مثل اعلى يحتذى به فهل نبتت زعامة مصطفى وفريد من فراغ أم أن كلا منهما تلقى دروس الوطنية من احد زعماء الجيل الذى سبقه وعاصر تجارب النجاح والفشل التى تعرض لها الوطن حتى يستطيعا استيعاب خبرات الماضى .

الواقع ان مصطفى كامل قد تأثر بعبد الله النديم خطيب الثورة العرابية واستطاع بصحبة هذا الثائر التعرف على حقيقة التيار السياسى فى مصر ، وكيف شوه رجال الاحتلال مبادىء العرابيين وخططهم كما نعلم منه القواعد التى اذا اتبعها يكون وطنيا ناجحا (١٠٥) يضاف الى ذلك ان مصطفى كامل كانت صلته وثيقة بعلى باشا مبارك .

اما فريد فقد كان لمعايشته وهو فى سن الرابعة عشر — ولد عام ١٨٦٨ — النكبة التى حلت بالبلاد اثر هزيمة التل الكبير ، وما سمعه عن المآسى التى حدثت لمصر من جراء الاحتلال اكبر الأثر فى تكوين نزعته الوطنية يضاف الى ذلك أنه حضر مجالس لطيف باشا سليم ، وتعلم منها المبادىء الوطنية ، وورث عنها مبدأ معارضة التعامل مع الخديو .

وعلى كل حال فهناك عدة سمات تميز الزعامة ، ولما كانت سمات زعامة كل جيل تختلف عن غيرها من الأجيال الأخرى فسنقصر حديثنا على سمات زعامة جيل مصطفى كامل وفريد .

الواقع أن الايمان المطلق بالقضية الوطنية ، والثبات على المبدأ والشجاعة ، وقوة الارادة ووعيها ، وسعة الافق والقدرة على التأثير فى الجماهير بالخطابة والصحافة ، واحترام مشاعر الناس ومعتقداتهم كانت من أهم سمات الزعامة فى ذلك الوقت ، ومع ذلك فان مصطفى وفريد لم يكونا متفقين فى كل هذه السمات أو غيرها بل كان هناك أوجه اتفاق بينهما كما كان هناك أيضا أوجه اختلاف وفيما يلى نعرض لأوجه الاتفاق .

اذا كانت كثرة القراءة وسعة المعلومات والالمام بدقائق المسألة التى يتبناها الفرد أو يدافع عنها هى احدى سمات الزعيم الناجح فمما لاشك فيه أن مصطفى وفريد قد تميز بهذه الصفة ، وكان لقراءة كل منهما للتاريخ بل والتأليف فيه أكبر الأثر فى اكسابهم خبرات الآخرين وتعميق كوامن الوطنية فى نفسيهما فقد قرأ مصطفى كامل تاريخ الأمم الأوربية ودرس تاريخ القضية المصرية ، وله مؤلفات تاريخية تشهد بقدرته على استيعاب التاريخ منها كتاباه « المسألة الشرقية » و « الشمس المشرقة » .

أما فريد فله الى جانب مذكراته المخطوطة عدة كتب تدل على اهتمامه بالتاريخ منها كتاب « البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الخديوية » ومنها كتاب « تاريخ الدولة العثمانية » وكتاب آخر عن « تاريخ الرومان » ومن يتفحص هذه الكتب يتضح له مدى النضج الفكرى وسعة الاطلاع والالمام بالمسائل السياسية القومية والدولية لكل من مصطفى وفريد واذا كانت زعامة تلك الفترة تقتضى عمل الزعيم بالصحافة حتى يكاد يبدو لمن يقوم بالتأريخ لزعامة أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى أن الزعامة والصحافة شىء واحد فقد كان زعماء تلك الفترة يقودون بأفكارهم ومقالاتهم الصحفية كافة أبناء الشعب(١٠٦) ، فقد وعى كل من مصطفى وفريد ذلك فعبرا فى كتاباتهما بالصحف عن افكارهما التى قادت الجماهير واشعلت الكراهية للمحتلين .

وقد عمل مصطفى كامل منذ صباه فى الكتابة الصحفية فأسس مجلة المدرسة ونشرت له الأهرام والمؤيد بعض المقالات ثم أسس بعد ذلك اللواء التى كانت قلعة من اكبر قلاع الوطنية ، ومدرسة يتلقى فيها الشعب المصرى على اختلاف طبقاته درسا فى الوطنية ، ولم يكتف مصطفى كامل بذلك بل اسس صحيفتين احداها بالانجليزية والأخرى بالفرنسية حتى يتضح للرأى العام العالمى حقيقة المسألة المصرية .

اما فريد فكانت له الكثير من المقالات المستفيضة فى الصحف فقد راسل الصحف منذ تخرجه من مدرسة الحقوق فكتب عدة مقالات فى مجلة الاداب والموسوعات والمؤيد ثم فى اللواء وصحف الحزب الوطنى الأخرى مثل العلم والشعب وكانت هذه المقالات تجمع بين النضج الفكرى وغزارة المادة .

واذا كانت سمات الزعامة تتركز فى الايمان المطلق بالقضية الوطنية فان كلا من مصطفى كامل وفريد قد آمن بالقضية المصرية ايمانا مطلقا بل وضحى فى سبيلها بكل شىء وبذل النفس والنفيس من أجلها ورسم كل منهما لنفسه خطة المقاومة المستمرة للاحتلال وهى مقاومة لا ضعف فيها ولا هوادة ولا تراجع وظل كل منهما ثابتا فى جهاده رغم جنوح معظم رجالات مصر الى الولاء للاحتلال واكتساب رضاه والأمثلة على

ذلك كثيرة منها ان فاشــودة كانت بمثابة الضربة القوية لحركة مصطفى كامل كمــا كانت احد عوامل اليأس فى نفــوس معظم الوطنيين ، ومــع ذلك فان مصطفى كامل لم ييأس ، ولم ينخفض صوته ولم تفتر عزيمتــه بل كان رده هو مضــاعفة الجهاد والكفاح كلما زادت المصاعب والعقبات.

وعندما وقعت انجلترا الاتفاق الودى فى ٨ ابريل ١٩٠٤ لم يتزعزع يقين مصطفى كامل فى الجهــاد وبذلك برهن على ثبات وطنيتــه ، وان الأحداث لا تزيدها الا صلابة .

ولا يعنى هذا ان مصطفى كامل لم ييأس طوال أيام كفاحه الوطنى فالواقع ان صاحب دعوة لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس اعتــرته عوامل اليأس فى بعض الأحيــان حتى وصل به الامر فى بداية كفاحه الوطنى الى التفكــير فى الانتحــار ويتضح ذلك من الخطــاب الذى أرسله مــن باريس الى صــديقه فؤاد سليم والخاص بشكواه من ضيق ذات يده بعد ان كف الخديو عن ارســال نقود له فيقول مخاطبا صــديقه « اليس فى استطاعة والدك والهلباوى ومحمد ســالم ان يرسلوا لى سنويا اربعمائة جنيه ماداموا يعتبرون انفســهم وطنيين ويقدرون جهــودى الوطنيــة ، واذا كانوا غير قادرين على مساندتى فانى ساعود الى مصر يائســا فاقد الأمل ليس من اجل الجــلاء فحســب بل من اجل مســتقبل الأمة المصرية، وتأكد ياصديقى العزيز انى لم امكث فى مصر بعد عــودتى دون ان ارى القبر (اكيدا) سوف انتحر ولا اعيش وسط امة جاحدة [١٠٧] .

الواقع ان هذا الخطــاب وضعنا فى حيرة وطرح عدة اسئلة تتطلب الاجابة : هل حدة المزاج يمكن ان تخرج الانسان عن طوقه اذا تعــرض لبعض الضغوط لدرجة ان يفكر فى التخلى عن مبادئه التى آمن بها ونادى الناس بالتمسك بها ، وكلنا يعرف ان وطنية مصطفى كامل كانت ممتزجة بحدة المزاج .

وهل كان مصطفى كامل مطالب بأن يبعث فى امته الحياة ، وينبــذ فيها فكرة اليأس بعد ان اوشكت على الغرق فيه رغم ان هذه الفــكرة غير متمكنة منه ؟ .

الواقع أن اليأس الذى انتاب مصطفى كامل كما يتضح من خطـــابه لم يكن ثابت الجذور فى نفسه بل كان يأسا طارئا زال بزوال المؤثرات التى ادت اليه ، فعندما تعرض مصطفى كامل للضغوط المالية الشديدة خرج عن طوقه وكان ذلك فى أوائل عهده بالزعامة ، وبمعنى آخر فى ١٦ اكتوبر ١٨٩٥ اى فى وقت لم تكن حركته قد وصلت الى الانتعاش الذى وصلت اليه بعد ذلك او بعد أن صقلته الزعامة وحنكته التجارب وصهرته الصعاب فقد اصبح أصلب عودا وواجه العقبات بثبات .

أما فريد فبالرغم مما تعرضت له الحركة الوطنية من ضربات متلاحقة سواء من الخديو أو من الاحتلال نتيجة سياسة الوفاق فقد ظل متمســكا بمبادئه متحملا للمصاعب والعقبات دون كلل ، وكلما زادت الأمور صعوبة كلما ضاعف فريد من جهاده .

ومن كلماته المأثورة فى هذا الصدد قوله « لا ينتظر احد منا ان نحيد عن مبدئنا مادام فينا عرق ينبض او تجرى فى اجسامنا نقطة دم » لذلك فان فريد لم ينثن عن مقاومة الاحتلال أو كل من يلوذ به او يحالفه حتى لو كان ذلك اكبر راس فى البلد وقتذاك وهو الخديو فرغم آلام الســـجن رفض فريد مســـاومة الخديو له بأن يخفف فى لهجته فى نظير الوعـــد بالافراج عنه ، وآثر السجن على التســـاهل فى مبادئه ورغم انفضاض بعض انصار فريد عنه وانحيازهم الى جانب الخديو فان الضعف أو اليأس لم يعرف الى قلبه سبيلا فقد أعلن أن سياسته لم تتغـــير حتى لو ظـــل وحـــــده » [(١٠٨)] وقدم حياته طائعا مختارا من اجل تحرير مبادئه .

وبما أن الزعيم لابد أن يكون واضح الأهداف محدد المبادىء فـــان مصطفى كامل جعل لنفســـه هدفا واحدا هو الجلاء ، وعدوا واحدا هـــو الاحتلال اما فريد فانه لم يختلف مع مصطفى كامل فى خطته هذه وان كان قد ابرز معها دعوته للمطالبة بالدستور واعداد العرائض لانشاء مجـــلس نيـــابى [(١٠٩)] .

واذا كان الزعيم الناجح هو الذى يبتعد عن اثارة احاسيس الناس ولا يحاول هز معتقداتهم أو عاداتهم بل يحاول استمالة العواطف الموجوده

فى نفوسهم فان كلا من مصطفى كامل وفريد قد عمــل على تحقيق هــذه الغاية فمصطفى كامل ربط بين دعوته لحب الوطن وبين معايير مجتمعه فتمسك بالقديم ، وكان متحفظـــا على المبادىء الأوربية فى تربية البنات ودافع عن سياسة الحجاب واعتبرها عصمة للنساء ثم عارض فكرة تحرير المراة موضحا « ان قواعد الشرع والأدب تقضى بفــرض الحجــاب على النساء فليس لهن ان يستخدمن بالمصالح كالرجال وانما يكفى أنهن يدبرن شئون المنزل ويهذبن أولادهن » يضاف الى ذلك أن مصطفى كامل كان خصما لدودا لكتاب تحرير المراة الذى أصدره قاسم أمين عام ١٨٩٩ كما كان خصما لدودا ايضا لصاحبه فحمل عليه حملات ضارية فى اللواء[١١٠] ورفض فكرة سفور المراة .

ولما اثيرت قضية زواج الشيخ على يوسف من ابنة الشيخ السادات رغم ارادة والدها وقف مصطفى كامل ضد صـــاحب المؤيد مهاجما ايـــاه ومؤيدا للتقـــاليد الموروثة ومتمســـكا بها ، وكانت فرحته شديدة عندما طلبت المحكمة ابطـــال هذا الزواج ، ويبدو ذلك واضحا فى رسالته الى جوليت آدم بتاريخ ٤ اكتوبر ١٩٠٤ حيث قال « ازف اليك نبأ عظيما .. ان محكمة الاستئناف ايدت حكم أول درجة القاضى بابطال زواج ذلك الصحافى المســكين الذى حدثتك عنه ، وعلى البـــاغى تدور الدوائر .. ولعظيم فرحى وعلمى أن ما يسرنى يشرح فؤادك أسرعت الى مكاتبتك »[١١١] .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل انتقد مصطفى كامل الخديو لموقفه المؤيد للشيخ على يوسف فى هذه القضية مما أدى الى القطيعة بينهمـــا وقد أيد فريد مصطفى كامل فى كل هذه المواقف وسار على منوالها طوال زعامته للحزب .

وقد يستغرب البعض هذه المواقف من كل من مصطفى كامل ومحمد فريد خصوصا وأن ثقافتهما فرنسية وانهما تلقيا العلم بعض الوقت فـــى أوربا وكانا من بين المعجبين بالمدنية والحضارة الأوربية .

يرجع الدكتور هيكل ذلك الى أن كل من مصطفى وفريـــد حـــاول التقرب الى الشعب فيما هو عزيز لديه من عادات واوهـــام لاستغـــلاله فى الغايات السياسية[١١٢] لدرجة ان مصطفى كامل فضل ان يخسر الخديو

على ان يخسر الرأى العام نضيف الى ذلك ان قوة الاتجاه الاسلامى لدى كل منهما جعلهما يناديا بالا تقلد مصر أوربا تقليدا اعمى بل يجب ان تظل متمسكة بمبادئ الاسلام هذا بالاضافة الى ان فكرة الاصلاح الاجتماعى لدى كل منهما كانت تجيء فى المرتبة الثانية بعد تحقيق الجلاء.

واذا كانت التضحية بالنفس والنفيس وايثار الذات فى سبيل الوطن احدى سمات الزعيم الناجح فان كلا من مصطفى وفريد قد تميز بهذه الصفة ولم ينظر اى منهما الى اتخاذ العمل السياسى وسيلة لتحقيق النفوذ والجاه والأدلة على ذلك متعددة نذكر منها :

بالنسبة لمصطفى كامل فرغم انه كان قيد اسمه فى جدول المحامين وقررت لجنة انتخاب المحامين قبوله[113] فانه لم يحترف المحاماه بل تفرغ لقضية واحدة هى قضية مصر ، ورغم انه كان ضعيف الصحة وفى حاجة الى الراحة فانه لم يعط لبدنه حقه من الراحة بل واصل الجهود فى سبيل مصر ، واخذ على عاتقه مهمة ايقاظ الشعور الوطنى ، وبث الدعاية للقضية المصرية فى انخارج فواصل حملاته ضد احتلال ، ولم تغريه باريس بمفاتنها وجمالها بل كان يقطع شوارعها وحواريها ليلحق سياسيا قبل ان يترك مكتبه او خطيبا قبل ان يقف على منصة الخطابة ليشكو اليه احوال مصر فى ظل الاحتلال [114] ورغم انه حورب فى شخص أقرب الناس اليه وهو اخوه ليعدل عن موقفه فكان رد مصطفى انه مهما حورب فى شخصه او شخص أقرب الناس اليه فان ذلك لم يحل دون جهاده ، ولما طلب السير كامبل بانرمان رئيس الوزارة البريطانية من مصطفى كامل تكوين وزارة بمعرفته رفض قائلا « ان وطنيتى تفرض على رفض كل مركز فى الحكومة طالما ظل الاحتلال جاثما على صدر مصر »[115] يضاف الى ذلك انه عندما علم مصطفى كامل برغبة فريد فى تاليف لجنة بقصد عمل اكتتاب عام لدعوته الى وليمة وتقديم هدية له بعد جهوده التى بذلها فى الخارج من اجل مصر بعد احداث دنشواى اقترح مصطفى كامل تحويل هذه الهدية لغرض آخر قائلا ان « خير هدية اقترح عليكم تقديمها للوطن العزيز والأمة المصرية ان تقوم اللجنة التى شكلت بدعوة الأمة كلها ، وطرق باب كل مصرى لتاسيس كلية اهلية تجمع ابناء الفقراء والأغنياء على السواء »[116] .

هـــذا عن بعض تضحيات مصطفى كامل من اجـــل مصر . اما من تضحيات فريد فهى كثيرة نذكر منها على سبيل المثال تضحيته بمنصـــبه فى النيابة حيث استقال من وظيفته بعد موقفه الوطنى من قضية انتلغراف ثم تضحيته بعمله فى المحاماة لكى يتفرغ للجهاد ، وتضحيته باموالـه لمساندة الحركة الوطنيـــة بأن باع كل ما يملكه من اراض زراعيـــة بعد ان تولى رئاسة الحزب الوطنى[١١٧] .

وكما رفض مصطفى كامل الاشتراك فى الوزارة رفض ايضا فريد ذلك عندما عرض عليه محمد سعيد باشا الاشتراك فى وزارته قائلا « كيف تطلب منى أن اشترك فى حكم البلاد فى ظل الاحتلال ، وانا أجاهد الاحتـــلال ؟ وكيف يتفق النقيضان » .

وقد تكررت هذه المحاولة مع فريد بعد ذلك فعقب مؤتمر بروكســـل فى اكتوبر ١٩١٠ قابل فريد فى باريس مبعوثا من قبل الحكومة الانجليزيـــة يعرض عليه احدى الوزارات ومساعدته ماليا بعد ان تحرج مركزه المـــالى فكان رد فريد الرفض قائلا « ان ضياع ثروتى لا يؤثر على مبادئى ، وانى ارفض اى مركز فى الحكومة مادام الانجليز فى مصر »[١١٨] .

ولما عرضت الحكومة العثمانية عـــلى فريد بعض المناصب ومنها عميد كلية الحقوق بالآستانة اعتـــذر حتى يحتفظ باستقلاله فى جهـــاده بقوله « اننى لم اخرج من بلادى للبحث عن وظيفة انما خرجت لخدمتها ، وسأبقى كذلك حتى اموت »[١١٩] .

يضاف الى ذلك ان فريدا ضحى براحته وحريته ، فاستهدف للسجن والنفى ، وكان يتلقى المحن والشدائد بكل رضـــا فكان رجـــل مبـــادىء لم يتغير مهما قاسى فى ســـبيل المحافظة عـــلى مبادئه فقد ضحى بثروته من اجل الحركة الوطنية حتى اصبح المـــال قليلا معه فلم يجـــد العناية الطبية الكافية عند اصابته بمـــرض الاستسقاء لعدم توافر المـــال اللازم لعلاجه كما ركب القطار لأول مرة فى حياته فى الدرجة الثالثة وهو بأوربا للدفاع عن حقوق مصر رغم برد الشـــتاء وذلك لقلة النقود معه[١٢٠] ووصل فريد الى أقصى حالات الضنك بسبب قيام الحـــرب الأولى ، وانقطـــاع

المورد المالى الذى كان يصله من اسرته لدرجة انه لم يجد قوت يومه الا بصعوبة ، كما انه لم يملك ثمن الدواء ، ومع ذلك لم يعرف فريد فى الوطنية لينا او هوادة ، ولم يضعف أمام الوعيد ولم يعبأ بأى وعود .

وبما أن الزعيم الناجح هو الذى يعى متطلبات مجتمعه ، ويحاول النهوض بشعبه فان كلا من مصطفى وفريد اهتم بتعليم الشعب المصرى ، واستنهاض همته وتذكيره بعزته القومية وكرامته الوطنية فبعد أن رأى مصطفى كامل عقم سياسة الاقتصار على نشر الدعوة فى أوربا وحدها والاعتماد على الدول لاجلاء انجلترا عن مصر (١٢١) احس بضرورة الاهتمام بتعليم الناس وتعريفهم بحقوقهم وواجباتهم خصوصا وان الشباب المتعلم هو اساس تقدم الوطن ، وان سياسة الاحتلال التعليمية تحول بين تربية الناشئين والشباب تربية وطنية صحيحة فكان اساس مناهجها التربية المفعمة بالخضوع والمذلة (١٢٢) ومن اجل ذلك ضاعف مصطفى كامل من جهوده لتنشيط حركة التعليم فى البلاد فطالب بانشاء المدارس الأهلية بعد أن اغلقت سلطات الاحتلال بعض المدارس الحكومية والغت مجانية التعليم كما طالب بأن يشمل التعليم ابناء الأسر الفقيرة والا يقتصر على طبقة الأغنياء فقط .

ونتيجة لجهود مصطفى كامل فى هذا المجال افتتحت مدرسة ابتدائية بالقاهرة حملت اسمه وذلك فى عام ١٨٩٩ ثم كون نادى المدارس العليا الذى كان اول تنظيم للطلاب وخريجى المدارس .

وقد سار فريد على منوال مصطفى كامل فى الدعوة لنشر التعليم فقد طالب بنشر التعليم الابتدائى بين كافة طبقات الشعب فقيرة وغنيه وان يكون هذا التعليم الزاميا ومجانيا لكل مصرى ومصرية كما تبنى فريد مع نادى المدارس العليا فكرة انشاء مدارس ليلية لتعليم العمال ومن يرغب من الفقراء مجانا ، وقد عرفت هذه المدارس باسم مدارس الشعب ، وعهد بالتدريس فيها الى رجال الحزب وانصاره .

هذا عن دور مصطفى كامل وفريد نحو التعليم العام أما عن دورهما نحو التعليم الجامعى فالمعروف ان مصطفى كامل نادى بانشاء جامعة

فأموال الأمة تتيح للمصريين ابراز مواهبهم ورفع شأنهم كما سار فريد على منوال سلفه وزاد على ذلك انه كان ضمن الأعضاء المؤسسين للجامعة الأهلية وعضوا بمجلس ادارتها وسكرتيرا للجنة انشاء الجامعة وضمن المساهمين من اجل انشائها فقد اكتتب بمائتى جنيه ، وبمثل هذا المبلغ سنويا .

هذا عن اوجه الاتفاق بين مصطفى كامل وفريد ، وقبل أن أنتقل الى اوجه الاختلاف بينهما ينبغى ان نذكر انه اذا كانت احدى سمات الزعيم السياسى مساومة الآخرين ومراوغتهم من اجل الحصول على مطالبه ومطالب شعبه فان كلا من مصطفى وفريد لم يستعمل هذا الاسلوب فى كفاحه بل كانا واضحين فى مطالبهما دون لف أو دوران .

اما بالنسبة لأوجه الاختلاف بين الزعيمين فنجد انه بالرغم من أن مصطفى وفريد كانا متفقين فى اساسيات حركة الكفاح الوطنى فان الظروف السياسية التى لازمتهما وبوجه خاص أثناء زعامة كل منهما للحزب الوطنى حتمت على كل منهما اتباع سياسة مخالفة لسياسة الآخر فمع ان زعامة مصطفى كامل للحركة الوطنية كانت تمثل المرونة السياسية فان زعامة محمد فريد كانت تمثل الصلابة العقائدية[١٣٣] فمصطفى كامل كخطيب استطاع تحريك الجماهير واثارتها دون ان يقدم لها برنامجا فكريا واضحا [١٣٤] ، وقد اتاح له رصيده السياسى استخدام الاسلوب المرن من اجل الوصول الى هدفه فلجأ الى الكتابة والخطابة فى التشهير بالاحتلال واستطاع أن يخاطب عدوه القوى باللغة الهادئة التى تستند الى العقل والمنطق ولم يلجأ الى الأساليب الثورية فى حركته .

اما فريد فقد دفعته ظروف سياسة الوفاق وقلة رصيده السياسى بالاضافة الى الخلافات التى نشبت داخل الحزب الوطنى بعد وفاة مصطفى كامل الى التشدد فى مواقفه واللجوء الى تحويل المجتمع الى قوة ضاربة فانتقل من الخطابة مع المثقفين وطلاب المدارس الى تنظيم الحزب وتطويره ومد فروعه الى الاقاليم كما لجأ الى القوى الاجتماعية الأخرى القادرة على مقاومة الاحتلال بالعنف مثل العمال والفلاحين يضاف الى ذلك أن فريدا دعا الى المظاهرات الشعبية المنظمة للمطالبة بحق مصر فى

الدستور فكان يجتمع فى حديقة الجزيرة عشرات الآلاف ثم يسيرون الى قلب القاهرة هاتفين بمطالبهم مشتبكين بالبوليس مضحين بالعشرات[١٢٥] فقد راى فريد أن الزعيم الناجح هو الذى يعتمد على كافة طبقات شعبه فى حركة الكفاح وهنا يبرز لنا تناقضا غريبا وهو انه بالرغم من ان مصطفى كامل ينتمى الى طبقة الفلاحين وصغار الموظفين وفريد ينتمى الى الطبقة الارستقراطية فان موقف كل منهما من الفلاحين والعمال كان على عكس انتمائهما الطبقى فقد حصر مصطفى جهوده فى اول الأمر على الطبقة المثقفة فى المدن ، ولم يجذب اليه طبقة العمال والفلاحين ، ولم يكن لهم فى مقالاته او فى برنامج حزبه شأن كبير ، كما أن دعوته للالتفاف حول الدولة العثمانية جعلت الفلاحين يبتعدون عنه بعض الوقت حتى وقعت احداث دنشواى فانضم الفلاحون اليه وتغنوا بأعماله . أما فريد فقد فطن الى ضرورة جذب العمال والفلاحين اليه منذ بدء زعامته فأصبح رجلا جماهيريا يتسم بطابع البساطة ، ويفضل العيش بين الجماهير ومشاكلها[١٣٦] فبدأ بالربط بين حركة المثقفين وطبقة العمال والفلاحين حتى يتحول المجتمع المصرى الى قوة ضاربة فى مواجهة الاحتلال .

وقد اهتم فريد بأحوال العمال ، وطالب بوضع قوانين لحمايتهم وتحديد عدد ساعات العمل لهم ، كما اهتم بالنقابات والأندية العمالية لترقية احوال هذه الطبقة والدفاع عن مصالحها ومنع استغلالها فانشئت فى عام ١٩٠٩ أول نقابة للعمال فى مصر وهى نقابة عمال الصنائع اليدوية .

اما عن الفلاحين فقد طالب فريد بانشاء نقابات زراعية تحميهم من جشع المرابين ، وتعمل على ترقية احوال الزراعة ، وتحسين احوال الفلاح المصرى الذى وصفه فريد بانه اتعس فلاح فى العالم .

وهكذا كان لاهتمام فريد بمشاكل العمال والفلاحين اكبر الأثر فى زيادة رصيده الشعبى فى الكفاح الوطنى وهذا ما لم يتوفر لسلفه مصطفى كامل ومع أن فريدا كان اقرب فى عثمانيته من ناحية الدم والصلة والقرابة من مصطفى كامل فان فكره كان اكثر مصرية من مصطفى كامل الذى كان شديد الامتزاج بالعثمانية فمزج عقيدته الوطنية بعقيدته الدينية ويكفى



للتدليل على ذلك أن فريدا أحدث تغيرا فى مبادىء الحزب الوطنى العشرة بعد وفاة مصطفى كامل لدحض الاتهامات التى نسبت للحزب بتغليب ولائه التركى على ولائه المصرى فعدل المبدأ الاول للحزب من « استقلال مصر كما قررته معاهدة لندن ١٨٤٠ وضمنته الفرامانات السلطانية ذلك الاستقلال الضامن عرش مصر لعائلة محمد على والضامن للاستقلال الداخلى للبلاد » ليصبح استقلال مصر مع سودانها استقلالا تاما غير مشوب بأية حماية او وصاية او سيادة أجنبية او اى قيد يقيد هذا الاستقلال .

يضاف الى ذلك أن فريد رفع شعار مصر للمصريين فى أحرج ظروفه خصوصا بعد خروجه من مصر فقد وضع على جاكتته شارة مرسوم عليها أبو الهول ومكتوب عليها مصر للمصريين مما اثار الأتراك وهددوه اما أن ينزع هذه الشارة من على صدره أو أن يغادر الآستانة فآثر فريد مغادرة العاصمة العثمانية على خلع شارته .

حقيقة أن مصطفى كامل كان له هدفه من التقرب الشديد للعثمانيين ، ولكنه أيضا كانت له مواقف فضل فيها المصلحة العثمانية على مصلحة مصر ويكفينا ان نذكر موقفه من مسألة طابة واذا كانت ملكة الخطابة ، والقدرة فى التاثير على الجماهير احدى سمات الزعامة فان مصطفى كامل كان خطيبا بارعا فى الارتجال اذا خطب الناس بعباراته البليغة وبيانه الواضح وحججه المدعمة بالمنطق والأسانيد لذلك كان قادرا على استمالة الجماهير واقناعهم كما كانت كلماته تعبيرا حيا عما يجيش فى صدور ابناء وطنه .

أما فريد فقد كان يفتقر الى هذه الصفة من سمات الزعامة فانه لم يكن خطيبا فى بلاغة مصطفى كامل بل كان غالبا ما يتلو خطبه[١٢٧] .

وتبدو ديمقراطية فريد واضحة فى رفض اختياره رئيسا للحزب مدى الحياة كما حدث مع مصطفى كامل فطالب بتعديل لائحة الحزب التى تقضى بانتخاب الرئيس مدى الحياة ، وان يقتصر انتخابه على فترة محددة ولكن ذلك الموقف من فريد لم يستمر طويلا فبعد انتهاء فترة الثلاث سنوات الأولى لزعامة فريد للحزب الوطنى عقدت الجمعية العمومية

للحزب اجتماعا انتخبت فيه فريدا رئيسا للحزب مدى الحياة ، ولم يعترض فريد على ذلك بعد أن اتضح له ضرورة استمرارية الزعامة فيه باعتبار أن استمراريته فيها هى استمرار لمبادىء الحزب .

أما بالنسبة لعلاقة كل من مصطفى وفريد بالخديو فقد كان هناك اختلاف واضح بين كل منهما فى علاقته به فقد اعتمد مصطفى كامل على الخديو فى امداده بالمصروفات الكبيرة التى يتطلبها العمل الوطنى الذى تصدى له خصوصا وأن نشأته الاجتماعية المتوسطة لم تمكنه من مقابلة هذه المصروفات مما أوجد نوعا من العلاقة الخاصة بين الرجلين[١٢٨] وجعل مصطفى كامل يرتبط بالخديو فى بعض المواقف أحيانا ، ورغم ذلك فان علاقة مصطفى كامل بالخديو لم تستمر على هذا المنوال طويلا خصوصا بعد أن رأى ضرورة استقلال الحركة الوطنية عن الخديو نتيجة للسياسة المتقلبة التى كان يتبعها تجاهها .

أما فريد فانه لم يرتبط بالخديو بأية روابط تقيد من حركته أو تفرض عليه مواقفا معينة ، فبحكم انتمائه لطبقة كبار الملاك استطاع امداد العمل الوطنى بالمال دون أن يلتزم بأى موقف مع الخديو ، لذلك اتخذ طابع الخلاف بينه وبين الخديو أبعادا واسعة نتيجة لرفضه ايجاد علاقة معه شبيهة بالعلاقة التى كانت قائمة بين الخديو ومصطفى كامل .

لقد ورث فريد مبدأ معارضة التعامل مع الخديو من لطيف باشا سليم الذى كان يرى فى الخديو رجلا أنانيا يفضل منفعته الشخصية على الصالح العام .

مما سبق يتضح أنه اذا كان الخديو قد أمد مصطفى كامل بالمال فان ذلك لم يحدث مع فريد حتى فى أحرج اللحظات الا فى أواخر حياته ، فمع أن فريد نفى الشائعات التى قيلت بأن الخديو ورئيس الوزراء محمد سعيد قد أرسلا اليه ثلاثمائة جنيه لمساعدته على الخروج من مصر ، واستغرب مثل هذا الأمر بقوله فى رسالة له الى الخديو : « انى اترفع عن قبول اية مساعدة منكم ولو كنت فى احط دركات الفقر .. وانى لا اقبل منكم اية مساعدة مادامت مهمتى هى الجهاد فى تحرير البلاد من الانجليز ومن كل من يعاونهم على توطيد أقدامهم فى مصر كائنا من كان[١٢٩] .

ومع ذلك فان الظروف التى احاطت بفريد فى أواخر ايامه جعلته يقبل مساعدة الخديو له بالمـــال ، ويبدو ذلك واضحا فيمـــا كتبه فى مذكراته تحت عنوان « من اين اعيش » انه اخذ نقودا من الخديو ، ولا عيب فى ذلك « لأنه خديوينا الشرعى ، ولا يعتبر اخذ الفلوس منه خيانة »[١٣٠] .

يضاف الى أوجه الاختلاف السابقة بـــين مصطفى كامل وفريد ان مصطفى كامل جمع بين زعامة الحزب وادارة جرائده واستطاع ان يديرها بكفاءة أما فريد فقد تفرغ لقيادة الحزب وترك ادارة اللواء للشيخ عبد العزيز جاويش ، كما ان جريدتى الحزب الانجليزية والفرنسية قد اغلقتا .

هذا عن دور مصطفى كامل ومحمد فريد فى زعامة الحـــزب الوطنى واوجه الاتفاق والاختلاف بينهما ، والتى يتضح منها أن كلا منهما كان مثالا للتضحية والاخلاص من اجل القضية الوطنية فقد عبر كلاهما عن ارادة الأمة المصرية خير تعبير ، وقام بتوجيه الجماهير المصريـــة فكريا ونفسيا ، واضاء لهم الطريق الذى مهد لقيام ثورة ١٩١٩ .

مراجع الفصــل الخــامس

(١) تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ص ٢٧ .

(٢) د. المسدى : محاضرات فى تاريخ مصر المعاصر .

(٣) كون هــذه الجمعية على الروبى فى عام ١٨٧٦ اى بعد هزيمــة الجيش المصرى فى حرب الحبشة .

للتفاصيل انظر : الياس الايوبى . تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل باشا ١٨٦٣ — ١٨٧٩ المجلد الثانى ص ٤٧٠ .

(٤) جمعية سرية ضمت شريف باشا واسماعيل راغب ومحمد سلطان وغيرهم من الشخصيات الرافضة لسياسة رياض باشا .

(5) Ninet : Arabi Pacha. Egypt 1800 — 1883 Paris, 1884 .

(٦) جريدة مصر : العدد ٤٧ فى ٢٤ مايو ١٨٧٩ .

من خطبة جمال الدين الأفغانى فى قاعة زيزينيا بالاسكندرية .

(٧) محافظ الثورة العرابية : محفظة رقم ٨ دوسيه ٥٣ ملف ٢٢٢ وثيقة رقم ١١٩١ الثورة العرابية — قضايا المتهمين .

(٨) على فهمى كامل : رسائل مصرية فرنسية ص ٣٩ .

(٩) اللواء الجديد : العدد الخامس فى ١٩٤٤/١٢/١٠ « حديث لطفى السيد باشا » .

(١٠) محافظ الثورة العرابيــة .محفظة رقم ٨ ملف ٢١٢ محضر استجواب عرابى .

(١١) اللواء فى ١٠ اكتوبر ١٩٠٧ .

(١٢) مصطفى كامل : (المســالة الشرقية) القــاهرة — الطبعــة الأولى ١٨٩٨ ص ٢٥٩ .

(١٣) عباس العقاد : محمد عبده ص ١٧٨ .

(١٤) أطلق عليه حزب الاحرار فيما بعد .

(١٥) اللواء فى ٢ يولية ١٩٠٠ تحت عنوان « حزب وطنى حر فى مصر »

(١٦) مذكرات محمد فريد ، ملف رقم (١) الجـزء الأول ـــ القسـم الأول ص ١ .

(١٧) جوليت آدم : انجلترا فى مصر ـــ ترجمة على فهمى كامل ص٢٧٣

(١٨) الرافعى : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ص ٢٦٢ .

(١٩) جوليت آدم : المرجع السابق ص ٢٧٣ .

(٢٠) نفســه .

(٢١) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٦٧ .

(٢٢) د. يونان لبيب : الحياة الحزبية فى مصر فى عهـد الاحتـلال البريطانى القاهرة . الأنجلو المصرية ١٩٧٠ ص٥٧ .

(٢٣) مذكرات سعد زغلول ـــ كراس رقم ٦ ص ٢٩١ ـــ ٣٠٠ .

(٢٤) تقرير الحزب الوطنى عن سنة ١٩٠٧ القاهرة ـــ مطبعة اللواء ١٩٠٨ ص ٢١٦ ـــ ٢٢١ .

(٢٥) اللواء فى ٣١ اكتوبر ١٩٠٧ تحت عنـوان « الحـزب الوطنى والاستقلال » .

(٢٦) ادخل الحزب الوطنى تغييرا عـلى نص هـذا البند ليصبح « استقلال مصر مع سودانها استقلالا تاما غير مشوب باية حمايـة او وصاية او سيادة اجنبية او اى قيد يقيد هذا الاستقلال .
د. يونان لبيب : مصطفى كامل وتاسيس الحزب الوطنى ص ١٠٠ .

(٢٧) محمد حسين هيكل : تراجم مصرية وغربية . القاهرة ـــ مطبعة السياسة ص ١٦١ .

(٢٨) الرافعى : المرجع السابق ص ٣٦٠ .

(٢٩) محمد على علوبة : ذكريات سياسية واجتماعية ص ٢٨٨ .

(٣٠) د. يونان لبيب : المرجع السابق .

(٣١) محمد عبد السلام الزيات : الاتجـاهات المعاصرة فى التنظيم السياسى القاهرة ـــ الانجلو المصرية ص ١٤٧ .

(٣٢) د. يونان لبيب : الحياة الحزبية فى مصر ص٥٥ .

(٣٣) محمد توحيد : كيف يحد ثالوطنى فى مسالة الاحزا بالسياسية فى مصر ص ٩٠ .

(٣٤) د. يونان لبيب : المرجع السابق ص ٥٦ .

(35) Alexander, J. The Truth about Egypt P. 229 .

(٣٦) محمد شفيق غربال : المرجع السابق ص ٢٧ .

(37) Landau, J. Parliaments and Parties in Egypt. New York, 1954 p. 135 .

(٣٨) د. يونان لبيب : المرجع السابق ص ٥٩ .

(٣٩) فتحى رضوان : كفاحنا الوطنى فى نصف قرن ص ٦١ .

(٤٠) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية جـ ١ ص ٢٧ .

(٤١) للتفاصيل انظر د. يونان لبيب : المرجع السابق ص ٥٣ .

(٤٢) المصرى فى ١٤ مايو ١٩٥١ .

(٤٣) جوليت آدم : المرجع السابق ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

(٤٤) مذكرات محمد فريد ، ملف رقم (١) الجزء الأول — القسم الأول ص ٣ .

(٤٥) عبد الرحمن الرافعى : محمد فريد رمز الاخـــلاص والتضحية . القاهرة — النهضة المصرية . الطبعة الثانية ١٩٤٨ ص ٤٥ .

(٤٦) مذكرات محمد فريد . الجزء الأول — القسم الأول ملف رقم (١) ص ٤ .

(٤٧) الرافعى : المرجع السابق ص ٤٦ .

(٤٨) دار الوثائق : محافظ عابدين . ديوان خديو . التماسات جماعية محفظة رقم ١٢ .

(٤٩) كانت صيغة هذه العرائض ما يلى :

مولاى « اننا بكل اخلاص وثقة بامياﻟﻜﻢ السامية نلتمس من لدنكم ان تمنحوا رعيتكم المخلصة ما منحه ابوكم الكريم لها عام ١٨٨١ وهو انشـــاء مجلس نيابى يكون عونا لحكومتكم السنية على نشر العلوم والمعـــارف ، وأنت يا مولاى الأمير خير من يقدر الدستور قـــدره لانك نشـــا تـنشـــأة عصرية ضاعفت محبتك لرعيتك التى رقيها من اجل امنيتك » .

دار الوثائق : تقـــارير الأمن العام — الداخلية تحت عنوان : عرائض وطلبات من الاهالى بشأن انشاء مجلس نيابى عام ١٩٠٨ .

(٥٠) مذكرات محمد فريد . القسم الأول — الجزء الأول ص ٤ .

(٥١) الرافعى : المرجع السابق ص ٥٨ .

(٥٢) نفسه ص ٦٢ .

(٥٣) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية جـ ١ ص ٣٢ .

(٥٤) اوراق محمد فريد . مظروف رقم ٢٣ .

(٥٥) دار الوثائق : مذكرات سعد زغلول كراس رقم ٩ .

(٥٦) د. يونان لبيب : الحياة الحزبية فى مصر ص ١٧٦ .

(٥٧) الرافعى : المرجع السابق ص ٦٢ .

(٥٨) تقرير عن المالية والادارة والحالة العمومية فى مصر والسودان ١٩٠٨ مرفوع من جورست الى جراى . المقطم ١٩٠٩ .

(٥٩) اللواء فى ١١ ابريل ١٩٠٨ تحت عنوان « ماذا يقولون » .

(٦٠) مذكرات محمد فريد رقم (١) ص ٥ .

(٦١) مذكرات فريد كراس رقم (١) ص ٥ .

(٦٢) الرافعى : المرجع السابق ص ١٦٥ .

(٦٣) منبر الشرق فى ١٩٥٢/٨/١٥ تحت عنوان الحلقة العاشرة من مذكرات الشيخ الفاياتى .

(٦٤) مذكرات سعد زغلول كراس رقم ١٧ ص ٨٩٧ .

(٦٥) اللواء فى ٣ اكتوبر ١٩٠٩ تحت عنوان « اجتماع اللجنة الادارية للحزب الوطنى » .

(٦٦) دار الوثائق : محافظ عابدين — ديوان خديو . التماسات — تلغرافات محفظة رقم (١) .

(٦٧) مذكرات سعد زغلول . كراس رقم ١٧ ص ٨٩٥ .

(٦٨) مذكرات سعد زغلول . كراس رقم ١٨ ص ٨٢٤ .

(٦٩) المقطم فى ٢٩ اكتوبر ١٩١٠ .

وايضا : Blunt : My Diaries. Vol. II p. 306 .

(70) F.O. 407/174, No. 836, Lowther to Grey, Terapia Oct ., 11, 1909 .

(٧١) انظر على سبيل المثال :

اللواء فى ٣ مايو ١٩٠٨ تحت عنوان « الثورة على حدود الهند الانجليزية » وايضا عدد ٧ مايو تحت عنوان « الثورة فى الهند الانجليزية » .

(٧٢) صبرى ابو المجد : محمد فريد . ذكريات ومذكرات . القاهرة كتاب الهـلال . ص ١١٤ .

(٧٣) د. زكريا سليمان : الحزب الوطنى ودوره فى السياسة المصرية ١٩٠٧ — ١٩٥٣ ص ١١٧ .

(٧٤) احمد شفيق : المرجع السابق جـ ٢ . القسم الثانى ص ٢٦٨ .

(٧٥) العلم فى ٢٧ اكتوبر ١٩١٢ .

(٧٦) على الغاياتى : وطنيتى — القاهرة . مطبعة منبر الشرق — الطبعة الثالثة ص ٢٦ — ٢٧ .

(٧٧) نفســه : ص ٣٣ .

(٧٨) احمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن . الجزء الثانى ص ٣٢ .

(٧٩) الرافعى : المرجع الســابق .

(٨٠) على الغاياتى : المرجــع السابق ص ١١ — ١٥ .

(٨١) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٣٧ .

(٨٢) مذكرات محمد فريد . الجزء الأول — القسم الاول ص ١٤ .

(٨٣) نفســه .

(٨٤) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٧٥ .

(٨٥) مذكرات محمد فريد جـ ١ القسم الأول ص ١٧ بينما يذكر الرافعى أن فريد احتجب بغرفة اسماعيل لبيب حتى انتهى مفتش الحجر الصحى من المرور .

(٨٦) الرافعى : المرجع السابق ٢٧٦ .

(٨٧) رفعت السعيد : تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر ص ٣٨٠ .

(٨٨) الجمهورية : العدد ٥٧٧٥ فى ١٩٦٩/١٠/١٦ مقال للدكتور محمد انيس تحت عنوان كفاح فى المنفى .

(٨٩) مذكرات محمد فريد . ملف رقم (١) ص ٢٠ — ٢١ .

(٩٠) اوراق محمد فريد : مظروف رقم ١٣ من احمد وفيق الى محمد فريد فى ١٧ يونية ١٩١٤ .

(٩١) مصطفى النحاس : سياسة الاحتلال تجاه الحركة الوطنية القاهرة — الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٥ ص ١٨٣ .

(٩٢) الأهرام فى ١٥ سبتمبر ١٩٧٢ تحت عنوان « مذكرات مدام روشبرون » .

(٩٣) صبرى ابو المجد : المرجع السابق ص ١٥٠ .

(٩٤) مذكرات محمد فريد . ملف رقم ٢ ص ٦٤ .

(٩٥) عن نص هذا المنشور انظر : الرافعى — محمد فريد ص ٣٤٤ — ٣٤٥ .

(٩٦) روز اليوسف : العدد ١١١٨ فى ١٥ نوفمبر ١٩٤٩ .

(٩٧) مجلة الهلال . مجلد ١٩٣٠ مقال للاستاذ طاهر الطناحى تحت عنوان « مثال البذل والجهاد محمد بك فريد » .

(٩٨) فتحى رضوان : مشهورون منسيون . القاهرة ص ٢٤ .

(٩٩) الرافعى : ثورة ١٩١٩ جـ ١ ص ٦٧ .

(١٠٠) محمد على علوبه . ذكريات اجتماعية وسياسية . مخطوط بدار الوثائق ص ٨٨ .

(١٠١) مذكرات محمد فريد . ملف رقم ١٠ ص٢٦٧ .

(١٠٢) د. عاطف فؤاد : الزعامة السياسية فى مصر — عرض تاريخى وتحليل سسيولوجى . القاهرة — دار المعارف ١٩٨٠ ص١٠٥ .

(١٠٣) محمد على الغتيت : الزعيم . العبقرية والزعامة السياسية . القاهرة ١٩٧٤ ص ٧٩ .

(١٠٤) محمد حسين هيكل : شخصيات مصرية وغربية ص ٥٦ .

(١٠٥) للتفاصيل انظر كتابنا عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية . القاهرة — دار الكتاب الجامعى ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

(١٠٦) مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة . المجلد العشرين . الجزء الاول مايو ١٩٥٨ مقال للدكتور عبد اللطيف حمزة تحت عنوان « الطور الصحافى من اطوار الحركة الوطنية او العصر الذهبى لصحافة المقال فى مصر » .

(١٠٧) عبد العزيز حافظ دنيا : رسائل تاريخية من مصطفى كامل الى فؤاد سليم الحجازى . القاهرة — دار النهضة المصرية ١٩٦٩ خطاب رقم ١١ ص ٥٨ .

(١٠٨) الرافعى : محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية ص ٤٤١ .

(١٠٩) للتفاصيل انظر : دار الوثائق . تقارير الأمن العام — الداخلية تحت عنوان « عرائض وطلبات من الأهالى بانشاء مجلس نيابى ١٩٠٨ » .

(١١٠) انظر على سبيل المثال اللواء عدد ٣١ يناير ١٩٠١ وايضا عدد ٢٤ فبراير ١٩٠١ .

(١١١) على فهمى كامل : رسائل مصرية فرنسية . القاهرة ١٩٠٩ ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(١١٢) د. محمد حسين هيكل : شخصيات مصرية وغربية ص ٥٦ .

(١١٣) المؤيد فى ٣١ ديسمبر ١٨٩٤ .

(١١٤) على فهمى كامل : مصطفى كامل فى ٣٤ ربيعا الجزء السادس ص ١٢٦ .

(١١٥) احمد رشاد : مصطفى كامل . حياته وكفاحه ص ٣٢٣ .

(١١٦) مذكرات محمد فريد . ملف رقم (١) خطاب مرسل من مصطفى كامل الى محمد فريد بتاريخ ٢٤ سبتمبر ١٩٠٦ ص ١٣ .

(١١٧) مذكرات محمد فريد . مظروف رقم ٣٠ .

(١١٨) الرافعى : محمد فريد ص ٤٥٤ .

(١١٩) الهلال : مجلد ١٩٣٠ مقال للأستاذ طاهر الطناحى تحت عنوان « مثال البذل والجهاد محمد بك فريد » ص ٣٣١ .

(١٢٠) مذكرات محمد فريد ملف رقم (١) ص ٢١ .

(١٢١) د. محمد حسين هيكل : المرجع السابق ص ٥٥ .

(١٢٢) المؤيد : فى ٨/١٠/١٨٩٨ .

(١٢٣) د. يونان لبيب : الحياة الحزبية فى مصر ص ٨٥ .

(124) Safran, Nadav : Egypt In search of Political community pp. 62 101 .

(١٢٥) احمد بهاء الدين : ايام لها تاريخ . القاهرة روزاليوسف ص٧٣ .

(١٢٦) عصام ضياء الدين . الحزب الوطنى والنضال السرى . رسالة ماجستير غير منشورة ص ١٠٩ .

(١٢٧) محمد علـى علوبـة : ذكريات سياسية واجتماعية . مخطوط ص ٢٨٩ .

(١٢٨) د. يونان لبيب : الحياة الحزبية فى مصر ص ٨٤ .

(١٢٩) مذكرات محمد فريد . الجزء الأول ـــ القسم الأول ص ٢ .

(١٣٠) نفسه : ملف رقم ٧ ص ١٩٦ .

الفصل السادس

مصر من ثورة ١٩١٩ الى معاهدة ١٩٣٦

أولا : مقدمات الثورة واسبابها :

ثانيا : احداث الثورة وتطوراتها .

ثالثا : نتائج الثورة .

رابعا : تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ .

خامسا : المفاوضات المصرية البريطانية فى اعقاب تصريح فبراير .

سادسا : حكومة صدقى ١٩٣٠ .

سابعا : معاهدة ١٩٣٦ .

اولا — مقدمات الثورة واسبابها :

(أ) مقدمات الثورة :

نتيجة لانضمام الدولة العثمانية الى المانيا والنمسا فى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ — ١٩١٨ عملت بريطانيا على ضمان سيطرتها على مصر ، واتخذت من الاجراءات العسكرية والسياسية ما يحقق اهدافها الحربية ويجعل من مصر قاعدة لها فى الشرق الأوسط ، ولكى يتحقق لها كل ذلك همت بضم مصر الى الممتلكات البريطانية ثم اضطرت الى العدول عن هذا القرار واعلنت حمايتها على مصر ١٩١٤م [١] وقطعت آخر العلاقات التى تربطها بالدولة العثمانية وحلت الجمعية التشريعية واخضعت البلاد لحكم يمارسه المندوب السامى البريطانى والمستشارون الانجليز [٢] .

وخلال سنوات الحرب عانت مصر الكثير من المتاعب والحرمان خصوصا وان الانجليز كانوا قد اعلنوا الأحكام العرفية ، وتشددوا فى تطبيقها ، وتحكموا فى موارد مصر الاقتصادية ، وجندوا العديد من المصريين لخدمة فى الحرب ، كل ذلك ادى الى اشتداد مرحلة الغليان بين ابناء الشعب المصرى ، وازدياد القلق بينهم .

وعندما أعلن الرئيس الأمريكى ويلسون مبادئه الأربعة عشر التى كان مفروضا ان تتخذ اساسا لمفاوضات الصلح وعقد معاهدة السلام وجد المصريون شعاعا من الأمل وخيطا يتمسكون به ، ولذلك بداوا يتحركون للمطالبة بحقوقهم وتصدر الزعماء البارزون فى ذلك الوقت ومنهم سعد زغلول فكرة تأليف وفد لايضاح قضيتهم أمام زعماء العالم فى مؤتمر الصلح بفرساى، وخلاصة القول ان مصر قبيل ثورة ١٩١٩ كانت مكبلة بالعديد من القيود ، كما كانت تعانى الكثير من المشاكل التى فجرت بعد ذلك ثورة ١٩١٩ م .

(ب) اسباب الثورة :

تعددت الأسباب التى ادت بالمصريين الى القيام بثورة ١٩١٩ م والتى

كان منها اسباب غير مباشرة ، واسباب مباشرة ، وفيما يلى نعرض لهذه الأسباب .

الأسباب غير المباشرة :

١ — الأسباب الاقتصادية :

تدهورت احوال مصر الاقتصادية نتيجة لانخفاض اسعار القطن بعد اعلان الحرب العالمية الأولى وما صاحبه من ارتفاع فى الأسعار نتيجة لتدهور العملة ، وتوقف البنوك عن عملية التسليف ومطالبتها بالاقساط المقررة على الفلاحين مما دفعهم الى بيع حليهم من الذهب لتسديد ما عليهم للحكومة .

وكان لارتفاع الأسعار اثر كبير وخاصة على الفقراء الذين لم يستطيعوا ان يؤمنوا حاجاتهم من حبوب واقمشة وغيرها ، وفى نفس الوقت كانوا يرون أن السلطات العسكرية البريطانية تصادر ارزاقهم ودوابهم وغيرها كما كانوا يرون الأجانب وهم يبتزون ثروات المصريين وارزاقهم .

٢ — الأسباب الاجتماعية :

ساعدت ظروف الحرب العالمية الأولى على نمو المجتمع المصرى ، وتطلعه الى مراقى التقدم خاصة بعد انتشار التعليم وما صحبه من نهضة أدبية وعلمية مما جعل الشعب المصرى يحس بشخصيته المتميزة ويشعر بضرورة اعتراف الانجليز بحقوقه المشروعة .

٣ — الأسباب السياسية :

منذ ان احتلت بريطانيا مصر فى عام ١٨٨٢ وهى تعانى من هذا الاحتلال فى نواح شتى من اهمها الضغط والكبت السياسى ، واجبار العناصر الوطنية على مغادرة البلاد وتعيين مستشارين انجليز فى العديد من المصالح الحكومية وزيادة عدد الموظفين الأوربيين فى كل الادارات وتعطيل الجمعية التشريعية ، وشل دور الحكومة وحرمان مصر من الاتصال المباشر بدول العالم ومحاولات الانجليز فصل السودان عن مصر وتحمل الشعب متاعب السلطات العسكرية البريطانية فى ظل احكام عرفية شديدة الصرامة .

ونتيجة لضغوط الحركة الوطنية المصرية بدا الانجليز فى اعطاء الوعود البراقة للمصريين ، ولما اشتعلت نيران الحرب العالمية الأولى اعلنت بريطانيا حمايتها على مصر ، وبدات فى الضغط على مقدرات المصريين ، الذين تطلعوا الى الاستقلال وراقهم تصريحات الرئيس الأمريكى «ولسن» التى اعلنها فى عام ١٩١٧ وذكر منها حق الشعوب فى تقرير مصيرها بنفسها ولا فرق فى ذلك بين شعب قوى وآخر ضعيف [٣] .

الأسباب المباشرة :

يرجع السبب المباشر فى قيام ثورة ١٩١٩ الى اعتقال الوفد المصرى الذى تم تاليفه للدفاع عن حقوق مصر فى مؤتمر الصلح بباريس حيث تقدم سعد زغلول وعبد العزيز فهمى ، وعلى شعراوى الى دار الحماية البريطانية وطلبوا من السير « ريجنالد ونجت » السماح لهم بالسفر الى المؤتمر الا ان السلطات الانجليزية رفضت السماح للوفد المصرى بالسفر ، ومنعت اعطاءهم جوازات للسفر بموجب الأحكام العرفية [٤] . مما أغضب سعد زغلول وجعله يحتج لدى دار الحماية ولدى رئيس الوزراء البريطانى جورج لويد ولما اصر رجال الوفد على ضرورة سفرهم القت السلطات البريطانية فى التاسع من مارس ١٩١٩ القبض على كل من سعد زغلول ، ومحمد محمود ، وحمد الباسل ونقلتهم الى بور سعيد ومنها تم نفيهم الى مالطة مما فجر قيام الثورة .

والسؤال المطروح هو لماذا رفضت بريطانيا السماح للوفد بالسفر الى المؤتمر ؟

الواقع أن بريطانيا كانت ترى أن كبرياءها لا يسمح لها بأن يقوم الشعب المصرى بعرض قضيته ضدها أمام الدول الكبرى ، يضاف الى ذلك ان المؤتمر اذا وافق على اشتراك مصر فى جلساته فعليه ان يسمح لغيرها من الشعوب وهذا ما ترفضه الدول الاستعمارية [٥] .

ثانيا : أحداث الثورة وتطوراتها :

جاءت هذه الثورة نتيجة للشحنة الكبيرة الكامنة فى نفوس المصريين

ضد الاحتلال ، وقد جاء اعتقال الوفد المصرى من قبل السلطات البريطانية ليكون الشرارة التى اشعلت فتيل هذه الثورة .

فما ان علم الشعب المصرى باعتقال اعضاء الوفد ونفيهم الى مالطة ، حتى هب افراده فى مسيرات ثورية ضد الاحتلال حيث بدات المظاهرات فى القاهرة يوم ٩ من مارس اى فى اليوم التالى لاعتقال سعد [٦] . وقد اوقد طلاب المدارس شرارة الثورة حيث اضربوا عن الدرس ، وخرجوا من مدارسهم فى مظاهرات سلمية تتقدمهم اعلامهم وهم يهتفون بحياة مصر [٧] والوفد المصرى وسعد زغلول وسقوط الحماية الانجليزية .

وقد بدا الاضراب بمدرسة الحقوق ثم انتقل الى مدارس الزراعة ، والطب ، والتجارة ، وعند تحرك الطلاب فى ميدان السيدة زينب ، قبض الجنود الانجليز على حوالى ثلاثة مائة طالب ، وساقوهم الى القلعة ، ولما وصل الى الازهريين اخبار الثورة اضربوا عن الدراسة وساروا فى مظاهرات هادئة لم يستخدم فيها العنف وفى يوم ١٠ مارس تطورت احداث العنف بين الطلاب والانجليز ، وتطورت الأمور الى قيام الجنود الانجليز باطلاق النار على الطلاب [٨] .

واستمرت الثورة فى اشتعالها وانتقل صداها الى بعض المدن الكبرى مثل الاسكندرية وطنطا واسيوط والبحيرة ، ولم يمض خمسة اشهر على قيامها الا وسقط حوالى الف قتيل .

وازدادت الأمور تدهورا بمشاركة العمال فى الثورة فقام عمال الترام والسكك الحديدية الذين يزيد عددهم على اربعة آلاف عامل بتعطيل قضبان السكك الحديدية واعمدة البريد والهاتف ، مما ادى الى تعطيل حركة المواصلات والاتصالات ، وانعزال مدينة القاهرة عن باقى المدن المصرية .

يضاف الى ذلك قيام المحامين بمشاركة ابناء وطنهم فى القتال فاعلنوا الاضراب عن مزاولة اعمالهم احتجاجا على المذابح التى قام بها الانجليز لقمع الثورة كما اغلقت المتاجر فى القاهرة [٩] .

ولم تقتصر ثورة ١٩١٩ على جهود الرجال بل شارك فيها النساء

ايضا لتظاهرن فى مسيرات — وهى يحملن اعلاما حمراء ولافتات كتب عليها « ايها الانجليز اخرجوا من بلادنا » « سعد زغلول هو زعيمنا » « أعيدوا سعد باشا الينا » « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » « تسقط الحماية البريطانية » « نموت ويحيا سعد » وكانت هذه أول مرة تخرج فيها المـــراة فى الشرق الى الشارع فى مظاهرة مما اذهل العالم وجعل وكالات الانباء الاجنبية والصحافة تتحدث فى صدر نشراتها وصفحاتها عن هذه المظاهرة .

وكانت صفية زغلول زوجة سعد هى اول من أقترح ان تخرج نساء مصر الى الشارع محتجات على نفى الانجليز لزعيم الثورة ومضت المظاهرة النسائية فى شوارع القاهرة ، تلوح باعلام صغيرة وتهتف لسعد وتلعـــن الاحتلال الى ان وصلت الى ميدان قصر الدوبارة فى طريقها الى دار الحماية البريطانية فى جاردن سيتى .

وقد احاط الجنود المدججون بالسلاح مظاهرة النساء المصريات ثـــم صوبوا اليهن البنادق ولم تتراجع النســاء بل مضين فى طريقهن حتى اقتربت حراب البنادق من صدور النساء وتقدمت الصفوف احدى السيدات وقـــد كشفت صدرها وصاحت بالانجليزية فى وجه احد جنود الاحتلال اطـــلق بندقيتك ايها الجندى ، هنا على هذا الصـــدر ، لتجعلـــوا فى مصر مس كامل[١٠] ثانيـــة .

وحاصر الانجليز النساء المصريات ، وطلبوا منهن التفرق والعودة الى بيوتهن ، ومنعهن من الوصول الى بيت سعد زغلول ، وتحدت النســـــاء المصريات هذه الأوامر ، ومضت ساعة كاملة فى يوم شديد الحرارة والنساء صامدات ، واخيرا توسط السفير الامريكى فى الأمـــر ، وانصرف الجنـــود الانجليز ، وسارت مظاهرة النساء الى بيت صفية زغلول [١١] .

واعقب ذلك مرحلة من عدم التعاون مع الانجليز ومقاطعة بضائعهم ، ورفض المصريون الاشتراك فى أية حكومة كى يحملوا الانجليز كامل المسئولية عن الاحداث .

وقد ادت هذه الاحداث الى انزعاج السلطات الانجليزية مما جعلهـــا

تشكل محاكم عسكرية للمتظاهرين الذين القى القبض عليهم وكان يحكم عليهم بالحبس أو الجلد او الغرامة ، ولكن ذلك لم يزد الثورة الا اشتعالا وازاء ، اصرار الشعب المصرى على الثورة حتى يتم الافراج عن افراد الوفد المعتقلين اضطـــرت السلطات البريطانية الى الافراج عن ســـعد وصحبه وسمحت لهم بالسفر الى باريس لعرض مطالب بلادهم .

وقد سافر الوفد الى باريس ولكن بعد فـــوات الأوان حيث تمكنت بريطانيا من انتزاع اعتراف الدول الكبرى بحمايتها على مصر .

ونتيجة لذلك قرر الوفد الاعتماد على النفس والاستمرار فى حـــركة الكفاح الوطنى .

ولمـــا هال بريطانيا استمرار الثورة وامتدادها الى جميـــع انحـــاء البلاد ، فكرت فى ايفاد لجنة للتحقيق فى اسباب غضب المصريين ، ومحاولة التوفيق بين امانى الأمة المصرية ومصالح بريطانيا وحقوق الاجانب [١٢] .

وعلى هذا الاساس شكلت لجنة برئاسة « اللورد ملنـــر » وزيـــر المستعمرات البريطانى فى ذلك الوقت .

وقد اتصف موقف الشعب المصرى من هذه اللجنة بالسلبية وعـــدم الرضا فقاطعها المصريون ، واعلنوا انهم لا يرضون بغير الاستقلال بديلا مما اضطر اللجنة الى العودة الى بريطانيا فى مارس ١٩٢٠ [١٣] ودعوة الوفد المصرى بعد ذلك للحضور الى لندن للتفاهم معها بشأن مستقبل القضية المصرية وهناك قدم « ملنر » مشروعه الذى اشتمل على ضمان بريطانى باستقلال مصر بشرط عدم عقد معاهدة مع اى دولة اخرى دون موافقـــة بريطانيا ، وعلى اعطاء بريطانيا حق ابقاء قوات عســـكرية فى الاراضى المصرية ، وحق استعمال الموانىء والمطارات ، والزام مصر بتعيين مستشار مالى تكون له جميع الاختصاصات المالية ، هذا الى جانب حق بريطانيـــا فى التدخل فى شئون الأجانب .

أما مشروع الوفد فقـــد كان ينص على انهـــاء الحماية والاحتـــلال البريطانى ، واسترداد مصر لكامل سيادتها الداخلية والخارجية كدولة لها

نظام دستورى وان تسحب بريطانيا قواتها من مصر بعد مدة يتفق عليهـا الطـرفان ..

وللتوفيق بين المشروعين قدمت لجنة ملنر مشروعا آخـر ، ولكنـه كان لا يختلف عن مشروعها الأول كثيرا حيث احتفظ باحتلال بريطانيـا لمصر، ووضع المصالح البريطانية فى المقام الأول دون النظـر الى مطالب مصر (١٤) ونتيجة لذلك رفضه الجانب المصرى مما دفع ملنر الى قطع المفاوضـات ودفع الوفد المصرى الى مغادرة لندن الى باريس ، وعلى اثر قطع المفاوضات قدم ملنر الى حكومته تقريرا اقترح فيه عقد معاهدة بين مصر وبريطـانيا تتفق مع مصالح الطرفين ، كما اوصى بضرورة أن تحصل بريطانيـا على ضمانات بتواجد قوات عسكرية لها فى مصر .

ونتيجة لاستمرار الاضطرابات فى مصر اعلنت انجلترا عن رغبتها فى استئناف المفاوضات مع الحكومة المصرية برئاسة « عدلى يكن » الذى كان قد الف وزارته فى ١٧ مارس ١٩٢١ والتى سميت بوزارة الثقة فالف عدلى وفدا حكوميا برئاسته وعضوية رشدى باشا واسماعيل صدقى (١٥) وسافر الى لندن لمفاوضة اللورد كيرزون ، وقد استمرت المفاوضات طيلة الصيف واتضح منها أن بريطانيا لم تكن جادة فى الغاء حمايتها لاصرارها على مرابطة قوة عسكرية بريطانية فى مصر ، ونتيجة لذلك عـاد الـوفد الـى ارض الوطن (١٦) وقدم عدلى استقالته من الوزارة .

ونظرا لتصاعد الحركة الوطنية ، وتزايد الكراهية ضد الانجليز ، القت السلطات البريطانية القبض على سعد زغلول وخمسة من اعضاء الوفد وهم « فتح الله بركات » ، و « عاطف بركات » ، و « مصطفى النحاس » و « مكرم عبيد » ، و « سينوت حنا » ، وقامت بنفيهم الى عدن ثم الـى جزيرة سيشل ثم نقل سعد الى جبل طارق .

ونتيجة لذلك ازداد هياج الشعب المصرى ، واستمرت الاضطرابات وقاطع المصريون البضائع الانجليزية وتردد رجال السلطان فى قبول منصب الوزارة فى ظل الحماية البريطانية ، واصر المصريون على الغاء الحمـاية وعودة المنفيين وازاء هذا الموقف اضطرت الحكومة البريطانية الى تهدئة الموقف والتفاوض مع المصريين مما نتج عنه تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ .

ثالثا : نتائج ثورة ١٩١٩ :

اسهب المؤرخون فى الحديث عن نتائج ثورة ١٩١٩ فمنهم من قال بنجاحها خاصة وانها ايقظت مصر فنهضت تبحث عن شخصها وتعيد روحها وحضارتها بنفسها [١٧] دون اعتماد على حكامها ومنهم من قال بغير ذلك والحقيقة ان هذه الثورة لها نتائج ايجابية كما أن لها نتائج سلبية وفيما على نعرض لكافة هذه النتائج .

١ — فى الناحية السياسية :

فى الحقيقة ان ثورة ١٩١٩ لم تستطع انهاء النفوذ الانجليزى فى مصر، ومع ذلك فانها وضعت حدا لسلطاته المطلقة التى كان يفرضها على المجتمع المصرى ، كما ان هذه الثورة قد حققت احد اهدافها الهامة الا وهو تقرير النظام الدستورى الذى كانت تصبو اليه قلوب المصريين ونفوسهم منذ اواخر عهد اسماعيل حيث امتزج مطلب الاستقلال الوطنى بمطلب البناء الديمقراطى . يضاف الى ذلك أن ثورة ١٩١٩ استطاعت ان تحمل بريطانيا على الاعتراف بتصريح فبراير ١٩٢١ الذى يرى أن الحماية البريطانية اصبحت علاقة غير مرضية واعترف بمصر دولة ملكية مستقلة ذات سيادة ، وذلك يعتبر فى حد ذاته مكسبا دوليا لمصر خصوصا وأن بريطانيا قد ابلغت دول العالم بالغاء حمايتها على مصر [١٨] ، يضاف الى ذلك ان هذه الثورة نجحت فى بسط سلطان الحكومة المصرية على الأجانب فى التشريع والادارة والأمن .

٢ — فى الناحية الاقتصادية :

نجحت ثورة ١٩١٩ فى زعزعة الخرافة القائلة بأن الاقتصاد الزراعى هو النوع الوحيد الذى يلائم مصر [١٩] كما وضعت حدا للحكم المطلق الذى كان يمارسه كبار الملاك تحت اشراف السلطات الاستعمارية ، والتى كانت قد اهملت النواحى الاقتصادية اهمالا واضحا ، فقد رافق الكفاح السياسى للثورة رغبة ملحة فى اقامة نظام اقتصادى لا يرتبط كل الارتباط بالمصالح الاجنبية ، وقد مهد الطريق لذلك دعوة طلعت حرب الى تاسيس بنك مصر فى عام ١٩٢٠ [٢٠] والذى كان النواة لنهضة اقتصادية ومالية فى مصر

بعد الحرب العالمية الأولى ، فقد كان اول بنك اسمه واداره مصريون ، وكان رأس ماله مصريا خالصا وقد استقبل البنك بحماسة بالغة ، وسرعان ما كسب ثقة الطبقة الوسطى وتعضيدها .

ومنذ أن انشىء هذا البنك عنى بالمشاركة الجدية فى التجارة والصناعة، فانشأ شركات للمواصلات والتأمين والتجارة وعددا من المؤسسات الصناعية واهمها مصانع الغزل والنسيج (٢١) .

٣ — فى الناحية الاجتماعية :

اغفل رجالات الثورة حركة التغيير الاجتماعى ، خصوصا وانهم كانوا من طبقة كبار الملاك (الارستقراطية الزراعية) التى كان من الممكن ان تؤثر نتائج الثورة على مصالحهم ومن هنا وقفوا ضد تحويل الثورة من ثــورة سياسية الى ثورة اجتماعية ومع ذلك فقد نشطت الحركة العمالية خــلال الثورة ، حيث طالب العمال بترقية شئونهم وتحسين أحوالهم مما اضطر الحكومة الى تأليف لجنة للتوفيق بين العمال واصحاب العمل كما استجابت المراة المصرية للشعور الوطنى فنزلت الى ميدان النضال السياسى لاول مرة فى تاريخها .

٤ — فى الناحية المعنوية :

كان لثورة ١٩١٩ أثر كبير من الناحية المعنوية حيث سادت بين الشباب روح التضحية والفداء والتمسك بالقيم الاجتماعية بين ابناء الشعب (٢٢) فى حين دب فى نفوس الانجليز روح التململ ، وادركوا ان الشعب المصرى أصبح لا يقبل الذل ، وانه ثورته ما هى الا عملية جراحية لجأ اليهــا بعد أن سدت فى وجهه كل السبل المتاحة واستطاع تحطيم المعوقات وشــق طريقه الى الحياة السليمة ومما سبق يتضح مدى ما جناه الشعب المصرى من ثورة ١٩١٩ فى النواحى السياسية والحضارية والاقتصادية .

رابعا : تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ :

(ا) فكرة اصدار التصريح :

عــرض عــدلى باشـــا فى مفاوضاته مـــع اللورد كيرزون فــكرة التصريح وخلاصتها هى أنه طالما أن بريطانيا قد أعلنت أن علاقتها مع مصر

عن طريق الحماية اصبحت علاقة غير مرضية ، وانها مستعدة للتسليم ببعض مطالب مصر فلماذا لا يقوم الانجليز بالتسليم بهذه المطالب حتى يهدأ المصريون وتتوقف ثورتهم (٢٣) .

وبعد عدة مشاورات اصدرت بريطانيا هذا التصريح وقد جاء فيه : « بما ان حكومة جلالة الملك ، وعملا بنواياهــا التى جاهــدت بهــا ، ترغب فى الحال فى الاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة ، وبما ان للعلاقات بين حكومة جلالة الملك ، ومصر اهمية جوهرية للامبراطورية فبموجب هذا تعلن المبادىء الآتية .

١ ــ انتهاء الحماية البريطانية على مصر وتصبح مصر دولة مستقلة ذات سيادة .

٢ ــ حالما تصدر حكومة عظمة السلطان قانون تضمينات (اقــرار الاجراءات التى اتخذت باسم السلطة العسكرية) نافذ الفعل على جميع ساكنى مصر تلغى الاحكام العرفية التى اعلنت فى الثانى من نوفمبر ١٩١٤

٣ ــ الى ان يحين الوقت الذى يتسنى فيه ابرام اتفاقات بين حكومة جلالة الملك وبين الحكومة المصرية فيما يتعلق بالأمور الآتى بيانهــا وذلك بمفاوضات ودية غير مقيدة بين الفريقين ، تحتفظ حكومة جلالة الملك بصورة مطلقة بتولى هذه الأمور وهى :

١ ــ تأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية فى مصر .

٢ ــ الدفاع عن مصر ضد كل اعتداء او تدخل اجنبى بالــذات أو بالواســطة .

٣ ــ حماية المصالح الأجنبية وحماية الأقليات .

٤ ــ الســودان .

وحتى تبرم هذه الاتفاقات تبقى الحالة على ماهى عليه (٢٤) .

وعند تحليلنا لهذه البنود الاربعة ، نجد ان مصر تحولت من الحماية البريطانية العلنية عليها الى الحماية المقنعة فالتحفظ الاول يجعل لبريطانيا حق التواجد العسكرى فى مصر بصفة مستمرة بحجة تامين المواصلات البريطانية والتحفظ الثانى يجعل لبريطانيا اليد الطولى على مصر عسكريا بحجة الدفاع عنها .

والتحفظ الثالث يعطى لبريطانيا فرصة التدخل المستمر فى شؤون مصر الداخلية بحجة حماية المصالح الأجنبية والاقليات اما التحفظ الرابع فمعناه فصل السودان عن مصر وسيطرة بريطانيا على مقاليد الأمور فيه مما أدى الى ردود فعل لدى بعض الضباط السودانيين تمثلت فى قيام الملازم اول على عبد اللطيف باعلان حركة المقاومة ضد بريطانيا [٣٥] كما أدى ايضا الى ردود فعل لدى المصريين تمثلت فى مطالبتهم باستقلال مصر والسودان استقلالا غير مقيد بحماية أو وصاية .

(ب) اسباب صدور التصريح :

١ ــ كان لرد الفعل القوى عند الشعب المصرى اثر اعتقال سعد زغلول وصحبه ، اكبر الأثر فى مراجعة بريطانيا لسياستها تجاه مصر ، فرأت أن العقل والمنطق يفرضان عليها تهدئة الموقف والعمل على ايقاف الثورة والحد من المظاهرات العارمة ضدها ، وذلك لحماية مصالحها ومصالح الأجانب فى مصر [٣٦] .

٢ ــ بعد ان قدم عدلى باشا استقالته اثر عودته من بريطانيا بعد مفاوضاته مع « اللورد كيرزون » رفض المستوزرون قبول تاليف اى وزارة جديدة تضامنا مع الشعب المصرى ، واحتجاجا على اعتقال سعد وصحبه مما احرج مركز السلطات البريطانية فى مصر [٣٧] واضطر الجنرال اللنبى المندوب السامى البريطانى فى مصر الى ان يصدر قرارا فى ٢٨ ديسمبر يخول وكلاء الوزارات الانجليز سلطة الوزراء ، حتى يتم تاليف الوزارة .

٣ ــ فشل سياسة البطش والارهاب التى انتهجتها بريطانيا فى مصر، وتصميم الشعب المصرى على استقلال بلاده [٣٨] مما دفع الساسة الانجليز الى الشعور بعدم جدوى القوة امام شعب يضحى بدمائه ولا يهاب الموت

٤ — ربط تصريح فبراير بالمحافظة على مصالح بريطانيا فى مصر جعل الانجليز لا يشعرون باى ضرر على مصالحهم اذا اعلنوا هذا التصريح [٢٩] .

(جـ) صدى صدور التصريح :

تنبه افراد الشعب المصرى لما ترمى اليه بريطانيا من وراء هذا التصريح الذى لم ينه الحماية ، نتيجة للتحفظات الاربعة التى تضمنته وقد عبر عن ذلك الأستاذ عباس العقاد بقوله انه التصريح المنسوب الى هذا التاريخ (فبراير) لأن أحدا لم يستطع ان يسميه تصريح الغاء الحماية او تصريح الاستقلال أو ما الى ذلك من الصفات ، لا فرق فى ذلك بين انصاره المرحبين به ، وخصومه المعترضين عليه [٣٠] .

وعلى الرغم من المعارضة الشديدة التى لاحقت هذا التصريح فان الحكومة المصرية اخذت فى تنفيذه .

(د) نتائج اصدار التصريح :

فى الحقيقة ان اصدار هذا التصريح على الرغم مما فيه من قيود كان خطوة فى سبيل استقلال مصر ، خصوصا وان المصريين لم يستطيعوا قبل ذلك استخلاص اى اعتراف من بريطانيا بانهاء الحماية ، كما انه اتاح لهم فرصة الحصول على قدر اكبر من ادارة حكم بلادهم بانفسهم وتولى العديد من أمورهم فبعد اعلان التصريح قام « عبد الخالق ثروت » بتاليف وزارة جديدة [٣١] شملت بين اجنحتها وزارة للخارجية التى كانت قد الغيت فى ظل الحماية ، وتولى ادارة شؤونها رئيس الوزراء بنفسه [٣٢] وبذلك تحقق لمصر ادارة شؤون كيانها الخارجى وتمثيلها السياسى والقنصلى ومن نتائج التصريح كذلك تحول مصر من سلطنة الى ملكية واعلان السلطان فؤاد ملكا على مصر فى الخامس عشر من مارس ١٩٢٢ [٣٣] والاعتراف بمصر كدولة مستقلة .

يضاف الى ذلك ان من أهم النتائج التى تمخضت عن تصريح فبراير ، كان اعلان الدستور ، فقام رئيس الوزراء بتاليف لجنة فى الثالث عشر من

ابريل ١٩٢٢ لوضع مسودة الدستور ، ولما اتمت هذه اللجنة مهمتها تدمت مشروع الدستور الى ثروت باشا فى الثانى والعشرين من اكتوبر ١٩٢٢ ، ولكن الملك فؤاد اعترض على بعض بنوده فى محاولة لممارسة سلطته على حساب سيادة الشعب[٣٤] ، كما حاول الانجليز تعديل بعض نصوصه مما ادى فى النهاية الى استقالة وزارة ثروت ، وتولية محمد توفيق نسيم رئاسة الوزارة وقد حاولت هذه الوزارة ارضاء رغبات الملك فى تعديل الدستور بحيث يخوله تعيين الشيوخ والحكام واعطاء النياشين واصدار المراسيم التى يكون لها قوة القانون وأن تكون للملك السلطة المطلقة على المعاهد التعليمية والدينية والأوقاف وغيرها ، ولكنها استقالت قبل أن تكمل مهمتها وتولت وزارة « يحيى باشا ابراهيم » مهمة مسخ الدستور ، وانتهى الأمر فى ١٩ من ابريل ١٩٢٣ بصدور الأمر الملكى باعلان الدستور الذى نص على أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، واقر نظامها الملكى الوراثى كما جعل الدستور الأمة هى المصدر الأساسى لجميع السلطات ، كما اقر الدستور مبدأ المساواة فى الحقوق والواجبات بين المصريين أمام القانون ، واعطاهم الحرية المطلقة فى الاعتقاد ، وحرية ابداء الراى أمام الجميع [٣٥] وتناول الدستور البرلمان الذى اصبح يتكون من مجلسين أحدهما للشيوخ والآخر للنواب ومدة العضوية فيهما .

ونتيجة لذلك استبشر الناس بهذا الدستور خيرا واعتبروه فاتحة خير على مصر والمصريين ، وكان اول عمل أجرى بعد صدور الدستور هو اجراء الانتخابات العامة التى فاز فيها الوفد باغلبية ساحقة .

خامسا : المفاوضات المصرية البريطانية فى اعقاب تصريح فبراير ١٩٢٢ :

نتيجة لضغط الحركة الوطنية واصرار المصريين على الافراج عن سعد رأت بريطانيا انه ليس من الحكمة ابقاء سعد زغلول وصحبه فى المنفى فأصدرت قرارها بالافراج عنه فى ٢٧ مارس ١٩٢٣ بحجة سوء احواله الصحية [٣٦] ونتيجة لذلك غادر سعد منفاه الى اوربا ثم عاد الى مصر فى سبتمبر ١٩٢٣ حيث دخل معركة الانتخابات التى أسفرت عن فوز حزب الوفد بأغلبية ساحقة ، وبعدها قام سعد زغلول بتأليف الوزارة فى ٢٨ يناير ١٩٢٤ واعلن عن استعداد حكومته للدخول فى مفاوضات مع الحكومة البريطانية .

مفاوضات سعد مع ماكدونالد :

وعلى اثر ذلك بدأت مفاوضات سعد زغلول رئيس الوزراء المصرى مع ماكدونالد رئيس وزراء بريطانيا [٣٧] حيث سافر سعد الى لندن على رأس وفد مكون من مصطفى النحاس باشا وزير المواصلات ، ومحمـود فخرى باشا وزير مصر المفوض فى باريس وبعض النواب وعلى الرغم من ارتياح سعد زغلول لتفاوضه مع مكدونالد وسعادته لفوز حزب العمال فى بريطانيا فقد كان هناك تباعد كبير بين أهدافهما ففى حين كان سعد ينشد تحقيق الاستقلال لمصر ، كان مكدونالد يسعى لتثبيت أقدام بريطانيا فى مصر .

وعلى كل حال فقد اجريت المفاوضات بين الجانبين لمدة ثلاثة ايـام قدم سعد زغلول خلالها مطالب مصر الأساسية وهى :

١ — أن تقوم بريطانيا بسحب جميع قواتها من الأراضى المصرية ، كما تقوم بسحب المستشارين المالى والقضائى اللذان كانا موضع تذمر المصريين

٢ — زوال اى سيطرة انجليزية على علاقات مصر الخارجية بالدول الأخـرى .

٣ — تخلى بريطانيا عن دعواها فى احقيتها لحماية الأجانب والاقليات فى مصر ، ودعواها فى الاشتراك لحماية قناة السويس .

٤ — ضرورة اعتراف بريطانيا بحق مصر فى السودان وبانه جزء متمم لمصر [٣٨] .

ونتيجة لتمسك سعد بمطالبه فشلت المفاوضات بين الجانبين وعاد سعد الى مصر فى اكتوبر ١٩٢٤ وخلال ذلك استغلت بريطانيا حادث اغتيال السير « لى ستاك » سردار الجيش المصرى وحاكم السودان فى نوفمبـر ١٩٢٤ فى زعزعة الأوضاع فى مصر والانتقاص من حقوقها واجبـار وزارة سعد على التخلى عن الحكم ، فحملت بريطانيا وزارة سعد مسئولية الحادث، وطالبتها بدفع تعويض يبلغ نصف مليون جنيه تعطى لامراة السردار على سبيل التعويض [٣٩] وسحب القوات المصرية من السودان ، ومع ان حكومة

سعد اعتذرت عن الحادث واعربت عن استعدادها لدفع التعويض المطلوب، فقد عمل الانجليز على اسقاط حكومة سعد فسارت القوات البريطانية فى شوارع القاهرة واحتل الجنود الانجليز مبانى الجمارك ، مما اضطر الحكومة الى الاستقالة فى نوفمبر ١٩٢٤ وادى الى تعطيل مجلس النواب .

مفاوضات ثروت — تشمبرلين :

بعد استقالة وزارة سعد زغلول تألفت وزارة برئاسة زيور باشا وتم حل البرلمان وفى عهد هذه الوزارة استقال اللورد اللنبى وحل محله "اللورد جورجلويد" وكان موقف هذه الوزارة المتخاذل امام بريطانيا سببا فى اسقاطها فى السابع من يونيو من عام ١٩٢٦ (٤٠) ، فشكلت وزارة برئاسة عدلى باشا يكن كان اعضاؤها من حزبى الوفد والأحرار الدستوريين ، ولم تكن هذه الوزارة احسن حالا من سابقتها فقدم عدلى استقالته فى التاسع من ابريل عام ١٩٢٧ وعهد الى ثروت باشا بتأليف وزارة جديدة . وفى عهد وزارة ثروت استؤنفت المفاوضات مع الحكومة البريطانية ، ولم يكن الجانب المصرى فى هذه المرة كسابقتها من حيث الاصرار على استخلاص حقوق مصر من بريطانيا بل كان على النقيض تماما ، فقد تساهل ثروت فى تفاوضه مع الانجليز وكانت بريطانيا هى المستفيدة الاولى والاخيرة حيث ركزت المفاوضات على الصداقة بين الجانبين (٤١) ووقوف بريطانيا بجانب مصر فى حالة تعرضها لأى اعتداء (٤٢) وأن يقوم الانجليز بتدريب الجيش المصرى كما طلبت بريطانيا ابقاء قوة عسكرية لها فى مصر ، بحجة حماية مصالحها ومواصلاتها فى الاراضى المصرية (٤٣) ، وتفضيل الموظفين البريطانيين على غيرهم فى الدوائر الحكومية المصرية هذا الى جانب مطالبة بريطانيا بتعيين مستشار مالى وآخر قضائى فى مصر حتى تحكم قبضتها على المالية المصرية والقضاء ، وان يتقدم سفيرها فى مصر سائر سفراء الدول الأخرى هذا عن مصر . اما عن السودان فقد خلت المعاهدة من اى نصوص خاصة به .

وعند تحليلنا لنصوص المعاهدة يتضح لنا انها امليت من طرف واحد وهو بريطانيا لأن معظم ما جاء فيها يخص بريطانيا ، ويتعلق بمصالحها ، ونتيجة لذلك فقد أخفى ثروت باشا بنود المعاهدة بعد عودته لمصر لفترة

بحجة انه لا يزال يراسل « تشمبرلين » ، ولما افصح عنها فى ٤ مارس ١٩٢٨ م وجد معارضة شديدة ضدها من مجلس الوزراء كما اعتبرتها جماهير الشعب المصرى امتهانا لحقوق مصر واستقلالها ونتيجة لذلك قدم ثروت استقالته وخلفه مصطفى النحاس فى ١٧ مارس ١٩٢٨ ولكن وزارته لم تستمر طويلا حيث امر الملك باقالتها فى ٢٥ يونيو ١٩٢٨ وعهد الى محمود محمود باشا بتاليف وزارة جديدة (٤٤) .

مفاوضات محمد محمود — هندرسن :

بعد ان كلف محمد محمود بتشكيل الوزارة اسفرت الانتخابات فى بريطانيا عن فوز حزب العمال برئاسة الحكومة فالف المستر مكدونالد الوزارة ، وعين فيها ارثر هندرسن وزيرا للخارجية ، وكان أول اجراء قامت به وزارة مكدونالد هو اقالتها للورد جورج لويد من منصبه كمندوب سامى فى مصر ، والاعلان عن رغبتها فى تسوية المسألة المصرية واستعدادها للتفاوض مع الحكومة المصرية ، ونتيجة لذلك سافر محمد محمود الى انجلترا، واجتمع بالمستر هندرسن الذى طالبه بتحديد ما تريده الأمة المصرية (٤٥) ، فاوضح له محمد محمود ان مصر ترغب فى الاستقلال غير المقيد بشروط بحيث يكون لها حق السيادة عن اراضيها داخليا وخارجيا ، كما طالب بعودة مجموعات من الجيش المصرى الى السودان كما كان فى عام ١٩٢٤ (٤٦) وبعد مشاورات ومداولات اتفق على أن تقوم وزارة الخارجية البريطانية باعداد مشروع يتضمن جملة ما اتفق عليه الفريقان من مباحثات ، وقد تسلم محمد محمود المشروع البريطانى فى ٥ يوليو ١٩٢٩ والذى تضمن الموافقة على بعض المطالب المصرية التى طالما فاوضت بريطانيا من اجلها والتى من اهمها انهاء الاحتلال العسكرى لمصر بواسطة القوات البريطانية وان كان قد ربط ذلك باهمية عقد معاهدة صداقة بين الطرفين تساعد على تنمية التفاهم الودى وحسن العلاقات والمشاركة فى رد اى اعتداء يقع على الدولة الاخرى ، بحيث اذا دخلت بريطانيا فى حرب يسمح لها باستخدام موانى مصر واراضيها . واحتوى المشروع على امكانية انضمام مصر فى عصبة الأمم ، وحق مصر فى تسيير أمور الأجانب الذين يعيشون بها وتطبيق التشريع المصرى عليهم (٤٧) .

يضاف الى ذلك أن بريطانيا تمسكت بان يتم تدريب الجيش المصرى بواسطة ضباطها كما أنها تمسكت بحقها فى حماية قناة السويس ، وبتبعية السودان لها ، هذا بالاضافة الى احقية رعاياها فى مصر فى الوظائف الأجنبية، وان يكون لسفيرها منزلة رفيعة على باقى السفراء . كما اتفق على انـــه ينتضى العمل بهذه المعاهدة . مدة خمس وعشرين عاما .

وعلى الرغم من الميزات التى حصلت عليها مصر فى هذه المعاهدة ، واعلان محمد محمود انه سيجرى انتخـــابات يعرض فيهـــا المشروع على الأمة[٤٨] . فان الصحف الوفدية أحدثت ضجة شديدة ضد المشروع، وطالبت محمد محمود بالاستقالة ، فما كان منه الا أن قدمها فى ٢ اكتوبر ١٩٢٩ وقبلها الملك وعهد الى عدلى يكن بتأليف الوزارة واجراء انتخابات عامة اسفرت عن فوز ساحق للوفد أدى الى قيام حكومة عدلى بتقديم استقالتها، فعهد الملك الى مصطفى النحاس باشا بتاليف الوزارة فى الأول من ينايـــر ١٩٣٠ باعتباره زعيم الأغلبية ، فتألفت الوزارة الثانية للنحاس لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل الصراع مع بريطانيا من أجل الاستقلال .

مفاوضات النحاس ــ هندرسن :

فى السادس من يناير ١٩٣٠ فوض مجلسا الشيوخ والنواب وزارة النحاس بفتح باب المفاوضات مع بريطانيا للوصول الى اتفاق يوثق عرى الصداقة بين البلدين [٤٩] وقد وصل الوفد الى لندن فى ٢٠ من مارس ١٩٣٠م وجرت المفاوضــــات فى ٣١ من مارس واستمرت الى يوم الثامن من مايو ١٩٣٠ [٥٠] وانتهت بالاخفاق وعدم التوصل الى حل مقبول يرضى الطرفين لتمسك بريطانيا بالسودان . وعاد الوفد الى مصر ليجد الأحـــزاب قـــد استغلت فشله ، وتعمل على اسقاطه ، وانتهى الأمر بتقديم مصـــطفى النحاس لاستقالته فى ٧ من يونيو ١٩٣٠ م .

وهكذا يتضح أن مفاوضات النحاس مع الانجليز اصطدمت بعقبـــة رئيسة وهى السودان مثلها كمثل المفاوضات التى سبقتها ، وفى أعقاب هذه الفترة بدات الاحوال فى أوربا فى التغير ، خصوصا بعد ظهور هتلر وتربعه

على قمة الحكم فى المانيا ، واحكام موسولينى لقبضته على ايطاليـــا ، مما جعل بريطانيا تراجع حساباتها وترى انه من الصـــواب فتــح باب المفاوضات مع المصريين فى محاولة لكسب ودهم وتهدئة ثورتهم [٥١] .

سادسا : مصر فى عهد حكومة صدقى :

فى اعقاب استقالة وزارة النحاس قام اسماعيل صدقى بتاليف الوزارة فى ١٩ يونيو ١٩٣٠ ، وفى عهد هذه الوزارة بدات مصر مرحلة جديدة من مراحل الصراع الداخلى الا وهو مرحلة الدستور خصوصا وان صـــدقى باشا قام بالغاء دستور ١٩٢٣ واخذ البلاد بالشدة والبطش .

وازاء هذه التطورات اســـتطاع الشعب المصرى ان يثبت حيويتـــه وقدرته على مقاومة هذه الوزارة التى جاءت ضد ارادته [٥٢] فقامت الثورات، وحدثت المصادمات وكانت انجلترا هى المستفيد الـــوحيد من ذلك ، حيث رات فى هذا الصراع شاغلا للشعب المصرى عن مطالبتها بالاستقلال وخلال ذلك اعلن صدقى باشا فى ٢٢ اكتوبر ١٩٣٠ عن الغاء دستور ١٩٢٣ وحل مجلس النواب والشيوخ واعلان دستور ١٩٣٠ وقد جاء الدستور الجديد فى اغلب بنوده كمنحة من الملك للشعب فى حين كان دستور ١٩٢٣ كتعاقد بين الملك والأمة .

وقد حرم الدستور الجديد مجلس النواب والشـــيوخ من اقتـــراح القوانين المالية وجعل هذا الحق للملك واعطى للملك الحق فى اهمال اى قانون يقره البرلمان كما اعطى للملك حق تعيين شيخ الأزهـــر وغيره من الرؤساء الدينيين كما اعطاه الحق فى دعوة البرلمان للانعقاد فى اى وقت يشـــاء فما كان من المعارضة الا ان وقفت بالمرصاد ضد هذا الدستور ، وضد حزب الشعب الذى الفه صدقى وزاد رجال صدقى فى تعسفهم ضد الاهالى ، وشددوا على العمد والمشايخ الذين رفضوا العمل بقانون الانتخاب وظل صدقى يحكم البلاد حكما استبداديا لمدة ثلاث سنوات اضطر فى نهايتها الى تقديم استقالته فى ٢٧ سبتمبر ١٩٣٣ ، وجاءت على اثر ذلك وزارة عبد الفتاح يحيى فلم تكن بأحسن حالا من سابقتها [٥٣] وقد استغل الانجليز ضعف هذه الوزارة فى فرض هيمنتهم على مصر ، ونتيجة لذلك قدم يحى

باشا لستقالة وزارته فى ٢ نوفمبر ١٩٣٤ فقام الملك بتكليف محمد توفيق نسيم بتاليف وزارة جديدة ، ولما كانت هذه الوزارة تدرك تماما الأحوال السيئة التى خلفتها الوزارتان السابقتان فقد عملت على الغاء دستور ١٩٣٠ [٥٤] واعادة الحياة الدستورية ، وخلال ذلك بدأ المصريون يعدون العدة للتفرغ للكفاح ضد الانجليز وانتهى الأمر بتوقيع معاهدة ١٩٣٦ .

سابعا : معاهدة ١٩٣٦ والمفاوضات المصرية البريطانية :

جرت المفاوضات فى شأن هذه المعاهدة فى أواخر عهد الملك فؤاد بين المندوب السامى البريطانى اللورد كيلرن ومعاونيه ، وهيئة التفاوض المصرية برئاسة مصطفى النحاس والمؤلفة من ممثلى الأحزاب السياسية عدا الحزب الوطنى الذى لم يقبل الاشتراك فى المفاوضات لمخالفتها لسياسته « لا مفاوضة الا بعد الجلاء » .

وقد بدأت المفاوضات رسميا بقصر الزعفران بالقاهرة فى الثانى من مارس ١٩٣٦ ثم انتقلت الى قصر «انطونيادس» بالاسكندرية وانتهى الأمر بتوقيعها فى قاعة « لوكارنو » التاريخية بوزارة الخارجية البريطانية فى ٢٦ اغسطس ١٩٣٦ [٥٥] .

وكان الهدف من عقد هذه المعاهدة بالنسبة للجانب البريطانى هو اعطاء بريطانيا الصفة الشرعية لوضعها فى مصر التى كانت تفتقدها منذ احتلالها لها فى عام ١٨٨٢ ، وضمان مصالحها فى المستقبل .

اما بالنسبة للجانب المصرى فقد كان يتطلع الى الحصول على الاستقلال الكامل ، وقد صيغت المعاهدة بشكل ارضى طموحات كل من الطرفين والذى يمكن تلخيصه فى جملة واحدة هى ان الاستقلال التام لا يتعارض مع الحقوق البريطانية فى مصر . فقد اضطر الجانب المصرى الى تقديم العديد من التنازلات بشأن مركز القوات البريطانية فى منطقة القنال ووضع موانىء ومطارات مصر تحت تصرف بريطانيا عند الحرب فى مقابل انسحاب بريطانيا من المدن المصرية الكبرى . مثل القاهرة والاسكندرية ، فقد اوضحت المادة الأولى من المعاهدة أن مصر غير محتلة ، عسكريا بواسطة القوات البريطانية على حين اعطت المادة الثامنة لبريطانيا حق تواجد قواتها

فى قناة السويس بهدف الدفاع عنها وتم تحديد هذه القوات بعشرة آلاف جندى فى وقت السلم .

يضاف الى ذلك انه على الرغم من ان المادة الثامنة من المعاهـــدة تنص على ان قناة السويس جزء لا يتجزأ من مصر فانها ذكرت ان القنـــاة طريق اساسى لمواصلات الامبراطورية البريطانية ويجب ان تتعاون القوات البريطانية مع القوات المصرية لضمان الدفاع عنها على الا يكون لهذه القوات صفة الاحتلال (٥٦) ، وان يستمر الوضع على ذلك حتى يكون لدى الجيش المصرى القدرة على الدفاع عن القنال بمفرده ، وخلال ذلك تتعهد مصـــر ببناء مستوطنات القوات البريطانية فى منطقة القنال هذا الى جـــانب أن المعاهدة ربطت مصر بتحالف ابدى مع بريطانيا وفيما عدا ذلك فقد اقرت المعاهدة بحق مصر فى حماية الأجانب المقيمين بها ونصت على الغاء الامتيازات الاجنبية (٥٧) .

وفيما يتعلق بالسودان فقد اصبح السودان بموجب معاهدة ١٩٣٦ بمثابة مستعمرة انجليزية تحرسها جنود مصرية تحت امرة الحاكم العـــام البريطانى ففى المادة الحادية عشرة اتفق الطرفان المتعاقدان على ان ادارة السودان تستمر مستمدة من اتفاقيتى ١٩ يناير ، و١٠ يوليو ١٨٩٩ اللتين انتزعتا السودان من مصر أن تكون السلطة العسكرية والمدنية فى يد الحاكم العام البريطانى .

اما عن عملية الدخول فى مفاوضات فيما بعد بشأن الرغبة فى تعديل بنود المعاهدة فقد اتفق الطرفان فى المادة السادسة عشرة على ان يـــدخل الطرفان المتعاقدان فى مفاوضات بناء على طلب اى منهما بعد عشرين عاما من تنفيذ هذه المعاهدة .

ومما سبق ان ثورة ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول وما اعقبها من تفاعلات

قد وصل بالبلاد الى نتائج سياسية تمثلت فى تصريح ٢٨ نوفمبر بتحفظاته الأربعة ، ووضع دستور ١٩٢٣ .

ومع أن حزب الوفد كان اكثر الاحزاب جماهيرية فانه تعرض لانقسامات حادة ادت الى تفسخ وحدته فخرجت منه المجموعة التى شكلت الاحـــرار الدستوريين ، وخرجت منه المجموعة التى شكلت الحزب السعدى ، كما خرجت منه فى النهاية المجموعة التى شكلت الكتلة الوفدية ، وبلغ به الارهاق الى الحد الذى دفعه الى توقيع معاهدة ١٩٣٦ .

مراجـــع الفصـــل الســادس

(١) انظر خمسون عاما على ثورة ١٩١٩ ص ٤٣ .

(٢) نجلاء عز الدين : العالم العربى — ترجمة محمد عوض ابراهيم وآخرون — القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٢ ، ص ١٥٠ .

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية — ترجمة امين فارس ومنير البعلبكى — بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثامنة ، ١٩٧٩ ، ص ٧٢٣ .

(٤) عباس العقاد : سعد زغلول سيرة وتحية ، بيروت ، دار الشروق د.ت ص ٢٠٥ .

(٥) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية جـ ١ ، القاهرة النهضة المصرية ، ١٩٥١ ، ص ٨٤ .

(٧) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ جـ ١ القاهرة ، النهضة المصرية الطبعة الأولى ، ١٣٦٥ — ١٩٤٦ م ، ص ١٢٦ .

(٧) خمسون عاما على ثورة ١٩١٩ ، ص ١٨٩ .

(٨) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٢٧ — ١٢٨ .

(٩) نجلاء عز الدين : المرجع السابق ، ص ١٥٢ .

(١٠) هى ممرضة ايرلندية اسرها الانجليز وقتلوها رميا بالرصـــاص فهاجت لذلك دول العالم واعتبروا ما حدث وحشية ، وسلكوها فى عـــداد الشهداء .

(١١) مقال لمصطفى امين تحت عنوان « عندما خرجت المراة المصرية الى الشارع » .

(١٢) غربال : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٦٥ .

(١٣) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٠٦ .

(١٤) العقاد : المرجع السابق ، ص ٣١٣ .

(١٥) هيكل : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١١٧ .

(١٦) غربال : المرجع السابق ، جـ ١ ص ٩٠ — ٩١ .

(١٧) توفيق الحكيم : شجرة الحكم السياسى فى مصر ١٩١٩ — ١٩٧٩م القاهرة ، مكتبة الآداب ، ص ٣٨٧ .

(١٨) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٨٣ — ١٨٤ .

(١٩) نجلاء عز الدين : المرجع السابق ، ص ١٩٢ .

(٢٠) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٩٥ .

(٢١) نجلاء عز الدين : المرجع السابق ، ص ١٩٢ .

(٢٢) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٧٣ .

(٢٣) محمد حسين هيكل : المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

(٢٤) راشد البراوى : مجموعة الوثائق السياسية جـ ١ ، القاهرة النهضة المصرية ، الطبعة الاولى ، ١٩٥١ ، ص ١٢٨ .

(٢٥) عبد الرحمن الرافعى : فى اعقاب الثورة ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٤٦ ص ١٦١ .

(٢٦) محمد حسين هيكل : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٢٧ .

(٢٧) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٣٩ .

(٢٨) هيكل : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٢٧ .

(٢٩) محمد عبد الرحمن برج : قناة السويس — اهميتها السياسية والاستراتيجية وتاثيرها على العلاقات المصرية البريطانية ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ، ١٣٨٨ هـ ، ص ٨١ .

(٣٠) عباس محمود العقاد : المرجع السابق ، ص ٤١٧ .

(٣١) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٣٩ .

(٣٢) هيكل : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٢٩ .

(٣٣) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٥٩ .

(٣٤) نجلاء عز الدين : المرجع السابق : ص ١٥٦ .

(٣٥) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١١٥ .

(٣٦) عباس محمود العقاد : المرجع السابق ، ص ٤٢٧ .

(٣٧) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٧٦ ، ومحمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ، جـ ١ ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٥٢ ، ص ١٤٩ .

(٣٨) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٧٩ .

(٣٩) مذكرات ابراهيم الهلباوى : ص ٢٢٦ .

(٤٠) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٦٣ .

(٤١) غربال : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٧٩ .

(٤٢) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٣ .

(٤٣) غربال : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٧٦ .

(٤٤) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٨ .

(٤٥) غربال : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢١٠ .

(٤٦) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١١١ .

(٤٧) البراوى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٣٦ .

(٤٨) غربال : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٢٢ .

(٤٩) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٠٤ .

(٥٠) غربال : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٢٤ .

(٥١) هيكل : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٦٧ .

(٥٢) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٩ .

(٥٣) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٨٢ .

(٥٤) غربال : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٧١ .

(٥٥) نشرت جريدة الأهرام نصوص هذه المعاهدة فى السادس من سبتمبر ١٩٣٦ .

والجدير بالذكر ان بريطانيا عقدت مع العراق وشرق الاردن معاهدات على نفس النمط الذى عقدت به معاهدة ١٩٣٦ واذا كانت هناك اختلافات فهى فى الشكل وليس فى المضمون .

(٥٧) عبد الوهاب بكر : الوجود البريطانى فى الجيش المصرى ، القاهرة دار المعارف ، ص ٢٠ .

(٥٧) فى عام ١٩٣٧ الغيت الامتيازات الاجنبية طبقا لاتفاقية مونترو .

الفصل السابع

مصر من الحرب العالمية الثانية الى ارهاصات ثورة ١٩٥٢

١ — مصر فى الحرب العالمية الثانية .

٢ — مصر وحرب ١٩٤٨ .

١ — مصر فى الحرب العالمية الثانية :

عند نشـــوب الحرب العالمية الثانية كانت مصر مكبلة بقيود معاهدة ١٩٣٦ التى تفرض عليها الاشتراك فى الحرب بجانب الانجليز ، ونتيجـــة لنصوص المعاهدة اعلن على ماهر رئيس الحكومة قطـــع علاقـــات مصر السياسية مع المانيا ، كما أعلن الأحكام العرفية ، ووافق على وضع الموانى المصرية تحت رقابة السلطة البحرية البريطانية ، وفرض الرقابة عـــلى البريد والبرق والصحف ، ولكن بريطانيا لم تكتف بتلك الاجراءات وطلبت من مصر دخول الحرب الى جانبها ولكن مصر رفضت القيام بهذا الـــدور وحاول ساستها تجنيب البلاد ويلات الحرب (٢) .

يضاف الى ذلك ان الملك فاروق حاول انتهاج سياسة حذرة تجاه المعسكرين المتحاربين فى الظـــاهر ، ومساندة النازية والفاشية فى الباطن .

وعلى الجانب الشعبى فقد كان لكل من النظامين الهتلرى والفاشستى معجبون فى مصر ويبدو ذلك واضحا من خلال امتداح اسماعيل صدقى لها علانية فى مجلس النواب فى ٢١ ديسمبر ١٩٣٨ ، كما بدات تنتشر بين افراد الشعب المصرى فكرة ان انتصار المانيا هو السبيل الاكيد لتحرير مصر من الانجليز .

وعلى الرغم من أن معاهدة ١٩٣٦ كانت تحتم على بريطانيا احترام رغبة المصريين فى تسيير امورهم فانها لم تغير من طريقة القهر السياسى الذى مارسته على مصر ، فقد استمرت سياسة الانجليز الخفية للتدخل فى شؤون مصر والعبث بالحياة الدستورية فيها مما ادى الى توتر العلاقات بينهم وبين رئيس الوزراء على ماهر الذى تسانده السراى خصوصا وانه رفض اعلان الحرب على ايطاليا بناء على طلب السفارة البريطانية واكتفى بقطع العلاقات معها وانتهى الأمر باستقالته وتكليف حسن صبرى وهـــو من المستقلين بتشكيل الحكومة الجديدة فى ٢٨ يونيو ١٩٤٠ وفى عهد حكومته رفضت مصر مرة اخرى اعلان الحرب على قوات المحور حتى لا يؤدى ذلك

الى قصف الايطاليين لمصر ونتيجة لوفاة حسن صبرى المفاجئة عهد الملك فاروق الى حسين سرى بتولى الوزارة فى الحادى والعشرين من نوفمبر ١٩٤٠ .

وقد تعرضت البلاد فى عهد هذه الوزارة لأزمات اقتصادية عديدة منها ازمة التموين وشح الغذاء الأساسى للشعب وقيام المظاهرات المنادية بسقوط بريطانيا والمرددة الى الامام ياروميل ، ونتيجة لانفلات زمام الامور قدمت وزارة سرى باشا استقالتها فى الثانى من فبراير ١٩٤٢ وتطلع الناس من كل صوب تجاه القصر لمعرفة من سيقع عليه اختيار الملك ليؤلف الوزارة الجديدة [٣] .

وفى الثالث من فبراير استدعى الملك رؤساء الاحزاب ورأى أن تكون الوزارة الجديدة ائتلافية تضم الاحزاب كلها قدر المستطاع ، ولكن النحاس باشا رفض الاشتراك فى هذه الوزارة ، وعندما علم مايلز لامبسون السفير البريطانى بذلك تدخل فى الأمر واخبر رئيس الديوان الملكى بضرورة تكليف النحاس زعيم الوفد بتأليف وزارة وفدية لأن الاوضاع العسكرية على الجبهة الغربية فى الصحراء لم تعد تحتمل ، وكان رد رئيس الديوان بأن المسألة مازالت تبحث بين الملك ورؤساء الأحزاب وفى الرابع من فبراير دعى رؤساء الاحزاب الى الاجتماع بقصر عابدين [٤] ولما علم الملك بمحاولة السفير البريطانى التدخل فى اختصاصاته الدستورية ومحاولة فرض حكومة برئاسة النحاس باشا عليه ورأى فى ذلك اعتداء صريحا على السيادة المصرية ولم يشأ تلبية رغبة السفير البريطانى ، مما دفع السفير الى ارسال انذار الى الملك جاء فيه « اذا لم اسمع قبل الساعة السادسة مساء ان النحاس باشا قد دعى لتأليف الوزارة فان جلالة الملك فاروق يجب أن يتحمل ما يترتب على ذلك من نتائج » .

ولما لم يكن القصر على استعداد للاستسلام ببساطة فقد قام الملك بدعوة رؤساء الأحزاب بما فيهم النحاس باشا لتبادل الرأى فى هذا الموقف ، ولما تشاور المجتمعون حاولوا احراج النحاس كى لا يقبل تشكيل الوزارة فى مثل هذه الظروف ثم اتفقوا على تأليف وزارة قوية برآسة النحاس ،

والاحتجاج على الانــذار الموجــه الى الملك ولكن النحاس رفض فكــرة الوزارة القومية ، وكان عاقبة ذلك الرفض ما تعرضت له البلاد من احداث .

ففى الساعة التاسعة من مســاء يوم ٤ فبــراير حاصرت القــوات البريطانية قصر عابدين بالدبابات واندفع بعض الجنود الانجليز الى القصر شاهرين مسدساتهم ودخل السير « مايلز لامبسون » وبصحبته الجنرال ستون رئيس البعثة البريطانية فى مصر ، الى باب القصر متوجها الى مكتب الملك حاملا ورقة بتنازل الملك عن العرش فانهار فاروق ، وكاد يوقع على التنازل لولا تدخل رئيس الديوان « احمد حسنين » الذى اظهر استعداد الملك لقبــول الانذار والرضــوخ للاوامر البريطانية ، وانتهى الأمر بتكليف النحاس بتشكيل الوزارة (٥) .

وعندئذ قال احمد ماهــر فى حضرة الملك ان النحاس باشا يتولى الحكم مستندا على اسنة رماح الانجليز ، وكان رد النحاس على ذلك « لست انا الذى يستند على اسنة الرماح » فقال له اسماعيل صدقى « اظن أن رفعتكم وصلتم الى هنا بعد انصراف الدبابات وحتى لا تزيد حدة النقاش الى مالا تحمد عقباه طلب الملك من المتحدثين السكوت ، وكرر أمره الى النحاس. وطلب اليه ان يذهب الى السفير البريطانى ويبلغه نبأ تكليفه تاليف الوزارة

وبعد ان اجتمع النحاس ببعض اعضاء حزبه اتفقــوا على ان يكتب النحاس الى السفير بسحب الانذار فاذا جاء الرد بسحبه شرع فى تشكيل الوزارة وقد قبل الانجليز هذا الحل خصوصا وانه لا يعدو ان يكون حــلا شكليا لا يحجب ما وقع فعلا من تدخل سافر فى شئون مصر ، ونتيجــة لذلك قام النحاس بتاليف وزارته .

وهكذا تدخل الانجليز فى شئون مصر بشكل مزرى واذلوا ملكها وكانوا جادين فى تهديدهم له خصوصا وانهم كانوا يعتقدون أنه وبعض رجالات القصر لهم صلات بالمحور مما جعل الملك يخشى على عرشه من الضياع .

وقد اختلف المؤرخون فى تفسير وقائع هذا الحادث وآثاره فمنهم من اعتبره نهاية للوفد كحزب وطنى يستطيع التعبير عن الراى العام المصرى ،

ونهاية للنحاس كزعيم شعبى ، ومنهم من راى فيه ردعا لسلطة القصر ، ومع كل ذلك فلا يستطيع احد ان ينكر ان ما حدث كان صدمة للمصريين جميعا الذين احسوا بالاهانة والاذلال لما حدث لمليكهم الذى يمثل قمة السلطة فى وطنهم .

وفى اعقاب ذلك تمكنت قوات روميل من اجتياز الحدود المصرية واحتلال السلوم ودخول قوات المحور المدرعة « سيدى برانى » ومحاصرتها للعلمين واقترابها من الاسكندرية بما لا يزيد على مائة كيلو متر ، واعلانها احترام وضمان استقلال وسيادة مصر ، وطرد الانجليز منها مما شجع خصوم بريطانيا فى مصر على اظهار دعايتهم لصالح قوات المحور ، ولكن الرياح لا تأتى دائما بما تشتهى السفن ، فقد استطاعت بريطانيا ان تعد لهجومها المضاد بدقة ، وكسبت فى النهاية معركة العلمين وابعدت خطر قوات المحور العسكرية عن مصر (٦) .

وقبل ان تنتهى الحرب كانت افرازاتها على المسرح المصرى واضحة ، فقد شهدت مصر العديد من القلاقل السياسية والعقائدية ، ففى شهر فبراير ١٩٤٥ شهد البرلمان المصرى مشهدا داميا حيث تقدم شاب يدعى محمود العيسوى من أحمد ماهر رئيس الوزراء المصرى واطلق عليه أربع رصاصات أردته قتيلا بحجة انه كان من الذين طالبوا بدخول مصر الحرب بجانب الحلفاء .

وهكذا تكلم الرصاص داخل ردهات البرلمان المصرى ، وارتفع الستار مخضبا بالدم ليعلن عن بداية مرحلة جديدة من مراحل النضال .

وفى اعقاب الحرب العالمية الثانية ، قدمت الحكومة المصرية برئاسة النقراشى باشا مذكرة الى الحكومة البريطانية فى ٢٠ ديسمبر ١٩٤٥ وضحت فيها أن معاهدة ١٩٣٦ وقعت تحت ضغط حوادث وظروف دولية زالت بانتهاء الحرب ، وظهور ميثاق الامم المتحدة وانها تريد الدخول فى مفاوضات لتعديل معاهدة ١٩٣٦ على ان تتناول المفاوضات مسألة السودان ، ونتيجة لذلك عقدت مفاوضات بين الطرفين تمسكت فيها بريطانيا ببقاء قواعدها

العسكرية فى مصر بينما اصر الجانب المصرى على ازالتها لما فيه من انتقاص لسيادة مصر على اراضيها .

ولما أصر الجانب البريطانى على ضرورة التحالف العسكرى بين مصر وبريطانيا فى زمن الحرب أو فى حالة التهديد به استقالت وزارة النقراشى لعدم قدرتها على مواجهة الموقف الداخلى ، وشكلت وزارة برئاسة صدقى باشا الذى سافر الى لندن فى عام ١٩٤٦ للتفاهم مع المستر بيفن حول ايجاد تسوية ودية ، ونتيجة لذلك اعدت المشروعات الأولية التى عرفت فيما بعد باسم « مشروع صدقى — بيفن » (٧) والتى نصت على جلاء القوات البريطانية عن مصر نهائيا فى سبتمبر ١٩٤٩ غير أن الاتفاق لم ينفذ بسبب اختلاف الراى بين الطرفين على وضع السودان وعلى الدفاع المشترك (٨)، وانتهى الأمر باخفاق المفاوضات وبسقوط حكومة صدقى وتاليف حكومة جديدة برئاسة النقراشى .

ونتيجة لفشل المفاوضات بين مصر وبريطانيا تقدم محمود حسن باشا السفير المصرى فى واشنطن بمذكرة الى الأمين العام فى منظمة الامم المتحدة فى ١١ يونية ١٩٤٧ يطالب فيها مجلس الامن الدولى باقرار جلاء القوات البريطانية عن مصر والسودان فى أسرع وقت ممكن ودون اى شرط ، وتمسكت مصر فى مطلبها بتطبيق احكام ميثاق الامم المتحدة ، كما أوضحت أن خلافها مع بريطانيا قد يؤدى الى تعريض السلم والأمن فى هذه المنطقة للخطر .

ولما بدأ مجلس الأمن فى دراسة القضية المصرية فى الخامس من أغسطس ١٩٤٧ استعرض النقراشى باشا قضية بلاده فى خطاب أوضح فيه مطالب مصر والمتمثلة فى الغاء معاهدة ١٩٣٦ وقد رد عليه مندوب بريطانيا بتمسك بلاده بالمعاهدة .

ولما اقترح المندوب البرازيلى استئناف المفاوضات المباشرة بين الدولتين ثقة منه أن بالامكان ايجاد طريقة مباشرة بينهما لحل القضية على أن تقدما الى مجلس الأمن نتائج ما توصلتا اليه ، اعرب النقراشى عن تشاؤمه من استئناف المفاوضات .

وقد أيد المندوب السوفيتي موقف مصر . وبعد مشاورات ومداولات، ونتيجة لاختلاف وجهات النظر اخفق مجلس الأمن فى اتخاذ قرار بشأن النزاع المصرى الانجليزى قام بتأجيل النظر فى القضية (٩) .

٢ — مصر وحرب ١٩٤٨ :

كان قرار مصر بدخول حرب فلسطين مفاجئا لكثير من رجالات العرب والمصريين فبعد ان اعلن محمود فهمى النقراشى رئيس الوزراء عن عدم استعداد مصر لدخول الحرب خصوصا وانه ليس من المنطقى ان تدفع مصر جيشها الى فلسطين فتكون القوات البريطانية المرابطة على قناة السويس حائلا بينه وبين ارض الوطن (١٠) . وبعد ان أعرب بعض كبار رجالات الجيش المصرى عن افتقار الجيش المصرى الى العتاد الذى يمكنه من دخول الحرب (١١) ، وبعد ان طلبت الحكومة المصرية من المركز العام للاخوان المسلمين فى القاهرة سحب متطوعيه من فلسطين (١٢) جمع النقراشى اعضاء مجلس الشيوخ والنواب واقنعهم بالموافقة على قرار الملك المرتجل بدخول الحرب بحجة مسايرة الراى العام ورفض وجود دولة صهيونية على حدود مصر .

والسؤال المطروح ما هى الدوافع والأسباب التى جعلت ملك مصر يغير موقفه فجأة من عدم الموافقة على دخول الحرب الى دخولها دون استعداد .

الواقع ان الملك وجد فى مسألة فلسطين ما يمكنه من استرداد بعض سمعته التى انهارت فى سنوات حكمه الاخيرة ، وان يدعم بدخول الحرب هيبته يضاف الى ذلك حرصه على أن يبنى لنفسه زعامة عربية يستطيع ان ينافس بها الأسرة الهاشمية المالكة فى العراق وشرق الأردن لدرجة انه كان يتردد ان الملك فاروق كان يتسابق مع الملك عبد الله فى ايهما يصلى الجمعة أولا فى المسجد الاقصى (١٣) .

وفى الرابع عشر من مايو ١٩٤٨ أصدر محمود فهمى النقراشى أوامره الى الجيش المصرى باجتياز الحدود وكان ذلك الأمر باسم الملك فاروق بوصفه القائد الأعلى للجيش ، وجاء فى البلاغ الرسمى الأول الذى اذاعته

الحكومة المصرية « ان عمليات فلسطين مجرد حملة لتـاديب العصـابات الصهيونية » [١٤] .

ولـم تكن القوات المصرية التى اعدت لهـذه المهمة تزيد عن مجموعة لواء مشاه [١٥] مدعم ببعض الوحدات المدرعة التى تم تجميعها فى منطقة العريش بطريقة سريعة دون ان يتاح لهـا التدريب المشترك تحت قيـادة موحدة [١٦] ، كما أن كميات الذخيرة التى كان يمتلكها الجيش المصرى كانت غير كافية ، ولا توجد خطط واضحة للعمليات الحربية المزمع القيام بها ، كما كانت المعلومات بالنسبة لطبيعة الأرض وقوات العدو ضئيلة لدرجـة جعلت رجالات الجيش المصرى يشعرون بالعجز وبان العملية ليست سوى حرب سياسية اكثر منها عسكرية [١٧] .

ومع ذلك قامت القوات المصرية بواجبها بحماس شديد وواصـلت اهدافها بنجاح فبعد أن أجتازت حدود فلسطين قامت بحصار العديد من المستعمرات اليهودية واحتلت العوجة والعسلوج ودخلت مدينة بئر السبع واستطاعت السيطرة على الطريق المـؤدى الى المسـتعمرات اليهـودية الجنوبية ، وقطعت الطريقين الرئيسيين الممتدين من الشمال الى النقب ولم يبق الا الطرق الفرعية [١٨] .

وخلال الحرب اقترح محمود فهمى النقراشى فى يوليو ١٩٤٨ ايجـاد حكومة فلسطينية تتولى عبء المسئولية وتنطق باسم فلسطين امام المجتمع الدولى [١٩] وتسعى لعرقلة اعتراف العالم بدولة يهودية فى منظمة الامم المتحدة ويترك لها أمر المفاوضة مع الهيئات الدولية وغيرها ونظرا لاعتراض الأردن على هذه الفكرة رأى مجلس الجامعة العربية الاكتفاء بتعيين مديرين لتولى أمر ادارة فلسطين ، وقد تم تعيين هؤلاء دون أن يمارسوا اى عمل حقيقى .

وبعد ثلاثة أيام من القتال بين الطرفين سارع الوفد الامريكى فى الامم المتحدة بتقديم مشروع قرار الى مجلس الامن بوقف القتال أملا فى انقـاذ اليهود من هزيمة محققة ونتيجة لضغوط دولية توقف القتال لمدة اربعـة اسابيع خرق اليهود اثناءها شروط الهدنة اكثر من مرة وجاءتهم النجدات ،

كما اعادوا تنظيم قواتهم وتعزيزها بالطائرات والدبابات على حين انصرف القادة المصريون الى اعداد التقارير الضافية عن المعارك الى ان فرضت الهدنة الأولى ، ووصف حماس الجنود الذين كانوا كلما اقتحموا مستعمرة يهتفون بحياة قائدهم الاعلى فاروق الأول [٣٠] .

وبعد أن استؤنف انقتال على الجبهة المصرية فوجئت مصر بانسحاب القوات الأردنية من اللد والرملة [٣١] ، واستيلاء الصهاينة عليها مما أدى الى انكشاف ميمنة الجيش المصرى وانفراد اليهود بمواجهته وانسحابه من المواقع التى كان يحتلها وفى مقدمتها بئر السبع والنقب ومحاصرته فى الفالوجا وهزيمته ، وتقدم القوات اليهودية صوب الحدود المصرية ونتيجة لذلك فرضت الهدنة ثانية فى التاسع عشر من يوليو [٣٢] .

وقد جنحت مصر لعقد مباحثات مع اليهود باشراف هيئة الأمم المتحدة وبدأت المفاوضات بين مصر واسرائيل فى جزيرة رودس فى الثانى عشر من يناير ١٩٤٩ واستمرت حتى الرابع والعشرين من فبراير وقد مثل الوفد المصرى فيها القائمقام محمد ابراهيم سيف الدين والقائمقام محمد كامل الرحمانى ومثل الجانب الاسرائيلى والتر ايتان والقائمقام ايجال يادين وحضر المفاوضات الدكتور رالف بانش القائم بأعمال الوسيط الدولى لفلسطين والجنرال و.أ. رايلى ممثلين للامم المتحدة .

وانتهت بتوقيع هدنة دائمة تعهد فيها كلا الطرفين بعدم القيام بأى عدوان الطرف الآخر ، كما وافق الطرفان على اقامة خطوط للهدنة لا تتخطاها قواتهما على الا تعد هذه الخطوط حدودا سياسية أو اقليمية .

كما قضت الاتفاقية باحتفاظ مصر بالسيطرة على الممر الساحلى الممتد من قرية رفح على الحدود المصرية الفلسطينية الى نقطة تبعد ثمانية اميال الى الشمال من غزة [٣٣] .

وقد ترتب على هزيمة الجيش المصرى فى حرب فلسطين نتائج هامة نذكر منها :

١ — ضياع هيبة المسئولين وامتهان النظام برمته وتفكك كيان الحكومة [٣٤] .

٢ ــ افساح الطريق امام الضباط الاحرار وتبلور أفكارهم حول القضاء على نفوذ السراى ، وطبقة الاقطاعيين واصحاب المصالح ومحاربة الفساد بشتى صوره واشكاله والعمل على تحقيق الامانى الوطنية والقومية مما عجل بقيام ثورة ٢٣ يوليو .

٣ ــ زيادة الكراهية للدول الاستعمارية التى ساعدت على قيام اسرائيل .

٤ ــ تطور الشعور القومى العربى ، والاقتناع بحتمية الوحدة العربية .

مراجع الفصل السابع

(١) مارسيل كولومب : تطور مصر : ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ص ١١٦ .

(٢) رأى مجلس النواب عدم اشتراك مصر فى الحرب الا فى حالات ثلاث هى غزو الاراضى المصرية ، والاغارة على المدن والقرى ، وضرب المواقع العسكرية المصرية .

(٣) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ، جـ ٢ ، القاهرة ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٤) الرافعى : فى أعقاب الثورة ، جـ ٣ ، القاهرة ، النهضة المصرية، ص ١٠١ — ١٠٢ .

(٥) هيكل : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٤٠ .

(٦) مارسيل كولومب : تطور مصر ١٩٢٤ — ١٩٥٠ — ترجمة زهير الشايب ، ص ١٣٩ — ١٤٢ .

(٧) شاكر الدبس : الدول العربية فى منظمة الأمم المتحدة . دمشق مطبعة الانشاء ، ١٩٤٨ ، ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٨) نجلاء عز الدين : المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

(٩) الدبس : المرجع السابق ، ص ١٠٨ — ١١٥ .

(١٠) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ، جـ ٣ ، القاهرة ، دار المعارف ، ص ٤١ .

(١١) الأهرام فى ٢٤ مايو ١٩٥٣ حديث للفريق عثمان المهدى رئيس اركان الجيش المصرى .

(١٢) سبق الاخوان الجيش المصرى فى دخول فلسطين حيث اجتاز فريق منهم قناة السويس الى سيناء واخذوا فى التسلل الى فلسطين ووصلت طلائعهم فى فبراير١٩٤٨ بقيادة البكباشى احمد عبد العزيز، وابلوا بلاء حسنا فى المعارك . ولم يقتصر التطوع من اجل انقاذ فلسطين على الرجال من الاخوان بل تعدى ذلك الى السيدات المسلمات ايضا .

(١٣) طارق البشرى : الحركة السياسية فى مصر ٤٥ — ١٩٥٢ ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٢ ، ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

(١٤) عارف العارف : النكبة ، جـ ٢ ، ص ٣٨١ .

(١٥) يقول عبد الناصر فى مذكراته عن حرب فلسطين انه لم تكن على الحدود سوى ثلاث كتائب : الكتيبة الأولى ورئيس أركانها زكريا محى الدين، والكتيبة السادسة ورئيس أركانها جمال عبد الناصر ، والكتيبة التاسعة ورئيس أركانها عبد الحكيم عامر ، انظر آخر ساعة العدد ١٠٦٣ فى ٩ مارس ١٩٥٥ .

(١٦) محمد فيصل عبد المنعم : أسرار حرب ١٩٤٨ ، القاهرة ، ١٩٦٨، ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .

ويبدو أن الحكومة المصرية كانت تعتقد ان الاشتباكات بين المصريين واليهود ستكون بمثابة مظاهرة سياسية اكثر منها عملا حربيا وان الأمم المتحدة سوف تتدخل فى الأمر .

(١٧) آخر ساعة : العدد ١٠٦٣ فى ٩ مارس ١٩٥٥ تحت عنوان مذكرات عبد الناصر .

(١٨) وزارة الحربية : مكتب المشير ، محفظة رقم ٩ جـ ١ .

(19) Middle East Journal (Washington) 3 January 1949 p. 74 .

(٢٠) انظر مذكرات عبد الناصر عن حرب ١٩٤٨ ، آخر ساعة العدد ١٠٤٦ فى ١٠ مارس ١٩٥٥ .

(٢١) حاول الملك عبد الله تحديد فترة الهدنة والتقيد بقرارات الأمم المتحدة ولكن الحكومة المصرية رفضت هذه الفكرة بحجة معارضة الرأى العام العربى لها .

(٢٢) حسن يوسف : القصر ودوره فى السياسة المصرية ٢٢ — ١٩٥٢ القاهرة ، مركز الدراسات السياسية بالاهرام ، ١٩٨٢ ، ص ٢٠٤ .

والجدير بالذكر ان الشعب المصرى ظل جاهلا بتطورات الامور وتسربت اليه أخبار هزيمة قواته بالتدريج للتفاصيل انظر :
John, Marlowe : Anglo Egyptian Relations p. 330 .

(٢٣) فلاح خالد : الحرب العربية الاسرائيلية ٤٨ — ١٩٤٩ وتأسيس دولة اسرائيل ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، ص ٢٧٦ .

(24) Lacouture : Egypt in Transition p. 103 — 104.

الفصل الثامن

ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

وابرز التطورات السياسية فى مصر حتى انتصار اكتوبر ١٩٧٣

أولا — الاوضاع السياسية فى مصر قبيل الثورة :

ثانيا — مقدمات الثورة :

ثالثا — الثورة واعلان الجمهورية :

رابعا : الثورة والتعليم :

خامسا : عبد الناصر وحرب ١٩٥٦ .

سادسا : الوحدة المصرية السورية .

سابعا : حرب الخامس من يونيو ١٩٦٧ .

ثامنا : حرب اكتوبر ١٩٧٣ .

ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

الأوضاع السياسية فى مصر قبيل الثورة :

وفى اوائل عام ١٩٥٠ أعيد فتح المفاوضات ، واستمرت ثمانية عشر شهرا وقد تركزت حول انسحاب القوات البريطانية ، ولما طالت المفاوضات واتضح مراوغة الانجليز فى الانسحاب ازداد قلق الراى العام المصرى وشكه فى النوايا البريطانية فاقدمت الحكومة المصرية ازاء هذا الضغط الشعبى على الغاء معاهدة ١٩٣٦ فى الثامن من اكتوبر ١٩٥١ بحجة ان هذه المعاهدة تتعارض مع روح ميثاق الأمم المتحدة الذى نص على مبدأ التساوى بين الدول الأعضاء ، ويتعارض مع قرار منظمة الامم المتحدة الصادر فى ديسمبر ١٩٤٦ والذى نص صراحة على عدم بقاء قوات أجنبية على ارض دولة من الدول الأعضاء بدون موافقة هذه الدولة .

وقد قوبل الغاء المعاهدة بالابتهاج الحماسى فى مصر فترك العمال المصريون أعمالهم فى المعسكرات البريطانية بالآلاف ، وترك الشبان مدارسهم وجامعاتهم ليلتحقوا بحرب العصابات ضد القوات البريطانية ، واعتقد الانجليز أن اتخاذ الاجراءات العنيفة سيؤدى الى اخماد المقاومة .

وقد قصد من معركة الاسماعيلية التى وقعت بين قوات البوليس المصرى وبين القوات البريطانية فى ٢٥ يناير ١٩٥٢ أن تؤدى هذا الفرض غير أنها زادت من حماس المواطنين فخرجت المظاهرات الساخطة فى اليوم التالى بالقاهرة ، وقد بدأت بجنود بلوكات النظام بالعباسية ثم انضم اليها طلاب الجامعة وبعض الأهالى وبينما حاولت الحكومة مقاومة السلطات الانجليزية رأت المخابرات البريطانية والقلم السياسى بوزارة الداخلية الذى كان يعمل لحساب القصر الملكى فى حرق القاهرة فرصة لاقالة الحكومة فاندس بين المواطنين فئة من المأجورين وقاموا باشعال النيران عمدا فى كثير من المحلات التجارية والفنادق الفخمة وأماكن اللهو وبعض الشركات

والمؤسسات ، ولم تستطع السلطات ان توقف ما حدث بل تراخت فى الأمر. مما كان له اكبر الأثر فى النهاية التاريخية للنظام الملكى فى مصر وللقوى السياسية والاجتماعية التى تعاونت معه فيمجل الضباط الاحرار باعلان ثورتهم قبل الموعد المحدد لها .

٢ — مقدمات الثورة :

بعد ان عاد جمال عبد الناصر وزملاؤه الذين اشتركوا فى حرب ١٩٤٨ وكانوا محاصرين فى الفالوجا الى ارض الوطن فى مارس ١٩٤٩ تبلورت فى ذهنهم فكرة اجتثاث الفساد من ارض الوطن ، والتخلص من الاستعمار واعوانه ، ومن ثم اخذ عبد الناصر يعمل على اعادة تنظيم جماعة الضباط الاحرار بعد ان تفرق شملهم بقيام حرب فلسطين واستشهد منهم من استشهد فى هذه الحرب ولما كانت توجد داخل الجيش منظمة سرية اخرى تضم جماعة من الضباط الساخطين فقد عمل عبد الناصر على توحيد جهود هاتين الجماعتين فى مجموعة واحدة [١] هى تنظيم الضباط الاحرار الذى صدر منشورهم الأول فى فبراير ١٩٥٠ ، وكان هذا ايذانا ببدء مرحلة جديدة من العمل الوطنى الثورى داخل الجيش .

وفى اعقاب ذلك تشكلت للضباط الاحرار قيادة تأسيسية ضمت جمال عبد الناصر ، وحسن ابراهيم ، وخالد محى الدين ، وكمال الدين حسين ، وعبد المنعم عبد الرءوف ، وعبد اللطيف البغدادى ، وعبد الحكيم عامر ، وصلاح سالم ، وجمال سالم ، وانور السادات .

وقد حرص عبد الناصر على استقلالية الضباط الاحرار عن اى تنظيمات حزبية حتى لا يكون لهذه الاحزاب اى تأثير على موقفهم .

وبعد ان رتب الضباط الاحرار صفوفهم اخذوا فى متابعة الموقف الداخلى وتحين الفرص المناسبة استعدادا لساعة الخلاص وبينما كان السياسيون يواصلون خلافاتهم الحزبية ورجال القصر يواصلون مخططاتهم لاحكام سيطرتهم على مقدرات الأمور فى البلاد اعلن الضباط الاحرار ثورتهم فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فقامت فرق الضباط الاحرار باحتلال المراكز الهامة بالجيش .

واعتقال كبار القادة العسكريين ثم تم الاستيلاء على المرافق الهامة والمواقع الاستراتيجية بالقاهرة وتم احتلال مبنى الاذاعة فى الساعة الرابعة من صباح الثالث والعشرين من يوليو . وفى السابعة والنصف من نفس اليوم اعلن على الشعب البيان الأول باسم القائد العام للقوات المسلحة وكان موجزا مقتضبا لم يتضمن الا الدعوة الى تطهير الجيش ثم صدر البيان الثانى فى اليوم التالى ليشير الى ان القادة ينشدون التطهير والاصلاح فى البلاد ورفع لواء الدستور ثم توالت الاحداث التى مكنت رجال الثورة من السيطرة على زمام الأمور فى البلاد .

٣ ـ الثورة واعلان الجمهورية :

وجاءت حركة الجيش فى صبيحة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ تعلن نداء الثورة ، وتصر على ضرورة تنازل الملك فاروق عن العرش ، ومغادرته للبلاد فوجه رجال الجيش الى الملك انذارا نصه « من اللواء أركان حرب محمد نجيب .. باسم ضباط الجيش ورجاله الى جلالة الملك .. انه نظرا لما لاقته البلاد فى العهد الأخير من فوضى شاملة عمت جميع المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعبثكم بالدستور وامتهانكم لارادة الشعب .. فوضنى الجيش الممثل لقوة الشعب أن أطلب من جلالتكم التنازل عن العرش لسمو ولى عهدكم الأمير احمد فؤاد .. على ان يتم ذلك فى موعد غايته الساعة الثانية عشر من ظهر اليوم السبت ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه ، والجيش يحمل جلالتكم كل ما يترتب على عدم النزول عن رغبة الشعب من نتائج [٢] .

وقد صاحب هذا الانذار ارسال بعض المدرعات والمدفعية لدعم قوات الثورة بالاسكندرية استعدادا لعملية عزل الملك بالقوة لو رفض الانذار [٣] ، ولكن الملك فاروق رضخ للانذار وصدر أمر ملكى رقم ٦٥ لسنة ١٩٥٢ يعلن التنازل عن العرش لولى العهد الأمير احمد فؤاد .

ولما اعلنت الاذاعة المصرية خبر تنازل الملك عن العرش ومغادرته للبلاد كان الخبر مفاجأة لجماهير الشعب المصرى الذين اعلنوا عن فرحهم وسعادتهم للتخلص من هذا الملك الذى أصبحت مباذله وسهراته مضغة

فى الأفواه فنزل الكثيرون منهم الى الشوارع مظهرين سرورهم وسعادتهم لهذا الخبر السار [٤] فقد احسوا ولأول مرة انهم تخلصوا من الملكية . واصبح حكامهم لأول مرة مصريين لحما ودما وروحا وتفكيرا [٥] .

وكانت اول قضية واجهت قادة الثورة هى قضية الوصاية على العرش ، وتعيين مجلس لها ، وهى قضية دستورية اذ تنص المادة ٥١ من الدستور على ان « لا يتولى اوصياء العرش عملهم الا بعد ان يؤدوا لدى مجلس النواب والشيوخ اليمين » [٦] الذى يتضمن احترام الدستور وقوانين الأمة المصرية والمحافظة على استقلال الوطن وسلامة اراضيه [٧] والملك حق اختيار هؤلاء الأوصياء على ان يقر المجلسان اختيارهم ، ولما كان مجلس النواب منحلا وجب ان يعود للاجتماع او تجرى انتخابات جديدة [٨] ولما كانت الانتخابات ستستغرق وقتا غير قليل ، ورجال الثورة لا يرغبون فى دعوة المجلس القديم استقر الأمر على ايجاد نظام مؤقت للوصاية يؤلف من ثلاثة تتولى بعد حلف اليمين امام مجلس الوزراء سلطة الملك الى ان تتولاها هيئة الوصاية الدائمة [٩] .

وشكلت هيئة الوصاية من الأمير محمد عبد المنعم وبهى الدين بركات باشا والقائمقام رشاد مهنا من ضباط المدفعية [١٠] .

ولما كان فى تشكيل مجلس الوصاية عودة الى النظام الملكى ، واستبعاد فكرة اقامة جمهورية فى مصر فقد ناشد الدكتور طه حسين رجال الثورة اعلان الجمهورية موضحا ان مصر « سئمت النفاق من الملوك ... وآن لها ان تستقبل حياة سياسية سمحة لا نفاق فيها » وذكر ان السبيل الى ذلك هو ان تتخلص مصر من الملكية ومن الأشخاص الذين لا يسألون ولا ينقدون ثم وضح ان المستقبل اصبح للنظام الجمهورى ، وان الملكيات الباقية اصبحت آثارا وتقاليد لا اكثر كما انها اصبحت كابوسا فى مصر يجثم على صدر الشعب كله ، ثم طالب رجال الجيش باعلان الجمهورية ، واعرب عن امله فى قيام الشعب المصرى باعلان الجمهورية اذا تردد رجال الجيش فى ذلك [١١] .

وعندما سئل الدكتور طه حسين عن نوع الجمهورية التى تتلاءم مع

مصر قال « انا اميل شخصيا الى الجمهورية الأوربية التى لا يحكم فيها الرئيس ، وانما هو رمز للدولة ليس غير ، وجائز أن نصل بعد تطور بعيد الى الجمهورية كما هى فى الولايات المتحدة ، ولكن يحسن الا يكون هذا الا بعد أن يتم النضج السياسى للشعب » [١٢] .

ولنا ان نتساءل هل كان فى فكر قادة ثورة ٢٣ يوليو فى بداية حركتهم رؤية واضحة عن تغيير الحكم فى مصر من ملكى الى جمهورى ؟ يذكر اللواء محمد نجيب أن رؤية قادة الثورة فى أول الأمر لم تكن قد وصلت الى حد اقامة الجمهورية بل اكتفوا بعزل الملك واحلال ولى العهد محله [١٣] .

ويذكر الرئيس جمال عبد الناصر أنه فى « يوم ٢٣ يوليو لم يكن فى خاطرنا باى حال من الأحوال ان نستولى على الحكومة ، ولكن كنا نعبر عن أمل الشعب فى القضاء على الملكية الفاسدة والقضاء على حكم اعوان الاستعمار ، ولكن لم يكن فى خاطرنا ابدا أن نحكم » [١٤] كما وضح انه بعد خروج الملك طلب مجلس قيادة الثورة من حزب الوفد أن يستعد لتولى الحكم [١٥] وقد أوضح الدكتور عبد العظيم رمضان ذلك فذكر أن ثوار ٢٣ يوليو لم يستهدفوا فى أول امرهم أكثر من القيام بانقلاب محدود لاسقاط حكم فاروق واجراء بعض التطهير والاصلاح فى الحياة السياسية مع الاحتفاظ بنظام الحكم السابق الذى أرساه دستور ١٩٢٣ [١٦] .

والواقع ان تطور الاحداث يؤكد ذلك فقد ابقى قادة ٢٣ يونيو دستور ١٩٢٣ فى بداية الامر ليكون القاعدة المنظمة لشئون الحكم بعد الثورة . مما جعلنا نتساءل لماذا لم يتجه قادة ٢٣ يوليو الى الدعوة للجمهورية مباشرة فى بداية حركتهم ؟

تؤكد الوقائع أن قادة الثورة تريثوا فى الموقف أول الأمر ترقبا للاحوال ، فكان موقفهم تكتيكيا حتى تستقر لهم الأمور فتجربة الثورة العرابية كانت ماثلة فى اذهانهم حيث تدخل الانجليز عسكريا فى مصر بحجة الحفاظ على الحقوق الشرعية للخديو توفيق ، فموضوع الشرعية

للملكية كان فى اذهانهم ولكى يكسبوا اعتراف اندول الكبرى بحركتهم تريثوا فى الموقف وخصوصا وان القوات الانجليزية كانت لا تزال موجودة على ضفاف القنال ويمكنها التدخل بحجة حماية الحقوق الشرعية للملك ، كما ان رجال انثورة ارادوا الا يعطوا الفرصة لآخرين فى الداخل وخصوصا وان معظمهم كان ضد حزب الوفد لتاليب الأوضاع الداخلية ضدهم يضاف الى ذلك مخاوفهم مما يترتب على الغاء الملكية ، فقد كانت هذه العملية فى تصورهم كثيرة المخاطر ، ولكن الامور كانت اسهل مما توقعوا .

ولما راى قادة الثورة انه من الصعب عليهم تحقيق التغييرات الثورية لأسس العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمجتمع المصرى فى ظل دستور ١٩٢٣ قرروا الغاءه فى ١٠ ديسمبر ١٩٥٢ ، وتاليف لجنة تضع مشروع دستور جديد ، حيث اصدر مجلس قيادة الثورة فى ١٣ يناير ١٩٥٣ مرسوما بتاليف لجنة لوضع مشروع دستور جديد يتفق مع أهداف الثورة [١٧] وتالفت هذه اللجنة من خمسين عضوا من مختلف الكفاءات والاتجاهات والاحزاب [١٨] وقد عقدت هذه اللجنة جلساتها فى مساء ٢١ فبراير سنة ١٩٥٣ بقاعة مجلس النواب بالقاهرة وانتخب على ماهر رئيسا لها كما انتخبت لجنة فرعية من ١٥ عضوا سميت لجنة الخطوط الرئيسية لمشروع الدستور تفرع منها لجنة من خمسة اعضاء [١٩] لكى تبحث نظام الحكم فى مصر هل يكون ملكيا او جمهوريا ، وقد قدمت اللجنة الخماسية تقريرها ويتضمن قرارها بالاجماع على أن يكون نظام الحكم جمهوريا ، وان يكون تقرير هذا النظام عن طريق استفتاء الشعب [٢٠] .

واخذ رجال الثورة يروجون لفكرة الجمهورية فى الصحف ففى ١٧ يونيو ١٩٥٣ ادلى جمال عبد الناصر بحديث لمندوب الاهرام اعلن فيه عن رايه فى نظام الحكم الذى يجب ان تقوم عليه مصر الحديثة فقال « انى ارى ان النظام الملكى قد تاكل وانتهى بعد أن اتى سوس الفساد والخيانة على عرشه ولن تقوم لهذا النظام قائمة ثانية . وان الجمهورية آتية لاريب فيها » [٢١] .

وفى ١٨ يونية ١٩٥٣ أعلن عن اسقاط أسرة محمــد على ، وخلع الملك أحمد فؤاد الثانى ، وقيــام النظام الجمهورى ذلك الحــدث الهــام الذى جاء ثمرة لتطور كفاح الشعب على تعــاقب الســنين ، كما قــرر مجلس قيادة الثورة تولى اللواء محمــد نجيب رياسة الجمهورية ، وأن يكون للشعب الكلمة الأخيرة فى تحديد نوع الجمهورية ، واختيــار شخص الرئيس حيث أعلن باسم الشعب :

١ ــ الغاء النظام الملكى ، وانهاء أسرة محمد على مع الغاء الالقــاب من افراد هذه الأسرة .

٢ ــ اعلان الجمهورية وتــولى اللواء محمد نجيب رياســة الجمهورية مع احتفاظه بسلطاته الحالية فى ظل الدستور المؤقت .

٣ ــ يستمر هذا النظام طول فتــرة الانتقال ، ويكون للشعب الكلمة الأخيرة فى نوع الجمهورية ، واختيار شخص الرئيس عند الاقرار عــلى الدستور الجديد [٣٢] .

وصار يوم ١٨ يونية من كل عام عيــدا وطنيا من الأعياد الرسمية سمى « عيد الجمهورية » وخصص قصر عابدين ليكون مقــرا لرياســة الجمهورية وأطلق عليه « القصر الجمهورى » [٣٣] .

ولكى يكسب قادة الثــورة اعترافا دوليا بما حــدث أعلن البكباشى جمال عبد الناصر « ان قيام النظــام الجمهورى فى مصر لا يعنى أن مصر تعادى النظام الملكى فى أى بلد من البلاد » [٣٤] كما علقت جــريدة الاخبار على ذلك بأن مصر اذ تعلن النظام الجمهــورى لا تنظــر الا لمصــالحها وظروفها [٣٥] .

وقد استقبل الشعب المصرى اعلان الجمهــورية بحماسة بالغة حيث احس ولأول مــرة فى تاريخه الطويل انه تحرر من الملكية والملوك الذين اذلــوه واستغلوه ، واصبح حكامه لأول مــرة مصريين لحما ودما وروحا وتفكيرا [٣٦] .

وقد عبرت مختلف طبقات الشعب عن فرحتها باعـلان الجمهـورية بارسال آلاف البرقيات لتعبير عن مباركتهم لمـا حدث [٢٧] ومع ذلك فان الاستاذ محمد زكى عبد القادر حذر فى مقاله « نحو النور » من انحـراف قيادة الثورة الى المظاهر التى تقرب الجمهورية من الملكية ، وطالبهم بأن يكونوا اسوة حسنة لمواطنيهم ، فقال « إن تربية الشعوب تكون بالاسـوة الحسنة واشعارها بأن الحاكم يحترمها » [٢٨] كما أوضح الاستاذ كامل الشناوى فى مقال له « ان نجاح الجمهورية التى هى كسب عظيم للشعب يتطلب من الشعب جهادا شاقا فى تربية نفسه تربية جمهورية فلا ينبغـى أن يعامل رئيس الجمهورية كملك او حاكم مطلق بل يجب ان ينظـر اليـه كفرد عادى يحاسبه على الخطأ ويبصره بالصواب » [٢٩] .

ولقد كان للتأييد الساحق الذى منحه الشعب للواء محمد نجيب اكبر الأثر فى جعله يصدق أنه زعيم الثورة الفعلى بينما كان عبد الناصر ورفاقه يتصرفون على أنه واجهة للثورة ، وسرعان ما اخذت تتباين وجهات النظر بين نجيب ورفاقه حول كثير من الأمور [٣٠] منها الاجراءات التى اتخذها ضباط القيادة لمحاسبة السياسيين القدامى وتشكيل محكمة الثورة ، ولمـا أحس مجلس قيادة الثورة ان محمد نجيب يشكل عقبة فى طريقهم انتهـزوا فرصة الغاء النظام الملكى واعلان الجمهورية فقرروا ابعـاده عن قيـادة القوات المسلحة [٣١] واصدروا قرارا بتعيين الصاغ عبد الحكيم عامـر قائدا عاما ، وترقيته اربع رتب مرة واحدة ليصل الى رتبة اللواء ، وقـد اعترض محمد نجيب على هذه القرارات كما اعترض على اعـلان النظـام الجمهورى دون استفتاء شعبى ، ووصل الأمر بينه وبين رجال الثـورة الى درجة التحدى [٣٢] ولم تلبث الأمور ان تدهورت بين الفـريقين حين أخذ مجلس القيادة يتجاهل اللواء محمد نجيب فى جلسـاته فقـدم نجيب استقالته فى ٢٣ فبراير ١٩٥٤ الى مجلس قيادة الثورة فكان ذلك بمثـابة المفجـر الحقيقى لأزمة مارس ١٩٥٤ [٣٣] .

ونظرا لما احدثته استقالة محمد نجيب من تـأثير فى الـراى العـام ورغبة من قيادة الثورة فى احتواء الأزمة ولو بصفة مؤقتـة وحفاظا على وحدة الأمة اعلن مجلس قيادة الثورة عودة اللواء محمـد نجيب بعد ان تم الاتفاق معه بخصوص ذلك .

وعاد محمد نجيب الى رئاسة الجمهورية ولكن بـدون سـلطات ، ومضى فى مهاجمة مجلس قيادة الثورة والدعوة الى الديمقـراطية ، وكان واضحا ان نجيب سيمضى فى هذا التيار ما دام بعيـدا عن السـلطة ، وشعر عبد الناصر ان تحدى نجيب للثورة سـوف يعـرقل مسيرتها لذلك قام بمناورة بارعة اذ تقدم باقتراح الى الاجتماع المشترك لمجلس الثـورة ومجلس الوزراء بعودة الأوضاع الى ما كانت عليـه قبل استقالة نجيب واسناد رئاسة مجلس قيادة الثورة ورئاسة مجلس الوزراء الـى رئيس الجمهـورية مـرة اخرى وبذلك ضمن عبد النـاصر التهدئـة مع نجيب خلال تلك المرحلة المصيرية التى تجتازها الثـورة ، وفى نفس الوقت كان الهدف الآخر الذى يسعى اليه نجيب هو طرح رئاسة الجمهـورية للاستفتاء الشعبى لأنه كان يشعر انه رئيس جمهورية بالتعيين [٣٤] . كما كان لـه عدة مطالب هى :

١ — أن يكون له كل سلطات رئيس الجمهـورية البرلمانية فى حالة عدم وجود برلمـان .

٢ — أن يستفتى الشعب على النظام الجمهورى قبل اقـرار الدستور الجـديد .

٣ — أن ينتخب الشعب رئيس الجمهورية قبـل اقـرار الدسـتور أيضا بالانتخاب المباشر .

٤ — أن يعود الضباط الى صفوف الجيش [٣٥] .

وفى ١٨ يونيو ١٩٥٤ وبمناسبة الاحتفال الأول بعيـد الجمهـورية القى اللواء محمد نجيب كلمة ذكر فيها أن الحكم الجمهورى هـو حـكم الشعب للشعب ولصالحه ، وانه التطور الطبيعى نحـو احقاق العـدل والمساواة بين الناس ، كما أوضح أن مصر قبل اعلان الجمهـورية كانت سلعة يرثها الأبناء على آبائهم مهما كان الأب خاملا او جاهلا أو كان الابن ظالما ومستبدا [٣٦] .

ولمـا ثبت من التحقيقات فى قضـايا الاخوان المسلمين ان اللـواء

محمد نجيب كان على اتصال بهم منذ ابريل ١٩٥٤ ، وانه معتزما بعد نجاح انقلابهم تأييد حركتهم ودعوة الجمهور للانضمام اليهم قرر مجلس قيادة الثورة فى ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ اعفاءه من جميع المناصب التى كان يشغلها ، وان يبقى منصب رئيس الجمهورية شاغرا ، وأن يستمر مجلس قيادة الثورة فى تولى كافة سلطاته بقيادة جمال عبد الناصر حتى يتم انتخاب رئيس الجمهورية .

وفى السادس عشر من يناير ١٩٥٦ تم اعلان الدستور مدعما برنامج الثورة وهو :

١ — القضاء على الاستعمار واعوانه .

٢ — القضاء على الاقطاع .

٣ — القضاء على الاحتكار وسيطرة راس المال على الحكم .

٤ — اقامة جيش وطنى قوى .

٥ — اقامة عدالة اجتماعية .

٦ — اقامة حياة دستورية سليمة .

واعلن الدستور ان النشاط الاقتصادى الخاص حر بشرط الا يضر بمصلحة المجتمع ، ونص على مساواة المصريين فى الحقوق والواجبات .

كما اعلن حرية الاعتقاد ، وحرية التعبير عن الراى فى حدود القانون ، وجعل التعليم حقا لكل المصريين .

وفى ٢٢ يونيو ١٩٥٦ انتخب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية بالاستفتاء ، وبذلك تم ولأول مرة فى تاريخ مصر انتخاب الشعب فى استفتاء عام رئيسا لجمهورية مصر .

وبانتخاب جمال عبد الناصر حل مجلس قيادة الثورة ، واصبح جمال عبد الناصر هو المسئول عن مصر سواء من ناحية السياسة الداخلية او السياسة الخارجية ، وبذلك دخلت مصر فى طور جديد من حياتها السياسية .

وافتتحت الثورة عهدا جديدا ، فبدأ نضالها لاقتلاع جذور الاستعمار فى مصر ونجحت فى عقد معاهدة الجلاء فى ١٩ من اكتوبر ١٩٥٤ [٣٧] ، كما انتهجت سياسة عدم الارتباط بالأحلاف العسكرية أو بمشروعات الدفاع المشترك ، ورفضت أى قيود على تحركاتها الدولية ولما رفض الغرب بيع السلاح لها لتسليح جيشها عقد عبد الناصر صفقة الأسلحة التشيكية فى ٢٥ سبتمبر ١٩٥٥ ضاربا عرض الحائط باحتجاجات الغرب مما كان له أبلغ الأثر فى تغيير ميزان القوى فى منطقة الشرق الأوسط وتغير نظره أمريكا تجاه استئناس عبد الناصر وانسحابها مع بريطانيا من مشروع تمويل السد العالى، وكان رد عبد الناصر على هذه الضربة هو تأميم شركة قناة السويس فى السادس والعشرين من يوليو ١٩٥٦ .

٤ — ثورة ٢٣ يوليو والتعليم :

وبقيام ثورة ٢٣ يوليو تغير نظام التعليم فى مصر ، ودخل مرحلة جديدة مؤثرة فى حياة الانسان المصرى ، وكان من اول مشروعات اصلاح التعليم التى تبنتها الثورة ، وعمل على تنفيذها المرحوم اسماعيل القبانى عندما تولى أمر وزارة التربية عام ١٩٥٢ الغاء ثنائية التعليم فى المرحلة الأولى لكى تزداد الفرص المتاحة لجميع الشعب ، ولقد كان هذا الاصلاح يتفق مع الفلسفة الجديدة للمجتمع ، وقد زادت الحكومة من ميزانية التعليم وعلى غرار ذلك ازداد عدد المدارس بطريقة واضحة ففى العام السابق للثورة بنيت فى مصر ثلاث مدارس جديدة بينما بنى فى السنوات الخمس الأولى للثورة ١٢٣٥ مدرسة بمعدل ٢٤٨ مدرسة فى كل عام ، وانشىء بجانب المدارس الاعدادية العامة انواع من المدارس الاعدادية الفنية زراعية وصناعية وتجارية ، واهتمت الثورة بالتعليم الفنى [٣٨] .

وقد عمدت حكومة الثورة الى تغيير اسم الوزارة التى تقوم بمهمةالتعليم من وزارة المعارف الى وزارة التربية والتعليم ، وسارت السياسة التعليمية يحدوها الأمل فى نشر التعليم ، وانتهى الأمر الى أن ست سنوات تعليمية هى الاساس المنطقى لتعليم شعبى تتهيأ فيه الفرص المتكافئة لجميع المواطنين، وبذلك تقرر أن يكون التعليم الابتدائى اجباريا مجانيا لمدة ست سنوات ، وأن يعاد النظر فى السلم التعليمى بحيث يتلاءم ومراحل التعليم واعمار

المتعلمين وانشئت لذلك مرحلة جديدة هى المرحلة الاعدادية بين المرحلة الابتدائية والمرحلة الثانوية . وقد هدفت السياسة التعليمية فى عهد الثورة الى ما يلى :

١ — تعميم التعليم الابتدائى وتدعيمه .

٢ — تكافؤ الفرص لجميع المواطنين فى جميع مراحل التعليم .

٣ — تخطيط التعليم فيما بعد المرحلة الاولى على اساس احتياجات البلاد وامكانياتها .

٤ — التوسع فى التعليم الفنى بأنواعه ، وخاصة فى المرحلة الاعدادية الفنية .

٥ — التوسـع فى تعليم البنات .

٦ — تدعيم التعليم العالى والجامعى ورفع مستواه وتشجيع البحث العـلمى .

٧ — مسايرة التطور العالمى فى العلوم والآداب والفنون حتى يتمكن المواطنون من الاستفادة بنتائج الفكر العالمى فى كل الميادين ، مع الحرص على تراثنا القديم فى كل العصور وحمايته .

٨ — التعاون الثقافى مع جميع الدول الصديقة فى العالم .

٩ — زيادة أواصر الوحدة الثقافية مع البلاد العربية [٣٩] .

ولـمـا كان النظـام التعليمى فى اى بلد يعكس الفلسفة الاجتماعيـة السائدة به ، فقد كان للقوانين الاشتراكية التى أعلنت فى مصر عام ١٩٦١ تأثيرها الفعال على التعليم فى مختلف مراحله حيث اعلنت مجانية التعليم فى كافة مراحله بعد أن درج التعليم المصرى منذ سنوات طويلة على أن يكون تعليما طبقيا بمعنى انه كان هناك نوع من التعليم للاغنياء وآخـر للفقراء ، فالغيت المصروفات واتسع مجال التعليم أمام جميع فئات الشعب، وتزايد عدد المقبولين عاما بعد عام ونشأ عن ذلك تكافؤ فى الفرص ، كما أصبح المجموع الكلى لدرجات الطالب الفيصل فى قبوله بالجامعات وغيرها.

وعلى الرغم من الظروف المريرة التى مرت بها مصر بعد هزيمة ١٩٦٧ فان برامج تطوير التعليم لم تتوقف فقد سار برنامج العمل الوطنى الصادر فى عام ١٩٧١ خطوة ابعد فى مجال رسم السياسة الواجب اتباعها فى مجال التخطيط التعليمى .

وقد أكد البرنامج على المبادىء التالية :

١ — ان تلتزم المرحلة الأولى من التعليم فى نهاية العشر سنوات ١٩٨٢/٧٢ بقبول جميع الملزمين .

٢ — التمهيد لرفع سن الالزام الى ١٥ سنة .

٣ — الارتفاع بمستوى التعليم وتطويره بما يتلاءم وانجازات العلم الحديث .

٤ — الارتفاع بمستوى اداء الخدمة التعليمية .

٥ — ربط التعليم باحتياجات المجتمع .

٦ — القضاء على الأمية .

وقد هدفت هذه الخطة الى تحقيق الفرصة المتكافئة . والمساواة الكاملة لابناء الشعب ، ورفع مستوى التعليم ، وتوفير الرعاية التربوية والصحية للطالب ، ووضع برامج توعية لمحو الأمية والاهتمام بالبحث التربوى ، وتطوير نظام الامتحانات ، وتحقيق التنسيق بين الاجهزة المعنية بالتعليم فى مستوياته المختلفة .

وتجىء ورقة أكتوبر لتركز على ان اهم ما طرا على منطق التعليم والبحث فى العالم هو زوال المسافة بين الفكر والعمل ومعنى ذلك ان التعليم والتثقيف العام صار لهما هدفان :

١ — ايجاد الفرد المتعلم المستنير .

٢ — تزويده بخبرة متقدمة متجددة تمكنه من القيام بدور يتناسب مع هذه الخبرة ، وتحقيق ذلك يستلزم عدة أمور منها عدم حبس التعليم

فى قوالب جامدة ومنها ربط انواع معينة من التعليم بالبيئة ، ومنها توثيق الصلة بين الجامعات والمعاهد على اختلافها ، ومنها القضاء على فكـــرة الفارق الاجتماعى فى التعليم وعلى الرغم من كل الجهود التى بذلتها حكومة الثورة لاصلاح التعليم وما تم احرازه من تقدم فى كثير من المجالات فانه يمكن القول بأن التعليم فى مصر يحتاج الى اعادة النظر والاصلاح وتجىء هذه الصيحات لا من جانب المربين ورجال التعليم والمشرفين على أمـــره فحسب ، ولكنها تصدر ايضا من آباء التلاميذ والمســئولين عن التخطيط للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، والجميع يؤمن ان اصلاح التعليم هــو الاســـاس الذى تقـــوم عليه تنميــــة الثروة البشرية لاســـعاد النــاس وتقدم المجتمع .

ونحن نأمل ان تتمخض جهود المختصين عن اصلاح حقيقى فى التعليم يشمل ثورة حقيقية فى التعليم المصرى تتفق مع الآمال الكبيرة المعقودة عليه فى جميع الأوساط التعليمية والفنية والسياسية ، علما بأن اقامة اصـــلاح التعليم على اسس من البحث العلمى والتخطيط السليم هــو الضـــمان لاستقرار هذا الاصلاح من جهة وديناميته من جهة اخـــرى .

يضاف الى ذلك ان اصلاح التعليم يحتاج الى توفير مصادر التمويل الكافية لمتطلبات هذا الاصلاح يتناسب مع الزيادة السكانية الضخمة فى كل عام واستيعاب جميع الاطفال والاستعانة بالوسائل التكنولوجية الحديثة فى التعليم يتطلب المزيد من الانفاق عليه بما يتناسب مع الاهمية التى ينظـــر اليه بها فى حياة الأمة المصرية .

ـــ عبد الناصر وحرب ١٩٥٦ :

ادار الرئيس عبد الناصر حرب ١٩٥٦ على المستوى الوطنى والاقليمى والدولى ، وعلى المستوى العسكرى والسياسى والنفسى فى ظروف شديدة التعقيد ، وفى مواجهة توازن متشابك وخطير استفادت مصر من خلالـــه العديد من الدروس بحلوها ومرها وفيما يلى نعرض لهذه الحرب واسبابها ودور الرئيس عبد الناصر فى ادارة خيوطها حتى تحقق له فى نهاية الامر قطع ذيل الاسد البريطانى وكسر اسنانه .

وعقب اعلان قرار الولايات المتحدة وبريطانيا سحب عروضهما الخاصة بالمساهمة فى تمويل بناء السد العالى بحجة ان قدرة مصر المالية لا تتحمل توفير المال اللازم للمساهمة فى بناء السد(٤٠). راى جمال عبد الناصر ان الرد المناسب على ذلك يكمن فى تأميم شركة قناة السويس ، خصوصا وان هذا التأميم بالاضافة الى انه يحقق له امكانية بناء السد العالى فانه يلبى حقا مصريا يراود احلام كل المصريين ، ويؤكد استقلال الارادة السياسية المصرية ، ويضيف الى مصر اهم ارصدتها الاستراتيجية ومن اجل ذلك دعا عبد الناصر الى اجتماع مشترك بين اعضاء مجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء بكامل هيئته . . وفى الاجتماع طرح عبد الناصر فكرة التأميم ، ولما وجد من بعض المجتمعين من يحذر من احتمالات الخطر وتعدد مصادره اوضح انه سيتحمل وحده مسئولية القرار (٤١) .

وأمام مؤتمر شعبى حاشد وقف عبد الناصر فى ميدان المنشية بالاسكندرية فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ليعلن تأميم الشركة العالمية لقناة السويس شركة مساهمة مصرية ، ونقل جميع مالها من اموال وحقوق ، وما عليها من التزامات الى الدولة (٤٢) مما تسبب فى حدوث اصداء واسعة ارتجت لها مصر خاصة وان القناة كانت جرحا فى ضمير كل مصرى ، وكان استعادتها لمصر حلما من الاحلام ، كما ارتج لها العالم الذى هزته هذه الخطوة الشجاعة .

ونتيجة لأن معظم التوقعات كانت ترى أن بريطانيا وفرنسا وربما دول اخرى لن تسكت على هذه الضربة التى قوضت هيبة الغرب وحطمت هيبته وكانت بمثابة الكابوس لاحتكاراته (٤٣) . وان هذه الدول قد تصعد الأمر الى درجة التدخل العسكرى فقد راى عبد الناصر ضرورة تفادى قيام حرب غير متوازنة عن طريق تكثيف العمل السياسى المصرى ، وتكتيل الجو الدولى العام لصالح مصر حتى يتم تفويت فرصة استعمال السلاح على الذين يفكرون فيه ، ويتم كسب الوقت حتى تبرد الأزمة وتهدأ نارها خصوصا وانه كان يتصور أن احتمال التدخل العسكرى سوف يكون محققا بنسبة ٨٠٪ خلال الاسبوع التالى للتأميم فاذا انقضت هذه الفترة الحرجة تناقصت احتمالات التدخل وانحسرت فرصته (٤٤) وتمكنت مصر من بسط سيطرتها

على القناة . والى حد كبير نجح عبد الناصر فى جذب انظار العالم نحو حق مصر فى تأميم القناة فأكد أكثر من مرة أن مصر تتعهد باحترام الوضع الدولى للقناة وتم ابلاغ السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة بذلك كما عمل على أن تستمر كفاءة الحركة الملاحية فى القناة دون أى معوقات بعد انسحاب المرشدين الأجانب منها [٤٥] حتى لا يحس العالم بأى تقصير .

والى جانب ذلك كان عبد الناصر يشعر انه يمسك معظم الأوراق الرابحة فى الأزمة بكلتا يديه فمع انه كان لا يستبعد قيام بريطانيا بعمل عسكرى ضد مصر فانه كان يرى ان ايدن لم تكن لديه قوات جاهزة فى الشرق الأوسط للقيام باعمال عسكرية فورية ، وان الأمر يحتاج لبعض الوقت لتجهيز هذه القوات ، وخلال ذلك يمكن تكتيل الراى العام العالمى لصالح مصر ، وتكثيف الجهود السياسية مما قد يؤدى الى تفويت فرصة التدخل المسلح .

ومع انه كان لا يستبعد قيام الحكومة الفرنسية بمغامرة عسكرية ضد مصر للتخلص من قيادتها التى كانت تمد الثوار الجزائريين بالسلاح والدعم المعنوى ، فانه كان يرى أن تورط فرنسا عسكريا فى الجزائر ، وفقدانها السيطرة على العديد من المناطق التى يتمركز بها الثوار الجزائريين ، وشبح هزيمتها فى « ديان بيان فو » (الهند الصينية) قد يجعلها تتردد فى القيام بعمل عسكرى ضد مصر [٤٦] .

الأمر الذى استبعده عبد الناصر ، واستحال وقوعه هو ان تلجأ بريطانيا وحدها او بريطانيا بالتنسيق مع فرنسا الى الاستعانة باسرائيل فى اى عملية ضد مصر لاستعادة القناة بالقوة خصوصا وان ذلك سيعرض مركزهم ومصالحهم فى الشرق الأوسط للخطر ، ويكون وحده كفيلا باسقاط كل النظم الموالية لانجلترا وفرنسا فى المنطقة ، كما يترتب عليه الدعوة الى خروج العراق من حلف بغداد ، وزيادة النقمة على فرنسا فى شمالى افريقية [٤٧] .

وحول موقف الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى من الأزمة فقد كان تقدير عبد الناصر أن واشنطن وموسكو ستكونان بعيدتين عن أى مساندة عسكرية أو سياسية للمعتدين خصوصا بعد ان اظهرت الولايات المتحدة عدم

استجابتها للاشتراك فى اى عمل عسكرى ضد مصر ، ورفضت فكرة تقديم اى مساندة استراتيجية أو سياسية لدول العدوان ونضلت تسوية المشكلة سلميا ، وبعد ان اظهر الاتحاد السوفيتى رغبته فى عقد تسوية سليمة للمسألة واعلن عن تعاطفه مع موقف مصر الذى تدافع فيه عن سيادتها .

والى جانب ذلك فقد تعاطفت دول مؤتمر باندونج ، ومعظم الدول العربية تجاه موقف مصر ، فأعلنت الهند والصين تأييدهما لموقف مصر وقضيتها ، كما تجلت وحدة المشاعر والعاطفة العربية من الشعوب العربية تجاه مصر واعلنت الدول العربية التى تتحكم فى انتاج وضخ البترول تأييدها ومساندتها لموقف مصر .

والسؤال المطروح هل تحققت كل استنتاجات عبد الناصر تجاه الأزمة أم ان تطورات الأحداث قلبت توقعاته راسا على عقب .

الواقع ان تقدير عبد الناصر للموقف قد جانبه الصواب فقد وقع العدوان على مصر بعد ثلاثة شهور وكان عبد الناصر يستبعده اذا تأخر شهرا ، واشتركت انجلترا وفرنسا فى العدوان على مصر مع اسرائيل مع انه كان يستبعد ذلك ولا يتوقعه [٤٨] . اذا ما هى الأسباب التى قلبت توقعات عبد الناصر وافسدت حساباته ؟

الواقع أن بريطانيا وفرنسا كانت لها حسابات اخرى فقد كانا يريان أن انهماك الحكومة الامريكية فى انتخابات الرئاسة وتطاحن الاحزاب من اجل الوصول الى السلطة قد يبعد الولايات المتحدة عن التفكير فى الأزمة او اتخاذ مواقف محددة تجاهها لذلك لم يخبرها احد بخطة العدوان ، بل حاول الانجليز والفرنسيين تشويش الأمور امامها وتضليلها حتى لا تتدخل فى المسألة . والى جانب ذلك فقد توقعا عدم اهتمام السوفيت بالمسألة خصوصا وان أمور القناة كانت لا تهمهم كثيرا ، كما انهم كانوا منهمكين فى مشاكل المجر والتطورات الجارية فيها .

وعلى اى حال فقبل حدوث العدوان عملت بريطانيا وفرنسا على تعمية الرأى العام العالمى واخفاء نواياهم العدوانية على مصر وذلك باصدار التصريحات المتلاحقة بالرغبة فى حل المشكلة بالطرق السلمية ، والقيام

بشن حرب دعائية عنيفة ضد مصر وشخص عبد الناصر بالذات ، والشكوى الى مجلس الأمن بأن مصر استولت تعسفا على قناة السويس خرقا للاتفاقات الدولية مما يعرض الملاحة فى هذا الممر الحيوى لاخطار داهمة ، والدعوة الى وضع القناة تحت ادارة دولية [٤٩] والتشجيع على انعقاد نادى المنتفعين لبحث المسألة . وخلال ذلك كانت خطط العدوان قد وضعت وحشدت القوات لغزو مصر [٥٠] ، ورسمت الخطة على الوجه التالى :

تقوم القوات الاسرائيلية بشن هجوم واسع النطاق على القوات المصرية فى سيناء أمام نقطة الكونتلا فى التاسع والعشرين من أكتوبر ١٩٥٦ بهدف قطع مواصلات الجيش المصرى والوصول الى منطقة قناة السويس ، وبعدها توجه الحكومتان البريطانية والفرنسية نداء بالتوازى الى الحكومتين المصرية والاسرائيلية يتضمن وقف جميع الأعمال الحربية ، وسحب كل القوات المسلحة من الطرفين الى مسافة عشرة أميال بعيدا عن القناة وقيام القوات الانجلو فرنسية مؤقتا باحتلال مواقع رئيسية فى كل من بور سعيد والاسماعيلية والسويس لضمان حرية المرور بها ، والقيام بالفصل بين المتحاربين حتى يتم الوصول الى ترتيبات نهائية واذا لم تستجيب القوات المتحاربة لهذا النداء خلال اثنتا عشرة ساعة تنتهى فى تمام الساعة السادسة والنصف من صباح الأربعاء الموافق ٣١ من أكتوبر فان القوات البريطانية والفرنسية سوف تستخدم القوة اللازمة لتنفيذ شروط الانذار[٥١] .

والمتفحص لشروط هذا الانذار يتضح له ان التحرك الاسرائيلى والانذار كان خيوطا مشتركة فى نسيج واحد فالانذار لم يوضع بهذه الصيغة الا لكى ترفضه مصر خصوصا وانه كان يحمل بين جنباته شبح التواطؤ وسوء النية ، والرغبة فى طعن مصر من الخلف . فليس من المنطقى أن تسحب مصر قواتها الى مسافة عشرة أميال غرب القناة ، وتوقف كافة الأعمال الحربية لصد القوات الاسرائيلية الغازية لأراضيها ، ثم تكافىء اسرائيل باحتلال سيناء والابتعاد فقط مسافة عشرة أميال شرق القناة بل المنطق العادل كان يحتم انذار اسرائيل بالعودة الى ما وراء الحدود ، والرجوع من حيث أتت ، ودعوة مصر الى وقف الأعمال الحربية حتى لا يحدث تعطيل لسير الملاحة فى قناة السويس ولكن بريطانيا لم تكن تريد وقف العدوان الصهيونى ، بل

كان هذا العدوان جزءا لا يتجزأ من الخطة المرسومة للغزو الثلاثى لمصر ، وللاطاحة بنظامها [٥٣] .

وفى جلسة لمجلس الوزراء المصرى بتاريخ الثلاثين من اكتوبر ١٩٥٦ انتهى الرئيس عبد الناصر الى رفض الانذار البريطانى الفرنسى شكلا وموضوعا لانه لم يكن مقبولا بضياع استقلال مصر الوطنى وعودة النفوذ البريطانى الى المنطقة [٥٣] .

ونتيجة لرفض مصر الانذار تزايدت احتمالات الخطر وبدأت موجات القصف الجوى على مدن مصر وقراها وامتد جسر من اسراب الطائرات تعمل ليل نهار من بريطانيا الى شرق البحر المتوسط مما ادى الى تخريب العديد من المنشئات والمرافق .

وحتى يحقق العدوان اهدافه ويتم وضع العالم امام الأمر الواقع قبل ان تستفحل الأمور وتتشابك ، راى قادة الغزو ان تكون الحرب سريعة وحاسمة بحيث يتم كل شىء فى خلال ثلاثة او اربعة ايام تحتل فيها مصر ، وتسقط حكومة عبد الناصر وتحل محلها حكومة تقبل كل شىء يطلب منها حتى لا يجرؤ احد على الاعتراض . مادامت الحكومة الجديدة قد تكونت وباركت الغزو .

ونتيجة للتطورات المتلاحقة دعا عبد الناصر الى اجتماع مع القادة العسكريين وبعض اعضاء مجلس قيادة الثورة لتقييم الموقف واعادة النظر فى خطط مصر العسكرية بعد ان اتضحت نوايا العدوان . وفى هذا الاجتماع كان الجو مشحونا بالقلق والتوتر واختلاف وتضارب الآراء ففى حين تبنى عبد الحكيم عامر موقف حتمية القتال ومواجهة المعتدين حتى آخر طلقة والى آخر رجل راى صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة ان حجم القوى المعتدية لاقبل لمصر بمواجهته ، وانه لا خيار امام عبد الناصر سوى ان يذهب الى السفير البريطانى ويسلم نفسه له وبسرعة قبل ان يتمكن الطيران المعادى من تدمير مرافق مصر الحيوية وتمزيق جيشها [٥٤] والحاق كارثة محققة بالبلاد . ولكن عبد الناصر الذى لم يفقد اعصابه خلال الاجتماع نجح فى سحب البساط من تحت اقدام المتشائمين ، ومضى فى شرح وجهة نظره

موضحا أن المستهدف هو مصر وشعبها واذا لم يقف الشعب المصرى بكافة فئاته فى مواجهة المعتدين فان مصيره سيصبح معرضا للضياع .

وفى أعقاب ذلك قرر عبد الناصر سحب قوات مصر الرئيسية من سيناء وارتدادها الى غرب القناة حتى لا تتعرض من الخلف لضربات الغزاة ، وتصبح هدفا للتطويق ، وحتى يمكن أن يشكل منها اداة ضاربة واحدة استعدادا لمواجهة هجوم بريطانى فرنسى على مصر قادما عبر البحر المتوسط فى اتجاه الاسكندرية أو بور سعيد لذلك صدرت الأوامر بعودة فرقتين من سيناء احداهما مدرعة والأخرى مشاه [٥٥] ، كما صدرت الأوامر ايضا بتوزيع السلاح على المواطنين حتى لا تصبح البلاد عزلاء عديمة المقاومة .

ولحفز همم العالم على سرعة التدخل فى الموقف ، صدرت الأوامر بتعطيل الملاحة فى قناة السويس [٥٦] مما ادى الى نقص واردات اوربا الغربية من البترول بمقدار ٣٠٠ الف برميل يوميا ، ووضع دول العالم امام واقع جديد ، وتسبب فى خسارة فادحة لحركة التجارة العالمية . وتفاديا لتأثير الأحداث على الشعب المصرى ، وعلى الرغم من فداحة الخطر ذهب عبد الناصر لتادية صلاة الجمعة فى الأول من نوفمبر بالجامع الأزهر ، وتحرك فى سيارة جيب مكشوفة بين هتافات الجماهير ، ووقف على منبر الأزهر ليعلن بصوت مشحون بالانفعالات « اننا جميعا سوف نقاتل ولن نستسلم ابدا ... سأقاتل معكم ضد اي غزو والى آخر نقطة دم .. وسنبنى بلدا وتاريخا ومستقبلا .. وسننتصر » .

وبعد أن أعلن عبد الناصر عن انشاء جيش التحرير الوطنى وفتح باب التطوع أمام المواطنين ، هبت جموع الشعب للذود عن حياض الوطن ، وتكاتفت قوى الشعب والقوات المسلحة للدفاع عن مصر وتم تشكيل جيش التحرير الوطنى من قوات الحرس الوطنى والفدائيين ، ووحدات المقاومة الشعبية ، وكتائب الشباب [٥٧] .

وعلى الرغم من تزايد شعبية عبد الناصر بين الناس الذين وجدوا فيه بديلا ثوريا للتعبير عن ارادتهم فقد برزت أمامه صعاب جديدة تمثلت فى اجتماع عدد من رجالات الاحزاب واتفاقهم على مطالبته بالتنحى عن منصبه

نظرا لان العدوان يستهدفه اكثر مما يستهدف مصر . ولكن عبد الناصر الذى لم تلن له قناة اصدر اوامره باعتقال الذين حضروا هذا الاجتماع وهم سليمان حافظ ومحمد صلاح الدين وغيرهم ، كما امر باعتقال عدد من السياسيين ومنهم فؤاد سراج الدين وابراهيم فرج حتى لا يستطيع هؤلاء التاثير فى الروح المعنوية لدى الجماهير او بث روح الدعاية المناهضة لعبد الناصر (٥٨) .

وعلى اى حال فبعد ان استمرت موجات القصف الجوى على مدن مصر وقراها طوال الفترة من ٣١ اكتوبر الى ٤ نوفمبر بدات قوات المظلات البريطانية الفرنسية تهبط ابتداء من اليوم الخامس من نوفمبر فوق المنطقة الشمالية من قناة السويس ، وتشتبك مع القوات المصرية والأهالى فى معارك بالاسلحة الصغيرة بينما كانت مدافع الاسطول الانجليزى الفرنسى تطلق نيران قنابلها الضخمة على مدينة بور سعيد وما حولها .

وفى فجر الخامس من نوفمبر تقدمت حاملات الجنود البريطانية والفرنسية تحت حماية مدافع الاسطول ، وبدات موجاتها تنزل على الشاطىء وتتسلل الى مدينة بور سعيد كى تصطدم معها قوات المقاومة الشعبية التى كانت بمثابة الوجه المشرق للشعب المصرى .

وخلال ذلك كثفت مصر جهودها السياسية لكشف وفضح حقيقة العدوان ونواياه فطالبت بعقد جلسة لمجلس الأمن للنظر فى وقف العدوان (٥٩) واثبتت لدول العالم مدى بشاعة العدوان ضد المدنيين الآمنين . كل ذلك ادى فى كل دول العالم الى اجتياح موجة من الغضب والسخط ضد المؤامرة، فهوجمت المنشآت والسفارات البريطانية والفرنسية فى معظم العواصم الافريقية والآسيوية ، وتعرضت مصالح المعتدين للخطر فى العالم العربى واشتعلت نيران الغضب فى كل قارات العالم ضد العدوان والى جانب ذلك تبنى البرلمان الانجليزى معارضة قوية تتربص بحكومة ايدن الدوائر ، وتوجه اليها التهم (٦٠) ، ووصلت المظاهرات ذروتها فى لندن وباريس تهتف بسقوط ايدن وجى موليه كما وقفت الحكومة السوفيتية موقفا حازما من العدوان . وخلال ذلك كان منبر الأمم المتحدة يشهد اعنف المناقشات .

وخشية من استفحال الأمر ، واتساع مسرح العمليات بتدخل اطراف أخرى فى النزاع وقفت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى معا اثناء التصويت ضد المعتدين حتى تم الاتفاق على مشروع القرار الكندى الذى يقضى بوقف العمليات الحربية ، وانشاء قوات طوارىء دولية لاعادة الأمور الى نصابها ، ومراقبة عملية انسحاب قوات العدوان ثم للمرابطة على خطوط الهدنة لمنع تجدد الاشتباكات بين مصر واسرائيل .

ومع ان قرار مجلس الأمن [٦١] نص على انسحاب المعتدين فى مدة لا تزيد عن الشهر فقد تجاهلت القوات المعتدية الأمر واخذت فى توسيع أماكن احتلالها وتثبيت أقدامها فمركز الفرنسيون وجودهم فى بور فؤاد ، والانجليز فى بور سعيد ، وأعلن القائد البريطانى ان انسحاب قواته فى هذه الفترة القصيرة لا يتفق مع الكرامة العسكرية ، وانه لابد من قيام قواته بتطهير القناة .

ونتيجة لذلك طلبت الحكومة السوفيتية من الولايات المتحدة القيام معا باخراج المعتدين من مصر بالقوة ولما لم تستجب الولايات المتحدة لهذا الطلب بعث الرئيس السوفيتى بولجانين كتابا الى رؤساء حكومات بريطانيا وفرنسا واسرائيل يدين العدوان ويطالب بتنفيذ قرارات الامم المتحدة بوقف القتال وسحب المعتدين فورا حتى لا تتحول الأمور الى حرب عالمية ثالثة ، كما انه اشار بكل وضوح بان الحكومة السوفيتية مصممة على اخراج المعتدين فورا ودون ابطاء وهدد بأن لندن وباريس ليستا بعيدتين عن مدى الصواريخ النووية السوفيتية [٦٢] .

والى جانب ذلك اعلن الاتحاد السوفيتى عن استعداده لارسال متطوعين الى مصر لانهاء الاحتلال [٦٣] .

وخشية من انفلات الأمور ، اتخذت الامم المتحدة قرارا مجددا فى الرابع والعشرين من نوفمبر يقضى باجلاء المعتدين فورا عن مصر . ونتيجة لكل ذلك وجدت الدول المعتدية نفسها واقفة ضد ارادة المجتمع الدولى وان عليها الانسحاب فورا ، لذلك بادرت قواتها بالانسحاب من بور سعيد ، وتم جلاء آخر فوج من القوات المعتدية فى مساء الثالث والعشرين من ديسمبر ١٩٥٦ بعد أن قضت فى احتلالها ثمانية واربعين يوما لم تنعم فيها بالراحة ،

بل كان يؤرقها دائما جهاد الفدائيين المصريين وهجماتهم ، وارتفع العلم المصرى فوق بور سعيد واصبح يوم الثالث والعشرين من ديسمبر يوما تحتفل فيه مصر كل عام بانتصارتها على المعتدين .

أما عن اسرائيل فانها تحدت قرار الانسحاب معلنة انها لن تنسحب الا اذا اخذت ضمانات لحرية مرور السفن الاسرائيلية فى خليج العقبة ، وعدم استخدام غزة كقاعدة ضدها ، وقد رفضت مصر أى شرط للانسحاب ، وتدخلت الحكومة الامريكية فى الأمر فضغطت على اسرائيل للانسحاب ، وضغطت على مصر لتبقى قوات طوارىء دولية فى شرم الشيخ حتى لا تتاح للقوات المصرية مستقبلا فرصة اغلاق خليج العقبة ، ومنع الملاحة فيه (٦٤) واخذت اسرائيل فى الانسحاب بعد تدمير وتخريب كل ما يصل اليها من منشئات سيناء .

وهكذا انتهى العدوان الثلاثى بالفشل الذريع ، وتحررت مصر من شبهة التحالف مع الغرب ، وبدات فى تطهير القناة حتى اعيد افتتاحها فى التاسع والعشرين من مارس ١٩٥٧ .

نتائج العدوان الثلاثى على مصر وزعامة عبد الناصر :

وضعت حرب السويس العالم بأسره أمام مرحلة جديدة من العلاقات الدولية ، وازدادت حدة المنافسة بين المعسكرين الغربى والشرقى ، وظهرت مصر كدولة لها ثقلها الكبير فى المنطقة العربية وفيما يلى نعرض لأهم النتائج :

١ — من الناحية السياسية :

أ — كان تأميم شركة قناة السويس بمثابة انقلاب تاريخى عالمى ونقطة تحول كبرى فى تاريخ التحرر العملى للشعوب ، حيث انهار مركز انجلترا وفرنسا فى الشرق الأوسط ، وتزايدت عوامل السخط ضدهما فى العالم العربى ، واستطاعت مصر انهاء كافة التزاماتها مع بريطانيا طبقا لاتفاقية الجلاء التى ابرمت فى ١٩ من اكتوبر ١٩٥٤ (٦٥) ، كما استطاع عبد الناصر أن يعلم شعوب العالم الثالث كيف تكون شجاعة الثورة .

٢ — ازدياد ثقة الشعب المصرى بقادته ، والتكاتف الكامل بين قوى الشعب واصراره على مواجهة شتى المواقف الصعبة .

٣ — ظهور القومية العربية كعامل مؤثر فى صنع الاحداث ، واثبات قدرة الأمة العربية على مواجهة التحديات ، اذا توفرت لها استراتيجية موحدة وسياسة عامة (٦٦) .

٤ — هيأ النصر السياسى فى جولة السويس ١٩٥٦ الدور القيادى لمصر لقيادة حركة التحرر فى افريقيا ، والوقوف مع القوى الثورية ضد الاستعمار فى اى بلد واى مكان الامر الذى أدى الى انهماك القدرات المصرية فى معارك مستمرة ضد الاستعمار (٦٧) .

٥ — بروز جمال عبد الناصر كشخصية دولية لها تاثيرها على مسرح الاحداث وازدياد مركزه داخل مصر وخارجها وارتفاع شعبيته الى مستوى لم يحصل عليه زعيم عربى فى العصر الحديث لدرجة ان اسمه أصبح يتردد فى الآفاق العالمية كرمز للوطنية المصرية والقومية العربية ، وحركات التحرر الوطنى فى آسيا وافريقية وامريكا اللاتينية .

٦ — كشف حقيقة اطماع اسرائيل التوسعية امام العالم العربى .

(ب) من الناحية الاقتصادية :

١ — تحرير الاقتصاد القومى المصرى بتمصير الشركات والمؤسسات الاجنبيــة .

٢ — ازدياد رصيد مصر من العملات الصعبة بتحصيل رسوم المرور بالقنـــال .

٣ — فتح أسواق تجارية مع دول الكتلة الشرقية وآسيا .

٤ — انشاء اسرائيل خط انابيب من ايلات إلى جنوب حيفا .

٥ — ضياع أرباح ضخمة من عائدات الاسهم التى تمتلكها الحكومتين البريطانية والفرنسية .

٦ — اهتمام مصر بمرافقها العامة والبدء فى بناء السد العالى (٦٨) .

(جـ) من الناحية العسكرية :

١ — فشل قوات العدوان فى احتلال مصر ، وزعزعة حكم عبد الناصر ، وتحطيم الجيش المصرى ، والاستيلاء على قناة السويس .

٢ — استمرار مصر فى استكمال تسليحها من دول الكتلة الشرقية والتوسع فى تعميم التدريب العسكرى خصوصا وان انتصارها فى المعركة كان سياسيا وليس عسكريا .

٣ — تسابق دول الغرب على التسلح الذرى والصاروخى بعد الانذار السوفيتى ، واتجاه بريطانيا لتخفيض قواتها فى منطقة الشرق الاوسط .

وفى النهاية يمكن القول ان العدوان الثلاثى على مصر انتهى بلا كسب سياسى أو عسكرى لأطراف العدوان بل حقق لمصر سيادتها واعاد لها كافة حقوقها ، وعصفت بايدن وجى موليه وغيرهما من قادة العدوان .

حقيقة لقد انتصرت مصر سياسيا ، ومع ذلك لا يستطيع احد ان ينكر ان اسرائيل ايضا حققت مكسبا هاما بالنسبة لها وهو حقها فى المرور بخليج العقبة .

٦ — الوحدة المصرية السورية ونشأة الجمهورية العربية المتحدة :

مصر وسورية من الاقطار العربية التى جمعت بينهما عوامل مشتركة وثيقة الارتباط منها التاريخية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والتى كانت تحتم ضرورة ايجاد صيغة عمل مشتركة ، واستراتيجية تعاون بين البلدين .

وبعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وتمسك مصر بالنضال ضد الاستعمار ودعوتها الى التمسك بالقومية العربية ازدادت عوامل التقارب بين البلدين ، واتفقا على التصدى لحلف بغداد ، وكافة الأحلاف العسكرية التى تؤدى الى ربط البلدان العربية بفلك الاستعمار ، كما اتفقا على تكوين قيادة عسكرية مشتركة واقامة تنظيم دفاعى بينهما ونتيجة لذلك عقد اتفاق عسكرى بين الدولتين فى الحادى والعشرين من اكتوبر ١٩٥٥ وبمقتضاه تقرر ان اى اعتداء على احداهما يعد موجها ضدهما معا ، ولتحقيق ذلك اتفقت مصر وسوريا على انشاء مجلس اعلى ، ومجلس للحرب ، وقيادة مشتركة وابرمت هذه الاتفاقية لمدة خمس سنوات وتأكدت بتوقيع اتفاقية التضامن العربى فى التاسع عشر من يناير ١٩٥٦ [٦٩] .

وبعد قيام الرئيس عبد الناصر بتأميم شركة قناة السويس وما تلاه من عدوان ثلاثي غادر على مصر تأكدت أواصر الوحدة والمصير المشترك بين البلدين فوقفت سورية بجانب مصر تشد من أزرها وتناصرها بشتى السبل والامكانات فوضعت موانيها ومطاراتها وقواتها تحت تصرف القيادة المصرية، كما قام العمال السوريون بنسف انابيب البترول التى تمر عبر بلادهم وتعمل لحساب الدول المعتدية والتى تسير فى فلكها .

ونتيجة للتعاون المشترك بين البلدين خلال العدوان الثلاثي ومرورا بالحصار الاقتصادى على مصر ثم نهاية بمشروع ايزنهاور فى عام ١٩٥٧ تعرضت سورية لضغوط قوية هددت أمنها وسلامتها ، فحشدت تركيا قواتها على حدود سورية ، ودبرت حكومة نورى السعيد فى العراق وحكومة كميل شمعون فى لبنان المؤامرات ضد سورية بهدف زعزعة الحكم الوطنى وابعادها عن التيارات التحررية ومن هذا المنطلق شعرت سورية ومصر بالحاجة الماسة لتوطيد كافة أواصر التعاون بينهما لمواجهة المد الاستعمارى والصهيونى الذى يسعى الى السيطرة على مقدرات الأمة العربية ونتيجة لذلك استمرت المحادثات بين الطرفين فقام وفد مصرى بزيارة دمشق والاشتراك فى مباحثات مع الحكومة السورية لوضع اسس الوحدة الاقتصادية بين البلدين ، كما توصلت لجنة الشئون العربية فى مجلس الأمة المصرى ، ولجنة الشئون الخارجية فى مجلس النواب السورى الى قرار بشأن قيام الوحدة بين البلدين تحقيقا لارادة الأمة العربية . والى جانب ذلك اجتمع مجلس القيادة فى الجيش السورى وتبنى الضباط الوحدويون والبعثيون طلب الوحدة . وعلى الطريق لتحقيق الوحدة بعث الرئيس السورى شكرى القوتلى برسالة الى الرئيس عبد الناصر يطلب فيها باسم الشعب السورى الاسراع فى تنفيذ الوحدة الاندماجية بين الشعبين المصرى والسورى ، كما قرر مجلس الوزراء السورى ايفاد صلاح الدين البيطار على رأس وفد الى القاهرة لاجراء المباحثات مع الحكومة المصرية حول تحقيق الوحدة .

وقد استقبل الرئيس عبد الناصر هذا الوفد واستمرت المباحثات والمراسلات بين القاهرة ودمشق حول ذلك الموضوع كما حضر الرئيس القوتلى الى القاهرة لبحث كافة التفاصيل الخاصة بموضوع الوحدة . ومع ان عبد الناصر كان يرى عدم الاسراع فى قيام وحدة اندماجية بين البلدين ،

فانه وافق فى نهاية الأمر على قيام الوحدة متخليا بذلك عن كل الدراسات التى اشارت الى التريث فى الامر وان كان قد وضع شروطا لقيام الـــوحدة اهمهـــا :

١ — حل الاحزاب السياسية القائمة فى سورية اسوة بالاوضاع القائمة فى مصر .

٢ — ابتعاد ضباط الجيش عن الاشتغال بالسياسة او ممارستها .

وفى الثامن والعشرين من يناير ١٩٥٨ اعلن الرئيس القوتلى فى دمشق « انه ليسعدنى ان احقق رسالة العرب القومية فاسلم الأمانة الفاليـــة يدا بيد الى الرئيس جمال عبد الناصر الشاب الممتلىء عروبة وحماســـة واخلاصا للامة العربية » .

وفى الحادى والثلاثين من يناير ١٩٥٨ اجتمع مجلس الوزراء المصرى والسورى فى القاهرة لاتمام موضوع الوحدة ، وفى الأول من فبراير ١٩٥٨ أعلن عن قيام الجمهورية العربية المتحدة كخطوة اولى نحو تحقيق الوحدة العربية الشاملة ، وفى الثانى والعشرين من فبراير وافق مجلس الأمة المصرى ومجلس النواب السورى على قيام الجمهورية العـــربية المتحـــدة كـــدولة ديمقراطية مستقلة ذات سيادة تتكون من اقليمين هما سورية ومصر على أن يكون لها علم واحد ، ويتولى السلطة التنفيذية فيها رئيس الجمهـــورية يعاونه وزراء يكونون مسئولين امامه كما يتولى السلطة التشريعية مجلس تشريعى واحد يطلق عليه مجلس الأمة وان تكون القاهرة هى العاصمة .

وبعد أن تم الاستفتاء على الوحدة القى الرئيس شكرى القوتلى بيانا أعلن فيه ترشيح جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية العربية المتحدة ، وصدق مجلس النواب السورى على ذلك الترشيح بالاجماع .

ولقد كان لخبر اعلان الوحدة وقيام الجمهورية العربية المتحدة صدى كبير فى الأوساط العربية والعالمية بين مؤيد ومعارض ففى حين ابتهجت شعوب الأمة العربية بهذا الاعلان واعتبرته الطريق الى الوحدة العـــربية الشاملة انزعجت العناصر الرجعية داخل العالم العربى من هذه الخطوة

واعتبرتها بداية الطريق للقضاء على نفوذها وامتيازاتها واستعانت بالدول الاستعمارية من اجل القضاء على هذه الدولة الناشئة ، والى جانب ذلك رأت اسرائيل فى قيام هذه الوحدة عائقا قويا امام أهدافها التوسعية .

وعلى اى حال فقد كان قيام الجمهورية العربية المتحدة بداية لتكوين كيان اقتصادى وسياسى وعسكرى قوى زاد من شعور العرب بعـــزتهم وكرامتهم ونجح فى احكام طوق الحصار على اسرائيل .

ونتيجة للحماس العربى المتزايد الذى صاحب قيام الوحدة تقـــدمت اليمن تطلب الانضمام الى الوحدة الجديدة فى أمور التمثيل السياسى والدفاع والصحة والتعليم وتم توقيع ميثاق الاتحاد بين الطرفين فى الثامن من مارس ١٩٥٨ على أساس قيام اتحاد كونفدرالى[٦٩] وعلى أن تكون رئاسة مجلس الاتحاد سنوية بالتناوب بين الدول الاعضاء .

والجدير بالذكر ان الوحدة الاندماجية بين مصر وسورية لم تعمر طويلا للاسباب الآتية :

١ ـــ تربص الاستعمار والصهيونية بهذه الدولة الناشئة ومحاولاتهما الايقاع بها .

٢ ـــ ان هذه الدولة كانت تفتقد الى الوحدة الجغرافية فمصر وسورية لا يربط بينهما حدود برية مباشرة مما دعم عوامل الانفصال وجعل الاتصال بينهما غير كامل .

٣ ـــ الاستعجال فى تحقيق خطوات الوحدة ، قد أوقعها فى العديد من الثغرات والاخطاء .

ونتيجة لذلك وقع الانفصال فى الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٦١ .

٧ ـــ حرب الخامس من يونيو ١٩٦٧ :

قبل يونيو ١٩٦٧ كان العرب لا يعرفون اسرائيل بالقدر الذى كانت تعرفهم به مما ادى الى نجاح الصهاينة فى تحقيق انتصار على العرب اكبر

مما كانوا يستحقون وجعل الأمة العربية تصاب بهزيمة فادحة اكبر من كل التوقعات .

حقيقة لقد كانت الفجوة واسعة بين الجيوش العربية التى كان قادتها يتخذون من وظائفهم طريقا للحياة السياسية والجيش الاسرائيلى الذى كان يطبق مبادىء الحرب الحديثة وحقيقة كانت الخلافات على أشدها بين القادة العرب كما ان توقيت ما حدث كان غير موات للدخول فى مغامرة غير مأمونة العواقب سواء على الجوانب العسكرية او السياسية خصوصا وان القوات المصرية كانت فى معظمها مشغولة فى حرب اليمن التـــى استنـــزفت معظم قدراتها ، وان المواقف المتناقضة بين القيادتين المصرية والأمريكيـــة كانت واضحة ومع كل ذلك فان ما حدث كان مفاجأة مذهلة للانسان العربى الذى تم شحنه بالشعارات المثيرة والزائفة ثم وجد نفسه فجاة امام افـــدح هزيمة عسكرية حطمت آماله والتهمت رجاله ومعداته .

وطبقا لسيناريو الأحداث نذكر ان مصر طبقا لاتفاقية الدفاع المشترك هبت لمساندة سورية ضد الحشود الاسرائيلية على حدودها وفى مواجهة الصيحات التى كانت تتهددها بالغزو على لسان ليفى اشكول رئيس وزراء اسرائيل وبعض قادته العسكريين فأعلنت حالة الاستعداد القصوى للقتال فى السادس عشر من مايو ١٩٦٧ وبدأت القوات المصرية تتجمع فى سيناء استعدادا لخوض المعركة ضد اسرائيل اذا تعرضت سورية لاى عدوان ، كما كلفت القيادة السياسية فى مصر الفريق أول محمد فوزى رئيس أركان حرب القوات المسلحة — فى ذلك الوقت — بارسال خطاب الى الجنرال الهندى (ريكى) قائد قوات الطوارىء الدولية — التى كانت موجودة فى سيناء لتكون فاصلا بين مصر واسرائيل منذ خروج القوات الاسرائيلية من سيناء بعد عدوان ١٩٥٦ — بسحب هذه القوات وانهاء وجـودها على الاراضى المصرية . وبعد اتصالات تمت بين مصر والمستر يوثانت السكرتير العام للامم المتحدة اجيبت مصر الى طلبها وبدأ الجنرال (ريكى) فى سحب قواته ، وتسلمت القوات المصرية مواقعها فى منطقة شرم الشيخ المطلـــة على خليج العقبة وغيرها من المناطق .

ولم يتوقف تصعيد الموقف عند هذا الحد بل اعلنت الحكومة المصرية

فى الثالث والعشرين من مايو اغلاق خليج العقبة فى وجه الملاحة الاسرائيلية، وحظر مرور البضائع الاستراتيجية الى اسرائيل ولو كانت على بواخر غير اسرائيلية ، ومنع ناقلات البترول المتجهة الى ميناء ايلات على اختلاف جنسياتها ، وصدرت التعليمات المفصلة الى كل السفن والبواخر القادمة الى خليج العقبة باتباع القواعد التى تقررها السلطات المصرية حفاظا على سلامتها خاصة وان بعض المواقع داخل مياه مصر الاقليمية قد وضعت فيها الغام بحرية . ونتيجة لذلك تحول الصراع مع اسرائيل من قضية تهديد لسوريا وحشد القوات المصرية فى سيناء الى قضية اغلاق أحد الممرات البحرية فى وجه الملاحة الاسرائيلية ، واتخذ هذا النبأ مكان الصدارة فى صحف العالم مقترنا بحملة اعلامية مضادة ضد مصر وهيأ لاسرائيل الأسباب والمبررات التى استندت اليها فى اتخاذ قرار الحرب فقد اتهم رئيس وزرائها ليفى اشكول مصر بخرق القانون الدولى ، واوضح ان اسرائيل لا تستطيع قبول هذا القرار ، وانها سوف تحارب دفاعا عن كيانها وبالفعل تشكلت وزارة حرب فى اسرائيل عين فيها « موشى ديان » وزيرا للدفاع ، كما اعلنت التعبئة العامة فى اسرائيل وتم استدعاء المتطوعين اليهود فى الولايات المتحدة وأوربا للمشاركة فى التعبئة .

وقد ردت مصر على ذلك بأنها على استعداد للحرب ومواجهة اسرائيل، وانها سوف تضرب بكل قوة اى حركة عدوانية فى اى اتجاه ، وفى اى ميدان ، كما بدات اجهزة الاعلام المصرية تدق طبول الحرب وتواصل الهاب مشاعر الجماهير معلنة أن مصر ستدمر اسرائيل لو بدات بالعدوان .

وفى محاولة للحد من تدهور الموقف ، وحتى لا تصبح الحرب امرا لا مفر منه قام سكرتير عام الأمم المتحدة بزيارة لمصر فى الرابع والعشرين من مايو وقابل الرئيس عبد الناصر كما قابل محمود رياض وزير الخارجية بقصد البحث عن طريق للسلام ، ولكنه لم يوفق فى مساعيه .

وفى الثانى من يونيو عقد الرئيس عبد الناصر اجتماعا بمكتب المشير عامر بالقيادة العليا للقوات المسلحة بمدينة نصر حضره كبار قادة القوات المسلحة وبعض السياسيين وخلال ذلك تم استعراض الموقف السياسى والعسكرى وتوقع عبد الناصر قيام الحرب مع اسرائيل بنسبة مائة فى المائة

واوضح ان اسرائيل ستبدا بالهجوم خلال يومين او ثلاثة اى فى الرابع او الخامس من يونيو ، وانها ستبدا هجومها بضربة جوية مفاجئة بهدف شل قدرات قوات الطيران المصرى ودفاعات مصر الجوية ، واوضح انه لاعتبارات سياسية يتحتم على مصر أن تترك المبادأة للعدو ، وتستعد لتلقى الضربة الجوية ، واتخاذ ما يلزم لتقليل خسائرها حتى يمكن بعد ذلك توجيه ضربة جوية رادعة ضد اسرائيل . وعلى الرغم من ذلك لم يأخذ القادة العسكريون توقعات عبد الناصر مأخذ الجد وفى ضربة مباغته قامت القوات الجـوية الاسرائيلية بغارات مكثفة على المطارات المصرية فى الخامس من يونيو ١٩٦٧ نجحت خلالها فى تدمير معظم الطائرات المصرية وهى جاثمة على الأرض ، وفى أعقاب ذلك اصيبت جبهة القتال فى سيناء بانهيار شامل ، ودبت حالة من الفوضى العارمة بين القوات نتيجة لصدور أوامر من المشير عبد الحكيم عامر فى السادس من يونيو ١٩٦٧ بالانسحاب دون وضع خطة تكتيكيـــة منظمة له فانسحب الجيش المصرى من سيناء انسحابا باهظ الثمن فظيعا فى منظره ونتائجه وآثاره بل كان عبارة عن مجزرة بشرية رهيبة خاصـــة وان الأمر بالانسحاب السريع لجيش كبير انتشر فى الصحراء ، واتخذ مواقعه بمعداته الثقيلة تحت وابل من نيران العدو يعد بمثابة قرار اهــوج غير مدروس مما أدى الى تحول الجيش النظامى الى شراذم مبعثرة لا هدف لها سوى النجاة بانفسها دون اية محاولة للصمود أمام العدو ، تاركة اسلحتها ومعداتها غنيمة للقوات الاسرائيلية دون اطلاق طلقة واحدة والى سيطرة العدو على قطاع غزة والزحف على سيناء والوصول الى الضفة الشرقية من قناة السويس .

وعلى جانب الجبهات العربية تمكنت القوات الاسرائيلية من الاستيلاء على هضبة الجولان السورية ، والسيطرة على مدينة القدس العـــربية والضفة الغربية لنهر الأردن ونتيجة لالحاح من مصر ، ومحاولات مستميته من الدول الصديقة للعرب تم دعوة مجلس الأمن لعقد دورة استثنائية عاجلة بحث خلالها الموقف وصدر القرار رقم ٢٣٤ فى السابع من يونيو الذى يطالب بالوقف الفورى لاطلاق النار .

وفى أعقاب ذلك ووسط شماتة الاعداء وذهول الاصدقاء لما حـــدث سعى مجلس الأمن لايجاد حل جذرى للمشكلة . وبعد مشاورات ومداولات

وخلافات بين أعضاء المجلس تمكن المجلس فى نهاية الأمر من اصداره قراره رقم ٢٤٢ فى الثانى والعشرين من نوفمبر ١٩٦٧ والذى يقضى بانسحاب اسرائيل من الأراضى التى احتلت وانهاء حالة الحرب بين دول المنطقة واحترام السيادة الاقليمية والاستقلال السياسى لكل دول المنطقة ، وحقها فى العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها ، كما نص القرار على ضمان حرية الملاحة فى الممرات الدولية وتسوية مشكلة اللاجئين وان يقوم الأمين العام للامم المتحدة بتعيين ممثل خاص له للذهاب الى الشرق الاوسط لاقامة اتصالات مع الدول المعنية بهدف الوصول الى اتفاق ومساعدة الجهود لتحقيق تسوية عملية ومقبولة على أساس النصوص والمبادىء التى تضمنها القرار [٧٠] ولتحقيق ذلك تم تعيين الدكتور جونار يارنج سفير السويد فى موسكو ممثلا خاصا للسكرتير العام للقيام بالاتصالات المناسبة فى محاولة لتسوية المشكلة غير أن جهوده لم تكلل بالنجاح وتوقفت مهمته نتيجة لرفض اسرائيل التعهد بالانسحاب من الأراضى العربية التى احتلتها واعلانها عن رغبتها فى الاحتفاظ ببعض هذه الأراضى تحت دعوى الحدود الآمنة لها [٧١] .

والسؤال المطروح لماذا تصر اسرائيل على عدم تطبيق القرار ، وتجد بعض الآذان الصاغية فى المجتمع الدولى تساندها ؟

الواقع ان القرار ٢٤٢ حمل بين طياته بعض عناصر الابهام واختلفت فيه الآراء مما جعل اسرائيل تستغل ذلك الى ابعد الحدود فاسرائيل ترى ان القرار ربط تعليق الانسحاب من الأراضى العربية بتحقيق ما يكفل لها حدودا آمنة خلافا لوضعية الاراضى العربية التى تم احتلالها فى عام ١٩٦٧، وان القرار يطالبها بالانسحاب من ارض عربية وليس كل الأراضى المحتلة مستندة فى ذلك الى النص الانجليزى للقرار الذى يقول :

With drawal of Israli armed Forces Form territories occupied in the recent Conflict .

وترجمته انسحاب القوات الاسرائيلية من اراضى احتلت فى القتال الاخير . فى حين تصر الأطراف العربية على أن القرار يعنى استرداد كل الأراضى التى تم احتلالها فى عام ١٩٦٧ .

وعن موقف المجتمع الدولى من القرار فانه يربط استرداد الأراضى العربية باقامة سلام دائم مع اسرائيل يكفل وجودها ، اما ما يتردد حول هل ينبغى اعادة كل او بعض الاراضى المحتلة ففى تصورنا أن اغتصاب أراضى الغير بالقوة يتناف مع ميثاق الأمم المتحدة ، كما يتناف مع كل الأعراف الدولية ويكفى لدحض هذا الادعاء ان نذكر ما ورد فى مقدمة القرار من ان مجلس الأمن يؤكد عدم جواز الاستيلاء على اراضى الغير عن طريق الحرب، كما أن نصوص اللغات غير الانجليزية التى حرر بها القرار تؤكد ان الانسحاب يشمل جميع الاراضى .

وهكذا تسببت حرب يونيو ١٩٦٧ فى مهانة للامة العربية لا نزال تتجرع من كأسها ، وتحصد ما جنته ايدى قادتها الذين لم يقدروا عواقب تسرعهم وانفعالاتهم وخططهم غير المدروسة وحتى تكون الاستفادة مما حدث نبراسا للاجيال الحاضرة يمكننا ان نرجع اسباب الهزيمة فيما يلى .

١ — ان الأمة العربية خاضت المعركة من خلال واقع الصراعات والتجزئة التى كانت تفرق بين قادتها وتبدد قواها وتهدد طاقتها فلم تكن هناك جبهة عربية موحدة ، ولم تستغل امكانات العرب العسكرية جميعها فكانت معظم القوات المصرية منهكة القوى فى حرب اليمن ولم تكن هناك خطة عسكرية متكاملة قابلة للتنفيذ على مستوى العالم العربى بحيث تستغل الامكانات العربية سواء اكانت عسكرية او اعلامية او جغرافية أو اقتصادية بطريقة سليمة .

٢ — ان العرب كانوا يواجهون عدوا يعرف عنهم اكثر مما يعرفونه عنه ، وانه تلقى امدادات عسكرية وتكنولوجية تفوق قدراتهم وان هذا العدو تصرف فيما حصل عليه من امكانات ببراعة ومقدرة فائقة ، والى جانب ذلك نان هذا العدو اختار أن يفاجئنا بالتحدى فى ظروف غير مواتية للامة العربية من الناحيتين السياسية والعسكرية واستطاع استدراج قادتنا الى مصيدة يونيو وان يحشد كل الأوراق بين يديه لينزل بنا ضربة عسكرية قاسية ، وليفرض على قواتنا خوض معركة غير متكافئة .

ونتيجة لما حدث ، وعلى الرغم من محاولات الجانب المنتصر املاء شروطه وبث روح القنوط والياس فى الجانب العربى ، وبالرغم من مشاعر

الآلم التى انتابت الشعب المصرى ، وانفترة حالكة السواد التى عاشــتها مصر فى اعقاب الحرب فقد فشلت كل محاولات الاحباط فى التسرب الـى نفوس المصريين ، فرفض الانسان المصرى الهزيمة واصر على الصـمود والنضال من اجل استرداد الحق المسلوب ، واعادة الكرامة التى اهدرت ، وكانت مشاعر الالم التى انتابته بمثابة الوقود الذى دفعه للعمل من اجل محو العار الذى الم بالأمة فدخل الى القوات المسلحة ما يزيد عن مليونى شاب دربوا على السلاح وتعرضوا لتجارب الحياة القاسية فى الصـحراء وصهرتهم التدريبات الشاقة واثقين ان ما اخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة مما مهد لقيام حرب اكتوبر ١٩٧٣ .

٨ ــ حرب اكتوبر ١٩٧٣ :

كان اول درس من دروس هزيمة حرب ١٩٦٧ هــو ضرورة تجنب المفاجاة والتعرف على العدو بشكل اوضح ، والاصرار عــلى الصـمود والنضال لاسترداد الحق بالقوة فما ان انتهت المعركة حتى راحت الدول العربية تكثف جهودها السياسية والدبلوماسية واسعة النطــاق لــرفض الهزيمة وايجاد تسوية مقبولة للنزاع وفى نفس الوقت بدات دول المواجهة مع اسرائيل تعيد بناء قواتها المسلحة بكل اصرار وعزيمة فجرت عملية بناء القوات المسلحة بكفاءة هائلة انتظارا ليوم الحسم وبمفهوم جديد يتناسب مع المهام المنتظرة ونتيجة للتعنت الاسرائيلى ورغبته فى فرض الأمر الواقع بكل ما يحمله من اجحاف تحطمت شتى جهود التسوية السلمية ففشــلت جهود جونار يارنج فى ايجاد حل سلمى للازمة ، كما لم يســتطع مشروع السلام الذى قدمه الاتحاد السوفيتى فى يناير ١٩٦٩ اقناع اسرائيل بتسوية النزاع بالطرق السلمية . ونتيجة لاصرار العدو على فرض شروطه عــلى العرب فى اطار مفاوضات مباشرة معهم رات مصر تحريك جمود الموقف بشن حرب استنزاف مع اسرائيل فيما بين سبتمبر ١٩٦٨ ويوليو ١٩٧٠ ، وقــد استطاعت القوات المصرية ان تشن هذه الحرب عبر قناة السويس بنجاح فوجهت ضربات مستمرة فى اماكن متفرقة على خط المواجهة لدرجة ارتفعت فيها خسائر اسرائيل من الافراد والمعدات بشكل ملحوظ ، كما صــدقت القيادة السياسية على البدء فى الخطة المعروفة لدى العسكرين جرانيت رقم (١) وهى الخطة التى تم رسمها لعبور القوات المصرية للقناة على خمطة

محاور [٧٢] وفى مواجهة هذا الموقف بدأ العدو فى تركيز نشاطه الجوى على العمق حتى مشارف القاهرة بهدف تحطيم الجبهة الداخلية .

ونتيجة لتصاعد الموقف تقدم المستر روجرز وزير الخارجية الامريكى بمبادرة فى الخامس من يونيو ١٩٧٠ بهدف ايقاف حرب الاستنزاف والبحث عن حلول جديدة للسلام فنصت المبادرة على نقطتين هما الانسحاب ووقف اطلاق النار لمدة تسعين يوما يجرى فيها وسيط الأمم المتحدة المفاوضات بين الاطراف المعنية من اجل تسوية المشكلة ، وعلى الرغم من قبول عبد الناصر للمبادرة ، فان جهود روجرز تحطمت أمام الضغوط الاسرائيلية، وبدات حالة اللا سلم واللا حرب تسود المنطقة .

وبعد وفاة عبد الناصر وتولى انور السادات رئاسة الجمهورية بدا التفكير فى تحريك القضية سلميا بمبادرة تقوم بها مصر فاعلن الرئيس السادات فى الرابع من فبراير ١٩٧١ انه على استعداد لفتح قناة السويس للملاحة العالمية مقابل انسحاب جزئى للقوات الاسرائيلية كمرحلة اولى من الانسحاب الكامل تبدأ مصر خلالها فى تطهير القناة واعادتها للملاحة [٧٣] .

وعلى الرغم من ترحيب العالم بهذه الفكرة فقد رفضتها اسرائيل واعلنت عن تمسكها بالأراضى المحتلة ، ورغبتها فى أن يكون الاتفاق على اعادة فتح قناة السويس منفصلا عن موضوع الصراع العربى الاسرائيلى .

وفى حين استمرت مصر فى جهودها لتحقيق سلام عادل فى المنطقة عن طريق مطالبة المجتمع الدولى بتحمل مسئولياته عزمت اسرائيل على فرض سياسة الأمر الواقع والتلويح باليد العليا وذراع الردع الطويلة مما جعل القيادة المصرية تتيقن صحة المبدأ القائل « ما اخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة » وان جمود الموقف لا يكسره الا استخدام السلاح لتحرير الأراضى وتحقيق السلام العادل المنشود [٧٤] . ومن اجل ذلك اعدت مصر خططها المنشودة للحرب فاستمرت القوات المسلحة المصرية فى تدريباتها الشاقة العنيفة فى ظروف بالغة الصعوبة والتعقيد خاصة وان اسرائيل كانت تمارس كافة ضغوط الارهاب النفسى ضدها وتحاول التشكيك فى قدرات مصر

وامكاناتها لدفعها الى التخلى عن واجبها الوطنى ، والى جانب ذلك كانت القوات الاسرائيلية لا تزال تتمتع بميزة التفوق الجوى وتتزود بأحدث اسلحة الحرب الانكترونية يضاف الى ذلك أن وجود خط بارليف والساتر الترابى كان يشير الى صعوبة مهمة المقاتل المصرى .

وعلى الرغم من كل ذلك فقد إقتنع افراد القوات المسلحة المصرية بأن القتال ضرورة حتمية لاسترداد الحقوق المغتصبة واسـترجاع الأرض المحتلة ، ومحو عار الهزيمة وان ذلك لا يتأتى الا بالتركيز على واقعيـة التدريب ، واستيعاب السلاح ورفع قدرة المقاتلين للسيطرة الكاملة عليه والى جانب ذلك بـدات القيـادة المصرية فى اعـداد الجبهـة الداخليـة لتقبل التضحيات ، وحماية الخطوط الخلفية للقوات المسلحة وحتى يمكن تهيئة الرأى العام العالمى التى تأثرت رؤيته للصراع بحرب يونيو ١٩٦٧ قامت القيادة السياسية بتكثيف جهودها خصوصا بعد أن تأثرت القضية بتطور علاقات التفاهم بين القوى العظمى بعد زيارة الرئيس الأمريكى نيكسون للصين والاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٧٢ وما اسفر عنهما من رغبـة فى استرخاء الموقف العسكرى فى منطقة الشرق الأوسط والتهوين من شـأن العرب ، ووضع قضاياهم على الرف [٧٥] .

وبعد ان تكاملت صورة الموقف ، وبذلت كافة الجهـود السياسية والعسكرية بدات القيادة المصرية بالاشتراك مع القيادة السورية فى اعداد خطط الهجوم لتحرير الأرض فى اطار من السرية المطلقة ، وقد صاحب ذلك العمل خداع استراتيجى وتعبوى شـاركت فيه كافة الجهـات صـاحبة الاختصاص وفى اعقاب ذلك تم دراسة عملية اختيار التوقيت المناسب لتحديد ساعة الصفر بالنسبة للجبهتين المصرية والسورية معـا وفى اجتماع تـم بالاسكندرية فى اغسطس ١٩٧٣ اختير «يوم كيبور » اى يوم الغفران او التكفير عند اليهود وكان يوافق السادس من اكتوبر موعدا لعبور القنـاة وتحرير الأرض العربية . ويرجع اختيار هذا اليوم بالذات الى انه اليوم الذى تصاب فيه الحياة فى اسرائيل بشلل شبه تام ، كما انه فى نفس الوقت يوافق العاشر من رمضان ذلك الشهر صاحب التأثير المعنوى القوى على المسلمين .



فضلا عما يمكن تحقيقه من مفاجأة حيث يصوم فيه المسلمون ولا يتوقع العدو فيه قيام القوات المصرية بالهجوم عليه وزيادة فى خداع العدو حتى تكتمل المفاجأة اختير قلب النهار وفى وضحه بداية للعبور وليس كما هو متبع فى الحروب أول ضوء فى الشروق أو آخر ضوء فى الغروب فتحددت الساعة الثانية وخمس دقائق بعد الظهر كساعة للصفر حيث انطلقت الشرارة وبدات خطة « بدر » حسب تعبير العسكريين [٧٦] ، وكانت المفاجأة للعدو فى الجو والبر والبحر فقامت مائتا طائرة على ارتفاع منخفض جدا بالضربة الأولى على جميع مواقع ومطارات العدو المؤثرة فى سيناء ، ومائة طائرة بالضربة الأولى على الجبهة السورية ، وقامت المدفعية تهدر بطلقاتها المتلاحقة على امتداد الجبهة للتمهيد للعبور ثم بدأ الهجوم الأول بنزول اطقم اقتناص الدبابات الى الماء وصرخة الايمان المدوية « الله اكبر » تهز الأجواء ثم أخذت باقى القوات المصرية تنزل الى قوارب المطاط وغيرها وتعبر الى سيناء تحت ساتر من النيران ، ولم تنجح مقاومة العدو من نقاطها الحصينة بخط بارليف فى صد الهجوم بل اذهلتها المفاجأة ، واخذت القوات المصرية تواصل اقتحامها للنقط الحصينة للعدو بالمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية وتحررها وتقوم برفع الاعلام المصرية عليها وخلال ذلك تمكن سلاح المهندسين من بناء الجسور التى عبرت عليها الدبابات خصوصا فى قطاع الجيش الثانى، وتحركت القوات البحرية لضرب الاهداف البحرية الاسرائيلية على شواطىء البحرين المتوسط والأحمر ، وبدات القوات المصرية فى تعميق وتوسيع وضم رؤوس الكبارى حتى تزايد عدد الجنود العابرين للقناة الى اكثر من خمسين الف مقاتل . وقد نجحت مظلة صواريخ الدفاع الجوى فى صد هجمات العدو الجوية ، كما فشلت هجمات العدو المضادة لوقف زحف القوات المصرية [٧٧] مما افقد العدو المتغطرس توازنه ، وزاد من ارباكه واعاد للامة الجريحة شرفها بعد أن سيطرت القوات المصرية على الجانب الشرقى للقناة ونجحت فى عبور سيناء .

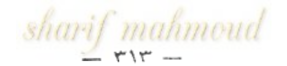
وبعد التقاط العدو لانفاسه بدا فى هجومه المضاد واسرع فى طلب النجدة من يهود اوربا والولايات المتحدة وبدات اسرائيل تجد نفسها ولاول مرة تخوض حربا دفاعية ضد القوات المصرية على طول جبهات القتال .



وخلال ذلك ازداد تماسك الجبهة الداخلية فى مصر واستمرت فى العمل لزيادة الانتاج واستعدت لتقبل التضحيات مما كان له اكبر الاثر على حفز طاقات المقاتلين ، كما كان لوحدة الصف والتآزر بين الدول العربية الذى تجلى فى أروع صورة خلال المعركة اكبر الاثر فى تمكن الامة العربية من اثبات ذاتيتها أمام العالم . فقد هبت الأمة العربية للمساهمة فى المعركة بجنودها وسلاحها ودعمها ، كما استخدم العرب سلاح البترول بفعالية لأول مرة مما نقل القضية من الجمود الى الحركة السريعة ، وجعل العرب يستردون ثقتهم فى أنفسهم ويستعيدون كبرياءهم وخلال ذلك عقد مجلس الأمن دورة طارئة فى الثامن من اكتوبر لمناقشة الموقف ، وبعد مداولات طويلة ومعقدة توصل المجلس الى اصدار القرار رقم ٣٣٨ فى الثانى والعشرين من اكتوبر ١٩٧٣ والذى تضمن وقف القتال ودعوة الأطراف المعنية الى بدء المفاوضات فورا بهدف اقامة سلام عادل ودائم فى الشرق الأوسط .

وفى محاولة من اسرائيل للتقليل من شان ما حدث حاولت قواتها التسلل لاحتلال بعض المواقع المصرية غرب القناة والاقتراب من مدينة الاسماعيلية وقد تمكنت القوات المصرية من ايقاف تقدم العدو كما تمكنت بالتعاون مع عناصر الدفاع الشعبى وقوات الشرطة والأهالى من حصر قوات العدو فى قطاع ضيق ملاصق للقناة شمال البحيرات المرة وفى مناطق الاشجار والاحواش .

والى جانب ذلك قامت قوات العدو فى الثالث والعشرين من اكتوبر بخرق اتفاقية وقف اطلاق النار ودفع جماعات صغيرة من الدبابات والمشاه الميكانيكية عبر المسالك الجبلية والمدقات وحاولت اقتحام مدينة السويس والاستيلاء عليها ، وعلى الرغم من توغل دباباتهم الى قلب المدينة فقد كانت المقاومة ضدها عنيفة جدا حيث تكاتف شعب السويس بكل طوائفه وطبقاته ومختلف اعماره مع قواته المسلحة فى الذود عن حياض المدينة ببسالة منقطعة النظير ، وكبد العدو خسائر فادحة مما اضطره الى التراجع (٧٨) وجعل وضعه فى غرب القناة بمثابة رهينة فى قبضة القوات المصرية ثم جاء اتفاق



الفصل بين القوات ، وانتهت عملية الثغرة التى اطلق عليها اغلب المحللين انها لم تكن انجازا عسكريا بقدر ما كانت عملا اعلاميا يشبه الدعاية التلفزيونية .

وفى النهاية يمكن القول ان الانجاز الضخم الذى حققته القوات المسلحة المصرية باجتيازها أصعب مانع مائى وتحطيمها لخط بارليف لسوف تظل على امتداد الاجيال القادمة موضع فخر واعتزاز وتقدير لانها عكست وبحق إرادة وتصميم المقاتل المصرى ، واثبتت قدرته على استخدام الأسلحة الحديثة بمقدرة ومهارة هذا الى جانب ان حرب اكتوبر ١٩٧٣ اثبتت فشل نظرية الأمن الاسرائيلى ، واسطورة اسرائيل التى لا تقهر وجعلت الاسرائيليين يدركون أن الحدود الآمنة قد لا تضمن بالضرورة امنهم ، كما اظهرت للعرب أن التنسيق فى المواقف بينهم يمكنهم من تحقيق اهدافهم وان قوتهم الذاتية هى الضمان الوحيد لاسترداد حقوقهم فقد تمكنوا من قلب الموازين العالمية راسا على عقب بعد توقفهم عن تصدير البترول ، فتفجرت مشكلة الطاقة وانقلبت أحوال سوق المال العالمية وشغل العرب مكانهم تحت الشمس . ونتيجة لذلك نشطت فعاليات هيئة الأمم المتحدة بعد حرب اكتوبر فدعت الأطراف المعنية الى حضور مؤتمر دولى بمشاركة الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، وقد اختيرت مدينة جنيف السويسرية كمقر لانعقاد المؤتمر . وخلال ذلك اعربت مصر عن استعدادها لتنفيذ كل الالتزامات المترتبة على قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ . هذا وقد تم الاتفاق بين مصر واسرائيل فى الثامن عشر من يناير ١٩٧٤ على فك الاشتباك بين القوات المصرية والاسرائيلية فى سيناء باعتباره خطوة اولى نحو التسوية الشاملة ، ثم عادت الدولتان وابرمتا اتفاقية فك اشتباك ثانية فى اول سبتمبر ١٩٧٥ باعتباره خطوة جديدة لاقامة سلام دائم فى المنطقة .

ونتيجة لاختلاف وجهات نظر بعض الأطراف العربية حول السلام وامكانيات مؤتمر جنيف على تحقيقه وانعدام الثقة المتبادلة بين اطراف الصراع فى المنطقة قام الرئيس السادات بزيارة القدس فى التاسع عشر

من نوفمبر ١٩٧٧ بهدف تحريك مساعى السلام واثبات رغبة مصر فى تحقيقه امام ازاى العام العالمى . وفى غضون ذلك استمرت الجهود الدولية من اجل تنشيط عملية السلام ، وبدات الولايات المتحدة فى ممارسة ضغوطها على الطرفين لتحقيق نتائج ايجابية حتى انعقد مؤتمر « كامب ديفيد » فى سبتمبر ١٩٧٨ وصدر عنه وثيقتان سميت الاولى « اطار السلام فى الشرق الأوسط » وسميت الثانية « اطار لابرام معاهدة سلام بين مصر واسرائيل » مما آثار ردود فعل واسعة النطاق ، وبدات منطقة الشرق الأوسط تــدخل فى منعطف جديد .

مراجع الفصـــل الثامن

(١) احمد فريد على : العلاقات المصرية الانجليزية واثرها فى تطــور الحركة الوطنية فى مصر ١٤ — ١٩٥٢ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، ص ٧٣١ .

(٢) سيد مرعى : اوراق سياسية ، جـ ١ ، القاهرة — المكتب المصرى الحديث ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

(٣) محمد نجيب : كلمتى للتاريخ ، القاهرة — دار الكتاب النموذجى ١٩٧٥ ص ٤٦ .

(٤) عبد اللطيف البغدادى : مذكرات عبد اللطيف البغدادى ، جـ ١ ، القاهرة ، المكتب المصرى الحديث ص ٦١ .

(٥) الجمهورية ، العدد ١٩١ فى الجمعة ١٨ يونية ١٩٥٤ .

(٦) الحكومة المصرية ، امر ملكى رقم ٤٢ لسنة ١٩٢٣ بوضع نظــام دستورى للدولة المصرية ، القاهرة — المطبعة الأميرية ١٩٢٣ ص ٧ .

(٧) نفسه ، المادة ٥٠ ص ٧ .

(٨) دار الوثائق : محاضر جلسة لجنة الدستور . الدستور المصرى وقانون الانتخاب فى ٢٢ اكتوبر ١٩٣٠ (المادة ٥٢) .

(٩) محمد نجيب : كلمتى للتاريخ ص ٦٤ .

(١٠) عبد اللطيف البغدادى : المذكرات السابقة ص ٦٥ .

(١١) روز اليوسف العدد ١٢٨٠ فى ١٩٥٢/١٢/٢٢ تحت عنــوان « طه حسين يتكلم : لماذا ادعو الى الجمهورية — لقد سئمت النفاق » .

(١٢) روز اليوسف : العدد السابق حديث للصحفى سامى داود مع الدكتور طه حسين .

(١٣) محمد نجيب : المرجع السابق ص ٢٢ .

(١٤) مصلحة الاستعلامات : مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر ، القسم الثالث فبراير ١٩٦٠ — يناير ١٩٦٢ خطاب فى الاجتماع الأول للجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى بتاريخ ٢٥ نوفمبر ســنة ١٩٦١ ص ٥٧٥ .

(١٥) نفســـه .

(١٦) عبد الناصر وأزمة مارس ١٩٥٤ . القاهرة — روز اليوســـف ص ١٢ .

(١٧) طعيمة الجرف : القانون الدستورى ومبادىء النظام الدستورى فى الجمهورية العربية المتحدة ، القاهرة ص ٨٨ .

(١٨) عن هذه الاسماء انظر عبد الرحمن الرافعى : ثورة ٢٣ يوليـــو ١٩٥٢ ، القاهرة — النهضة المصرية ، الطبعة الاولى ص ٦٦ — ٦٧ .

(١٩) هؤلاء الأعضاء هم : عبد الرازق الســـنهورى — عبد الرحمن الرافعى — مكرم عبيد — السيد صبرى — عثمان خليل عثمان .

(٢٠) الرافعى : المرجع السابق ص ٦٧ .

(٢١) مصلحة الاستعلامات ، مجموعة خطب وتصريحـــات وبيانـــات الرئيس جمال عبد الناصر — القسم الأول ٢٣ يوليو ١٩٥٢ — يناير ١٩٥٨ ص ٣١ — ٣٢ .

(٢٢) النظارات والوزارات المصرية ، جـ ١ ، ص ٥٣٧ .

(٢٣) الرافعى : المرجع السابق ص ٨٧ .

(٢٤) الاخبار : العدد ٣١٣ فى الاحد ٢١ يونية ١٩٥٣ .

(٢٥) نفسه : تحت عنوان « كلمة اليوم » .

(٢٦) الجمهورية : العدد ١٩١ فى ١٨ يونية ١٩٥٤ .

(٢٧) الأخبار الجديدة : العدد ٣١٣ من السنة الثانية فى ١٩٥٣/٦/٢١ تحت عنوان « فرحة الشعب باعلان الجمهورية » .

(٢٨) نفسه تحت عنوان « نحو النور » .

(٢٩) نفسه : العدد ٣١٤ من السنة الثانية فى ٢٢ يونية ١٩٥٣ .

(٣٠) د. عبد العظيم رمضان : المرجع السابق ص ١٦٠ .

(٣١) أنور السادات : البحث عن الذات ، القاهرة — المكتب المصرى الحديث ، مايو ١٩٨٠ ص ١٣٩ .

(٣٢) سيد مرعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ص ٢٧٦ .

(٣٣) عن هذه الأزمة وتطوراتها انظـــر : د. عبد العظيم رمضـــان : عبد الناصر وأزمة مارس ص ١٦٧ وما بعدها .

(٣٤) سيد مرعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ص ٢٨١ — ٢٨٦ .

(٣٥) عبد اللطيف البغدادى : مذكرات عبد اللطيف البغدادى جـ ١ ، القاهرة : المكتب المصرى الحديث ص ١٢٧ .

(٣٦) الجمهورية ، العدد ١٩١ فى ١٨ يونيو ١٩٥٤ .

(٣٧) على الرغم من أن هذه المعاهدة انهت عهد الاحتلال البريطانى فى مصر فقـــد تمسك الجانب البريطانى فيها بالاشراف على قاعدة قنـــاة السويس ، والاحتفاظ بعدد من الفنيين للقيام بالاعمال الفنية بالقاعدة ، وعودة القوات البريطانية الى قناة السويس اذا ما تعرضت مصر أو احدى الدول الاعضاء فى جامعة الدول العربية المرتبطة بميثاق الضمان الجماعى فى ذلك الوقت لأى خطر خارجى .

(٣٨) الرافعى : ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ تاريخنا القومى فى سبع سنوات ١٩٥٢ — ١٩٥٩ . القاهرة . النهضة المصرية ١٩٥٩ ص ٤٤٢ — ٤٤٣ .

(٣٩) سجل العرب للعلاقات الثقافية والاقتصادية ص ٩٤ — ٩٥ .

(٤٠) يرجع السبب الحقيقى فى ذلك اطراد نمو العلاقات بين مصر ودول الكتلة الشرقية منذ توقيع صفقة الاسلحة التشيكية فى عـــام ١٩٥٥ واعتراف مصر بحكومة الصين الشعبية وهو الأمر الذى اعتبرته الولايـــات المتحدة بمثابة صفعة قوية لها .

(٤١) محمد حسنين هيكل : ملفات السويس ، القاهرة ، مركز الاهرام للترجمة والنشر ، ١٩٨٦ ، ص ٤٦٤ — ٤٦٦ .

(٤٢) انظر خطاب الرئيس جمال عبد الناصر فى ٢٦ من يوليو ١٩٥٦ القاهرة ، ادارة الشئون العامة بوزارة التربية والتعليم ص ٦٠ .

(٤٣) كان معنى قرار التأميم متفاوتا عند الدول التى تأثرت مباشرة به وان كان مذاقه مريرا عندها جميعا .

(٤٤) هيكل : مرجع سابق ص ٤٦١ .

(٤٥) رفض ٦٠ مرشدا كانوا فى اجازات بالخارج العودة الى مصر من مجموع ٢٠٥ مرشدين ، وازداد ضغط الشركة وايعازها للمرشدين بترك العمل فى مصر ، فعرض رئيس الشركة جاك جورج بيكو مرتب ثلاث سنوات

مقدما لمن يرفض العمل من المرشدين تحت الادارة المصرية ، ثم هدد بفقدان المرشدين الباقين لمعاشهم احمد حمروش: قصة ثورة ٢٣ يوليو ج٢، مجتمع عبد الناصر بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٨ ص ٩٧ — ٩٨ .

(٤٦) وزارة الدفاع : حرب العدوان الثلاثى على مصر ج ١ ، القاهرة، هيئة البحوث العسكرية ، ص ٤٢ .

(٤٧) هيكل : مرجع سابق ص ٥٣٢ .

(٤٨) مع ان كل الشواهد كانت تؤكد أن بريطانيا كانت تبيت للعدوان على مصر فان عبد الناصر يذكر انه لم يعرف باشتراكها الا عند سماعه أزيز الطائرات البريطانية ، فصعد الى سطح منزله ليتأكد من ذلك بنفسه .

انظر : توفيق الحكيم : شجرة الحكم السياسى فى مصر ١٩١٩ — ١٩٧٩ ص ٣٧١ .

(٤٩) حمروش : مرجع سابق ج ٢ ص ٩٥ .

(٥٠) خلال الفترة من ١٢ الى ١٤ من اغسطس ١٩٥٦ بدأت الطائرات والسفن الانجليزية والفرنسية تحمل قوات العدوان الى قبرص ومالطة كما امتد جسر من اسراب الطائرات المخصصة لحلف شمال الأطلنطى تعمل ليل نهار من بريطانيا الى شرقى البحر المتوسط ، ودهنت الدبابات بلون أصفر مشابه لرمال الصحراء استعدادا للغزو المرتقب .

(٥١) وزارة الدفاع : مرجع سابق ص ٦٢ .

(٥٢) محمد عوض محمد : العدوان الثلاثى وعواقبه . مقال منشور بالمجلة . العدد الثانى فبراير ١٩٥٧ ص ٥ .

(٥٣) حمروش : مرجع سابق ج ٢ ص ١٠٣ .

(٥٤) هيكل : مرجع سابق ص ٥٢٤ .

(٥٥) وزارة الدفاع : مرجع سابق ص ٤٨ .

ومما لا شك فيه أن قرار الانسحاب وان كان قد ساعد على سرعة تقدم القوات الاسرائيلية داخل سيناء ، واحتلالها شبه الجزيرة ، فانه قد ادى الى تلاحم الجيش والشعب فى الدفاع عن مصر وقناتها .

(٥٦) عندما صدر القرار بسد قناة السويس تحركت ست من سفن الشحن المحملة بالاسمنت الى منطقة البحيرات المرة وتم اغراقها .

(٥٧) وزارة الدفاع : مرجع سابق ص ٢٥٤ .

(٥٨) حمروش : مرجع سابق ج ٢ ص ١٠٨ .

(٥٩) عجز المجلس عن اتخاذ قراره بسبب استخدام انجلترا وفرنسا لحق الفيتو ، مما دفع المستر داج همر شلد السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة الى التهديد بالاستقالة ، وجعل المندوب اليوجسلافى يتقدم بدعوة الجمعية العامة المتحدة الى اجتماع عاجل .

(٦٠) محمد عوض محمد : المقال السابق ص ٨ .

(٦١) صدر القرار فى السابع من نوفمبر ١٩٥٦ .

(٦٢) هيكل : مرجع سابق ص ٥٥٤ .

(٦٣) مذكرات محمود رياض : البحث عن السلام والصراع فى الشرق الاوسط والجدير بالذكر انه عندما انزعجت بريطانيا من الانذار السوفيتى وطلبت مساعدة الولايات المتحدة كان الرد « على الذين تصرفوا منفردين دون الموافقة الصريحة للولايات المتحدة ان يتحملوا عواقب تصرفهم » .
انظر هيكل : مرجع سابق ص ٥٥٦ .

(٦٤) حمروش : مرجع سابق ج ٢ ص ١١٨ .

(٦٥) نصت الاتفاقية على عودة القوات البريطانية الى قناة السويس اذا ما تعرضت مصر او احد اعضاء جامعة الدول العربية المرتبطة بميثاق الضمان الجماعى — فى ذلك الوقت — لأى خطر خارجى اثناء السنوات السبع التالية لتوقيع الاتفاقية .

(٦٦) على الرغم من قيام سورية بنسف انابيب البترول المارة عبر أراضيها وقيام السعودية بوقف امداداتها البترولية لانجلترا وفرنسا ، واعلان الأردن وقوفها بجانب مصر فان موقف حكومة نورى السعيد فى العراق وكميل شمعون فى لبنان كان مزريا .

(٦٧) احمد يوسف وآخرون : الاستقلال الوطنى ، القاهرة ، المركز العربى للبحث والنشر ، ١٩٨٢ ص ١٩٣ .

(٦٨) محمد كمال عبد الحميد : معركة سيناء وقناة السويس ، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر ص ١٨٩ .

(٦٨) مصطفى صفوت : مصر المعاصرة وقيام الجمهورية العربية المتحدة ، القاهرة النهضة العربية ، ١٩٥٩ ص ٢٨١ .

(٦٩) بمعنى أن تظل كل دولة محتفظة بنظام الحكم القائم فيها ومؤسساتها وبشخصيتها الدولية .

(٧٠) د. ابراهيم العنانى : معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية فى ضوء قواعد القانون الدولى ص ١١ .

(٧١) السياسة الدولية عدد يوليو ١٩٧١ .

(٧٢) محمد حسنين هيكل : خريف الغضب ، القاهرة ، مركز الاهرام للترجمة والنشر ، ١٩٨٨ ص ٨٤ .

(٧٣) أنور السادات : البحث عن الذات ص ٢٣٢ .

(٧٤) لواء حسن البدرى وآخران : حرب رمضان ، الجولة العربية الاسرائيلية الرابعة ١٩٧٣ ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٥ ص ٩ .

(٧٥) الندوة الدولية لحرب اكتوبر ١٩٧٣ ، المجلد الثانى ، القطاع السياسى ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٣٠ — ٣١ .

(٧٦) الاهرام فى ١٩٧٣/١١/١٨ من حديث للفريق أول احمد اسماعيل

(٧٧) موسى صبرى : وثائق حرب اكتوبر ، القاهرة ، المكتب المصرى الحديث ، ص ٥٤٨ .

(٧٨) البدرى وآخران : المرجع السابق ، ص ١٧٥ .

الفصل التاسع

من منجزات مصر الحضارية

أولا ـــ الانجازات الاقتصادية والعمرانية :

١ ـــ القناطر الخيرية .

٢ ـــ قناة السويس .

٣ ـــ انشاء بنك مصر .

٤ ـــ مديرية التحرير .

٥ ـــ الوادى الجديد .

٦ ـــ السد العالى .

ثانيا ـــ الانجازات العلمية والثقافية :

١ ـــ المطبعة الأميرية .

مجمع اللغة العربية .

اولا ــ الانجازات الاقتصادية والعمرانية

١ ــ القناطر الخيرية

بعد أن وصلت الحملة الفرنسية الى مصر فى عام ١٧٩٨ راى بعض علمائها أن نهر النيل عندما يصل الى راس الدلتا ينفصل الى فرعين هما فرع رشيد ودمياط ، وأن فرع رشيد رغم كبره يمر فى بقاع معظمها لا يصلح للزراعة فيذهب معظم مائه هباء ، وبالنسبة لفرع دمياط فعلى الرغم من انه يخترق اراضى جيدة التربة فان مياهه لا تكفى للرى فى زمن التحاريق ، كما أن صعيد مصر تشح فيه المياه فى زمن التحاريق لارتفاع ارضه ، ولا ترتوى جيدا الا فى زمن الفيضان . ومن هنا فكروا فى البحث عن وسيلة للانتفاع بمياه فرع رشيد باضافة مياهه الى فرع دمياط عن طريق بناء قناطر على عرض الفرعين عند اول تفرعهما عند راس الدلتا ، وان يصنع لهذه القناطر ابواب من الحديد تغلق وتفتح عند الاقتضاء فاذا اقفلت قناطر احد الفرعين انصرف جانب من الماء المنحدر اليه الى الفرع الآخر ، واذا كان الفيضان قليلا تقفل قناطر الفرعين فترتفع المياه فى الصعيد حتى تروى اراضيه ثم ينصرف منها ما يلزم لرى الوجه البحرى [١] .

ونتيجة لعدم استقرار الأمور للفرنسيين فى مصر وخروجهم منها فى عام ١٨٠١ تعثر تنفيذ المشروع حتى وصل محمد على الى اريكة الحكم فى مصر وبدأ فى تنفيذ مشروعاته الاقتصادية ادرك قيمة المياه التى تضيع هباء من النيل الى البحر المتوسط واخذ يفكر فى السيطرة على زمام النيل والتحكم فى مياهه والاستفادة منها فى رى القطن والمحاصيل الصيفية مما يعود على مصر بالخير والرخاء وبدأ فعلا فى انشاء قناطر صغيرة على ترعة بحر موريس لتوصيل المياه الى الشرقية وبعد ان نجحت الفكرة [٢] طلب محمد على مشورة مهندسى عصره فقاموا باعداد التقارير ورفعها اليه وكان من ابرز هذه التقارير تقرير كبير مهندسيه المهندس الفرنسى رينان الذى حاز مشروعه قبول والى مصر ويتضمن مشروع

« رينان » انشــــاء قنطرتين كبيرتين عند راس النيــل اى بعــد تفــرعه وفى كل قنطرة عيون لتخــرج منها الميــاه ، ويتم التحــكم فى هذه العيون بانشــــاء البوابات والأهوسة والأحواض عليها فى كلا الفرعين بحيث اذا حجزت هذه القنــاطر المياه عن أحد الفرعين ارتفع منســـوب المياه فى الفرع الآخر ، وبالتـــالى تمتلىء ترع هذه الفروع بالمياه التى تروى الأرض فى فصـــل الصيف حيث يتم الحــاجة اليها فى زراعة القطن فى الوجــــه البحرى الذى كان يعتمد عليه محمد على اعتمادا كبيرا ، كما يتـــم تصريف المياه الزائدة وفى وقت الفيضـــان يتم فتح هذه الأبواب وبالتالى تســـير المياه فى مجراها الطبيعى .

ونتيجة لذلك اصــدر محمد على فى الثانى من جمادى الآخرة عـــام ثلاثة وستين ومائتين والف قرارا الى ديــوان المالية بصرف ماكولات ولوازم الخمسمائة الف عامل الذين سيتم تكليفهم بالعمل لانشاء القناطر الخـــيرية .

كما جاء فى صحيفة الوقائع المصرية تعيين المهندس الفرنسى لينـــان للاشراف على تنفيذ حفر الرياحـــات الثلاثة المراد حفـــرها وهى تـــرعة المنوفية والشرقية والبحيرة لايصال ما تحجزه القناطر من ميـــاه كما عين نظارا لادارة أمور العمال وتنظيم احـــوالهم بما يضمن انجاز العمل [٣] وقد بدأ الحفر فى الترع الثلاث فى ١٥ جمادى الآخرة ١٢٦٣ هـ ، ولأهميـــة المشروع امر محمد على نجـــله ابراهيم باشا وحفيده عباس باشا بمتابعة العمل ، وســـار انشاء القناطر بأسرع ما يستطاع من الهمة والنشاط[٤] وصـــدرت الأوامر بتسهيل كافة متطلبـــات المهندســـين القائمين بالعمـــل فى المشروع [٥] ومع ذلك فقد تعرض المشروع لبعض العقبات خصوصـــا فى عام ١٨٣٥ نذكر منها :

١ ـــ تعرض العمال المكلفين بالحفر للأوبئة التى قضت على معظمهم مما ادى الى بطء العمل فى المشروع .

٢ ـــ تعرض مشروع رينان لمجموعة من الانتقادات الفنية مما أدى الى توقف العمل فيه .

ومع كل ذلك لم تفتر همة محمد على فبعث بالمهندس الفرنسى موجيل

Mougel الذى كان يعمل فى خدمته الى باريس لاستشارة المهندسين المدنيين هناك فى الطرق المثلى لاقامة المشروع على اساس علمى سليم وبعد ان عاد موجيل الى مصر فى عام ١٨٤٢ وعرض على محمد على الأفكار الجديدة بشأن المشروع والتى من اهمها انشاء بعض الاستحكامات عند التقاء فرعى النيل لتكون موضعا حربيا يصلح للدفاع عن مصر وافق محمد على على الفكرة وقرر المضى فى المشروع ، ووضع حجر الأساس لبناء القناطر الخيرية فى التاسع من ابريل من عام ١٨٤٧ وبدأ العمل فى حفر الرياحات الثلاثة الكبرى فى ٣١ مايو ١٨٤٧ وظل العمل ساريا حتى توفى محمد على وخلفه فى الحكم حفيده عباس الأول وفى عهده توقف العمل بالقناطر لفترة بحجة انه يكلف الخزانة المصرية الكثير من الأموال التى ترهق كاهلها ، وارتأى عباس توفيرا للنفقات أن تؤخذ الاحجار اللازمة للبناء من الهرم الاكبر ، ولكن المسيو لينان أقنعه بخطأ هذا الراى بحجة ان اقتلاع الأحجار من الهرم يقتضى من النفقات ما يزيد عن نفقات اقتلاعها من المحاجر (٦) ، وسار العمل فى المشروع ببطء مما اغضب الباشا ودفعه الى عزل موجيل واسناد اتمام المشروع الى المهندسين المصريين مصطفى بهجت ومحمد مظهر بك ، واستؤنف العمل بالمشروع ولكن واجهته بعض الصعوبات ولم يتم بناء القناطر وانشاء رياح المنوفية الا فى عهد سعيد باشا (٧) .

وفى اعقاب ذلك لحق باساسات المشروع خلل هدده من اساسه . ولما تولى اسماعيل باشا الحكم ووجه عنايته الى اصلاح الخلل فى المشروع (٨) عهد الى كبار مهندسيه من الأجانب والمصريين باتخاذ اللازم ولكن مقترحاتهم لم تخرج الى حيز التنفيذ .

وبعد ان تولى الخديو توفيق عرش مصر فى عام ١٨٧٩ تطورت الأمور فى البلاد لدرجة انتهت بها الى الاحتلال الانجليزى ، ومع ذلك فقد تم خلال عهده القيام بمجموعة من الأعمال والانشاءات لاصلاح هذا الخلل (٩) .

وفى عهد عباس الثانى استكملت بعض الاصلاحات بحيث اصبحت القناطر من المتانة ما سمح لها بتأدية عملها بشكل واضح وفى أعقاب

ذلك وجهت الحكومة المصرية جهـــودها لاصلاح معظم الترع التى تســتقى من القنـــاطر ، كما عملت على تحســين الملاحة فى الترع ، وتسهيل سبل وصـــول السفن من الترع الى النيـــل ومد خليج القاهرة بمقـــادير كافية من المياه طوال ايام الســـنة .

وهكذا كان مشروع القناطر الخيرية من اهم اعمال الرى التى شيدت فى العالم فى ذلك الوقت .

الفوائد التى حققتها القناطر الخيرية لمصر :

١ ـــ زيادة مســاحة الأراضى الزراعية من ٢ مليون فى عام ١٨٢١ الى ثلاثة ملايين وثمانمائة وستة وخمسين الف فدان فى عام ١٨٤٠ .

٢ ـــ زيـــادة وتنوع الحاصلات الزراعية واتساع حركة النشـــاط التجـــارى .

٣ ـــ تحويل نظـــام الرى فى الوجه البحرى ومصر الوسطى من رى الحياض الى الرى الدائم .

٤ ـــ زيادة محصول القطن بالوجه البحرى بما يقـــرب من مليـــون وســـتمائة الف قنطـــار .

٥ ـــ تخزين المياه فى وقت الفيضـــان للانتفاع بها فى رى الأراضى الزراعية وقت انخفاض منسوب النيل وزمن الجفاف .

٦ ـــ رى معظم أراضى الوجه البحرى عن طريق ما تخزنه القناطر خلفهـــا من ميـــاه .

٢ ـــ نشاة وتطور فكرة قناة السويس

فكرة ربط البحرين الاحمر والمتوسط لها تاريخ طويل ، مرتبط بتاريخ مصر على مر العصـــور ويرجع السبب فى ذلك الى وجـــود منطقة تفصل البحر الأحمر عن البحر المتوسط ، وتعرف ببرزخ السويس .

وقد دفعت فكرة ايصـــال البحر المتوسط بالأحمر العـــديد من ملوك مصر فى عهد الفراعنة الى البحث عن الطرق الموصـــلة الى ذلك وانحصر جـــل اهتمامهم ان يكون ذلك الاتصـــال عن طريق وادى النيل [١٠] ومن اشـــهر هذه المحاولات قيام سنوسرت الثالث ، احد ملوك الأسرة الثانية عشر بربط البحرين بطـــريق غير مباشر عن طريق وادى النيل وفروعه فاصبحت الســـفن القـــادمة من البحر المتوسط تلزم الســـير فى الفـــرع البيلوزى من النيـــل حتى تصل يوباستس (الزقازيق الحالية) ومنهـــا تتجه شرقا الى تيخاو (ابو صير الحالية) ثم تعبر البحيرات المرة الى البحر الأحمـــر [١١] ولم تلبث هـــذه القنـــاة ان ردمت الى أن اعـــاد نتحهـــا الفرعون « نخاو الثانى » فى عام ٦١٠ ق.م ولكنها أهملت .

وبعد ان حـــكم الفرس مصر اهتم دارا الأول ملك الفرس فى عـــام ٥١٠ ق.م ببرزخ الســـويس حيث كان الطريق الموصل الى بلاد فـــارس فاعاد حفر القنـــاة وادخل عليها بعض التحسينات ، ثم أهمل شأنها بعد ذلك . وعندما اســـتولى الاغريق على مصر قـــام الملك الاغريقى بطليموس الثـــانى فى عام ٢٨٥ ق.م ثم بطليموس الثالث فى عام ٢٤٦ ق.م باصلاح مجـــرى القنـــاة واعادة الملاحة اليها ، ولكنها اهملت على مر الأيام [١٢] وبعد ان وصـــل الرومان الى مصر اهتم الامبراطور الرومانى تراجـــان (٩٨ — ١١٧م) بحفر قنـــاة جديدة عرفت بقناة تراجان [١٣] ولكنهـــا اهملت فى العهد البيزنطى وطمرتها الرمال الأمر الذى جعلهـــا غير صالحة للمـــلاحة [١٤] .

ولما وصـــل الفتح الاسلامى الى مصر أمر الخليفة عمر بن الخطاب قائده عمرو بن العـــاص بضرورة اعادة اصـــلاح القناة بعد اندثارها فى العصر البيزنطى [١٥] وظلت القنـــاة مفتوحة للملاحة بعـــد أن اعـــاد « عمر بن العاص » شـــقها فى عام ٢٢هـ ٦٤٢م وسميت بقناة أمير المؤمنين ، واســـتمر الحال على ذلك ، حوالى مائة وخمسين سنة حتى اغلقت بأمر من اللخليفة العباسى أبى جعفر المنصـــور ، حتى لا تستخدم فى التمـــرد على ســـلطته .

ونتيجـــة لذلك قلت أهمية هذا الطريق خصوصا بعد قيـــام حـــركة الكشوف الجغرافية واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح .

هذا عن فكرة شق القناة فى العصور القديمة والوسطى اما فى العصر الحديث فقد بذلت اربع محاولات لانشاء قناة تصل بين البحرين كانت اولها فى عهد السلطان العثمانى مصطفى الثالث الذى طلب من المهندس الفرنسى البارون دى توت القيام بدراسة هذا المشروع ، ولكن وفاة هذا السلطان قد ادى الى عدم اتمام هذه المحاولة [١٦] وقد حدثت المحاولة الثانية عندما وصلت الحملة الفرنسية الى مصر حيث اهتم بونابرت بفكرة حفر القناة ، واوكل هذه المهمة الى المهندسين الذين رافقوه فى حملته [١٧] ولكن نتيجة لمعلومات خاطئة اعتقد المهندس الفرنسى لبير وبعض زملائه بأن منسوب مياه البحر الأحمر تزيد بحوالى تسعة امتار [١٨] عن مستوى سطح البحر المتوسط مما ادى الى توقف المشروع[١٩] .

وفى عصر محمد على نبتت المحاولة الثالثة لانشاء المشروع حيث قامت جماعة السان سيمونيين المشهورة بانشاء جمعية الدراسات الخاصة بقناة السويس ، وارسلت هذه الجمعية بعثة لاقناع محمد على بالمشروع ، ولكن محمد على لم يستجب لطلبهم ، بحجة انه يريد أن يقوم بهذا العمل بنفسه ،وبغير تدخل من اية شركة اجنبية ، ولكن بمعاونة مهندسين أوربيين مهرة يلحقهم بخدمته ، مؤكدا أن القناة يجب ان تنشئها مصر ، وان تكون ملكا مطلقا لها ، وان تظل بعد حفرها على الحياد المطلق تنتفع بها جميع الدول على قدم المساواة دون ان يكون لاية دولة منها امتياز على دولة اخرى ، وانه فى حالة موافقة الدول الكبرى على ذلك فانه سيبدأ بتنفيذ المشروع [٢٠] .

وظل محمد على متمسكا بآرائه حول تنفيذ هذا المشروع حتى وفاته .

اما عن المحاولة الرابعة فقد حدثت فى عهد سعيد باشا رابع أولاد محمد على الذى وافق المهندس الفرنسى فرديناند دى ليسبس على أهمية القيام بشق قناة السويس مما اغضب الحكومة الانجليزية التى كانت تخشى من امتداد النفوذ الفرنسى ، الا ان وزير الخارجية الفرنسى نفى صلة دى ليسبس بالحكومة الفرنسية واعلن ان حكومته لا تهدف الى

تحقيق مصلحة خاصـــة من وراء هذا المشروع [٣١] ومع ذلك فقد بذلت بريطـــانيا جل جهودها لمنع الفرنســـيين من الانفراد بهذا المشروع التى كانت تعده خطرا على سياستها فيما وراء البحار [٣٢] .

ولكنها لم تفلح فى مســـعاها حيث نجح دى ليسبس [٣٣] فى الحصول على امتيـــاز حفر قناة السويس فى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ وكان سعيد باشـــا سخيـــا مع صديقه الفرنسى فمنح شركته امتيازا لاستغلال منطقة القنـــاة لمدة ٩٩ عاما تبتدىء من يوم فتحه للمـــلاحه ، وصحب ذلك منحه تسهيلات واســـعة النطـــاق [٣٤] مما جعل هذه الشركة دولة داخل الدولة ثم أعقب ذلك الامتيـــاز امتياز آخر فى عام ١٨٥٦م كانت شروطه كما يلى :

١ ــ انشـــاء ترعة للمياه العذبة تأخذ مياهها من النيل وتتفرع الى فرعين احدهما يصـــل الى السويس والآخر الى بور سعيد .

٢ ــ تتنازل الحكومة عن جميع الأراضى المطلوبة لانشـــاء القنـــاة للشـــركة مجـــانا .

٣ ــ تتنازل الحكومة عن جميع الأراضى القـــابلة للزراعة لتقـــوم الشركة باستصلاحها وزراعتهـــا .

٤ ــ انتزاع بعض الأراضى المملوكة للأفراد لمصلحة الشركة .

٥ ــ يحصل الأفراد الذين يريدون الانتفـــاع بمياه الترعة العذبة على ترخيص من الشـــركة ، ويدفعون تعويضا مقـــابل ذلك .

٦ ــ تعفى الشركة من دفع الرســـوم والضرائب والتعويضات عن استغلال المنـــاجم والمحاجر ، وكذلك الرسوم الجمركية والعـــوائد مـــن الآلات والمواد المستوردة من الخارج طول مدة الامتياز .

٧ ــ حدد اجل الامتيـــاز بمدة ٩٩ عاما من افتتاح القناة ثم تؤول بعد ذلك الى الحكومة المصرية .

٨ ــ يحق للشركة ان تفرض ما تـــراه من الرسوم على الســـفن

المارة بالقناة أو الترع والمبـــانى التابعة لها على الا تزيد عن عشرة فرنكات عن كل طن وكل شخص من المســـافرين .

٩ — فى مقابل الأراضى والامتيازات تحصـــل الحكومة المصـــرية على ما نسبته ١٥٪ من صافى الأرباح السنوية .

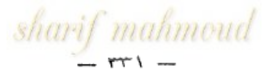
١٠ — تعهدت الحكومة المصرية بمد الشركة بأربعة اخمـــاس العمال اللازمين للحفر ، كما كلفت الحكومة موظفيها وعمالها بمساعدة الشركة[٣٥] .

وبنظرة فاحصـــة نستطيع ان نذكر ان شروط امتياز القنـــاة كان ضررها فـــادحا بالنسبة لمصر خصـــوصا وأن آلاف الرجـــال الذين كانوا يعملون فى الحقـــول سحبوا للعمل بهذا المشروع وفتكت بهم الحمى ورداءة الجـــو والجوع ، على كل حـــال فقد تأسست الشركة برأسمال قـــدره ٢٠٠ مليون فرنك ، اى ما يوازى ٧٫٧١٥٫٠٠٠ جنيه مصرى وقسم هـــذا المبلغ على ٤٠٠٫٠٠٠ سهم ، وكانت القيمـــة الأسمية للسهم ٥٠٠ فـــرنك وقد خصصت الشركة لكل دولة من الدول عددا معينـــا من هذه الاسهم وكانت حصـــة مصر منها ٩١٠٩٦ سهما ، ولما لم تســـتطع خزينتها الوفاء بهذه الالتزامات استدانت ٢٨ مليون فرنك بفوائد باهظة .

ومع كل ذلك فاذا كانت مصر قد انفقت امـــوالا طائلة لانجاح المشروع فمن المعلوم أن هـــذا المشروع ادى الى فقدانها ما هـــو أعز من المـــال الا وهو الاستقلال والحرية [٣٦] .

وفى الخامس والعشرين من ابريل ١٨٥٩ م ومن موضع مدينة فـــرما الاثرية (بور سعيد حاليا) كانت ضربة الفـــأس الأولى لحفـــر القنـــاة الحـــالية الذى استمر حـــوالى عشر سنوات .

وبعد وفـــاة سعيد وتولية اسماعيل اريكة الحـــكم حاول ان يعدل من شروط الامتيـــاز المجحفة التى وافق عليها سلفه مما جعـــل المهنـــدس « دى ليسبس » يرغى ويزيد ويطلب نجـــدة حكومته ، ونتيجة نـــذلك تدخلت فرنســـا فى الأمر لدى الحكومة المصرية . واسترضاء لفرنسا قبل الخديو اســـماعيل تحكيم الامبراطور الفرنسى نابليون الثـــالث فى هـــذا الموضـــوع .



وبدلا من مقابلة روح الود بمثلها استغل الامبراطور الفرنسى هذه الفرصة لتعويض الشركة بمبالغ طائلة من المال على حساب الخزانة المصرية فنص قرار التحكيم الصادر فى السادس من يوليو على دفع تعويض مقداره ٣٫٣٦٠٫٠٠٠ جنيه مصرى للشركة فى مقابل تخليها عن الأراضى الزراعية الواقعة على جانبى القناة ، واعادة ملكية ترعة المياه العذبة الى الحكومة المصرية (٢٧) .

وعلى كل حال فقد استمر العمل فى حفر القناة فى ظل ظروف قاسية ، واجور منخفضة للعمال المصريين بشكل كاد يجعل هذا العمل أقرب ما يكون الى السخرة فحدد أجر العامل المصرى ما بين قرش وثلاثة قروش (٢٨) .

وبعد جهود وتضحيات من جانب العمال المصريين انتهى العمل فى القناة ، واتصلت مياه البحرين وبلغ طول القناة ١٦٤ كيلومترا وانشئت على شاطئها مدينتى بور سعيد والاسماعيلية وسميت القناة « قناة السويس » ، وافتتحت للملاحة العالمية فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩م .

وقد استعدت مصر للاحتفال بهذا الافتتاح بكل امكاناتها (٢٩) فسافر اسماعيل الى أوربا فى يوليو ١٨٦٩ لدعوة ملوك أوربا وملكاتها لحضور حفل الافتتاح (٣٠) دون أن يخطر السلطان العثمانى بذلك الامر أو حتى يدعوه للحضور . كما أمر باقامة ثمانية قصور للمدعويين . منها قصر الجزيرة (فندق ماريوت الآن) ونادى الجزيرة كان جزءا منه وقد اعده لاقامة اوجينى امبراطورة فرنسا وزوجة الامبراطور نابليون الثالث .

وقد أمر اسماعيل بوضع ٧٥ نوعا من الحيوانات ، ١٥٠ نوعا من الطيور وزرع النباتات الاسبانية لتكون تحت نافذة حجرة نوم الامبراطورة « أوجينى » الذى كانت أهم ضيوف حفل الافتتاح وموضع اهتمام خديو مصر بها (٣١) كما رأى اسماعيل أن ينشىء دارا للاوبرا بمناسبة الافتتاح فتولى تصميمها مهندسان ايطاليان ثم عهد الى مارييت باشا مدير الآثار المصرية باختيار قصة موضوعها مصرى تدور حولها الالحان فكانت أوبرا

عايدة التى لحنهـا الموسيقـار الايطالى المشهور « فيردى » فى نظير مبلغ ١٥٠ الف ليرة ايطالية ذهبية [٣٢] . وقد احتفل بافتتاح القناة فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ بتلاوة من القرآن الكريم ، وبعدها اقام الخديو حفلا ساهرا فـى مدينة الاسـماعيلية حضره اكثر من ثمانية آلاف مدعو فى قصور وخيـام وسـط الصحراء [٣٣] كل ذلك زاد الخزانة المصرية ارهاقا حيث بلـغ مجموع ما انفق على هذه الحفلات ما يزيد عن المليون والنصف من الجنيهات، وهـو مبلغ يوازى حوالى سـدس ايراد مصر فى سنة كاملة [٣٤] .

ونتيجة لاسراف الخديـو اسماعيل وعدم قدرته على سداد ديـونه قام ببيـع اسهم مصر فى القنـاة الى انجلترا وعددها ١٧٦٦٤٢ بمبلـغ اربعـة ملايين جنيه استرلينى وكان بنك روتشيلد هو الذى مول الصفقة، وكان هـو فى نفس الوقت صـاحب القسـط الأكبر من ديون اسماعيل. وعندما شحنت اسـهم مصر فى قناة السويس فى عـدد من الصـناديق الحديدية على ظهر البـاخرة البريطانية « ملابار » فى شهر نوفمبر ١٨٧٥ اصبح واضحـا ان مصر لم تعد تملك شيئـا فى شركة القناة ، بـل ان الشركة هى التى اصبحت بوسـعها ان تحدد مصير مصر [٣٥] وتواصل دور الدولة داخل الدولة ، مما جـر على مصر الويلات ، وادى الى زيادة الأطمـاع الاوربية فيها ، وعلى الرغم من ذلك فقد ادى حفر القنـاة الى انتعـاش الحركة العمرانية على جانبيها ، كمـا ادى الى زيادة الحركة الملاحية والنقل البحرى العـالمى خصوصا بعـد استخـدام البخـار ، وظهور الثورة الصناعية فى اوربا [٣٦] .

كمـا ان قناة السويس قد اختصرت المسـافة التى كانت تقطعهـا السفن التجـارية بين الشرق والغرب عن طريق راس الرجاء الصالح ، وافقدت البلدان المطلة على البحر المتوسط كالبندقية وجنـوة اهميتهـا التجـارية [٣٧] .

وازدادت أهمية القناة بعد ظهور البترول لقربها من مناطق الانتاج .

واذا كانت القناة قد فقدت أهميتها السياسية والاستراتيجية بعد الحرب العالمية الثانية نتيجـة للاستراتيجية النووية التى اختصرت المسافة وقصرت من بعد المكان ، وقللت من أهمية القنـاة فى الاستراتيجية العـالمية فان

قيمة القنـــاة الاقتصادية والتجارية قد بقيت ثابتة خصـــوصا بعد تزايـــد احتياج دول أوربا وأمريكا الى البترول التى ينقل معظمه من الشرق الأوسط عبر القنـــاة [٣٨] . هذا الى جـــانب ان عمليات التطـــوير المستمرة فـــى القناة ، وزيادة عمقها واتســـاعها قد جعل من الممكن مرور ناقلات البترول الضخمـــة والتى تزيد حمولتها عن ٤٥ مليون طن فى القناة [٣٩] .

تاميم القناة والعدوان الثـــلاثى على مصـــر

بعد أن أجرت مصر مبـــاحثات مع البنك الدولى للانشـــاء والتعمير بخصوص عقد قرض بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار لانشـــاء السد العالى وابدت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا استعدادهما للمســـاهمة فى تنفيذ المرحلة الأولى من المشروع أعلنت الحكومة الامريكية فجـــاة تراجعها عن تمـــويل المشروع فى ١٩ يوليو ١٩٥٦ م وتبعتهـــا بريطانيا فى اليوم التالى ، وتذرعت الدولتـــان أن السبب فى ذلك هو التشـــكيك فى مركز مصر المالى وعـــدم مقدرتها على الوفاء بالتزاماتها . وكان رد مصر على ذلك هو اعلان جمـــال عبد الناصر فى خطـــابه التاريخى فى ميدان المنشية بمدينة الاســـكندرية فى الســـادس والعشرين من يوليو ١٩٥٦ قرار تأميم شركة قنـــاة السويس من اجل الافـــادة من دخلها فى تنفيذ مشروع الســـد العالى مما احـــدثه ضجـــة عالمية شـــديدة وكان بمثابة ادارة الزر لمجموعة متلاحقـــة مـــن الأحـــداث تدافعت وكانما كانت حبيســـة فى قمقم ، فلم تكد تحس انه قد اذن لهـــا فى الانطـــلاق حتى خرجت مندفعة الى الامام . فنتيجة لهـــذا القرار سحبت الدول الاوربية مرشـــديها من القنـــاة ، مما اعطى دفعة كبيرة للادارة المصرية للقنـــاة للقيام بدورها التـــاريخى حتى لا تعطى لدول الغرب فرصـــة التدخل فى شؤون مصر بحجـــة عدم قـــدرتها على ادارة الشركة ، واستعانت فى ذلك باستقطـــاب بعض المرشـــدين من الهنـــد ويوجوســـلافيا والاتحـــاد السوفيتى والولايات المتحدة بالاضـــافة الى المرشدين المصريين وتم ادارة الشركة باقتدار .

وقد ايدت معظم الدول العربية مصر وخاصة السعودية ، وسوريا ، والأردن ، ولبنـــان ، والعراق .

ونتيجة لفشـــل المؤتمرات التى عقدتها بريطانيا وفرنسا بهدف بحث موضـــوع تأميم القناة اجتمع مجلس الأمن لبحث اعمـــال انجلترا وفرنســـا المهددة للســـلام العالمى بالاضـــافة الى مناقشة طلب انجلترا وفرنســـا النظر فى موقف مصر بالنسبة للقناة وبعد المناقشـــات السرية والعلنيـــة تقـــرر ما يلى :

٢ — أن تحترم سيادة مصر على القناة .

١ — ان تكون الملاحة فى القناة حرة ومفتوحة للجميع دون تمييز .

٣ — ان تكون ادارة القناة منفصلة عن سياسات كل الدول .

٤ — أن تحدد رسوم القناة بالاتفاق مع المنتفعين .

٥ — ان تخصص نسبة عادلة للتحسينات والتطوير .

٦ — فى حالة النزاع يسوى الأمر بالتحكيم [٤٠] .

وعلى الرغم من موافقة مصر على هذه القرارات فان بريطانيا وفرنسا رفضتهـــا ، وبدأت استعداداتهما العسكرية ، كما اتفق قادة كل من فرنسا وبريطانيا واسرائيل على القيـــام بعدوان ثلاثى على مصـــر بهدف القضاء على حـــكم عبد النـــاصر .

وكانت خطـــة الهجوم أن تشن اسرائيل عدوانها على سينـــاء حتى تشـــغل القوات المصرية بمواجهتها على أن تقـــوم بريطانيا وفرنســـا بتوجيه انذار الى كل من مصر واسرائيل بوقف الاعمال الحربية والانسحاب عشـــرة أميـــال من ضفتى القنـــاة كما اعلنتا عن رغبتهما فى احتـــلال بور سعيد والاسمـــاعيلية اذا لم تلبى مصر الانـــذار خـــلال اثنى عشرة ســـاعة [٤١] .

ومن هنـــا انكشفت المؤامرة ، وقد رفضت مصر الانـــذار واعتبرته اعتـــداء على حقوقها وكرامتها وطالبت بانعقـــاد مجلس الأمن للنظر فـــى هذا العـــدوان الغاشم كما أعلنت التعبئة العامة وصممت على القتال [٤٢] .

وقد عمدت القـــوات المصرية الى ســـد مداخل القناة للدفاع عنها ،

فى حين اخذت انجلترا وفرنسا تضرب مدينة بورسعيد بقنابل الطائرات وبطاريات البوارج الحربية كمـــا انزلت كتائب من المظليين الى المدينة[٤٣] .

ونتيجـــة لذلك وقفت دول العـــالم الحر بجـــانب مصر كما تدخـــل مجلس الأمن لوقف العـــدوان والدعوة لوقف اطـــلاق النار فورا وسحب القـــوات الأجنبية من الاراضى المصرية فورا ، كما ارســـل مجلس الامن قـــوة من البوليس الدولى لمراقبة تنفيذ القـــرار والوقوف بين قـــوات مصر واسرائيل درءا لتجدد الاشتباكات[٤٤] .

وهكذا انتهى التآمر الثلاثى دون أن يحقق أهـــدافه فخرجت قـــوات المعتدين تجر اذيـــال الخيبة والفشـــل بينما خرجت مصر منتصرة ، فالغت كافة الاتفاقات المعقودة بينها وبين بريطانيا وفرنسا .

وفى اعقـــاب ذلك بدات مصر فى تطهير قناة الســـويس ، واشرفت الأمم المتحدة على عمليات التطهير التى تمت بسرعة فائقة وكفاءة ممتازة ، وعادت الملاحة فى قنـــاة الســـويس فى التاسع من ابريل ١٩٥٧م واصبحت تحت اشراف الهيئة المصرية لقناة السويس .

ومنذ ان عـــادت قناة الســـويس الى اصحابها الحقيقيين بقـــرار التاميم وهم يديرونها بقـــوة وبكل جهد لتطويرها وتحسينها ، ونظرا لتطور حـــركة الملاحة العالمية والتطـــور الكبـــير فى بنـــاء ناقلات السفن كان لزاما دراســـة تطـــوير القنـــاة لتساير هذا التطـــور فى بنـــاء الســـفن ففى عام ١٩٥٨ بدات هيئة قنـــاة السويس بتنفيذ مشروع توسيع وتعميق القنـــاة للوصـــول بمساحة القطاع المائى الى ١٨٠٠ مترا مربعا والغاطس المســـموح به ٣٨ قـــدما .

وفى منتصف عام ١٩٦٦ قامت هيئة قنـــاة السويس بعمل دراســـات لتطوير القنـــاة للوصول بمســـاحة القطاع المائى الى ٣٦٠٠ مترا مربعـــا والغاطس المســـموح به ٦٠ قدما وذلك لاستيعاب الناقلات الضخمة .

ومع بداية عام ١٩٦٧ بـــدات الهيئة تنفيذ المشروع ، ولكن توقـــف العمل فيه ، كمـــا توقفت الملاحة بالقنـــاة بسبب العدوان الاسرائيلى فى يونيـــو ١٩٦٧ .

وكان للعدوان الاسرائيلى على مصر فى عام ١٩٦٧ اكبر الأثر على تعطيل حركة الملاحة بقناة السويس لمدة استمرت ثمانى سنوات كانت القناة خلالها تمثل مانعا طبيعيا يفصل بين الجيش المصرى والاسرائيلى على الضفة الشرقية للقناة خطا دفاعيا سمى بخط بارليف ليخفى وراءه تحركاته ، ومن هنا تأثرت القناة تأثرا مباشرا ، ونتيجة لذلك قامت هيئتها بنقل غالبية معداتها وورشها ومخازنها الى مناطق بعيدة عن مدافع الاسرائيليين ، ومع ذلك فقد بلغت جملة خسائر قناة السويس من ايرادات وتلفيات حوالى ١٥٠٠ مليون جنيه ، كما كان لتوقف الملاحة أثره الواضح على التجارة والاقتصاد العالميين خصوصا وان وضعها الجغرافى يجعلها أقصر الطرق التى تربط بين الشرق والغرب ولقد قرر مؤتمر الأمم المتحدة المنعقد فى جنيف فى اكتوبر ١٩٧٣ الخسائر التى أصابت الاقتصاد العالمى نتيجة لتوقف الملاحة بالقناة بحوالى ١٧٠٠ مليون دولار أمريكى سنويا تتمثل معظمها فى زيادة تكلفة النقل .

ومع كل هذه المعوقات والخسائر فان هيئة القناة لم تفقد الأمل فى عودة الملاحة الى وضعها الطبيعى فى القناة حتى تؤدى رسالتها فى خدمة الملاحة العالمية .

وبعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ وما حققه الجيش المصرى من عبور ناجح للقناة بدأ التمهيد لتطهير القناة واعدادها لاعادة الملاحة فيها وقد تم ذلك فى ٥ يونيو ١٩٧٥ وكان لذلك اثره الكبير على المنطقة بصفة عامة .

ونتيجة لما تحملته مصر من نفقات باهظة فى تطهير القناة وزيادة صلاحيتها لخدمة حركة الملاحة ، واعتزام الهيئة المضى قدما فى توسيعها وتعميقها بما ييسر حركة المرور فيها ، وبالنظر الى التغييرات الجذرية التى تعرض لها الاقتصاد العالمى فى السنوات الأخيرة رأت الحكومة المصرية ضرورة اعادة النظر فى رسوم استخدام مرفق القناة التى كانت سارية قبل اغلاقها ، وتجديد فئات رسوم جديدة تتفق وتلك المتغيرات[(٤٥)] وعن نظام المرور فى القناة فان السفن تمر بنظام القوافل ، وتدخل القناة ثلاث قوافل يوميا ، قافلتان من الشمال ، وقافلة من الجنوب ،

وتخضع كل قافلة لنظـــام محدد من حيث موعد دخول القناة والسرعات والمســـافات بين السفن فى القافلة الواحـــدة وتسمح القناة بالمرور فـــى اتجـــاه واحد ، وتزدوج فى ثلاث منـــاطق الاولى عند بور سـعيد بطـــول أربعة كيلومترات ، والثـــانية عند البلاح بطول عشرة كيلومترات ، والثالثة فى البحيرات المرة الكبرى عند كبريت بطـــول سبعة كيلومترات ، وذلك لربط قـــافلتى الشـــمال فيها للسماح لقـــافلة الجنوب بالعبور دون توقف حيث انهـــا تضم ســـفن البترول المحملة .

ويتم ارشـــاد السفن من منطقة الانتظـــار حتى خروجها ، ويقـــدر الزمن فى المتوسط الذى تســـتغرقه السفينة عـــادة منذ وصولها الى منطقة الانتظـــار حتى خروجها للبحر المفتـــوح بحوالى ٢٤ ساعة الى ٢٦ ساعة منها حـــوالى ١٤ ساعة عبورفعلى (٤٦) .

ولم يقتصر نشـــاط هيئة قنـــاة الســـويس على الملاحة عبر القناة فقط بل تقـــوم أيضا بتقديم الخدمات اللازمة للســـفن العـــابرة للقنـــاة وذلك عن طريق ترسانتى (بور سعيد البحرية وبور فؤاد البحرية) فـــى صـــورة اصلاحات خفيفة أو عمرات كاملة .

وعن اثر قنـــاة السويس فى الاقتصـــاد العالمى فانها تختصر المسافة بين الشرق والغرب بين ١٧٪ و٥٩٪ وتـــوفر الوقود بين ٥٠٪ و٧٠٪ تبعا لحمولة الســـفن وسرعتها ووجهتها ، ولا شـــك ان اى وفر فى المسافة ينعكس كوفر فى وقت الرحـــلة وفى تكاليف النقل عـــلاوة على زيادة عدد الرحـــلات السنوية التى تعملها الســـفينة ، ومن كل هذا تعتبر قنـــاة الســويس خير مقياس للتطور الاقتصـــادى العالمى اذ ان البضائع التى تعبر القنـــاة تمثل نســـبة كبيرة من التجـــارة بين الشرق والغرب ، ومهمـــا حاول بعض المغرضين التقليل من اهمية قناة السويس على انها لم تتمكن من اداء مهمتها بعد بنـــاء الناقلات العملاقة ، فان هذه القناة اثبتت انهـــا قادرة على استيعاب الناقلات العملاقة بعد تنفيذ مشروع تطويرها .

٣ ـ بنك مصر

كانت فكرة بنك مصر حلما راود الوطنيين المصريين منذ استبد الأجانب باقتصاديات البلاد فى عهد الخديو اسماعيل فاجتمع كبار التجار فى شهر ابريل ١٨٧٩ لتقرير « أمر يحاولون به تخليص الوطن من أسر الديون » التى اثقلته وهو الشروع فى فتح بنك وطنى يكون راسماله اربعة عشر مليونا من الجنيهات تجمع من سائر ابناء الأمة على اقساط . وتقدم هؤلاء الى الحكومة بمذكرة تفسيرية عن هذا البنك ذكروا فيها ان ادارة البنك ستكون وطنية ونتيجة لاحتلال انجلترا لمصر خمدت فكرة انشاء مثل هذا البنك الى ان دعا طلعت حرب الى انشاء بنك مصر ، وكان من نتيجة المقالات التى كتبها حول هذا الموضوع أن عرض المؤتمر المصرى الذى انعقد فى عام ١٩١١ لفكرة بنك مصر وقررت لجنة المؤتمر حاجة البلاد الى انشاء بنك مصرى وبانتهاء الحرب العالمية الأولى شمر طلعت حرب عن ساعديه يدعو الى انشاء البنك بكل همة ونشاط حتى أعلن فى ٧ مايو ١٩٢٠ تأسيس بنك مصر وخطب فى المحتفلين قائلا (بجانب البنوك الأجنبية أراد المصريون ان يكون لهم بنك يعمل عمل هذه البنوك ، ويخدم مصر كما يخدم كل منها بلدا آخر ، ويضع يده فى يد كل ناهض بمصر الى الامام ، وكل مريد الخير لها) .

والواقع أن تأسيس بنك مصر ونجاح رسالته كان امتحانا قاسيا لكفاءة المصريين ومقدرتهم ومدى تمسكهم بحقوقهم وغيرتهم على واجبهم . وكان المصريون جميعا أمام امتحان عسير يمثل الدفاع عن كرامتهم وسمعتهم كشعب يابى الاستغلال الاقتصادى ولم يكن الموقف مقصورا على أولئك الـ ١٢٦ مصريا الذين اشتروا اسهم بنك مصر ودفعوا لطلعت حرب ثمانين الف جنيه رأسمال البنك فى عام ١٩٢٠ .

وتقدم طلعت حرب بقلب ثابت وارادة قوية دفعت بالبنك الى الامام فبعد ان كان راس مال البنك ثمانين الف جنيه فى عام ١٩٢٠ اصبح نصف مليون جنيه فى ٢٦ يناير ١٩٢٥ ثم ارتفع الى مليون جنيه فى ٢٦ ديسمبر ١٩٢٧ .

وهكذا نجحت فكرة طلعت حرب فازدادت ثقة المصريين بأنفسهم لقد أوجد طلعت حرب طائفة من المصريين تحسن أعمال البنوك واستطاع ان ينشىء بنك مصر بعشرين موظفا فتح بهم البنك ابوابه وبدأ معاملاته فاذا العشرون يصبحون مائة ضعف ويزيد يديرون أعمال البنك صغيرها وكبيرها .

ولم يقف الأمر عند بنك مصر فى القاهرة ، فقد اصبحت له فروع ومكاتب فى العاصمة ثم فى سائر المدن المصرية ثم جاوز حدود مصر الى العواصم العربية مشيرا الى قوة العزيمة المصرية فى مواجهة التحديات (٤٧) .

٤ — مديرية التحرير

انشئت هذه المديرية لزيادة الثروة القومية بزراعة مساحات كبيرة من الصحراء ، ولكى تصبح مصدرا جديدا للانتاج ، ولقد أصبح هذا المشروع حقلا للتجارب الخاصة بزراعة الصحراء ، وبمثابة نقطة ارتكاز فى استصلاح واستزراع وتعمير الصحراء .

وقد بدأ استصلاح الصحراء بتسوية الأرض حيث تام أسطول ميكانيكى ضخم حتى لا تتجمع مياه الرى فى الاجزاء المنخفضة دون غيرها واستخدمت فى ذلك جرارات قوية ، وبعدها تم حرث الأرض وتخطيطها بالوسائل الميكانيكية الحديثة وامدادها بالسماد العضوى ثم زرعها .

وتم حفر الترع بواسطة كراكات ، ويبلغ طول ترعة التحرير الرئيسية والتى تستمد مياهها من الرياح البحيرى حوالى ٢٠ كيلومترا ، وهذا خلاف الترع الفرعية المبطنة التى يقدر طولها بحوالى عشرين كيلومترا كما انه تم انشاء ١٩ محطة للرفع بها ٥٢ ماكينة من انواع مختلفة ، ولقد تم انشاء ٣٣٥ بئرا ، كما تم اقامة محطات للكهرباء بهدف الاستفادة من القوى الكهربائية فى ادارة محطات الرى كما تم انشاء أربعة كبارى على ترعة التحرير الرئيسية ، وكذا تم اقامة ٢٢ قنطرة على فروع ترعة التحرير .

وكان الهدف الاول عند وضع السياسة الزراعية لمديرية التحرير هو بناء تربتها والمحافظة عليها وحمايتها من عوامل الارتداد ، وتمكين السكان من الحصـــول على دخل مناسب لهم ، وكذا توجيه الزراعة نحو الاكتفاء الذاتى مع التخصص فى الوقت نفســه ، ولذلك انشىء بالمديرية قســم لابحاث الأرض واقيم معمل كبير فى قرية ام صابر لتحليل التربة ، كــما زرعت مصـــدات الرياح من الأشجــار الخشبية على جــوانب الطرق ، وحول الأرض المزروعة لحمــايتها من العواصف الرملية . كمــا أنه تمت زراعة الفــواكه والموالح على اختلاف انواعها ، ويزرع بالمديرية محاصيل صيفيــة وهى الفول الســودانى والبرسيم والبطيخ والطماطم والـــذرة الهجين والخضروات ، ومحــاصيل شــتوية وهى القمح والشعير والفول البــلدى والرومى والعدس والكتــان والحلبة والبســلة كما تزرع أنواع من الشـــمام وكوز العســـل والفراولة وغيرها واهتمت المديرية بالتوسع فى الانتاج الحيوانى ، ويضم قسم الانتاج الحيوانى بها سلالات ممتازة ، وانـــواعا نادرة من الأبقـــار ، وتدر الواحدة منها حوالى ستة آلاف رطل لبن طـــول الموســـم كما توجد بالمديرية قطعـــان كبيرة من الأغنام واكبر حظـــائر للدواجن والأرانب من انواع مختلفة .

وتتكون القرية من مبـــانى سكنية اعدت للموظفين والفلاحين وروعى فيها تـــوافر الشروط الصحية ، وبنيت هذه المســـاكن من الطوب الاسمنت المفرغ لعزله عن العوامل الجوية من حر وبرد .

وقد اقيم بالمديرية مركز لتحقيق اغراض التصنيع الزراعى بالمديرية ولســـد حاجتها بما يلزمها من صناعات مختلفة فاقيمت مصانع الأغـــذية المحفوظة والطـــازجة لتصنيع منتجـــات المديرية الصناعية ، كما زودت بمبنى للثلاجات وغرف التبريد ، واقيم مصنع للطـــوب والمواســـير الاسمنتية ومصنع للصفيح وآخر للميـــاه الغـــازية والعـــديد من المصـــانع اللازمة للحياة الكاملة حتى بلغت المساحة الكلية المقـــام عليها هذه المصانع حوالى ١٢٠ فدانا[٤٨] .

٥ ـ الــوادى الجــديد

فى الواحات الخـــارجة والداخلة وســيوة والفرافرة توجد مساحات واســعة صالحة للزراعة وتبلغ مســاحتها ملايين الأفدنة ، ومجموع هذه الأراضى اطلق عليه الوادى الجديد ، وقد اثبتت التقــارير الفنيــة التى اجريت صـــلاحية ٣٠ الف فدان حول قرية بـــاريس للــزراعة وكــذلك ١٧٫٥٠٠ فدان موزعة فى منطقة المحــاريق وعــين الملك فى الواحـــات الخارجة ، وقد بدأ الخبراء فى زراعة الف وثلثمائة فــدان بصفة مبدئية. وتبين ان الميـــاه متوافرة فى باطن الأرض بكميـــات كبيرة ودرجة الملوحـــة بالمياه معتدلة بل اقــل من ملوحة المياه الجوفية بوادى النيل نفسه .

ويزرع فى منطقة الوادى حـــاليا القمح والذرة والارز والشـــعير والبطـــاطس والملوخية والخبيزة والباميـــة والسبانخ والطماطم والبصل وغيره ، ويبلغ الدخل الأهلى من الانتـــاج الزراعى والحيوانى ٣٥٠ الف جنيـــه ســـنويا .

وقد نجحت زراعة القطن فى الـــوادى وانتج الفدان اربعة قناطير من القطن الأشـــمونى ، وبدأ تنفيـــذ مشروعات تحســـين المـــراعى .

وتوجد فى منطقة الوادى حـــاليا من المعادن الشبه والملح الانجليزى، وعلى يمين الطريق التى تربط الواحات الداخلة بالخارجة توجـــد تلال من الفوسفات طولها ستون كيلو مترا تقـــريبا ، ويـــؤكد الخبراء أن هـــذا الفوسفات يحتوى على خامات اليورانيوم ، ويوجد الحديد فى الواحـــات الداخلة ، كمـــا أن منطقة باريس غنية بالذهب ويوجد الفحم فى الواحات الخارجة على عمق ستمائة متر تقريبا .

وقد تم تخطيط الوادى الجـــديد ، فخططت المنطقـــة الشرقية مـــن الواحات الخارجة ، وانشئت المبانى الحـــديثة ، وتم تـــركيب ماكينـــات الاضـــاءة لانارة المســـاكن ، كما تم رصف ما يزيد عن مائة كيلو متر لربط الوادى الجديد بوادى النيل[٤٩] .

٦ ــ السد العالى

ترجع فكرة انشاء السد العالى الى عام ١٩٠٢ عندما تقدم بعض المهندسين الايطاليين بمشروع لانشاء سد قرب اسوان[٥٠] يمكن عن طريقه السيطرة على مياه النيل ووقف خطر الفيضان ، ثم تجددت الفكرة فى عام ١٩٣٤ بعد أن تعذر تعلية خزان اسوان للمرة الثالثة ورؤى انشاء خزان آخر يمكن عن طريقه حجز المياه ويقع امام الخزان الحالى ، وقد قدرت تكاليفه وقتئذ بحوالى ستة ملايين جنيه .

وعلى الرغم من ان اللجان التى قامت بدراسة فكرة هذا المشروع دراسة علمية أوضحت أن النتائج المرجوة من انشائه ستكون عظيمة الأهمية وستؤدى الى زيادة الدخل فان انشاء السد العالى بجنوب أسوان لم يتم تنفيذه الا بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

ونظرا لضخامة المشروع وتكاليفه الكبيرة كان من الطبيعى ان تسعى مصر لطلب مساعدة من البنك الدولى للانشاء والتعمير ، ومن بعض الدول الغربية الكبرى وقد عرضت الولايات المتحدة وبريطانيا تقديم مبلغ ٧٠ مليون دولار مساهمة فى المشروع ، كما وافق البنك الدولى من حيث المبدأ على اقراض مصر ٢٠٠ مليون دولار لاستكمال الخطوات النهائية للمشروع وفجاة وبدون سابق انذار اعلنت الولايات المتحدة وبريطانيا سحب عروضهما لتمويل المشروع ، وفسرا هذا التراجع بأنه ناجم عن التطورات السياسية الاخيرة وخاصة اقتراب مصر من بلدان الكتلة الشرقية واعترافها بالصين الشيوعية وشرائها للسلاح من دول الكتلة الشرقية بجزء كبير من محصول القطن المصرى مما يشكك فى مقدرة مصر الاقتصادية على اتمام المشروع بعد البدء فيه ، كما اعلن البنك الدولى سحب عرضه لتمويل المشروع لعدم ثقته فى قدرة الاقتصاد المصرى علي اتمامه [٥١] ولما وجدت مصر فى ذلك تدخلا فى شئونها الداخلية ورغبة فى تعويق تقدمها اعلن الرئيس عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ حتى تتمكن مصر من الاستغناء عن القروض والهبات الأجنبية وتقوم بتنفيذ المشروع عن طريق وضع

مواردها الوطنية فى خدمته ونشبت الحرب بحجة حماية القناة ، وبعد فشل العدوان الثلاثى على مصر بدات القيادة المصرية فى الاعداد للمشروع خصوصا بعد اعلان الاتحاد السوفيتى عن استعداده لتمويل المشروع بقروض طويلة الأجل ، وعلى اساس ما تم من دراسات مشتركة بين البلدين .

وفى السابع والعشرين من ديسمبر ١٩٥٨ تم الاتفاق بين الجمهورية العربية المتحدة والاتحاد السوفيتى على بناء المرحلة الأولى من مشروع السد العالى وقعه عبد الحكيم عامر عن الجانب الأول وبيترنيكتين والسفير السوفيتى فى القاهرة كيسيليف عن الجانب الثانى وفيه تعهد الاتحاد السوفيتى بتقديم المعونة الاقتصادية والفنية لمصر .

وتنص الاتفاقية عن أن حكومة الجمهورية العربية المتحدة وحكومة اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية بدافع من العلاقات الودية بين البلدين ورغبة فى زيادة توطيد التعاون الاقتصادى والفنى بينهما على أساس من المساواة وعدم التدخل فى الشئون الداخلية والاحترام الكامل للكرامة والسيادة القومية فى كل من البلدين ونظرا لما لانشاء السد العالى بأسوان من عظيم الأهمية الاقتصادية القومية لحكومة الجمهورية العربية المتحدة فقد تم الاتفاق على البدء فى المرحلة الأولى .

وفيما يلى نعرض لأهم شروط الاتفاق .

مادة (١) : تلبية لرغبة حكومة الجمهورية العربية المتحدة فى تنمية اقتصادها القومى فان حكومة اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية تبدى موافقتها على التعاون مع حكومة الجمهورية العربية المتحدة فى انشاء المرحلة الأولى من السد العالى بأسوان .

وتتضمن هذه المرحلة انشاء الجزء الأمامى من قطاع السد الرئيسى، والسد الخلفى ، وانشاء تحويل المياه والبوابات والمعدات اللازمة لهذه المشروعات كما تتضمن مشروعات تحويل رى الحياض واصلاح الاراضى وسيحدد مقدار المعونة التى سيقدمها الاتحاد السوفيتى بالتنسيق بين الطرفين لتنفيذ المشروعات .

مادة (٢) : تحقيقا للاتفاق المنصوص عليه فى المادة الأولى من هذا الاتفاق تقوم حكومة اتحاد الجمهوريات السوفيتية بما يلى :

أ — اعداد برامج تنفيذ الأعمال وكذلك الأبحاث والدراسات اللازمة التى يتفق عليها بين الجانبين طبقا للشروط والبيانات الموضوعة بمعرفة الجمهورية العربية المتحدة .

ب — تقوم وفقا لما يتفق عليه الطرفان بتوريد البوابات والآلات والمعدات مع قطع الغيار اللازمة لها .

ج — تقديم المعونة الفنية اللازمة للتشييد والانشاء .

مادة (٣) : تقوم جمهورية مصر العربية بتكوين هيئة خاصة لادارة المشروع يعهد اليها بالشئون الادارية والفنية والمالية وبتفيذ الأعمال التى تطلبها حكومة الجمهورية العربية المتحدة للمرحلة الأولى من السد العالى الى مقاولين يتم اختيارهم بموافقة الطرفين وذلك على اساس استخدام المعدات السوفيتية والاستعانة بالخبراء والفنيين السوفيت .

مادة (٤) تكون الهيئات السوفيتية مسئولة عن الادارة الفنية لانشاء اعمال المرحلة الأولى من السد العالى على اتم وجه وصيانتها، ولهذا الغرض توفد الهيئات السوفيتية خبيرا فنيا على مستوى عال مع المجموعة اللازمة من المهندسين والفنيين والعمال السوفيت ، ويتم الاتفاق فى تنسيق العمل بين الاخصائيين السوفيت والمصريين فى الاشراف الفنى على الاعمال المشار اليها .

مادة (٥) تقدم حكومة الاتحاد السوفيتى الى حكومة الجمهورية العربية المتحدة قرضا مقداره ٤٠٠ مليون روبل وذلك لتغطية نفقات ما تقوم به الهيئات السوفيتية فيما يختص بوضع برامج تنفيذ المشروع واعمال البحث والدراسات وتسليم المعدات والآلات والمواد اللازمة وايضا نفقات سفر الخبراء السوفييت عند سفرهم .

مادة (٦) : تسدد الجمهورية العربية المتحدة المبالغ المستحقة

عليها من هذا القرض على أثنى عشر قسـطا متساوية تبدأ بعد عام مـن اتمام المرحـلة الأولى للسد العالى بحيث لا يتأخر ذلك عن أول يناير ١٩٦٤ وان تكون سعر فائدة القرض ٥ر٢٪ سنويا .

مادة (٧) : تسدد حكومة الجمهورية العربية المتحـدة القـرض وفوائده بالجنيه المصرى عن طريق حسـاب خاص يفتح فى البنك المركزى بالجمهورية العربية المتحدة لصـالح بنك الـدولة لاتحـاد الجمهـوريات السوفيتية ، ويحسب سعر الروبل بالنسبة للجنيه على أساس سـعر التعـادل الذهبى بين العملتين فى يوم الدفع وتستخدم الهيئات السوفيتية جميع المبالغ المدفوعة فى هذا الحساب فى شراء سلع من الجمهورية العربية المتحـدة .

وقد افتتح العمل رسـميا فى المشروع فى التاسع من يناير ١٩٦٠ عندما ضغط الرئيس عبد النـاصر على زر احمر فجر به أول شـحنة من الديناميت بمجرى قنـاة التحويل فكان ذلك بدء العمل فى انشـاء المرحلة الأولى للسـد العالى وفى اعقـاب ذلك تم حشـد العدد الـوفير مـن المهندسين والعمـال والفنيين من جميع الحرف المختلفة وسار العمل قدما الى الأمام بمعـدلات عالية خصـوصا وان ظمأ البنـائين المصريين الى سرعة الانجـاز كان واضحا .

ونتيجة لرغبة الحكومة المصرية فى ان تستمر مسـاندة الحكـومة السوفيتية لتمويل بنـاء المرحلة الثانية من السـد فقد اعلنت الحكـومة السوفيتية انها ستنظر بعين الود الى هذا الطلب ، وبعـد دراسـات ومشـاورات تم فى السابع والعشرين من اغسطس ١٩٦٠ توقيع الاتفاقية الخاصـة بتمويل المرحلة الثانية والتى تقضى بأن تقدم الحكومة السوفيتية قرضـا فى حدود تسعمائة مليون روبل اى ما يوازى ٧٨ مليون جنيـه مصرى يسدد على نفس الأسس الاقتصادية التى انطوت عليها الاتفـاقية الأولى .

وقد انتهت المرحـلة الأولى من السد بغلق مجرى النيل وتحـويل المياه الى قنـاة جانبية فى ١٥ مايو ١٩٦٤ وقد بلغ جملة ما صرف عليهـا حـوالى مائة مليون جنيه وفى أعقاب ذلك بدأ العمـل فى المرحلة الثانيـة

وفى التاسع من يناير ١٩٦٨ احتفل بتشـغيل التوربينات الثـلاثة الأولى من محطة توليد الكهرباء ، وفى الثالث والعشرين من يوليو ١٩٧٠ تم تشغيل التوربين الثانى عشر وتمت اعمـال السد ، وفى الخامس عشر من يناير ١٩٧١ احتفل رسميا بانتهـاء العمل فى المشروع الذى تكلف حوالى ٢٤٠ مليون جنيه شملت انشاء السـد والقناة ومبنى المحطـة والتوربينـات والخطوط الكهربائية هذا بخلاف الأعمال المترتبة على انشاء السد كالتوسع الزراعى ، وتحـويل رى الحياض الى رى دائم وانشاء الطرق والسكك الحديدية والاسـكان وخلافه وتبلغ تكاليفها ٥٠٠ مليون جنيه[٥٢] .

والسد العالى عبارة عن سد ركامى على شكل هرمى يتكون مـن ركام الجرانيت والرمـال والطمى وهو مقـام عبر نهر النيل جنوبى اسوان بحوالى سبعة كيلو مترات .

ويبلغ طول السد ٣٦٠٠ مترا عند القمة منها ٥٢٠ مترا بين ضفتى النهر ، ويبلغ عرضـه ٩٨٠ مترا عند القـاع ، ٤٠ مترا عند القمـة أما ارتفاعه من قاع النهر فيصـل الى ١١١ مترا ويصل اكبر ضـاغط للمياه عليه الى ٧٨ مترا .

ويتكون السـد من ثلاثة اجزاء رئيسية ، السد الجزئى الامـامى ويبلغ طوله ٦٠٠ مترا وارتفاعه ٥٠ مترا فـوق قاع النهر ، والسـد الجزئى الخلفى بطول ٥٠٠ مترا وارتفاع ٣٠ مترا ينحصر بينهما السـد الرئيسى بارتفاع ١١١ مترا .

والغرض من السـدين الامامى والخلفى هو تحويل مجرى النهر الى قنـاة صناعية انشئت بالبر الشرقى ويعمل السد الأمامى والخلفى على حصر منطقة العمل فى السد الرئيسى حتى ينشأ فى منطقة ساكنة لا حركة للميـاه فيها .

وقد اشتمل السد العالى على عمليتين رئيسيتين :

الأولى : حفر قناة بعمق ٨٠ مترا فى الجبـال الجرانيتية الواقعـة على الضفـة الشرقية للنهر لتحـويل مجرى النهر اليها بعـد أن اقفـل

مجراه الأصلى ، وقد تخلل الجزء الاوسط من هذه القناة ستة انفاق محفورة فى الصخــور الجرانيتية ومزودة ببوابات ضخمة للتحــكم فى مياه النهــر وتصريفها بالقــدر المطلوب ، ويبلغ طول قناة التحويل ١٩٥٠ مترا [٥٣] .

الثانية : انشـــاء محطة لتوليد القوى الكهربائية فوق القناة عنــد مخـــارج الانفاق وتعتبر هذه المحطة من اكبر المحطـــات الكهربائية فــى العـــالم اذ تبلغ قدرتها الاجمـــالية ١ر٢ مليون كيلو مترات وتعادل طاقتها الكهربائية عشرة امثـــال الطاقة الكهربائية التى كانت متوفرة لمصر عــام ١٩٥٢ .

الآثار الاقتصادية لمشروع السد العالى :

يعد مشروع السد العالى من اضخم المشروعات الهندسية التى سادت على مصر بفوائد عديدة اهمها :

١ ــ ضمـــان المياه الكافية لمواجهة احتيـــاجات الــرى وتحــويل ٧٠٠ الف فدان من أراضى الحيـــاض الى الرى الدائم وزيـــادة الأراضى المنزرعة ارزا .

٢ ــ تأمين طـــاقة كهربائية رخيصة لخدمة الاغـــراض الصنـــاعية مقدارها عشرة مليارات كيلو وات ساعة سنويا .

٣ ــ توسيع رقعة الأرض الزراعية بمساحة جديدة قــدرها ٣ر١ مليون فدان أى حــوالى ٢٠٪ من مســـاحة الأراضى المصرية الصـــالحة للزراعة .

٤ ــ وقـــاية البلاد من أخطار الفيضان العالية التى تكلف الــدولة أموالا طائلة كل عام فى انشاء الجسور وتقويتها .

٥ ــ تحسين الملاحة النيلية وجعلهـــا ميسورة على مدار السنة .

٦ ــ زيادة الثروة السمكية فى بحيرة ناصر التى تعد من اكبر البحيرات الصنـــاعية فى العالم .

الآثار الجانبية للمشروع :

ادى انشـــاء السد العالى الى عدة آثار جانبية من اهمها ازديـــاد ملوحة التربة فى مصر ، وازدياد النحر فى مجرى نهر النيـــل وفـــروعه ، وانخفاض نســـبة الطمى المخصبة للارض ، وتآكل شـــواطىء الدلتـــا ، وهجر السردين لشواطىء دمياط ورشيد وبورسعيد .

ومما سبق يتضح ان السد العـــالى يعد مفتاح استراتيجية الـــرى فى مصر ، ومن اهم المنجزات الاقتصـــادية فى تاريخ مصر الحـــديث التى تحكى مدى مثـــابرة وكفاح الشعب المصرى من اجل التقدم والبناء وقهـــر التخلف .

وعلى الرغم من أن السد العالى قد وفر لمصر المـــاء اللازم للزراعة والطـــاقة الكهربائية اللازمة للصناعة ، فانه قد ترك بعض الآثار الجانبية منها انه حـــرم الأراضى الزراعية من الطمى القـــادم مع ماء النيل ليزيدها خصـــوبة مما اثر على تركيبها وقوامها ، وغير من بعض خصائصها .

ومع كل ذلك فمما يذكر للســـد العالى بالخير انه انقذ مصر وشعبها من كارثة الجفـــاف التى حدثت لافريقية فى السنوات القليلة الماضية ممـــا يجعلنا نجـــزم ان آثاره الايجابية تجاوزت آثاره الجانبية وسلبياتها .

ثانيا ـــ الانجازات العلمية والثقافية

٧ ـــ انشاء المطبعة الاميرية

يعود تاريخ انشـــاء المطبعة الأميرية فى بولاق الى عـــام ١٢٣٥ هـ ١٨٢٠ م اى فى عصر محمد على ، وقد تم استيراد آلات هذه المطبعـــة وحروفها العربية وكذلك الورق من ايطاليا .

وكانت مهمتها قـــاصرة على طبع الكتب الحربية والمؤلفات العسكرية اللازمة للجيش ، ثم اتســـع اختصاصها وتنوعت أعمالها فأصبحت تقوم فوق ذلك بطبع الكتب الأدبية والعلمية والمدرســـية التى تحتاج اليهـــا المدارس ، فســـاهمت بذلك مساهمة فعالة فى الحركة الفكرية فى البلاد .

وتعد المطبعة الأميرية اساسا للبعث الفكرى الذى قامت عليه نهضة مصر فى العصر الحديث ففيها صدرت الكتب الخاصة بالطب والهندسة والزراعة وفن الحرب والعلوم الطبيعية والرياضية والأدبية ، فاستطاعت بذلك أن توجه تفكير المصريين نحو حاضر امتهم وثقافتها .

واخذت المطبعة الأميرية تضىء الطريق أمام العلم والمعرفة وانفردت بقاعدة الحروف العربية التى تستخدمها منذ عام ١٩٠٦ فى صف الحروف اليدوية ، التى تمتاز بجمال خطها ، وحسن تركيبها .

ومنذ عام ١٩٢٥ والمطبعة تقوم بطبع المصحف الشريف مستخدمة فى ذلك الحروف المصفوفة يدويا والتى تفوق فى اتقانها وسهولة قراءتها ودقتها كل ما يطبع بطرق الطباعة الأخرى .

وبتوالى السنين ازداد حجم المطبوعات الحكومية ، فبدأ التفكير فى عام ١٩٢٦ بتوسيع مبانى المطبعة فى بولاق ، وأعدت لهذا الغرض عدة مشروعات لاقامة مبنى حديث لها فى السنوات ١٩٣٤ ، ١٩٣٩ ، الا انه لم ينفذ أى مشروع منها بالرغم من ضيق مكانها القديم ، وازدياد عدد العمال الذى ارتفع من ٣٥٠ عاملا الى ما يقرب من ٣٨٠٠ عامل .

وظلت كذلك الى ان قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فكان لها النصيب الأوفى من رعاية الدولة فهيئت لها المبنى الضخم الذى تقطنه حاليا بامبابة ووفرت للعمال اسباب الأمن والاستقرار وفى ١٣ اغسطس ١٩٥٦ صدر القرار رقم ٣١٢ لسنة ١٩٥٦ بانشاء الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية والحاقها بوزارة الصناعة ، ومنذ ذلك التاريخ شهدت الهيئة تحولا كبيرا نحو التقدم فى كافة المجالات فاستوردت العديد من الماكينات الحديثة واوفدت الهيئة بعض مهندسيها وعمالها الى مصانع الطباعة بأوربا لمتابعة فنون الطباعة هناك [٥٤] .

مجمـــع اللغة العربية

منذ أوائل القرن التاسع عشر ، ومع بداية ظهور فجر النهضة المصرية احس رجال الفكر فى مصر ان اللغة العربية التى عايشت القرن الثامن عشر اصبحت لا تفى باغراض هذه النهضة خصوصا بعد ان بدا التغلغل الثقافى الأدبى يطفو على سطح الحياة المصرية .

ولما عاد طلاب البعثات التى ارسلها محمد على الى اوربا لتنهل من علمها وتنقل عن الغرب والغربيين كل جديد قاموا بنقل مادرسوه من علوم الى اللغتين العربية والتركية ليسهل تدريسها فى المدارس الحديثة التى اسسها محمد على ، وكان من ابرز هؤلاء رفاعة الطهطاوى الذى قام بجهود هائلة فى نقل المعارف الأوربية الى اللغة العربية ، وعمل على تعريب الأسماء الأجنبية مع الاحتفاظ باسمها الأصلى ، كما قام بوضع مصطلحات عربية تتقابل فى معناها مع المصطلحات الفرنسية، ووازن بين اللغتين كما دعا الى تبسيط علم النحو العربى ، وتيسيره على طلاب العلم .

وجاء بعد رفاعة الشيخ محمد عبده ، فحاول الاسهام فى تطوير اللغة العربية فجدد فى اسلوب التاليف ، وطالب بانشاء مدرسة دار العلوم لاعداد المعلم الصالح والمساهمة فى تطوير اللغة .

ورغم كل ما بذل من جهود لتحديث العلوم والثقافة العربية ، فان اللغة العربية لم تستطع مواكبة التقدم العلمى الهائل فى كافة مجالاته فاختلطت العامية بالكلمات العربية ، واستبدلت العامية بالفصحى ونتيجة لذلك احس بعض العلماء ، وكبار الأدباء فى مصر بالخطر الداهم على اللغة العربية ، وخشوا أن يزعزع ما يحدث من أركانها ويسلبها بنيانها ، وفكروا فى انشاء هيئة تحفظ لهذه اللغة حياتها ، وسلامة النطق بها والتعبير عن معانيها ، وتجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون .

وقد تعددت المحاولات والجهود الأهلية والحكومية فى ذلك فانشئت عدة نوادى وجمعيات من اجل هذا الفرض ، استمرت هذه المحاولات حتى صدر المرسوم الملكى بانشاء المجمع اللغوى عام ١٩٣٢[٥٥] .

وقد ظل المجمع ولا يزال هيئة نابضة بالحياة ، تحرس اللغة العربية وتحـافظ على سلامتها ، وقد امتد نشـاطه الى نواحى اهمها تشـجيع الانتاج الأدبى والعلمى ، وتحرى السلامة فى اللغة وتيسيرها يضـاف الى ذلك جهوده فى الترجمة والتأليف والنشر العلمى .

ورغم كل ما قدمه المجمع للغة العربية من خدمات فلا تزال امـامه مهـام صعبة خصوصا وان الحياة فى تطور سريع ، وحـاجة النـاس الى مرونة اللغة تشتد كلما ازداد هذا التطور ، وعلى المجمع ان يطـور اللغة طبقا واحتياجات كل عصر بحيث يحقق للناطقين بالضـاد ما يحتاجون اليه من اليسر فى التعبير من غير مشقة فى الأداء وصعوبة فى التفكير .

مراجع الفصل التاسع

(١) جرجى زيدان : تاريخ مصر الحديث جـ ٢ القاهرة ، مطبعة الهلال ، ١٩٢٥ ص ١٨١ .

(٢) امين سامى : ملحق تقويم النيل عن الجسور والكبارى والخزانات على النيل وفروعه ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب ١٩٣٦ ص ١ .

(٣) دار الوثائق : محفظة رقم (٤) أوامر مالية ، ترجمة الارادة رقم ٢٨٨ أصلى بتاريخ ١١ شعبان ١٢٦٣ هـ وايضا القرار الصادر من المجلس العمومى رقم ١٧٩ .

(٤) محمد فؤاد شكرى وآخران : بناء دولة مصر محمد على ، القاهرة دار الفكر العربى ١٣٦٧ هـ/١٩٤٨ م ص ٤٩٢ .

(٥) دار الوثائق : دفتر ٣٧٩ معية تركى ، ترجمة المكاتبة رقم ٨٨٣ رقم اصلى ٧١ بتاريخ ١٤ ذى الحجة ١٢٦٠هـ .

(٦) امين سامى : مرجع سابق ص ٨ .

(٧) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ، القاهرة ، النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٥١ ص ٥٨١ .

(٨) للتفاصيل انظر امين سامى : مرجع سابق ص ٧٦ — ٧٨ .

(٩) نفسه ص ٨٥ .

(١٠) جرجى زيدان : تاريخ مصر الحديث جـ ١ القاهرة ، مطبعة الهلال الطبعة الثانية ١٩١١ ص ٢٠٦ .

(١١) وزارة الدفاع المصرية : حرب العدوان الثلاثى على مصر ، القاهرة ، مطابع الأهرام ص ١٣ .

(١٢) فاروق عز الدين : جغرافية النقل ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨١ ص ٣٣٦ .

(١٣) جورج كيرلس : قناة السويس . القاهرة — دار المعارف د.ت ص ٨١ — ٨٢ .

(١٤) وزارة الدفاع : المرجع السابق ص ١٣ .

(١٥) محمد فيصل عبد المنعم : قناة السويس ، القاهرة ، مطابع الاهرام التجارية ١٩٨٠م ص ١٢ .

(١٦) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ، دار الجيل ، ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م ص ٣١٤ .

(١٧) وزارة الدفاع : المرجع السابق ص ١٤ .

(١٨) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل جـ ١ القاهرة ، الطبعة الأولى ص ٥٢ .

(١٩) اسقط هذا القول البحث الذى اجرى فى عام ١٨٤٠م بواسطة بعض ضباط من الانجليز ، والدراسة التى قامت بها لجنة من المهندسين الفرنسيين فى عام ١٨٤٧ حيث تحقق أن مسطح البحرين متساو .

انظر . محمد فريد : المرجع السابق ص ٣١٤ — ٣١٥ .

(٢٠) للتفاصيل انظر . انجلو ساماركو : الحقيقة فى مسألة قناة السويس — ترجمة طه فوزى — القاهرة ١٩٤٠ ص ٢٧ — ٢٩ .

(٢١) محمود صالح منسى : مشروع قناة السويس بين اتباع سان سيمون وفرديناند دى ليسبس ، القاهرة ، دار الاتحاد العربى الطباعة ، ١٩٧١ ص ٢٦٧ .

(٢٢) زاهية قدورة : تاريخ العرب الحديث ، بيروت ، النهضة العربية الطبعة الثانية ١٩٧٥ ص ٣٥٥ .

(٢٣) فاروق عز الدين : المرجع السابق ص ٣٣٨ .

(٢٤) محمد فريد : المرجع السابق ص ٣١٥ .

(٢٥) جورج كيرلس : المرجع السابق ص ٩٢ .

(٢٦) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل جـ ١ ، ص ٥٧ .

(٢٧) محمد فريد : المرجع السابق ص ٣١٦ .

(٢٨) زاهية قدورة : المرجع السابق ص ٣٥٦ .

(٢٩) جورج كيرلس : المرجع السابق ص ٩٤ .

(٣٠) محمد فريد : المرجع السابق ص ٣١٧ .

(٣١) رآها الخديو اسماعيل لاول مرة فى باريس وفتن بها ، واراد أن يضمها الى حريمه .

للتفاصيل انظر : اخبار اليوم فى ٢ — ١٢ — ١٩٨٩ مقال للاستاذ محسن محمد بعنوان : المشى فوق الاشواك .

(٣٢) مثلث فى القاهرة فى عام ١٨٧١ .

(٣٣) أخبار اليوم فى ٢ — ١٢ — ١٩٨٩ .

(٣٤) محمد فريد : المرجع السابق ص ٣١٩ .

(٣٥) محمد حسنين هيكل : ملفات السويس ، القاهرة ، مركز الأهرام للترجمة والنشر الطبعة الأولى ١٩٨٦ ص ١٠٦ .

(٣٦) محمد عبد الرحمن برج : قناة السويس ، اهميتها السياسية والاستراتيجية ، القاهرة ، دار الكتاب العربى ١٩٦٨ ص ٥ — ٦ .

(٣٧) محمود صالح منسى : مشروع قناة السويس ، القاهرة ، دار الاتحاد العربى ١٩٧١ ص ٢٦ .

(٣٨) جمال حمدان : قناة السويس نبض مصر ، القاهرة ، عالم الكتب ص ٣٢ — ٣٤ .

(٣٩) من المعروف ان طول قناة السويس يبلغ ١٦١ كيلو مترا وكان عرضها يتراوح ما بين ٦٠ الى ٧٥ مترا وبعد التوسعة وصل ما بين ١٦٠ الى ٢٠٠ مترا اما عمقها فيصل الى ١٥٫٥٠ مترا .

(٤٠) جورج كيرلس : المرجع السابق ص ١٢٦ .

(٤١) ابراهيم علوان : مشكلات الشرق الأوسط والوطن العربى بيروت ، المكتبة العصرية ١٩٧٠ ص ٥٩ — ٦٠ .

(٤٢) حمدى حافظ : العدوان الثلاثى على مصر ، القاهرة الانجلو المصرية د.ت ص ٦٣ .

(٤٣) ابراهيم علوان : المرجع السابق ص ٦١ .

(٤٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص ١٤٨ .

(٤٥) جمهورية مصر العربية : نشرة قناة السويس ١٩٧٥ .

(٤٦) جمهورية مصر العربية : نشرة قناة السويس ١٩٧٦ .

(٤٧) سجل العرب للعلاقات الثقافية والاقتصادية ص ٥٩ — ٦٢ .

(٤٨) سجل العرب للعلاقات الثقافية ص ٨٢ — ٨٣ .

(٤٩) سجل العرب للعلاقات الثقافية والاقتصـــادية من المحيط الى الخليج ص ٣٨ .

(٥٠) كان اول خزان حقيقى يقام على النيل ، وقد بدأ العمل فيه فى عام ١٨٩٨ وانتهى فى عام ١٩٠٢ ، وكانت سعة تخزينه للمياه مليار متر مكعب .

(٥١) الجدير بالذكر أن الدكتور القيسونى وزير مالية مصر فى ذلك الوقت كان قد تلقى خطـــابا من المســـتر بـــلاك مدير البنك الدولى يؤكد عزم البنـــك على تمويل المشروع ، مما يوضـــح اعترافه بقدرة مصر على ســــداد القروض ، ولكنه تراجع عن موقفه بعد انسحاب امريكا وبريطانيا من تمـــويل المشروع مما يثبت خضـــوع البنك الدولى لســـيطرة ورغبات الدول الرأسمالية والى جانب ذلك يذكر الســـناتور فولبرايت عضو مجلس الشـــيوخ الأمريكى انه لم يكن هناك اى دليل على ســـوء حالة الاقتصاد المصرى عندما قررت الولايات المتحدة سحب عرضها .

فليب جلاب : هل نهدم السد العالى ص ٤٧ .

(٥٢) عثمان أحمد عثمان : السد العالى من النـــواحى التـــاريخية والهندسية والاقتصادية ص ٣٧ .

(٥٣) الهيئة العامة للاستعلامات : السد العالى ص ١٦ وما بعدها .

(٥٤) وزارة الصناعة : الهيئة العامة لشـــئون المطابع الامـــيرية . يوليو ١٩٧٣ .

(٥٥) د. عبد المنعم الجميعى : مجمع اللغة العربية ــ دراســـــة تاريخية ص ٧ ــ ٨ .

الفصل العاشر

دراسات في تاريخ مصر قبيل ١٩٥٢

١ — الأحزاب والممارسة الديمقراطية .

٢ — المرأة المصرية والتعليم الجامعى .

٣ — مجتمع القاهرة من خلال ثلاثية نجيب محفوظ .

٤ — الفيوم بين ثورتى عرابى وسعد زغلول .

٥ — سيناء فى التاريخ الحديث والمعاصر .

(*)

١ ـ الاحزاب والممارسة الديمقراطية فى مصر

١٩٢٣ ـ ١٩٥٢

بصدور دستور ١٩٢٣ انتقلت مصر الى مرحلة جديدة من حياتها تقوم على قاعدة النظام الدستورى الذى هو أساس الدولة القانونية مع توزيع السلطات العامة بين الملك والوزارة والبرلمان . وعلى هذا الأساس انتهى التوكيل الشعبى الذى كان الوفد يتحدث بمقتضاه عن الامة المصرية بما يلائم عهد الديمقراطية ليصبح حزبا برلمانيا يمثل اغلبية الأمة بعد أن كان وكيلا لها ، فدخل الانتخابات ، ونال الاغلبية الساحقة وعلى اثر ذلك شكل سعد زغلول الوزارة وفيما يلى نعرض لمواقف بعض الأحزاب المصرية من الممارسة الديمقراطية ، وعلاقة ذلك بمواقفهم من الملك والانجليز ونخص بذلك الوفد ، وحزب الاحرار الدستوريين ، وحزب الاتحاد ، وحزب الشعب .

اولا : الوفد

خرج الوفد من الانتخابات بتأييد شبه جماعى من الامة ، ورأى نوابه ضرورة تنفيذ مبادىء الدستور وتطبيق احكامه بروح تامة من الحرية والديمقراطية [1] ومع ذلك فقد اثبتت الاحداث ان دفاع الوفد عن الديمقراطية لم يستمر خلال تربعه على اريكة الحكم ، بل تم استغلال الوفد للديمقراطية فى الحاق الهزيمة باعدائه ومنافسيه فى بعض الأحيان والدليل على ذلك انه بمجرد وصول الوفد الى الحكم كان يستبدل دكتاتورية خصومه بدكتاتوريته مع انه خلال سنوات المعارضة كان يخوض معركته ضد الملكية باسم الديمقراطية والحريات النيابية ، وينشط فى تقديم الالتماسات والعرائض الى الملك يطلب فيها عودة البرلمان واعادة الحياة النيابية [2] وفيما يلى نعرض لبعض هذه المواقف .

(*) قدمت هذه الدراسة لمركز الدراسات السياسية بالاهرام فى عام ١٩٨٣ .

(أ) موقف الوفد من احزاب المعارضة :

اذا كان فقهاء القانون يقولون أن اساس الحياة النيابية هو أن تحيا البلاد فى جو من الحرية يظهر فيه اختلاف الآراء ، ويتمسك فيه الناس بما يتفق مع اهدافهم وميولهم ، وان يدرك ابناء الأمة انهم ابناء وطن واحد فيحق لنا أن نتساءل هل سار حزب الوفد على هذا المفهوم ، وتعامل مع احزاب المعارضة بطريقة ديمقراطية ؟

الواقع ان سعد زغلول لم ينس خصومته مع الاحرار الدستوريين ، فبعد أن ألف وزارته الدستورية الأولى رأى فى وصوله الى السلطة فرصة للتنكيل بهم وابعادهم عن المراكز الهامة فمثلا لم يتردد سعد فى أن تكون حكومته وفدية لحما ودما ، فبعد اسبوعين فقط من توليه الوزارة اقال بعض المديرين والعمد من انصار الأحرار الدستوريين وقدمهم للمحاكمة [٣] وولى مكانهم انصاره بحجة انه لم يبق على موظف لا يثق فيه تمام الثقة وقد ادى ذلك الى تذمر بعض الأهالى فى القرى لعزل عمدتهم ، واظهروا عدم ثقتهم فى العمد الجدد [٤] .

ولما حددت الحكومة يوم ١٥ مارس ١٩٢٤ موعدا لافتتاح الدورة البرلمانية الأولى ، وحلف اليمين الدستورية دعيت جميع الصحف المصرية والأجنبية الى هذا الافتتاح عدا جريدة السياسة التى كانت تمثل الأحرار الدستوريين [٥] مما يعد انتهاكا لحقوق المعارضة التى كان يتجاهلها سعد ويعتبرها طائفة هزيلة تكونت من رجال خوارج على النضال الوطنى [٦] .

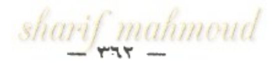
والى جانب ذلك اخذت المظاهرات المدبرة بمعرفة الوفد تسير فى مختلف الأقاليم تنادى بسقوط المعارضة ، وتقذف منازل اعضاء حزب الأحرار الدستوريين بالحجارة ، كما عمل سعد زغلول على اسقاط عضوية مجلس النواب عن محمد محمود أحد قادة حزب الأحرار الدستوريين [٧] ولما نجح فى ذلك وتقدم محمد محمود لاعادة ترشيح نفسه فى دائرته باسيوط عمل الوفد على اسقاطه فلجأ وكيل المديرية بايعاز من الوفد الى تهديد العمد واعضاء لجان الانتخابات المؤيدين

لحمد محمود ، ولما احس محمد محمود بذلك تنـازل عن ترشيح نفسـه محافظـة على مصـالح اهله وانصاره ففاز فى انتخابات الدائرة رجـل لم يكن معروفا لدى اهلها .

وعندما اثيرت قضـية « فى الشعر الجاهلى » امام مجلس النواب وكان المتهم هـو الدكتور طه حسين المحرر الادبى لجـريدة السـياسة الناطقة باسم حزب الأحـرار الدستوريين خصم الوفد العنيد اثار اعضاء الوفـد وعلى راسهم سـعد زغلول زوبعة فى البرلمان ضـده كما وصل الامر بسـعد زغلول ان خطب فى احدى المظـاهرات التى قامت تطالب براس الدكتور طه قـائلا « هبوا ان رجـلا مجنونا يهذى فى الطريق فهل يضر العقـلاء شىء من ذلك »[٨] .

ولم تتوقف تجـاوزات الوفـد للديمقراطيـة بعد وفاة سـعد فعندما تولى النحـاس رئاسة الحكومة لم تنج الجـامعة من تدخل حزب الوفد فى شئونها فبعـد ان اعلنت كلية الآداب ارادتها فى عـام ١٩٢٨ بتعيين الدكتور طه حسـين عميدا لها حدثت ازمة سياسية لأن حكومة النحـاس لم تكن راضيـة عن ذلك التعيين لصـلة الدكتور طه حسين الوثيقـة بحزب الأحـرار الدستوريين فطلب وزير المعـارف من الدكتور طـه ان يستقيل وحسـما للامر قبل الدكتور طـه ان يسـتقيل بشرط اعتمـاد تعيينه اولا تنفيذا لارادة الجـامعة فعين ووقع بعض الأوراق ، وفى المساء قدم استقالته [٩] .

يضـاف الى ذلك أن الاتهـامات التى اثارها خصـوم الوفد ضده تضمنت ميـله الى الاستبداد والتسـلط والتدخل فى حرية الانتخـابات لصـالح مرشحيه وتهديد منافسـيه [١٠] والطموح الى الحكم الدكتاتورى عن طريق تنظيم حـركات الشـباب الوفدى فى منظمات شبه عسـكرية مثل القمصـان الزرقاء وان الوفديين كانوا وهم فى الحـكم يقفون ضـد الانجليز موقفـا يفضى الى ازمات متوالية تنتهى دائما باستقالة الـوزارة قبل الاوان ، فاذا ما اعتزلوا الوزارة وقفـوا انفسهم على اقامة العراقيل فى وجـه الحكومات التى تليهم فيمنعونها من البقاء فى الحـكم اكثر مـن اشهر معدودة [١١] اما فى البرلمان فان الخوف من الأغلبية الوفدية كان



السمة البارزة في جميع المناقشات ، وكان بعض الوفديين يؤلفون اللجان السرية لارهاب كل من يجرؤ على انتقاد الوفد .

هذا عن الجانب غير الديمقراطى للوفد اما عن الجانب الديمقراطى فنذكر ان سعد زغلول لم يكن فى مقدوره ان يتناسى انه زعيم حزب سياسى كرس جهده للحصول على استقلال مصر والسهر على حراسة الدستور ولذلك فانه لم يشأ ان يخرس الانتقادات التى كان بعضها يمس الوجود البريطانى فى مصر بينما مس بعضها الآخر نفوذ القصر كما يصعب على احد ان ينكر ان النحاس حاول تثبيت قواعد الدستور والحد من سيطرة القصر على الحكم بانشاء وزارة للقصر وادخال نظام وكلاء الوزارات البرلمانيين وذلك لتوطيد اواصر الثقة بين العرش والأمة ، وتوطيد النظام البرلمانى على الأسس الديمقراطية [١٢] . كما ان وزارة النحاس اصدرت قانونا بالعفو الشامل عن الجرائم السياسية التى ارتكبت منذ يونيو ١٩٣٠ الى مايو ١٩٣٦ عدا القتل العمد ، كما الغت قانون حماية الموظفين الذى كان يمنع رفع الدعوى عليهم مباشرة امام محكمة الجنح .

ثانيا : مواقف الوفد من الملك :

على الرغم أن الملك فؤاد قد أعلن عن سعادته لتأسيس البرلمان على المبادىء العصرية ودخول البلاد فى دور التنظيمات النيابية التى قررها الدستور [١٣] فانه اعتبر الدستور مصدر ازعاج له ، ولم يكن على استعداد لقبول دور الملك الدستورى دون سلطات لذلك صمم على أن يملك ويحكم [١٤] وكان شغله الشاغل طوال عهده أن يبعد الوفد عن الحكم ، ولم يترك وسيلة من اجل ذلك الا ولجأ اليها ووصل الأمر أن اتفق القصر مع احزاب الأقليات على مناوءة حزب الوفد وعرقلة حكمه ، ولما لم يستطع هؤلاء مواجهة التيار الشعبى الجارف الذى يمثله الوفد لجأوا الى تعطيل البرلمان لمدة شهر ثم باصدار قرار بحل مجلس النواب فور انتهاء مدة التعطيل ، فاذا جرت انتخابات جديدة تمخض عليها وصول الوفد الى الحكم اضطر القصر الى تعطيل الحياة النيابية .

وقد شــهد شهر نوفمبر ١٩٢٤ مولد أول صراع بين الملك ومجلس الوزراء الوفـدى فقد تصـور سعد زغلول رئيس الوزراء أن فى مقدوره باسم الدستور أن يفرض على القصر سـلطة الاشراف على تعيين كبـار موظفى الدولة وعنـدما رفض الملك ذلك قـدم سعد زغلول استقـالته ولكن البرلمان جـدد ثقته به ، واجتـاحت المظاهرات شـوارع القـاهرة متجهة الى قصر عـابدين وهى تهتف سعد أو الثورة كذلك توجه وفـد من أعضـاء مجلس الشـيوخ لمقابلة الملك الذى اضطر فى النهاية الى أن يرضـخ لمطالب الوفد ، وان يقبل تقليص نفـوذه الاوتوقراطى ليصبـح مجرد حـاكم دستورى تكون قرارته خاضعة للتصـديق عليهـا من رئيس الوزراء والوزراء المختصين .

وعلى الرغم من ذلك فقد اسـتمر الملك فؤاد فى محـاولاته للاطاحة بالوفد لدرجـة انه من تـاريخ النظـام النيابى فى مصر فى يونيو ١٩٢٤ حتى وفاة الملك فـؤاد فى ابريل ١٩٣٦ لم يصـل الوفد الى منصة الحـكم سـوى مدة تقـل عن عامين مرة برئاسـة سعد زغلول من مارس الى ديسمبر ١٩٢٤ ومرة ثانية وعلى فترتين برئاسـة مصطفى النحاس اولهما من مارس الى يونيو ١٩٢٨ والثانية من ينـاير الى يونيو ١٩٣٠ كما يلاحظ أن أى مجلس نيابى لم يستطع ان يكمـل دورته ومدتها خمس سنوات كما جددها الدسـتور كما أنه كان من النـادر أن تنتهى دورة برلمانية دون حـدوث أزمة دستورية تفضها فجـأة قبل موعدها .

وعندما فشل الوفد فى تدعيم الدستور وصيانته رأى وضع مشروع يقضى بمحـاكمة الوزراء الذين يحاولون الاعتداء على الدستور بخرق احد مـواده أو تعطليها بعقوبات قاسـية تصل الى حد الأشغال الشـاقة ولكن القصر انتقـد هذا المشروع عن طريق جريدته البلاغ وحـذر وزارة النحـاس من المضى فيه لأن وضـع مثل هذا القانون يعنى بأن هنـاك جهات معينة تتآمر على الدستور [(١٥)] .

وبعد وفاة الملك فؤاد سـلمت مقاليد سـلطات الملك الدستـورية الى مجلس وصـاية حتى يبلغ ابنه فـاروق سن الرشد ، وكانت البلاد تسـير فى ظل ائتـلاف يمثل كافة الأحزاب . ولمـا اجـريت الانتخابات

لم تتدخل فيها الحكومة ، وكانت نتيجتها فوز الوفد بالأغلبية فشكل النحاس الوزارة .

وخلال تولى النحاس الوزارة راى الوفد ان الخطر على الديمقراطية ينبع من مصدرين هما الشعبية الكبيرة التى كان يكتسبها الملك فاروق بين الجماهير والديوان الملكى الذى كان مركزا للوشاية والدسيسة ضد وزارة الأغلبية ، وازاء ذلك كان خطة النحاس تنطوى على استغلال صغر سن الملك لوضعه تحت وصايته ، ثم ادخال الديوان الملكى فى المسئولية الوزارية عن طريق تحويله الى وزارة باسم وزارة القصر ، وتعيين وزير باسم القصر يعين مع الوزارة ويستقيل باستقالتها من الحكم وبذلك يبقى تحت رقابة الأمة [١٦] .

ثالثا : مواقف الوفد من الانجليز :

لقد كان الوفد باعتباره بطل التطلعات القومية للمصريين هو عدو الانجليز فثورة ١٩١٩ من صنعه كما أن زعماءه انكروا كل قيمة لتصريح ١٩٢٢ وظلوا يطالبون بالجلاء ، واستقلال وادى النيل من الاسكندرية الى الخرطوم ومع ذلك فقد قبل سعد زغلول مبدأ المفاوضات وكانت العلاقة بينه وبين حكومة العمال فى انجلترا تسير سيرا حسنا ولكن فشل المفاوضات التى اجراها سعد فى لندن فى عام ١٩٢٤ والانذار البريطانى الذى اعقب اغتيال السردار قد أوضحا له مدى اتساع الخلافات فى وجهات النظر بينه وبين الانجليز لدرجة ان سعد بتأييد ومساندة مجلس النواب اشتد فى معاملة سلطات الاحتلال فقد انتهز سعد فرصة مناقشة الميزانية فصوت على قرار بالغاء مساهمة مصر فى نفقات جيش الاحتلال مع مطالبة انجلترا بالجلاء عن مصر وظلت علاقات الوفد بالانجليز يسودها التوتر حتى وصل الامر بانجلترا الى اتهام حزب الوفد بأنه يريد « تحويل الجيش الى سلاح فى يده » [١٧] كما انتقد الوفد ما تردد من ان ممثل انجلترا فى مصر يعامل معاملة رسمية قبل أن يقدم أوراق اعتماده [١٨] كما طالب بجلاء القوات الانجليزية من أرض مصر والسودان خصوصا بعد ان اصبحت دولة ذات سيادة على أرضها بعد ان تنازلت تركيا عن هذه السيادة .

ونتيجـــة لذلك فـــكرت انجلترا فى ابعاد سعد زغلول عن الحـــكم فقد ادركت أن استمراره فى رياسة الوزارة مع ما يتمتع به حزبه من اغلبيـــة ساحقة فى البرلمان يسبب مشاكل لها ولرجالها فى مصر [١٩] .

ولما تولى النحـــاس رئاسة حزب الوفد جعل نصب عينيه ضرورة تحقيق استقـــلال البلاد بابرام معـــاهدة تحالف مع بريطانيا وكان نتيجة ذلك توقيع معـــاهدة ١٩٣٦ ولكن هل ظل موقف الوفد من الانجليز على هذا المنـــوال ؟

الواقع أن الوفد توهم ان معـــاهدة ١٩٣٦ ستتيح له فترة التقـــاط انفـــاس طويلة ، كمـــا ان الانجليز راوا ان حكومة الوفد على الـــرغم مما تسببه لهم من متـــاعب الا انها كانت تقف موقفا صريحا ضـــد الفاشـــية بعكس القصر وعلى راسه الملك [٣٠] .

ومع بداية الحرب العالمية الثانية اتبع الوفـــد سياسة معتدلة مع انجلترا فلم يتردد فى اعـــلان ارتباطه بقضية الديمقراطيات واكد ان مصر تمد يدها الى انجلترا ، وان الشرف يقتضى من كل مصرى ان يساعد الدولة الحليفة مما دفع أنجلترا الى ارغـــام الملك فاروق على اعادة النحـــاس الى الحـــكم [٣١] .

وقد استمر موقف الوفد من الانجليز بين متشـــدد ومعتدل حتى اعلن مصطفى النحاس فى البرلمان فى الثامن من أكتوبر قطع المحادثات السياسية بين مصر وبريطـــانيا بعد أن تبين بجـــلاء عدم جدواها والغـــاء معـــاهدة ١٩٣٦ وبذلك دخلت مصر مرحلة جـــديدة من مراحل الكفاح الوطنى ضد الانجليز .

وهكذا يتضـــح ان الوفد لعب دورا هـــاما فى الحيـــاة الســـياسية المصرية فقد حـــاول ان يجعل من الملك ملكا دستوريا يملك ولا يحـــكم كما هو الحـــال فى دول أوربا الغربية ، وقام بدور بارز فى مواجهة أوتقراطية الملك وتســـلط الانجليز على مقدرات البلاد ، ومع ذلك فان مواقفه وهو فى داخـــل السلطة لا تخلو فى بعض الأحيان من الدكتاتورية .

ثانيا : حزب الاحرار الدستوريين :

من المعروف ان هذا الحزب قد تم تكوينه فى أكتوبر عام ١٩٢٢ من صفـــوة المصريين المعتدلين ذات الكيان الاجتمـــاعى المتميز وكانت الرغبة فى الوصول الى الســـلطة وراء نشـــاط هذا الحزب ونتيجة لذلك تعامل مع القضية الوطنية باعتدال واعتبر المفاوضـــات بمثابة الأمـــل الوحيـــد لتحقيق مطالب مصر[٢٢] وفيما يلى نعرض لمواقف هذا الحزب من الاحزاب الأخرى ومن الملك والانجليز .

(ا) موقفه من الأحـــزاب :

نتيجة لمقتل السير لى ستاك فى التـــاسع عشر من نـــوفمبر ١٩٢٤ توترت العلاقات بين مصر وبريطانيا الأمر الذى حمـــل الانجليز على املاء شروطا اضطرت امامها وزارة ســـعد زغلول الى التخلى عن الحكم فانتهز الملك فؤاد الفرصـــة وعهد بتشـــكيل الوزارة الى احد مؤيديه وهـــو « احمد زيور » واشـــترك فيها حزب الاحرار الدستوريين . وقد استهلت وزارة زيور حياتها بانتهـــاك الديمقراطية فقبضت على عدد من النـــواب الوفديين على الرغم من حصـــانتهم البرلمانية ووجهت اليهم تهمة التواطؤ فى حادث السردار [٢٣] كما استصدرت مرسوما من الملك بضرورة تاجيل البرلمان شـــهرا ، ولما رفع الوفديون الالتماسات الى الملك بضرورة عقـــد البرلمان كان الـــرد هو حـــل مجلس النواب فى السادس والعشرين من ديسمبر ١٩٢٤ وتاجيل موعد الانتخـــابات . واستمر زيور لمدة تزيد عن عام كامل يحكم البلاد فى غيبة عن البرلمـــان ، وعلى هامش الدستور .

والواقع ان الاعتداء على الحيـــاة البرلمانية من جـــانب الملك يرجع لدافعين هما كراهية القصر امتلاك الوفد للاغلبية الســـاحقة فى البرلمان، واجتمـــاع الزعامة الشـــعبية ورياسة الحكومة فى يد سعد زغلول ، ثـــم ضيق اصحـــاب المناصب الحكومية والسياسيين الذين تربوا فى مدرســـة الوظائف بالحياة النيابية . ومما يؤخذ عن خصوم البرلمان الوفدى هـــو الوســـائل التى اتخذوها لبلوغ أهدافهم فقد عطلـــوا الحيـــاة النيـــابية بالتاجيل تارة ، وبالحل تارة اخرى ، ثم تعرضوا للحقـــوق والحـــريات

بطريقة لا ترضى العدالة ، وعلى وجـه تقشعر له الابـدان احيـانا ، واغروا الناس بالوعد والوعيد على ان يتخذوا من مبـادئهم سـلما تباع وتشـترى [٢٤] .

وقد لجأت وزارة زيور الى اتخـاذ اجراءات استبدادية ضد الوفد وزعيمه [٢٥] حتى تسـوقه الى هزيمة سـاحقة فى الانتخابات التى تقرر اجراؤها فى عـام ١٩٢٥ فحتمت عليه الحصول على اذن سابق قبل عقد اى اجتمـاع عام ، وكان هذا الاذن يرفض فى اغلب الاحيـان كما حـرم على الزعمـاء الوفديين استقبـال انصـارهم فى منـازلهم ، واتخـذت اجراءات غير شرعية للتاثير على الناخبين فوجهت التهديدات للفلاحين ، وتعرض الاغنيـاء للاغراء والمسـاومة ، ووضع اتباع الوفد تحت المراقبة ، واسيئت معـاملتهم ، وفتش البوليس منـازلهم كمـا اعادت حكومة زيور العمـد المطرودين وعزلت بعض العمد من انصـار حزب الاتحاد والوفد . ونتيجة لذلك ازدادت شـكاوى الاهالى الى الملك يوضحون فيها سـوء الاحـوال [٢٦] .

ولقد استفاد القصر من حـادث مقتـل السردار ، واعلنها حـربا على الوفد ، ولكن الامة وقفت بجـانب سـعد فى انتخابات رئيس مجلس النواب ولم يظفر مرشح الحكومة عبد الخالق ثروت باكثر من خمسة وثمانين صوتا بينمـا بلغت اصوات المؤيدين لسعد مائة وثلاثة وعشرين .

وعلى الرغم من ذلك فقد اضطر الاحرار الدستوريون احيـانا الى الانضمـام مع الوفد ضـد القصر فى محـاولة لاعادة الحيـاة النيـابية ، فاشـترك الحزبان فى وزارة ائتلاف برئاسة عدلى فى مـايو ١٩٢٦ ، قبل سـعد خـلالها منصب رئيس البرلمان . ولم يسـتمر ذلك الوفاق طويلا فقد تجدد الخـلاف بين الحزبين نتيجة لمحـاولات الوفد الاستئثار بالامر ، وعلى اثـر ذلك حل مجلس النـواب والشيوخ وتم تأجيل الانتخابات [٢٧] والى جـانب ذلك فان حـزب الاحرار الدستوريين كان يقبل الحـكم احيـانا بوسـائل غير دستورية ، وكانوا يبررون ذلك امام انفسهم بأنهم يمثلون قسما هاما من الراى العـام المصرى من حقه ان يستأثر بالحـكم لأنه القسـم الذى يضم اصحـاب المصالح الرئيسية [٢٨] ووصـل بهم

الأمر الى قبــول الوزارة على شـــرط تعطيل الحياة الدستورية فبعد ان اقال الملك وزارة النحــاس فى عام ١٩٢٨ قبل محمد محمود تاليف الوزارة الجديدة من الأحرار الدستوريين والاتحــاديين وهكذا عاد الحــزبان الى التآمر على الدســتور . ومع ان محمد محمود قال فى كتــابه الى الملك بعد قبول الوزارة « وسيكون رائدنا ان يظل الدستور فى حمى جلالتكم ركن الحــكم الركين وعمــاده المتين » فانه لم يكن صــادق الوعد فــى قوله اذا كان اول عمل هــام له هو تأجيل البرلمان شــهرا ثم اعقب التأجيل حل البرلمان بمجلســيه وايقاف الحياة الدستورية ثلاث سنوات .

وقد قوبل تعطيل الدســتور بالسخط والاستنكار فى ارجاء البــلاد خاصــة وانه كان حرمانا للامة من حقوقها التى اكتسبتها خــلال جهــاد طويل [٢٩] ولما قابل الوفد تعطيل البرلمان بالاحتجــاج اعتقلت الحكــومة الكثير من معارضيها مستعينة فى ذلك بقوات من الجيش والبوليس للقضاء على الديمقراطية ومع أن الرغبة فى الحفاظ على كرسى الحــكم كان يسى حزب الاحرار الدستوريين الممارسة الديمقراطية ، فان وجوده خارج الحكم كان يعيده الى صــوابه . فعندما امتهن صــدقى ارادة الأمة بالغاء دستور ١٩٢٣ قرر حــزب الأحرار الدستوريين عدم الاشتراك فى الانتخــابات التى تقع خــلال حكم صدقى [٣٠] كما اتفق مع حزب الوفد على مقــاطعة الانتخابات ، واصــدر قرارا بهذا المعنى ، واشتركا معا فى تاليف لجنــة اتصــال بينهما لتنفيذ قرار المقاطعة .

وبعــودة الاحرار الدستوريين الى الحــكم بعد اقالة وزارة النحاس عام ١٩٣٨ استصــدر محمد محمود مرســوما بتأجيل انعقــاد البرلمان شهرا ثم اصــدر مرسوما آخر بحل البرلمان وادخلت وزارته تعــديلات كثيرة فى الدوائر الانتخــابية حتى اصبحت نتيجتها فى صــالح انصــار الحكومة ، وبذلك لم يتحقق شىء من الوعود التى قالها محمد محمود بأنه سيجىء بنــواب يحاسبون الحكومة ويراقبونها ، فاذا به قد جاء بمجموعة من المؤيدين لحكومته [٣١] .

وعلى الرغم مما أخذ على الأحــرار الدستوريين من مأخــذ غــير ديمقراطية فان وزارة محمد محمود استصدرت مرســوما بقانون فى العاشر

من فبراير ١٩٣٨ بالعفو الشـــامل عن بعض الجرائم التى وقعت فى الفترة من مايو ١٩٣٦ الى ديسمبر ١٩٣٧ اى فى عهد وزارة النحاس ، ومرسوما آخر بقـــانون بتاريخ الثامن من مارس ١٩٣٨ بحظر الجمعيات أو الجماعات التى يكـــون لها صورة التشكيلات شبه العســـكرية وقد طبق هذا على فرق القمصـــان الزرقاء الوفدية ، وفرق القمصـــان الخضراء التى انشأتها جماعة مصر الفتاة مما يعد فى حد ذاته انتصارا للديمقراطية والحـــد من الارهـــاب .

ب — موقفه من الملك :

سار الحزب مؤيدا من القصر ضـــد الوفد ، ونجـــح فى انتخـــابات ١٩٢٥ ، وشكلت الوزارة بينه وبين حزب الاتحاد ، ولكن الملك فؤاد كان يعتبر هذا الحزب الوريث الشرعى لحزب الأمة الذى ورث فيمـــا ورث عنه عـــداء رجالاته للقصر ولطغيانه ، كمـــا اعتبر ان تاليف هذا الحزب كان من اجـــل مقاومة نزعة القصر الاوتوقراطية واندفاع عن مشروع الدستور، لذلك فان الملك فؤاد لم يحبذ الاستعـــانة بهذا الحزب كثيرا [٣٢] .

وســـارت الأمور على هذا المنوال حتى اصـــدر على عبد الرازق كتابه « الاسلام واصول الحكم » الذى ادحض فيه الرأى القائل بوجـــوب الخـــلافة فى الاسلام ، فغضب الملك عليه وتحرش به وبحزب الأحـــرار الدستوريين الذى ينتمى اليه كما اهتم الاتحاديون بتجـــريد الشيـــخ على عبد الرازق من صفة العـــالمية ارضاء للقصر مما أدى الى انفصام الروابط بين حزبى الاتحـــاد والاحرار ، واعادة العلاقات بين الأحرار والوفد من اجل انديمقراطية ولخوض صراع ضـــد حكومة ليس لهـــا من نفوذ داخل البـــلاد ، بل يتوقف استمرارها على تاييد الملك . واستعد الاتحـــاديون لخوض معركة الانتخـــابات منفردين وانتهى هذا الصراع بعودة الحيـــاة النيـــابية الى البلاد واستقـــالة زيور . ومع ان سعد زغلول كان له الحق فى رئاســـة مجلس الوزراء بصفته رئيســـا للحزب الذى حاز على اكثـــر المقـــاعد فى مجلسى النـــواب والشيوخ فانه ترك هذا المنصب لعدلى يكن تشـــكل عدلى الوزارة من الوفديين والاحرار الدستوريين وفى العـــاشر من يونيو ١٩٢٦ عقد البرلمان جلســـته الافتتاحية ، وانتخب سعد زغلول

رئيســا لمجلس النــواب الذى قرر الغــاء كافة المراسيم التى أصدرتها الحكومة السابقة فى غيبة البرلمان(٣٣) .

والواضــح أن القصر كان فى ذلك الحين قد ورط الأحرار الدستوريين فى كثير من المخــالفات الدستورية التى كشفت زيف ماكانوا يدعونه مــن الحرص على الدســتور والدفاع عنه والتظــاهر بانهم من غلاة المحافظين مما اضعف مركزهم السياسى فى البلاد(٣٤) .

جـ ـ موقفه من الانجليز :

مما يؤخذ على حزب الأحرار الدستوريين انه وضع قاعدة التساهل مع الانجليز للوصــول الى حل للقضية المصرية ، وكان أعضاؤه يفاخرون بهذه السياسة ويسمونها كياسة .

وقد حرص الحزب منذ تأسيسه على هذه السياسة حتى انه لم يذكر فى برامجــه كلمة الجلاء ، وكان وجــود هذا الحزب موضــع رضــاء السياسة البريطانية فكانت تقوم على مساندته وتعضيده(٣٥) .

ومما ســبق يتضح أن هذا الحزب لم يستند على مؤازرة الشعب له بل ارتكن الى القصر بمعنى انه لم يكن حزبا شعبيــا بل كان جل اعتماده يرتكن على قــوة الحكم ، ومن هناجاء تغليبه لسلطة الحكومة على سلطة الشعب ، وميله الى اهــدار ســلطة الامــة كى يصــل الى منــاصب الحكم لذلك يمكن القول ان اسم هذا الحزب لا يتفق مع افعاله ، فلا هو ممن نادوا بالجلاء حتى يتضمن اسمه الأحرار ، ولا هو حافظ على الممارسة الديمقراطية ليسمى بالدستورى .

حــزب الاتحــاد :

قام القصر بتاليف هذا الحزب من بعض المنفصلين عن الوفد بقصد ايجــاد نوع من التوازن بين الوفد والأحــرار الدستوريين داخل مجلس النواب ، وكان لحسن نشــأت وكيل الديوان الملكى القسط الأكبر فــى تاسيس هذا الحزب وتوجيهه الى الخطط التى تتطلبها السراى بحيث يكون القصر مرجع الحــكم ومصــدره ، وان يحكم الشعب بواســطة حكومة

تفرض عليه فرضا وفيما يلى نعرض لموقف هذا الحزب من الاحزاب الأخرى وموقفه من الملك .

أ — موقف الحزب من الأحزاب الأخرى :

ضاق الوفد وقياداته وضاق حزب الأحرار الدستوريين وقياداته ايضا من قيام حزب الاتحاد ، ونظروا الى مؤسسيه نظرة ازدراء وسخرية وبدأ ائتلاف بين الحزبين لمناهضة هذا الحزب والتصدى له مما جعل قيادات هذا الحزب تواجه هذه المواقف بزيادة الارتماء فى احضان القصر وتحاول فرض نفسها ولكن يبدو من الظروف التى نشأ فيها هذا الحزب ومن اعضائه المؤسسين له ، ومن موقف الشعب منه أن هذا الحزب ولد ميتا وان كان القصر قد استطاع ان يستخدمه بنجاح فى دفع الاحزاب الأخرى الى التسابق فى اعلان ولائها للملك .

ب — موقف الحزب من القصر :

لم يكن لحزب الاتحاد مهمة غير مساندة القصر على حكم مصر بقوانين ملكية بدلا من حكمه عن طريق دستور وبرلمان خصوصا وانه حزب قام على أساس الولاء للعرش وان تكون السراى مرجع الحكم ومصدره . ونرى أن تاليف هذا الحزب على الصورة التى تم بها وولاءه التام للعرش لم يكن من الحكمة السياسية ولا من الاخلاص للقضية الوطنية فى شىء . فالملك كان يجب أن يكون بعيدا عن الأحزاب خصوصا وان نزوله الى هذه الحلبة كان مخاطرة جسيمة من جانبه عرض نفسه فيها لنقمة وغضب الأحزاب الاخرى .

رابعا : حزب الشعب

فى محاولة لتعديل الدستور وتكوين وزارة يرضى عنها القصر عهد الملك فؤاد الى اسماعيل صدقى فى التاسع عشر من يونيو ١٩٣٠ برئاسة الوزارة .

وفى اعقاب ذلك قامت وزارة صدقى بالغاء دستور ١٩٢٣ وقانون الانتخاب ، وخرج صدقى على البلاد بدستور جديد عرف

بدستور ١٩٣٠ ذكر ان الغرض منه هو ان يمكن العناصر الرشيدة من خدمة الأمة ، وان يكفل صحة التمثيل مع ضمان الحريات العامة [٣٧] كما انه خير علاج للحالة الحاضرة[٣٨] .

وكانت النتيجة الطبيعية لصدور الدستور الجديد تأليف حزب يستند اليه فى فرض النظام الذى وضعه حتى يدخل به الانتخابات فألف حزب الشعب .

ونتيجة لذلك اتفق الوفد وحزب الاحرار الدستوريين على مقاطعة الانتخابات التى اعتزم صدقى اجراءها على اساس دستوره الذى وضع السلطة التشريعية فى يد الملك بالاشتراك مع مجلسى النواب والشيوخ [٣٩] بينما قرر الحزب الوطنى وحزب الشعب ، وحزب الاتحاد خوض معركة الانتخابات [٤٠] .

وفى ٦ نوفمبر ١٩٣٠ اصدر الوفد قرارا بعدم الاعتراف بالدستور وقانون الانتخاب الجديد ، ومقاطعة الانتخابات العامة من اساسها ، كما اصدر حزب الاحرار الدستوريين قرارا بهذا المعنى ، واشتركا معا فى تاليف لجنة اتصال بينهما لتنفيذ قرار مقاطعة الانتخابات التى اعتزم صدقى اجراءها ، وتعاهدا على الكفاح من اجل اعادة دستور ١٩٢٣ كما اوعز كل من الحزبين الى انصاره من العمد والمشايخ بالاعراض عن الاشتراك فى انتخابات صدقى وتقديم استقالاتهم احتجاجا عليها[٤١] كما طلب مصطفى النحاس من اعضاء الهيئة البرلمانية الوفدية السابقة ان يقوموا فى دوائرهم بالحض على مقاطعة الانتخابات ثم قام انصار الحزبين برفع الشكاوى الى الملك فؤاد يطلبون فيها اقالة وزارة صدقى واعادة دستور ١٩٢٣ [٤٢] .

ولم تسكت حكومة صدقى على احزاب المعارضة وجرائدها فقد اتهمت حزب الوفد بانه يتخذ من الرعب الذى ينشره بين الناخبين والنواب سبيا للحكم والتحكم [٤٣] كما استخدم اسماعيل صدقى القوة فى قهر الراى العام . وقد حدث ان قرر الوفد ان يخرج النحاس على راس اعضاء مجلس النواب المنحل فى مظاهرة كبيرة تقتحم ابواب البرلمان ،

ولما علم صدقى بذلك هدد باطلاق النار على المظاهرة وقتل النحاس فعدل الوفد عن قراره ولما خرج النحاس على راس رجال الاحزاب الى طنطا أمر صدقى بمنعهم من السفر ، وعندما اقتحموا المحطة وركبوا القطار أمر صدقى بفصل العربة التى يركبها النحاس عن سائر العربات وتحرك بها قطار خاص الى منطقة نائية فى الصحراء تركتهم هناك[٤٤] يضاف الى ذلك ان حكومة صدقى فصلت واضطهدت الموظفين الذين ينتمون الى احزاب المعارضة [٤٥] .

اما عن موقف حكومة صدقى من جرائد المعارضة فكان التعطيل والاغلاق ففى الخامس عشر من يوليو ١٩٣٠ أمرت بتعطيل جرائد البلاغ وكوكب الشرق واليوم تعطيلا نهائيا كما أنذرت جرائد الضياء ، والفلاح المصرى ، والمساء ، والريفى والجورنال دى كير بسبب نشرهم خطبا منسوبة لرئيس الوفد [٤٦] كما فصلت العمد والمشايخ الذين انحازوا للمعارضة ، واضطهدت الأهالى الذين اعلنوا عن ولائهم للوفد أو للاحرار الدستوريين .

وقد اجريت الانتخابات الصورية فى مايو ويونيو ١٩٣١ فى جو خانق من الاكراه والتزوير وسفك الدماء ، وكانت على درجتين الأولى الانتخابات الخمسونية اى ان ينتخب كل خمسين ناخبا مندوبا عنهم ، ثم الانتخابات البرلمانية وفيها ينتخب المندوبون اعضاء مجلس النواب ثم اعضاء مجلس الشيوخ .

وعلى الرغم من اعلان الكثيرين من الناخبين رفضهم لعملية الانتخابات فقد اعلن اسماعيل صدقى أن نسبة عدد الناخبين الذين اشتركوا فيها كانت تفوق كل نسبة سبقتها [٤٧] .

والواضح أن الحكومة قد عمدت الى تزوير عملية الانتخابات فاوعزت الى لجان الانتخابات ان تزور محاضرها بحيث تثبت فيها حضور الناخبين كذبا وزورا [٤٨] وبذلك تمت المأساة الانتخابية ، وكانت سابقة خطيرة اتبعتها الادارة فى العمليات الانتخابية كلما ارادت الحكومات التالية اصطناع برلمان صورى .

يضـــاف الى ذلك أن الجـــامعة لم تنج من بطش حكومة صدقى فبعد انتخاب الدكتور طه حسين الذى كان ينتمى الى حزب الاحرار الدستوريين عميدا لكليـــة الآداب بيـــومين طلبت منه الحكومة أن يستقيل من الجامعة ليصبـــح رئيسا لتحرير جريدة الشعب لسان حـــال حزب صدقى فرفض وآثـــر البقاء فى الجـــامعة فأسرها صدقى فى نفســـه وزاد من غضـــب صدقى على طه حســـين انه كان متمســـكا بضرورة استقلال الجـــامعة فعـــارض منح القـــاب العلمية الشرف للسياسيين حتى لا يورط الجامعة فى السياسة ، فتحينت الحكومة الفرصة لابعاده عن الجامعة [٤٩] .

والغريب ان تلك الوزارة التى ظفرت باكبر قســـط من سخط الناس كانت اطـــول الوزارات عمـــرا فى التاريخ البرلمانى فى ذلك الوقت ، ولكن عندما ســـقط صدقى تخلى عنه الجميع ، تخلى عنه حزبه ، وتخلت عنـــه جريدته ، وتلك نتيجـــة طبيعية فالبنـــاء الذى يقام على السلطـــان يذهب بذهاب الســـلطان .

موقف الحزب من القصر :

كانت دعـــوة الملك لاســـماعيل صدقى لتشـــكيل الوزارة انما هى دعـــوة ليتولاها لحســـاب القصر وليس لحساب الامة او حساب طبقـــة بعينهـــا لذلك فليس من المستغرب أن ترتمى هذه الوزارة فى احضان الملك وتقوم بتنفيذ كل رغبـــاته واوامره .

موقف الحزب من الانجليز :

كان صدقى يرى بعد ارســـاء نظامه الجديد الاتفـــاق مع بريطـــانيا حـــول القضية المصرية ، ولكن الحكومة البريطانية رأت ضرورة الاتفـــاق مع حكومة مصرية تتمتع بثقة الأغلبية فى برلمان منتخب انتخـــابا حـــرا وهو ما لا ينطبق على حزب الشـــعب كمـــا أن السير لامبسون المندوب السامى البريطانى بعد أن درس عشـــرات الآلاف من الشكاوى التى وصلته من مختلف طبقـــات الأمة من اضطهـــاد حكومة صدقى رأى خطورة أن يتم الاتفـــاق مع حكومة على هذه الحـــال لأن ذلك يهدد ســـلامة الامبراطورية البريطانية فى مصر مما دفعه الى التقـــارب ناحية الوفد [٥٠] .

ومما سبق يتضح فشل حكومة صدقى فى ارغام الأمة على دستور من صنع السراى ، وعلى الرغم من تزوير الانتخابات والمواقف العدائية العنيفة التى استخدمها حزب الشعب ضد الأحزاب المعارضة فان الشعب اظهر صلابته فى مواجهة هذه الأحداث حتى اضطر الملك فى نهاية الأمر الى اعادة دستور ١٩٢٣ .

وخلاصة القول فان مصر وان كان لها دستور ولها نظام يسمى بالديمقراطى فى معظم الفترة من ١٩٢٣ الى ١٩٥٢ فانها لم تحكم بمقتضى الأساليب الدستورية بالمعنى الوارد فى الدستور ، ولا بمقتضى المبادىء الديمقراطية الغربية المتمثلة فى حرية الراى ويرجع السبب فى ذلك الى المسلك الذى سلكته الأحزاب فى سعيها الى تحقيق استقلال مصر فالبرلمان الأول الذى شكل برئاسة سعد زغلول كان يخضع لكلمة ذلك الزعيم الذى اكسبته معارضته الطويلة وتضحياته الكثيرة سلطة عظيمة فكانت الحكومة فى واقع أمرها مطلقة وتحت تصرف سعد زغلول ، ثم تلت ذلك حكومة ادارية برئاسة احمد زيور باشا تكونت بعد مقتل السردار واثناءها تعطل الدستور ، وكان المنتظر بعد اعادة البرلمان أن يتم تحقيق الاغراض التى رمى اليها بناة الدستور ، ولكن وفاة سعد زغلول اعقبه فترة انتظار ، ووجدت البلاد نفسها مضطرة الى الاصلاح الداخلى ثم تكونت حكومة الائتلاف ، ولكن اتضح أن زعماء الاكثرية فى الائتلاف من النواب والشيوخ لم يدركوا تماما الفرق بين التهييج السياسى والعمل الوطنى بمعنى ان البلاد لم تتمتع بحكومة برلمانية بل كانت تتحكم فيها لجنة دكتاتورية ، وهى اللجنة التنفيذية البرلمانية للحزب الوفدى ، وكان النواب لا هم لهم سوى مضايقة الوزراء والتدخل فى أعمالهم حتى لو كان هذا العمل فى دور التنفيذ والتوسط لدى الوزراء ومرءوسيهم يضاف الى ذلك ان آثار الانقسام بين الأحزاب انتقلت الى دوائر الحكومة مما أدى الى افساد نظام العمل وتعريض مصالح الجمهور للعسف والعبث ، ومن نشر القلق والاضطراب بين الموظفين لدرجة انه بوصول حزب المعارضة الى الحكم يتم تشتيت الموظفين من انصار الحكم السابق وتشريدهم وانتهى الأمر بأن اصبحت الحياة النيابية مصدر طغيان فئة على اخرى[٥١] واصبح النظام الحزبى فى مصر

نظـــام ضار لا يقـــوم على أسس سليمة خاصة وان الهدف الأول لــكل حزب من هذه الاحزاب أن يصل الى كراسى الحـــكم وان يكيد لاحـــزابه المعارضة دون اعتبار للمصلحة الوطنية ولا مراجعة لضمير . يضاف الى ذلك ان معظم هذه الأحزاب كانت تعتمد على زعيم أكثر من اعتمادها على مبدأ كما كانت تعتمد على الشعارات اكثـــر من اعتمادها عـــلى البرامج المدروســــة .

٥ — المراة المصرية والتعليم الجامعى (٥٢)

بعد أن افتتحت الجـــامعة المصرية رسميا فى ٢١ ديسمبر ١٩٠٨ رأى بعض القـــائمين على أمرها ضرورة الأخذ بيد المراة المصرية والارتقاء بهـــا ادبيـــا وعلميا ، ومن اجل ذلك خصصت الجـــامعة ابتداء من العام الثانى من افتتاحها محـــاضرات خاصة بالسيدات تشـــمل تاريخ المراة على مـــر العصـــور ، وبالرغم من الحذر الشـــديد فى اتخاذ هذه الخطوة خشـــية غضب المحـــافظين على التقـــاليد ، ومفاجاة الـــرأى العـــام بشىء لم يســـتعد له فان بعض الصحف المصرية بـــاركت ذلك الاتجاه وهللت لـــه وشجعت على دراســـة العلوم النســـائية للنساء موضحة ان النســـاء المصريات فى حاجة كبيرة الى من يصقل افكارهن ويقوم اعوجاجهن ويرفع عنهن غشـــاوة الجهل فطالبت جريدة « الظاهر » بانشـــاء جامعة للنساء حتى يتعامن ما لهن وما عليهن فقالـــت « نريدهن متعلمـــات عارفات بكل ما يجب لهن وعليهن بارعات فى تدبير المنزل والنظر فى شئون اطفـــالهن ، فمن شـــاء اصلاح مصر وترقيتها حقيقـــة فليجهر معنا بضرورة لـــزوم جـــامعة للنساء يتعلمن فيها علم تـــدبير المنزل وتربية الاولاد [٥٣] وقـــد أيدت اللواء ذلك فطـــالبت بانشـــاء جامعة للنساء موضحة ان اصـــلاح البـــلاد لا يتم بدون انشـــاء مثل هذه الجامعة [٥٤] .

ولا يعنى هذا أن اللواء فى مناداتها بانشاء جامعة للنساء قد تراجعت عما نادى به مصطفى كامل بضرورة فرض الحجاب على المراة ورفضـــه لفـــكرة التحرر من قيـــودها فقد حددت فى مناداتها بانشـــاء هذه الجامعة أن يقتصر التعليم على ما يســـاعد المراة فى تدبير شـــئون منزلها وتربيـــة اولادها وتهذيب اخلاقها ليتكون منها امهـــات المستقبل .

ونتيجة لتشجيع بعض الصحف للجامعة الوليدة على السير فى خطاها نحو تعليم المرأة قررت الجامعة انشاء قسم نسائى بها اقتصر التدريس فيه أول الأمر على محاضرات فى علم نفس المرأة والفلسفة والتربية والتاريخ وبعض الموضوعات العصرية هذا بالاضافة الى تدريس بعض الموضوعات الأساسية فى علم الصحة والطب [٥٥] .

ولما كانت الدراسة بالجامعة للرجال فى المساء فقد رأت الجامعة ان تكون الدراسة بها للنساء فى الصباح حرصا على تجنب التلاقى بين الجنسين داخل أروقتها .

وعلى الرغم من تعنت التقاليد وشدتها فى ذلك الوقت فانه يتضح من وثائق الجامعة الاهلية ان عدد النساء اللاتى خاطرن بدخول الجامعة فى عام ١٩١٠ كان ستة وثمانين قيد جميعهن كطالبات مستمعات وكان عدد المصريات منهن خمسا وثلاثين أما الباقى فكان من جنسيات مختلفة ، واذا قسنا ذلك العدد بعدد الرجال فاننا نجد ان عدد الرجال المقيدين بالجامعة فى نفس هذه السنة كان ثلثمائة وسبعة عشر طالبا أى ان عدد الطالبات بالنسبة لعدد الطلبة كانت تزيد نسبته عن الربع وهذه نسبة ليست بالقليلة اذا نظرنا اليها فى ضوء تقاليد ذلك العصر . وقد يدفعنا ذلك الى ان نتساءل عن نوعية النساء المصريات اللاتى حضرن الى الجامعة فى ذلك الوقت للاستماع الى محاضراتها الواقع أن المواظبات منهن على حضور تلك المحاضرات كن من عقائل البيوتات المصرية ومنهن هدى شعراوى وصفية زغلول وفاطمة عمر شقيقة عبد العزيز باشا فهمى ، هذا بالاضافة الى عقيلات وكريمات بعض الباشوات أمثال ارتين وقطاوى ورشدى وذو الفقار ولم تكن هؤلاء كل من التحقن بالجامعة مستمعات من بنات مصر بل كانت هناك معهن اميرات من الأسرة المالكة أمثال فاطمة فاضل وعين الحياة[٥٦] .

وقد وصفت احدى النساء حضور المستمعات الى مبنى الجامعة ، فقالت « تقاطرت العربات والسيارات مقلة كرائم السيدات وعقائل البيوتات، وكانت وجهة هذا الجمع الرقيق من الجنس اللطيف سراى الجامعة المصرية فدخلن زرافات ووحدانا الى البهو العظيم المعد لمحاضرة السيدات [٥٧] .

هذا عن المستمعات من الطالبات أما عن المحاضرين فقد كان معظمهم من السيدات وذلك حتى لا تضطر المستمعات الى وضع الحجاب داخل قاعة الدرس وقد حاضر فى هذا القسم النسائى نبوية موسى ناظرة المعلمات بالمنصورة وتركزت محاضراتها فى مجال تاريخ مصر الحديث وما يسود العالم من علوم عصرية ولبيبة هاشم صاحبة مجلة فتاة الشرق وقد تحدثت عن التربية والأخلاق واثرهما فى حياة الأمم وطالبت بايجاد الوسائل اللازمة لتحسين التربية فى المدارس وتعليم الفتيات قوانين الصحة وقواعد الآداب الصحيحة حتى اذا اصبحن أمهات ادركن ما عليهن من خطر الواجبات (٥٨) .

وحاضرت رحمة صروف فى شئون التدبير المنزلى ، وحاضرت ملك حفنى ناصف (باحثة البادية) فى حقوق المراة وواجباتها وموقف الاسلام من ذلك ، كما حاضرت فى موضوعات تدور حول « المقارنة بين المراتين المصرية والغربية وعاداتهما » وكانت تلقى على مستمعيها النصائح وتبين للحاضرات سوء العادات ومضار الخرافات ومن ذلك ما ذكرته من ان المراة الغربية تقوم بتغذية طفلها غذاء حقيقيا سريع الهضم . وتتحفظ عليه من موجات البرد والحر نجد المصرية تطعمه أثقل الغذاء وتبادر باعطائه اللحم وما يتعذر هضمه فيصاب بالاسهال والنزلات المعوية ، ولا تكترث لنظافة جسده لئلا يحسده أحد ، واذا مرض تم علاجه بالتعاويذ والتمائم ، كما تحدثت عن الزار فقالت انه ابو الخرافات ومفسد البيوت ، وانها لا تدرى لماذا اختارتنا العفاريت مسكنا لها ، وتساءلت لماذا لم نلجأ الى ارسطو وابن رشد وفيثاغورث وغيرهم بدلا من أن نلجأ الى الشيخة رمانة وسعيفة ويوسف مرتع وغيرهم ممن لا يطلبون الا الخلاخيل والمصوغات واوضحت كذلك أن كثيرات من المصريات ادعين ركوب العفاريت اياهن ، ولما ضربهن رجالهن بسبب ذلك لم تعد اليهن العفاريت ولم يطلبن الزار (٥٩) .

واشترك فى القاء هذه المحاضرات ايضا بعض الاجنبيات مثل الآنسة كوفرور المدرسة بمدرسة راسين بباريس واقتصرت فى محاضراتها على علم النفس والاخلاق (٦٠) كما كان يلقى بعض الاطباء من المصريين والاوربيين محاضرات فى حفظ الصحة والعناية بالأطفال (٦١) .

ولم يقتصر نظام الدراسة بالقسم النسائى على ذلك بل اخذ يتطور بتطور نظام الجامعة وبرامج التدريس فيها ففى عام ١٩١٢ اصبحت الدراسة بهذا القسم تشتمل على محاضرات فى التربية وعادات المصريين وتاثير الاسلام فيها ودولة المماليك ، وحروب فرنسا، واشهر النساء فى التاريخ ، وعلم التدبير المنزلى والتدابير الصحية واختيار المنزل واثاثه والحياة الزوجية وسعادة الاسرة والآداب المنزلية والاخلاق (٦٣) .

وعند مقارنتنا لهذا البرنامج ببرنامج التدريس الذى سبقه يتضح أن كلا من البرنامجين ركز على الاهتمام بمواد تهم حياة المراة الزوجية والمنزلية والأسرية أكثر من غيرها ، وربما كان يرجع هذا الى انه لم يكن يتطرق الى ذهن احد فى ذلك الوقت قيام المراة المصرية بالعمل بالمصالح كالرجال بل يقتصر دورها على تدبير شئون المنزل ، وتهذيب الأولاد .

وعلى الرغم من اقبال بعض السيدات والآنسات عن حضور هذه الدراسات فى الجامعة فان الرجال المتمسكين بالتقاليد منعوا زوجاتهم واقاربهم من حضور هذه المحاضرات ويتضح ذلك من مناشدة بعض النساء على صفحات الجرائد دون أن يذكرن اسماءهن الرجال الا يمنعوا زوجاتهم واخواتهم وبناتهم من حضور المحاضرات بالجامعة(٦٣) .

والجدير بالذكر أن انشاء القسم النسائى بالجامعة قد أثار ثائرة بعض المحافظين فبالرغم من ان معظم المحاضرات كانت تلقيها نساء ، وكانت تتركز على التربية المنزلية والحياة الأسرية فقد تجمع بعض الرجال أمام الجامعة للتعرض للنساء ومنعهن من الدخول لان ذلك سيؤدى من وجهة نظرهم الى خروجهن على الآداب ، ويرفع عنهن صفة العفاف التى تتحلى بها كل قابعة بالمنزل ، وعندما ارسل عبد العزيز فهمى سكرتير الجامعة خطابات الى نساء الطبقة الواعية يدعوهن للحضور أعتبر بعض الغيورين على الاخلاق العامة وجود اسماء نسائية على اظرف الخطابات ، فيراها رجل البريد بمثابة عار يلحق بسمعتهن ومن الفضائح الكبرى التى لا يمحوها الا الدم ، فارسلوا

خطـــابات تهديد بالقتـــل الى عبد العـــزيز فهمى اذا لم يكف عـــن هـــذا العمـــل [٦٤] .

وعلى كل حال فانه نتيجـــة لحضور بعض النســـاء المحاضرات فى الجـــامعة حدثت مناظرات فـــكرية على صفحات الجـــرائد بين معـــارض تعليم المراة ومؤيديه وتصارعت الافكار بينهمـــا فذكر المعارضون أن البلاد فى حـــاجة الى امراة تحمل ولدها على كتفهـــا لا ان تصدر الأوامر بقلمهـــا وتدير الشـــئون العامة فى الدواوين[٦٥] .

وانهـــا من يوم أن تولد الى يوم ان تمـــوت تنتقل من رعـــاية رجل الى رعـــاية آخر لان الرجال قوامون على النســـاء شرعا كمـــا صـــور بعض هؤلاء للمراة جمال خدرها وضرورة الاستقرار فيه[٦٦] وراى بعضهم الآخر ان سبب شقاء الجنس البشرى حواء التى اغوت آدم [٦٧] ، ولم تقتصر معارضة تعليم المراة على الكتاب بل عـــارضه ايضا أمير الشعراء فقد شبه احمد شوقى المراة المصرية بالطير من حيث ضعفها وتقيـــدها بمشـــيئة الرجل ، وانه يجب على النســـاء التمسك بالحجـــاب صونا لعفافهن وذلك فى قصيدته الموسومة بين الحجاب والسفور فأوضح لهن فى شخص عصفور الكنـــاريا انهن محجـــوبات منحبســـات لنفاســـتهن والخـــوف عليهن من عاديات الخارج وضرب لهن الأمثال للتحريض على الخضوع للرجل فقال[٦٨]

صـــداح يـــا مـــلك الكنـــار	ويـــا امـــير البـــلبـــل
حـــرصى عليـــك هـــوى	ومـــن يحرز ثمينـــا يبخـــل
شـــهـــد الحيـــاة مشـــوبة	بالـــرق مثـــل الحنظـــل
ان طـــرت عـــن كنفـــى	وقعت على النسور مثل الجهل[٦٩]

وقد ردت احدى النســـاء على هذه القصيدة معاتبة امير الشـــعراء فقالت حكمت على ايهـــا الشاعر بالأسر ونصحتنى بالصبر ولم تـــدر أنى فقدت كل صبر فى حبسك اياى بـــدون داع فلم يعد لى شعور ولا ادراك بعد ان اغتصب منى حقى الطبيعى الذى دونه قتل النفس وازهاق الارواح ايها الشاعر نسبت حـــالتى هذه الى الطبيعـــة ، وما هى الا نتـــائج حبك لاسرى . أسرتنى لاحررك ، احزنتنى لافرحـــك . اناشدك الحق هل

سمعت نحيبى داخـــل القفص وهل راتـــك منظرى مكبلا بتلك السلاسل الحـــديدية [٧٠] .

وعلى كل حــــال فان امر مهاجمة ســـفور المــــراة لم يقتصر على الرجال بل ايد ذلك بعض النســـاء حتى اللائى اصبح لهن بعد ذلك شان فى مجال التعليم الجامعى ومن هؤلاء الدكتورة عائشة عبد الرحمن فقـد ذكرت فى بـــداية عهدها بالكتابة عن انطباعاتها عن نســـاء القاهرة عندما راتهن لأول مرة فى مقـــال تخيلت فيه انهـــا تخاطب صديقة لها فتقـــول « ستذهبين الى القـــاهرة وتدخلين فى دنيا جديدة وتشعرين بحـــال غريبة فتثـــور فى نفســـك ثورات كامنة لا عهد لك بها اذ تجدين الفتيات عاريات الا ما يســـتر عوراتهن وستريهن فى حـــالة مهيجة قبيحة يمشين كاسيـــات عاريات ضاحكات ســـاخرات ، كأنهن بين جدران مخادعهن أو من وراء ســـتار » [٧١] .

اما مؤيدو تعليم المراة فقد ذكروا ان انحطاط المراة المصرية يعتبر دايلا على انحطـــاط الرجل ، وان المراة خلقت مســـاوية للرجل فى كل شىء وانه يجب ان تنال من الحقوق ما يناله الرجال تماما [٧٢] .

وعلى كل حـــال فقد ادى احتجاج المعارضين لحركة التجديد وكانوا فى ذلك الوقت قوة لا يستهـــان بها ، الى ايقـــاف التدريس بالفرع النسائى بالجـــامعة خلال العـــام الدراسى ١٩١٢ — ١٩١٣ [٧٣] ظـــل الحـــال على هذا المنوال فترة طالت الى ما بعد ان اصبحت الجامعة المصرية تابعة للحكومة فعلى الرغم من حصول بعض الفتيات على البكالوريا التى تؤهلهن للالتحاق بالجامعة فان الطريق كان شـــائكا وابواب الجامعة كانت مغلقة فى وجوههن ولولا مســـاندة بعض قادة الفكر من الرجال فى ذلك الوقت امثال احمد لطفى السيد وطه حســـين لمـــا تحققت للمراة فرصة التعليم الجامعى وتفـــاصيل ذلك ان بعض الفتيـــات لجأن الى لطفى السيد مدير الجامعة يطلبن مســـاواتهن بالرجال فى التعليم الجامعى ، وان بعض عمداء الكليات واساتذتها طلبـــوا ان تقبل الفتيـــات الحائزات على البكالوريا فى كلياتهم، وكان طه حســـين هو اول من عرض على لطفى السيد قبول الطـــالبات فى الجـــامعة ، وحين ســـاله لطفى السيد هل قانون الجامعة يمنع دخول البنـــات اجابه بان القـــانون يقول ان الجامعة للمصريين ولم يحـــدد

النـــوع [٧٤] يضـــاف الى ذلك ان بعض الصحف طـــالبت بضرورة ان يشـــمل التعليم الجـــامعى الفتيات ولكن الموقف لم يكن ســـهلا فقد كانت هذه المســـالة شائكة خصـــوصا وان انصـــار هذا الراى بالنسبة للراى العـــام ككل كانوا قلة وكان الأمر يستلزم التريث والتزام التكتم وعـــدم مناقشته او عرضـــه على الراى العـــام حتى لا يثور المتزمتون ويتعقـــد الموقف ، وفى غفـــلة من هؤلاء وضعت الجـــامعة الراى العام والحكومة امام الأمر الواقع عندما فتحت كلية الآداب ابوابها للطـــالبات ودخلتهـــا اربعـــة هن سهير القلماوى وفـــاطمة سالم سيف ، وفاطمة فهمى خليل ، وزهيره عبد العزيز .

ويتضـــح ذلك فيما كتبه لطفى الســـيد فى مذكراته اذ يقول لا أخفى اننـــا قبلنا الطـــالبات اعضـــاء فى الأسرة الجـــامعية فى غفلة من الذين من شـــانهم ان ينكروا علينـــا اختلاط الشباب باخواتهن فى الدرس[٧٥]

وعلى كل حـــال فان هذا الاجـــراء كان بمثابة ثورة فكرية وتعليمية احدثت ضجـــة شديدة فى أوســـاط المحـــافظين ولكن ســـنة التطـــور الاجتماعى كانت فـــوق هذه الضجة التى كانت سحابة صيف لم تلبث أن ذهب بهـــا الزمان واصبحت فى خبر كان .

فسارت كليات الحقوق والعلوم والطب ـــ وكانت هى الكليات التى تضمهـــا الجامعة فى ذلك الوقت ـــ على منـــوال كلية الآداب فوافقت كل منها على قبـــول الطالبات فدخلت الحقـــوق الطالبة نعيمة الايوبى أمـــا كلية العـــلوم فقد التحقت بها ثمـــانية طالبات منهن نفيسة سماحة وعايدة انطـــون والتحقت بكلية الطب اربـــع طالبات هن نفيســـة محمد ، وفاطمة حسن ، وزينب ابراهيم ، وحكمت البـــدرى ومع أن التحـــاق الطـــالبات بهذه الكليات كان أمرا طبيعيـــا الا انه اثـــار الكثير من النقاش والجـــدل داخل الجـــامعة وخارجها وقد فقدت المراة معضديها داخل الجامعة نتيجة لاقـــالة الدكتور طه حسين من عمادة كلية الآداب فى عهد وزارة صدقى[٧٦] ثم تقـــديم لطفى الســـيد استقالته من منصبه كمدير للجامعة عام ١٩٣٢ احتجـــاجا على تـــدخل الســـلطات فى شئون الجامعة بنقلها طه حسين الى وظيفـــة خارج الجـــامعة على غير ارادتها وقد يعزى الى ذلك تاخر

دخـــول الفتيات للكليات الاخرى بعض الوقت فقد ظلت كلية الهندسـة والزراعة ممتنعين عن قبـــول الفتيات فترة وسارت على هذا المنــوال كلية التجـــارة ولكن لم تلبث اليقظة الزاحفة ان طغت على الأفكار القديمة فغزت المرأة تلك الحصـــون التى كان يحتكرها الرجل ففتحت ابواب هذه الكليات للطالبـــات ، فدخلنهـــا واستطعن ان يحصلن على نتائج تبعث على التفـــاؤل وتدريجيـــا ضمت كليـــات الجامعة الفتيات ، ولم يتأخر فـــى ذلك ســـوى كلية دار العلوم التى لم تفتح ابوابها للفتيات الا فى العـــام الدراسى ١٩٥٤/١٩٥٣ اى بعد ضمها الى جامعة القاهرة .

والى جـــانب اتاحة التعليم العالى للفتاة بجميع صوره وتخصصاته رؤى ضرورة توافر نوعية معينة من التعليم الجامعى تفى باحتيـــاجات الاسر المحـــافظة التى لا ترغب فى اختـــلاط بناتها مع الشبان ومن هنـــا انشئت كلية البنـــات عام ١٩٥٠ واصبحت احـــدى كليـــات جـــامعة عين شمس عام ١٩٥٦ وكانت قبـــلا معهد التربية للمعلمات وفى العـــام الدراسى ١٩٦٣/٦٢ انشـــئت كلية البنـــات الاسلامية جامعة الأزهر وبذلك دخلت المرأة مجالا جديدا من التعليم العالى والتعليم الدينى[٧٧] .

واخـــذ عدد الطـــالبات اللائى يلتحقن بالجامعة فى التزايد فبعد ان كان عددهن فى عام ١٩٢٩ وهى الســـنة التى قدر لهن فيها الســـماح بدخول الجامعة سبعة عشر طالبة تجاوز الآن ١٣٨ الف طالبة .

وبعد أن كان عـــدد الملتحقات بالجامعة فى عام ١٩٢٩ ثمانية بكلية العـــلوم واربعة بكلية الآداب ، واربعة بكلية الطب وطالبة واحدة بكليـــة الحقوق اصبح عددهن فى كليـــات الآداب فقط حتى عـــام ١٩٧٩ ٢٤ الف طالبة [٧٨] .

وعن اختلاط الطالبات بالطلبة داخل الجامعة فقد تحاشت الطالبات فى أول دخولهن الجامعة اى صـــلة تربطهن بالطلبة ، ودخلن قـــاعات المحاضرات مغطيـــات الرءوس وامتنعن عن الاقتراب من الأمـــاكن التى يتواجد فيها الطلاب وتجـــاهلن التحيات الموجهة اليهن ، ورفضن الاشتراك فى مناقشـــة الاساتذة خـــلال الدرس ، وقد حـــاول الدكتور طه حسين

أثنـــاء عمادته لكلية الآداب تشـــجيع الاختلاط بين الطالبات والطلبة ففى الحفل الذى اقامته الكلية فى نادى الجـــامعة بمناسبة النجاح الذى احرزه مشروع القرش فى فبراير ١٩٣٢ نشرت جريدة الأهرام صورة تظهر طلبة الكلية حـــول عميدهم طه حسين وقد جلست كل طالبة بجانب طالب (٧٩) مما اثار الرأى العـــام وتوتر موقفه من الجـــامعة اكثر مما كان فحمل أحد اعضـــاء مجلس النـــواب حملة شديدة فى البرلمان ضد د. طه حســـين وموقفه من هذا الاختـــلاط وعلى كل حـــال فان رهبة الطـــالبات من الاختـــلاط بزملائهم الطلاب لم تستمر طـــويلا ففى أول محنـــة تعـــرض لهـــا استقلال الجامعة بفصـــل الدكتور طه حسين على غير ارادته من الجـــامعة خرجت الطـــالبات من عزلتهن وثرن مع الثـــائرين ، وأرتفعت أصواتهن لأول مرة تخطب وتحمس وتدعو الى النضـــال انقاذا لاستقلال الجـــامعة من تلاعب الاهـــواء (٨٠) وكان اشتراكهن فى المظاهرات داعما لزيادة حماس الطـــلاب ، كما ظهرت لدى بعض الطالبات القـــدرة على اقنـــاع زملائهن الطلبة للعدول عن بعض المواقف ويكفى للتدليل على ذلك انه فى اثنـــاء الاضراب نادى عميد الحقوق الطالبة نعيمة الايوبى ودعاها الى اقنـــاع زملائها بوقف الاضراب والعمل على اعـــادة النظام فعـــادت الأمور الى نصـــابها .

وبدأت طـــالبات الجامعة يتطلعن الى المزيد من الحرية فمـــارسن الألعـــاب الرياضية خصوصا لعبة التنس وبدأ ذلك فى كلية الآداب عندما ظهرت طالبة فى ملعب التنس .

ورغم ثـــورة الرأى العـــام على هذه الحرية التى اتيحت لفتـــاة الجـــامعة ، ورغم الاحتجاجات الشـــديدة التى وصـــل مداها الى القصر الملكى (٨١) بخصـــوص ممارسة الطـــالبات للالعاب الرياضية فى الجامعة فقد استمرت المســـيرة النسائية نحو المزيد من الحرية فاخذت مـــلاعب الجامعة تكتظ بالطـــالبات من مختلف الكليـــات ، ولـــم يقتصر ذلك على التنس بل تطرق الى كرة الســـلة وغيرها من الالعاب .

ورغم كل ذلك فقد كانت بعض الطـــالبات يحسبن الف حســـاب لمعارضى تحررهن داخل الجـــامعة ويتضح ذلك فى تأخر دخولهن اتحـــاد

الطـــلاب بالجامعة ، فبالرغم من أن هذا الاتحـــاد منح حق العضـــوية للطالبات الا أنهن لم يرشحن انفســـهن فى عام ١٩٣١ رغم تشجيع البعض لهن ، وقد اعربت احـــدى الطالبات عن سبب ذلك بقولها « انى أجد فى ذلك مجازفة كبرى لما تكنه قلوب المـــارضين من تهكم وسخرية [٨٢] .

ولكن هذه الرهبـــة لم تستمر طويلا فقد شـــاركت الطالبات الطلاب فى انشـــطتهم الاجتماعية فمندما انشئت جمـــاعة النهضة الاجتماعية فى كلية العـــلوم عام ١٩٣٧ بهـــدف جمع التبرعات من الطـــلاب الاغنيـــاء وتوزيعها على زملائهم الفقـــراء واقيمت ســـوق خيرية فى الجامعة من اجل هذا الغرض قـــامت الطـــالبات بعرض اشـــغال من صنعهن فى هـــذه السوق وساهمن فى جمع التبرعات من الآخرين .

يضـــاف الى ذلك قيام الفتيات بالاشتراك فى المناظرات والمحاضرات التى اقيمت داخل وخارج الجامعة .

وعلى كل حال فقد ادى دخـــول الفتاة المصرية الجامعة الى اثبات وجـــودها ، وبانها لا تقـــل قدرة وكفاءة عن الفتاة الأوربية ، كما انهـــا لا تقل ذكاء ومقدرة عن الرجل .

وفى عـــام ١٩٣٣ تخرجت أول دفعـــة من طالبات الجامعة المصرية وكانت مكـــونة من نعيمة الايوبى من كلية الحقـــوق وسهير القلمـــاوى ، وفاطمة ســـالم ، وفاطمة خليل من كلية الآداب ولم يقتصر الامر على ذلك بـــل ان كلية الآداب ضمت ثلاثة منهن نـــواة لاعضاء هيئة التدريس بها وهن ســـهير القلماوى فى اللغة العربية ودرية فهمى للانجليزية وفـــاطمة ســـالم للدراسات القديمة [٨٣] .

وقد اثبتت خريجـــات الجامعة من الفتيات القدرة على منافســـة الرجـــال فى الحصول على الدرجات العـــالية وتولى المنـــاصب الاكاديمية فى الجـــامعة نفسها ، واذا نظرنا الى المكانة التى تحتلها المراة فى الجامعة حـــاليا يتضح انها تشـــغل جميع المناصب الاكاديمية فيها على اختـــلاف انواعها ابتداء من وظيفة معيد الى رئيس قســـم وعميد .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل واكبه ايفاد الفتيات المصريات فى بعثات الى الخارج للتأهيل فى التخصصات غير المتوافرة فى الجامعات ، وكـذلك التخصصات العالية التى تؤهلهن للتدريس فى الجامعات الى جانب التأهيل اللغوى فى اللغات الانجليزية والفرنسية لاعداد مدرسات وطنيات يحللن محل الاجنبيات[٨٤] .

وبعد ان اثبتت الفتاة الجامعية مقدرتها على المساواة بالرجل كان عليها ان تواجه معركة اخرى وهى الحصول على وظيفة والخروج الى معترك الحياة العملية ولكن بعض العائلات استنكرت ذلك ورات انه من الخير للفتاة الجامعية الا تزج بنفسها فى ميدان العمل من غير تسلح ولا استعداد وانه من الأفضل بعد تخرجها الاستفادة بها بتزويجها لتكون نواة صالحة للبيت المصرى الحديث[٨٥] خصوصا وان مشكلة المتعلمين المتعطلين ستزداد سوءا اذا ما شاركت الفتاة الرجل فى الحياة العامة[٨٦] .

يضاف الى ذلك ان المعارضين لسفور المراة وخروجها الى مجال العمل قاموا بحملة شديدة لوقف تيار حصول المراة على وظيفة واتبع بعضهم فى ذلك الأسلوب اللاذع الذى يستنهض همم الرجال ويدفعهم الى معارضة تشغيل النساء ونقتطف فى هذا المقام بعض ما جاء فى مجلة كل شىء والدنيا فى يوليو ١٩٣٢ فاعلا توقيع فضولى ذكرت هذه الابيات

حلقت رجالكم اللحى	لما علا امر النسا
والآن ترتزق النساء	وتاكلون بلا عناء
فليحلق الموسى الشوارب	انها منكم براء[٨٧]

وبالرغم من كل ذلك فقد كان هناك راى آخر يرى انه لا مانع من اشتغال الفتاة بعد تخرجها لتجاهد بجانب الرجل فيستفيد منها المجتمع اكثر من ركونها الى الحياة المنزلية لانه لا معنى أن تعد الفتاة للحياة ، ثم تحرم من العمل بعد هذا الاعداد[٨٩] .

وتحفظ البعض نحو هذا الموضوع فراى توجيه الفتيات بعد تخرجهن الى الأعمال التى تتناسب مع قدراتهن والتى يختلفن فيها عن

الرجـــال [٩٠] واخيرا رجحت كفة المؤيدين لدخـــول المراة مجال العمــل فعندما رغبت نعيمـــة الايوبى اولى خريجات كلية الحقوق فى العمل بالمحاماة ترددت لجنـــة قبول المحــامين فى الموافقة على قيد اسمها فى اول الأمر ، ثم انتهى الخـــلاف بين اعضائها بانتصــــار جبهة المؤيدين لقبولها وعلى كل حــال فالملاحظ ان الذى دافع عن المـــراة المصرية وتعليمها الجامعى ثـــم خروجها الى مجـــال العمل ومساواتها بالرجل كان الرجال لا النســـــاء اصحاب الشـــأن فى هذا الموضـــوع ويبدو ذلك واضحا من الالتماسات التى قدمت الى القصر الملكى والتى يعرب فيها اصحـــابها عن استيـــائهم مــن المحاضرات التى يلقيها بعض الرجـــال مثل محمود عزمى افندى والدكتور ميخائيل فرج ومحمد توفيق دياب ، داخل الحرم الجامعى ، ودعوتهم فيها للمســـاواة بين المراة والرجل وعلى كل حـــال فانه بمضى الوقت دخـــلت المراة مجـــال العمل ، وعملت فى جميع الوظائف العامة واصبحنـــا نســـمع عن اســـماء مصريات برزن فى كافة ميادين الحياة حتى وصلن الى منصـــب الـــوزارة .

والســـؤال الذى يطرح نفسه هو هل خروج المراة الى مجال العمـــل بحكم حركة التطـــور والانتقـــال التى يمر بها المجتمع قد اثر على شخصيتها الاجتماعية ايجابا ام سلبا ؟

لقد اظهرت دراسة نفســـية اجتماعية حديثة ان خروج المراة الى مجال العمل برغم ما قد يترتب عليه من آثـــار سلبية على ادائها كزوجـــة وكأم اى على ادوارها التقليدية كانثى فانه قد اضـــاف ادوارا جديدة الى ادوارها الســـابقة فادى الى انضـــاج شخصيتها ، وزاد من ثقتها فى نفسها واكسبهـــا قدرا من المرونة وحسن التصرف فى المـــواقف الاجتمـــاعية التى تتعرض لهـــا يضـــاف الى ذلك انه كلما زاد مستوى التعليم عند المراة زادت قدرتها على التخلص من الآثار الســـلبية لخروجها الى العمـــل ومكنهـــا من التخلص من آثـــار الصراع الذى ينشـــا لديها نتيجة لادوارهـــا المتعـــددة خاصة فى ظل ظروف مجتمع يمر بمرحلة انتقالية كمجتمعنا [٩٢] .

وهكذا اسهم التعليم الجـــامعى فى اعداد المراة المصرية اعدادا اتاح لها الخوض فى كافة مناحى الحيـــاة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى

مصر والتجاوب مع حركة تجديد المجتمع والتفاعل معها ، ولكن يجب أن يعترف النساء بأن وراء ذلك كانت جهود بذلها بعض الرجال الذين وقفوا بجانب المراة ودافعوا عن حقوقها .

وكذلك استطاعت الجامعة تحويل النصف الآخر من المجتمع الى قوة مثقفة عاملة ومنتجة فى كافة ميادين الحياة ، تساهم فيما يصبو اليه الوطن من مراقى التقدم بين الأمم الناهضة .

٦ — بين الأدب والتاريخ
مجتمع القاهرة من خلال ثلاثية نجيب محفوظ (*)

تعدد الجوانب فى كتابات نجيب محفوظ دفعت بالعديد من المتخصصين خصوصا الأدباء والفنانين والصحفيين الى الانكباب على هذه الكتابات ودراستها ، وابداء الراى وجهات النظر حولها اما عن المؤرخين وباحثى التاريخ فانهم لم يطرقوا باب هذه الكتابات بالدراسة وان كان معظمهم قد قراها وربما كان ذلك لتشككهم فى ان المادة الروائية تصلح اساسا لكتابة التاريخ .

والهدف من هذه الدراسة هو تلمس الخيوط التى حاكها نجيب محفوظ فى وصفه لمجتمع القاهرة فى فترة ما بين الحربين وتسجيله لواقع البيئة المصرية بشقيها الاجتماعى والسياسى ثم محاولة الاجابة على التساؤلات الآتية :

هل الأدب الروائى يمكن أن يصلح مادة يعتمد عليها فى كتابة التاريخ؟ وما هى الخيوط التى يمكن أن يتلمسها المؤرخ فى وصف أديب للمجتمع الذى يكتب عنه ، وهل اعتمد نجيب محفوظ فى كتابه رواياته على الدراسات التاريخية الجادة ؟ وهل كان نجيب محفوظ اديبا لطبقة بعينها أم كان اديبا لكل طبقات المجتمع ، وهل قدم نجيب محفوظ فى ثلاثيته حلولا للمشكلات التى طرحها أم تعرض لها دون أن يقدم لها حلولا .

وقبل ان نتعرض لاطار الثلاثية الاجتماعى والسياسى ينبغى لنا ان نتعرف على كاتبها .

(*) القى هذا البحث فى سمنار كلية البنات جامعة عين شمس فى الثلاثاء ١١ ديسمبر ١٩٨٤ .

ولد نجيب محفوظ فى حى الحسين اكثر احياء القاهرة شعبية فى عام ١٩١٢ من أسرة متوسطة لا تتمتع بشىء من الثراء ، ولم يكن لها سوى الدخل المحدود الذى يعود على ربها من عمله وعايش هذه البيئة ، وعاصر مشاكلها ، واهتم بقراءة الروايات البوليسية فى مراحل حياته الأولى ، ودرس الفلسفة فى المرحلة الجامعية بكلية الآداب حتى تخرج منها فى عام ١٩٣٤ ثم أخذ يحتطب بنفسه ثقافته الحرة فأكثر من الاطلاع على انتاج رواد الأدب فى مصر ، وتأثر بشكل خاص بكتابات سلامة موسى ، ثم واصل قراءاته للاداب الأجنبية واطلع من خلالها على مناهج كتابة الرواية المختلفة (٩٤) مما كان له اكبر الأثر فى ثقافته الفنية التى اعانته على كتابة الرواية بالمستوى الرفيع الذى بلغته وشهد له به معظم نقاد الأدب العربى الحديث وغيرهم يضاف الى ذلك انه ظل مغرما بقراءة التاريخ المصرى والاستعانة به فى كتابة رواياته ، وقد يرجع ذلك الى تأثره بالتيار القومى الذى اتجه المثقفون المصريون الى احيائه كرد فعل لتغلغل الثقافة الأوربية والاحتلال البريطانى ، وربما يرجع أيضا الى انه عاصر فى فترة شبابه الاكتشافات الهامة للعديد من الآثار الفرعونية . والثلاثية باجزائها انتهى نجيب محفوظ من كتابتها قبل قيام ثورة ٢٣ يوليو بثلاثة شهور ، وكانت حين دفع بها الى المطبعة فى المرة الاولى عبارة عن رواية واحدة فى مجلد واحد غير ان اعتراض الناشر على ضخامتها واقتراحه بتقسيمها جعل نجيب محفوظ يقسمها الى ثلاثة أجزاء .

وهكذا ظهرت الرواية ثلاثية مكونة من بين القصرين ، وقصر الشوق ، والسكرية(٩٥) .

وعن الفترة الزمنية التى شملتها اجزاء الثلاثية يتضح انها شملت ثلاث فترات منفصلة فرواية بين القصرين جرت حوادثها بين اكتوبر ١٩١٧ الى ابريل ١٩١٩ ، ورواية قصر الشوق وقعت أحداثها من يوليو ١٩٢٤ الى ٢٣ اغسطس ١٩٢٧ أما عن رواية السكرية فقد جرت حوادثها ما بين يناير ١٩٣٥ الى صيف ١٩٤٤ .

وقد اعتمد نجيب محفوظ فى كتابة ثلاثيته على ذاكرته التى اختزنت

تلك الاحــداث ابان طفولته ، وعلى اقــوال شهود عيان هذه الفتــرات ، هذا بالاضــافة الى رجوعه الى بعض الصحف .

والثــلاثية فى مجموعها تنتمى الى ادب القضــايا الفكرية الذى يبلور قضية او ازمة معينــة ، يقوم بتجسيدها اكثر مما يستهــدف تحليلهــا(٩٦) وتستند عبر الســياق على ادلة اجتماعية وبراهين تاريخية تأتى فى ثنــايا الرواية وتؤدى وظيفتها ، وتقتحم نفســها على اهتمام القــارىء دون ان تمنعه من مواصــلة قراءته الادبية .

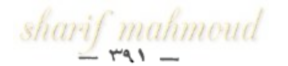
ومحور الثــلاثية يدور حــول اسرة مصرية من طبقــة محــدودة تتكون من ستة افراد عــاشت فى احد احيــاء القاهرة القــديمة المتاخمــة لمسجد ســيدنا الحسين فى شارعى بين القصرين ، وقصر الشوق وحــارة الســكرية عبر ثــلاثة اجيال من الآباء والأبناء والاحفــاد لكل منهم فــكره الخــاص ورؤيته للمستقبل .

وللثلاثية وجهــان احدهما يحمل طــابعا اجتماعيا تمثل فى تصــوير الواقع الاجتماعى للقــاهرة فى فترة ما بين الحربين من خــلال شــريحة معينة من طبقات المجتمع المصرى ممثلة فى اسرة احد التجــار التى يتــوزع صراعها فى الحياة بين التمسك بالتقاليد من ناحية التمــرد الخفى عليهــا والتطلع الى الحرية فى مختلف اشكالها من ناحية اخرى .

اما الوجه الآخر فيتمثل فى تصوير نجيب محفوظ للاحداث الســياسية الكبرى فى مصر من جهــة ، ولمسار الحركة الوطنية المتمثلة فى ثورة ١٩١٩ واهدافها من جهــة اخرى .

وليس معنى ذلك ان وجهى الثــلاثية الاجتماعى والسياسى منفصلان بــل كثيرا ما تكون المشــكلة السياسية متفرعة من مشــكلة اجتمــاعية وبالعكس .

وعن القضــايا الاجتماعية التى صــورها نجيب محفوظ فى ثــلاثيته فقد هــدف منها الى رصــد حركة المجتمع المصرى من خلال تتبعه لحيــاة اسرة التاجر احمد عبد الجــواد اليومية ، وتفاعلها مع مجتمعهــا الصغير



من ناحيـــة ، ومع الأحداث الســـياسية التى مرت بهـــا مصر بين الحربين من ناحيـــة اخرى كما صور القضـــايا التى كانت تشغل اهتمـــام الطبقـــة الوســـطى ، وتتبع تطور مفاهيمها وقيمها .

فقد تتبع نجيب محفوظ هـــذه الأسرة من خلال واقع المجتمع المصرى المليء بالمتناقضات ، ومن خلال التقاليد المتوارثة بمثالبها ومشـــاربها ، ومحاولات الكبـــار والصغار التمرد عليها ، ولكن بطريق خفى فقدم القاهرة المعزية ، وكأنها عـــالم تراكمت فيه عادات وتقاليد تحـــاول فرض نفسها على ساكنيها وتحدد ســـلوكهم كما صور لنا نماذج من التفكير رســـمت صورا للقديم والجـــديد ، والتقليد والتجـــديد ، والجمـــود والتحـــرر ، والتخلف والتقـــدم وكان الصراع بين هذه الأطراف هو احدى سمات الحياة والحركة فى الثلاثية .

وعن شخصيـــات الثلاثية فقد ربطهـــا الكاتب بمحيطها الاجتمـــاعى وبمنظور صـــور فيه الانسان المصرى تصويرا بارعا حمل فى ثناياه ما يدور فى اعمـــاق النفس البشرية من خير وشر ، ومـــن احـــاسيس ومشـــاعر متضاربة ، كما صـــور ما يدور فى واقع مجتمع القاهرة فى النصف الأول من القرن العشرين من عادات وتقاليد تتجاذبها عوامل التجديد من جهـــة ، وعوامل المحافظـــة على القديم من جهـــة اخرى ، فرب الأسرة سى السيد كان مثـــالا للرجل الشرقى الذى يـــدير بيته بطريقة استبدادية بينما فى خارج منزله يحيـــا حيـــاة مختلفة ســـواء فى دكانه من خـــلال عالم التجارة او فى مجالس الأنس والســـهر والخليلات والعـــوالم التى يحياها ليلا ، ورغم ذلك فهو يحرص على ان يمسك بزمام اسرته يحركها كما يشاء ويلقى الاحترام الكامل من زوجتـــه واولاده ، ويحـــاول ان يظهر امامهم بمظهر الجـــد والصرامة والاستقامة بالرغم من أنه كان صورة للعبث والمجون خـــارج بيته لدرجة ان ابناءه لم يتعرفوا على وجهه الباســـم الا بعد ان دخل احدهم عليه دكانه فجاة فرآه يمـــازح احد اصدقائه ، ويستمر الأمر على ذلك حتى يكتشف احد الأبنـــاء النقـــاب عن الجانب الخفى من حياة ابيه حـــين رآه صدفة من ثقب البـــاب فى بيت زبيـــدة العالمة ، وهو يهرج ويضرب بالدف بين الخليلات والأصدقاء ، فتتغير نظرته الى والده .

وامينة الزوجة كانت مثـــالا للمراة المحجبة المطيعـــة لزوجهـــا والتى تحبه ، وتعتبر نفســـها خادمة له ، وتخشى غضبه ، وتحـــاول تجنب اى مخـــالفة لرايه ، ومع ذلك يتغلب عليهـــا الجانب الدينى ، وتدفعها نوازع الايمـــان والشوق لرؤية مسجد الحسين الى القيام بمغامرة خطرة وخيمة العـــواقب بزيارتها الحذرة له دون اوامر من زوجها مما كلفهـــا الكثير [٩٧] حيث خرجت من بيت زوجها مطرودة وذهبت الى بيت امها بالخرنفش .

وهكذا صـــور نجيب محفوظ الصراع بين النوازع الدينية داخل نفس امينـــة وبين تمسكها بالتقـــاليد التى تقضى باطاعة اوامر زوجها ، وتغلب النزعة الدينيـــة على التمســـك بالتقاليد .

وعن بنـــات الأسرة فقد صورهن نجيب محفوظ بالمحجبات المحافظات على التقـــاليد المتوارثة التى تقضى بألا تخرج الابنـــة من بيت ابيها الا الى بيت زوجهـــا ، ولا من بيت زوجها الا الى القبر ، ومع ذلك كن يحـــاولن اختلاس النظر من حين الى آخر من المشربية لمشاهدة ما يحدث فى الشارع ومن يمر به من الشبان .

كما تعرض نجيب محفـــوظ من خلال هذه الأسرة الى احد التقـــاليد المتوارثة فى الأسرة المصرية وهى زواج البنت الكبرى قبل الصغرى مصور البنت الكبرى فى غير جمـــال أختها الصغرى الشـــقراء ، وكانت النتيجـــة الطبيعية لذلك ان تقدم الخطـــاب لخطبة الصغرى ، بينمـــا لم يتقدم للكبرى احد منهم مما ادى الى تعطيـــل امر زواج الصغرى وخيبة املهـــا رغم حبها لضـــابط البوليس التى كانت تـــراه ويراها من المشربية ، كمـــا ادى ايضا الى اصـــابة البنت الكبرى باضطراب فى ســـلوكها وتعـــاملها مع افـــراد اسرتها مما اثـــر فى مجـــرى حياتها لعدم تقدم احد لخطبتها ولاحســـاسها بابتعاد راغبى الزواج عنها .

اما عن ابنـــاء اسرة عبد الجـــواد فقد صورهم نجيب محفوظ شأنهم فى ذلك شـــأن ابناء معظم الاسر المصرية من حيث اختلاف التكوين والمشارب رغم ان الارضيـــة الاجتماعية التى انبتتهم واحدة ، فكان منهم الكســـول الخـــامل المحب للهو الذى يقنـــع بعمل كتابى فى احدى المدارس الابتدائية

يذهب اليه مكرها ، وفى طريق عودته يعبث ويتفكه اثناء وقوفه عند بائع البسبوسة ، ويشارك فى كل شىء مشاركة سلبية بالقلب واللسان دون العمل ، ومنهم الجاد الذى درس الحقوق بشغف ، وتمنى أن يبلغ من التعليم احسنه ، واتخذ من السياسة والوطنية قبلة له تختفى امامها كل مغريات الحياة ومع ذلك تلتهب عاطفته فى حبه الشديد لمريم بنت الجيران فيقابلها فوق السطوح ، ويغازلها خلال اللقاء الليلى بينهما ، ومنهم الصبى الصغير الذى يذهب الى المدرسة مكرها وتتناقض أفكاره بين الأحاديث التى يسمعها فى المدرسة وتلك التى تطرق اذنه من أمه فى المنزل ، ومنهم اليمينى الذى يتمثل فيه فكر الاخوان المسلمين ، ويجد فيه الطريق للاصلاح ، ومنهم اليسارى الذى يرى فى الحل الماركسى السبيل الى الحياة الأفضل .

ومن خلال ذلك يبرز نجيب محفوظ تأثير الوراثة على ابناء الأسرة ، فيصور ياسين وقد ورث عن أبيه ازدواجيته فى الحياة ، وان كانت بصورة مختلفة فازدواجية الاب كانت مقسمة بين حياته الجادة فى البيت ، وحياة اللهو خارجه ، أما ازدواجية ياسين فبرزت فى حرصه على مظهره واناقته رغم اهماله لثيابه الداخلية اهمالا ملحوظا[٩٨] بمعنى أن كل منهما كان يختلف فى ظاهره عن باطنه كما صوره وقد ورث من أمه هنية تلك المرأة اللعوب حبها للملذات ، وسرعة الملل من الزواج ، فبعد أن زوجه والده من زينب ابنة صديقه محمد رفعت سئمها قبلما ينتهى شهر العسل ، ورجع الى خليلاته مثل نور الجارية وغيرها ، وكانت الفضيحة الكبرى حين ضبطته زوجته متلبسا ، ورغم فداحة هذه الخيبة التى منى بها ياسين فى حياته الزوجية ، ورغم نفوره من رتابة هذه الحياة فقد وضعه نجيب محفوظ داخل غلاف الرجل الشرقى الذى يجد فى الزواج المستقر والملاذ والرعاية ومن هنا فانه لم يفكر لحظة فى قطع حياته بزوجته نهائيا .

ومن خلال هذه الأسرة ايضا يتطرق نجيب محفوظ الى عادة الحسد السائدة بين المصريين ، وبخاصة اذا كان الحاسد ليس له ولد والمحسود كثير الأولاد فصور اصحاب احمد عبد الجواد لأبنائه

الى مسجد الحسين لتادية صلاة الجمعة لالتماس البركة ، وخشية الأم من أن تصيب عين الحسود أحدا من ابنائها عند زيارتهم لمسجد الحسين بصحبة والدهم وحيرتها بين استحسان زيارة ابنائها للمسجد من ناحية ، وخشيتها من أن يحسدهم حاسد ، وتدعو الله أن يقيهم شر عين الحسود من ناحيةاخرى .

وعن الحب بين الرجل والمراة ، وعدم تاثيره القوى فى هز الفوارق الطبقية بين ابناء المجتمع اشارت السكرية الى وقوع احد افراد اسرة سى السيد فى حب فتاة ارستقراطية تفوقه مالا وجاها ، ولكنها رفضت الزواج منه لأن مرتبه يقل عن خمسين جنيها ، رغم علاقة الحب الملتهبة من جانبه تجاهها ، وفضلت عليه ابن المستشار الذى يتفق وطبقتها مما جعله يعترف « بأن القلب فى اهوائه لا يعرف المبادىء ، وهيهات أن تتعارض المبادىء الشعبية مع الحب الارستقراطى » يضاف الى ذلك ان هذا الفارق كان له اثر بصورة معاكسة فى علاقته بسوسن ابنة عامل المطبعة فرغم حبه الشديد لها فان اسرته لم توافق على زواجه منها بسهولة ، كما انها رفضت زواج أخيه من ابنة زنوبة العوادة لعدم اهلية هذا الزواج .

ورغم هذا التصوير فى تاثير الفوارق بين الطبقات بحيث يكون لكل طبقة مكانتها فى الزواج فانه من غير المنطقى اطلاق هذا القول على علاقة ففوراق الطبقة وفوارق السن أيضا لم تكن وحدها هى التى تجعل من الزواج غاية مستحيلة خصوصا اذا تواجد حب متبادل بين رجل وامراة .

فقد كانت التجربة العاطفية بين كمال وعايدة قائمة على طرفين متناقضين تماما ، فالجانب العاطفى عند كمال تمثل فى الوفاء والعطاء والعشق الروحى [(٩٩)] اما عايدة فقد كان المطلب الاول عندها هو شغفها بأن تكون فتاة احلام كل ما يتصل بها من الشباب ، وشتان ما بين فكر كل منهما [(١٠٠)] .

بهذا التناقض بين ما ترغبه النفس البشرية وما ترهبه صور نجيب محفوظ الانسان المصرى تصويرا قال الدكتور طه حسين عن صاحبه

أن نجيب محفوظ « اصبح فقيها بالنفس الانسانية بارعا فى تعمقها وتحليلها قادرا على أن يطلع قارئه على أسرارها ودقائقها [١٠١] .

وحين نرجع الى ما كتبه نجيب محفوظ عن الاسرة المصرية من حيث سيطرة الأب على اسرته ، وخضوع المراة لزوجها خضوعا كاملا وخشيتها لمخالفة أمره ، وارتدائها الحجاب يتضح انه بالرغم مما نادى به قاسم أمين فى كتابه « تحرير المراة » و « المراة الجديدة » حول ضرورة تغيير وضع المراة المصرية ، ودعوته الى السفور ، وبالرغم من الأفكار التى وردت الى مصر حول أن الحرية الشخصية اصبحت حقا لكل انسان ذكرا كان او انثى فان الطبقة المصرية الوسطى كانت بصفة خاصة هى المحافظة على التقاليد ، وهى التى ظلت فى معظمها متمسكة بتلابيب الماضى وتخشى الخروج عليه ، ولكن ذلك لم يستمر طويلا من خلال المعركة بين القديم والجديد ، والصراع بين التراث والموروث ، والنقلة الحضارية التى حدثت فى مصر نجد ان اسرة احمد عبد الجواد فى السكرية تختلف عنها فى بين القصرين ، ففى بين القصرين كانت الشمس والاجرام السماوية ، وليست الساعة هى التى تمثل المواقيت بالنسبة لهذه الأسرة فالفجر يعنى استمرار دقات العجين المرتفعة معلنة يوما جديدا ، كما يعنى استعداد الزوجة لاعداد فطور للاسرة ، والصباح يعنى استعداد الاسرة لاستقبال يوم جديد ، ومغيب الشمس يعنى الخلود الى الراحة وجلوس الاسرة فى مجلس القهوة [١٠٢] .

اما فى السكرية فقد خطت هذه الاسرة خطوات واسعة نحو المدنية الحديثة فدخلت الكهرباء منزلها ، وسمع المذياع من داخل جدرانها[١٠٣] وانشئت الجامعة ، والتحق بها احفاد اسرة عبد الجواد يضاف الى ذلك ان السيد نفسه افاد من اثر هذه المدنية اثناء مرضه رغم معارضته لها قبل ذلك .

هذا عن بعض ملامح الجانب الاجتماعى فى ثلاثية نجيب محفوظ التى رصدها بوعى وبنضج وحساسية شديدة عكست واقع مجتمعنا المتناقض ، وكانت احياء لدينا كاملة من الناس بافكارها وآرائها واحساساتها وتميزاتها ومغامراتها [١٠٤] .



وقد ظهر من ثنايا هذا كله مدى التغيير العميق الذى طرأ على حياة الأسرة المصرية منذ ان صورها نجيب محفوظ فى بين القصرين الى ان انتهى بها فى السكرية ، كما ظهر مدى الصراع بين الأجيال من ناحية الحفاظ على القيم والتقاليد الموروثة من جهة ، وبين تيار التجديد وعدم الانغلاق من جهة اخرى ، ولكن هل يعنى هذا ان ادب الثلاثية يمكن اعتباره صورة لتاريخ مصر الاجتماعى فى النصف الأول من القرن العشرين .

الواقع أن الأديب أو الروائى ليس مطالبا بعمق الدرس ولا بدقة التحليل العلمى شأنه فى ذلك شأن المؤرخ الاجتماعى بقدر ما هو مطالب بأن يكون أصيلا فى تعبيره عن العاطفة الاجتماعية ، فنجيب محفوظ اتخذ من الاحداث الاجتماعية مادة وصل عن طريقها الى عيوب ومشاكل المصريين الاجتماعية التى لم ترتهن بفترة روايته بل مازلنا نعانى من بعضها حتى الآن . كما يلاحظ ان نجيب محفوظ فى ثلاثيته لم يقدم حلولا لعلاج ما يحيط بواقعنا الاجتماعى من مشاكل ، ولم يرسم طريقا للخلاص منها وانما اشار باسلوبه الروائى الى مواطن الضعف ، ومكمن المفاسد وابان العلة وشخص الداء دون ان يوضح ما هو الدواء بل كان هدفه هو ايقاظ الراى والتفكير والحفز على تحريك الدوافع الانسانية لدى الافراد والهاب شعورهم واذكاء حماسهم نحو ايجاد الطرق الموصلة للاصلاح ، خصوصا وان التنبيه الى الأحوال الاجتماعية غير المتوازنة يهدف الى واد الشلل الفكرى فى الأمة ، وقد يكون سببا لاستفزاز الشعور والعمل من اجل اعادة التوازن بعد فهم الناس لأخطائهم .

وعن الجانب السياسى فى الثلاثية فيتضح انه سار جنبا الى جنب مع الجانب الاجتماعى ، وان تعارض معه احيانا وتشابك معه احيانا اخرى فمن خلال اسرة أحمد عبد الجواد يتتبع نجيب محفوظ الأحداث السياسية التى مرت بمصر ويربطها بحوادث تاريخية معروفة مثل اعلان الحماية ، ووفاة السلطان حسن كامل ، ونفى سعد زغلول ، وقيام الثورة ، ووفاة سعد ، وعيد الدستور ... الخ . فعن الاغلال الثقيلة التى كبلت الشعب المصرى باعلان الحماية على مصر ١٩١٤ وما آل اليه أمر الناس من ضيق ومعاناة خلال سنوات الحرب وبادار

فى خلدهم صور نجيب محفوظ التاجر احمد عبد الجواد فى صورة رب الأسرة المستاء من اختفاء السلع ، وارتفاع اسعارها خلال سنوات الحرب ، والذى يلعن جنود الاحتلال الذين يسلبون الأهالى موارد رزقهم ، وفى نفس الوقت يذكرنا بما تردد من رغبة الأهالى على لسان امينة فى عودة الخديو عباس الى عرش مصر مؤيدا بجيوش عثمانية بعد أن عزله الانجليز حيث تقول ربنا قادر على أن يعيد الينا افندينا عباس ، كما يذكرنا بعاطفة الولاء الدينى نحو الدولة العثمانية والتمسك بالخلافة على لسان الشيخ متولى عبد الصمد الذى يسأل الله أن يعيد الى البلاد افندينا عباس مؤيدا بجيش من جيوش الخليفة .

وعن رغبة بعض المصريين فى انتصار الألمان على الانجليز يصور نجيب محفوظ هذا الموقف فيما يسوقه على لسان ياسين من أن ينتصر الألمان وحلفاؤهم الاتراك حتى تسترد الخلافة ما سلبه الانجليز منها ، ويعود الخديو عباس والزعيم محمد فريد الى مصر . وعن ثورة ١٩١٩ ونفى سعد زغلول واصحابه الى مالطة ، واستياء طبقات الشعب المصرى لذلك النفى ربط نجيب محفوظ بين هذا الحدث وبين نفى عرابى الى سيلان فأوضح ما أصاب الناس من جزع وتساؤلهم « أيجرى نفس المصير على سعد وصحبه وينقطع ما بينهم وبين الوطن الى الأبد فتموت هذه الآمال الكبار وهى لا تزال فى مهد الازهار » ونتيجة لهذا الاستياء تقوم الثورة ويشترك فيها فهمى مما آثار ردود فعل متباينة فى محيط الاسرة وتتطور المظاهرات الى معارك بين الشعب والانجليز لتشترك فيها جميع طبقات وطوائف الأمة هاتفة « يحيا الاستقلال ، ونموت ويحيا الوطن ، ويحيا سعد » .

ونتيجة لذلك يتصدى الانجليز لهذه المظاهرات بعنف ، ويسقط العديد من الشهداء ، ولم يقتصر الامر على ذلك بل يتعرض الانجليز للمصريين بالمضايقات فى شوارع القاهرة وحاراتها فيشير نجيب محفوظ الى تعرض الانجليز لأحمد عبد الجواد بالقرب من بيته [(١٠٥)] والى ما اصاب ابنه ياسين فى المسجد ، ويفرج عن سعد ويتصافح الجميع ، ويتبادلون التهانى ، وتقوم المظاهرات التى عمت البلاد ابتهاجا بعودة سعد ثم يموت فهمى خلال هذه المظاهرات برصاصة طائشة بما يشير

به الكاتب الى تطور الاحداث والايحاء بانتكاسة الثورة والنهاية المنتظرة لها والملاحظ على موقف الطبقة البرجوازية المصرية من هذه الثورة انه بالرغم من أن هذه الطبقة قد باركت الثورة فانها فى نفس الوقت كانت تخشى أن يكون أفرادها وقودا لها فالثورة عند أحمد عبد الجواد التاجر من الأشياء الجديرة بالاحترام مادامت بعيدة عن أولاده وعن بيته ، اما اذا اشترك فيها ابناؤه انقلبت فى نظره الى هوس وخروج على المألوف مما نتج عنه انضمام ابنه فهمى طالب الحقوق الى حركة الجهاد الوطنى دون علم ابيه حتى لا يتعرض لثورته وغضبه .

كما يلاحظ انه فى وصف نجيب محفوظ لموقف الشعب المصرى من ثورة ١٩١٩ نجده يلتقط الحدث من كل زواياه فليس ابطاله كلهم متحمسين للقضية الوطنية ، كما انهم ليسوا بمنصرفين عنها ، فنهمى ثائر على الانجليز يشارك فى الثورة بفكره ودمه ، وزينب فى الجانب الآخر تظهر غضبتها على سعد زغلول ، وبين الطرفين توجد درجات من الحماس .

وهكذا صور نجيب محفوظ البيئة المصرية خلال ثورة ١٩١٩ تصويرا قال عنه الدكتور طه حسين « لست اعرف قاصا صور الثورة المصرية فى اعقاب الحرب الأولى كما صورها نجيب محفوظ ، صورها حية كأقوى ما تكون الحياة ، وصورها متغلغلة فى اعماق الشعب على اختلاف طبقاته مؤثرة فى حياة العابثين والجادين معا ، وفى حياة الشيوخ والشباب والصبية جميعا مغيرة وجه الحياة المصرية تغييرا تاما ، وصورها بكل ما فيها من جود الشباب بنفوسهم ودمائهم، وجود الشيوخ بأموالهم ، وجود الأمهات والاخوات بأمانيهم ودعائهم، وصورها بما فيها من قسوة الانجليز وبطشهم ، وغدرهم واستخفافهم بكل شىء ، وبكل انسان وبكل مكانة ، وانتهاكهم للحرمات وخروجهم عن طور المتحضرين »(١٠٦) وتستكمل قصر الشوق ما توقفت عنده بين القصرين فتسرد تاريخ مصر منذ تولية سعد الوزارة حتى وفاته فتظهر خديجة معبرة عن راى غالبية الشعب المصرى فى التمسك بزعامة سعد زغلول والكراهية لعدلى وثروت فعندما ذكرها ياسين بعدلى وثروت استعاذت بالله ولقبتهما بالخونة الذين يهتف الناس بسقوطهم ليل نهار .

وبعد الضربة التى أصابت وزارة سعد زغلول بعد اغتيال السردار صور نجيب محفوظ خيبة الأمل التى اعقبت استقالة سعد ، فرمز الى ان هذه الاستقالة قد ادت الى ازمة دستورية ، والى ضياع السودان، كما اشار الى أن قتل السردار كان ضربة موجهة الى وزارة سعد بهدف التخلص منها .

وعن فجيعة الأمة المصرية فى موت سعد زغلول ، عكس نجيب محفوظ صورة الشعب المصرى يوم الوفاة بتصوير كمال ، وهو يهتف من الاعماق لرجال الثورة والنفى والحرية .

وعن الروح الرجعية التى تمثلت فى السلطة الحاكمة التى حاولت ان تعصف بمكاسب الشعب فى جهاده بالغاء دستور ١٩٢٣ واستبداله بدستور ١٩٣٠ فى عهد وزارة صدقى ، وتصريح وزير خارجية بريطانيا صمويل هور بعدم رغبته فى عودة دستور ١٩٢٣ ولا دستور ١٩٣٠ لعدم صلاحية اولهما للعمل ، ورفض الامة للثانى عبر نجيب محفوظ فى السكرية عن احاديث ومشاعر الناس حول هذا التصريح بقول احدهم « يجب ان يرد على هور وتصريحه المشئوم » وقول آخر « ابن الكلب قال نصحت بأن لا يعاد دستور ١٩٢٣ ولا دستور ١٩٣٠ ما شأنه ودستورنا» .

ويقف نجيب محفوظ الى جانب حرية الشعب ، وتطلعه الى استكمال مقومات المجتمع الأمثل ، واحساسه بكيانه ، ويشاركه فى قضاياه فينتقد الحكام الذين عبثوا بذلك الجيل الحائر المعذب فى صورة كمال الذى وعى حاجة الامة الى الثورة ضد طغيان هؤلاء الحكام واصفا محمد محمود ، واسماعيل صدقى وتوفيق نسيم بأنهم سلسلة مشئومة من الطغاة والخونة غرتهم قوتهم فزعموا انهم أوصياء على شعب قاصر (١٠٧) .

وعن دور الاحزاب السياسية فى مصر يقيم نجيب محفوظ دورهم على لسان عدلى كريم رئيس تحرير مجلة الانسان الجديد فيقول « الوفد حزب الشعب ، وهو خطوة تطورية خطيرة وطبيعية فى آن واحد . كان الحزب الوطنى حزبا تركيا دينيا رجعيا أما الوفد فهو مبلور القومية

المصرية ، ومطهرها من الشوائب والخبائث الى انه مدرسة الوطنية والديمقراطية ، ولكن المسألة أن الوطن لا يقنع وما ينبغى له أن يقنع بهذه المدرسة الا اننا نريد مرحلة جديدة من التطور ، نريد مدرسة اجتماعية لأن الاستقلال ليس بالغاية الأخيرة ، ولكنه وسيلة لنيل حقوق الشعب الدستورية والاقتصادية والانسانية .. ولكن ينبغى أن يكون الوفد نقطة البدء ، أما مصر الفتاة فهى حركة فاشستية رجعية مجرمة ، ليست دون الرجعية الدينية خطرا وهى ليست الا صدى للعسكرية الالمانية والايطالية اللتين تعبدان القوة ، وتقومان على الاستبداد ، وتزريان بالقيم الانسانية والكرامة البشرية . ان الرجعية داء مستوطن فى الشرق كالكوليرا والتيفويد فينبغى استئصاله »[١٠٨] .

وفى تقديرنا ان نجيب محفوظ رمز باسم عدلى كريم الى الكاتب التقدمى سلامة موسى خصوصا وانه يمكننا أن نعثر على مثل هذه الآراء فى كتابات سلامة موسى المتبعثرة ، كما رمز بالانسان الجديد الى المجلة التى أسسها سلامة موسى فى منزله بالفجالة عام ١٩٢٩ والموسومة « المجلة الجديدة » .

اما عن تقييم الاحزاب الذى طرحه نجيب محفوظ فاننا نرى أنه كان لكل حزب دوره فى الحياة السياسية المصرية سواء أكان هذا الدور ايجابيا أم سلبيا ، وانه اذا كان قد انحاز الى حزب الوفد فانه انحاز الى المبادىء التى نادى بها الوفد اثناء الثورة كالاستقلال والديمقراطية والقومية التى تجعل من مصر وطنا حرا للمصريين على اختلاف عناصرهم وادیانهم [١٠٩] وبالرغم من اتهاماته للحزب الوطنى بانه كان حزبا تركيا رجعيا ، فمن الصعب أن ننكر أن هذا الحزب نجح فى توجيه جماهير الشعب المصرى فكريا ونفسيا فى فترة من احلك الفترات التى مرت بها مصر قبيل الحرب العالمية الأولى ، وانه هو الذى اضاء الطريق لقيادة ثورة ١٩١٩ .

وعن تزوير الانتخابات فى مصر وسقوط النحاس ومكرم يعبر نجيب محفوظ عما يجيش فى صدر الشعب فى صورة كمال الذى يقف عند

الديمقراطية والدستور فيقول « انتخابات مزورة ، وكل شخص فى البلد يعلم انهـــا مزورة ، ومع ذلك يعترف بها رسميا ، وتحـــكم بها البلاد ، ويعنى هذا أن يستقر فى ضمير الشعب ان نوابه لصـــوص سرقوا كراسيهم ووزراءه لصـــوص سرقوا بالتـــالى مناصبهم وان ســـلطاته وحكـــومته مزيفة مزورة ، وأن السرقة والتزييف والتضليل مشروعة رسميا ، افلا يعذر الرجل العـــادى الذى كفـــر بالمبـــادىء والخـــلق ، وآمـــن بالـــزيف والانتهازية [١١٠] .

وفى نهاية الثلاثية يبرز نجيب محفـــوظ دور اليســـاريين وافكارهم حـــول الثورة الابدية ، ودخولهم السجن مما يعنى أن اليسار المصرى قد دخل مرحلة جديدة من مراحل ازمة الحرية .

وهكذا يتضح تطـــور المفهوم السياسى لدى شخصيات الثلاثية فبين القصرين مثلت حـــركة الانتماء الى الحزب الوطنى ، وارهاصات تكـــوبن الوفد وموقف فهمى البطـــولى ابان ثورة ١٩١٩ ، .

وقصر الشوق مثلت المرحلة بين الانتمـــاء الوفدى والانتماء اليسارى بينمـــا الســـكرية مثلت الانتماء نحو اليسار بعد أن عجز حزب الوفـــد على ان يقدم حلولا للمشـــكلات الاجتماعية ، وللطبقات الشعبيـــة التى آزرته فى كفـــاحه الوطنى .

وهكذا رصـــدت ثلاثية نجيب محفوظ تاريخ مصر فيما بين الحربين فى صـــورة روائية أقرب الى الحقيقة منها الى الخيـــال ، ومما يلاحـــظ على هذه الكتابات أن الثوريين كانوا على هامش الحيـــاة السياسية لا فى قلبهـــا ، وانهم جميعا كانوا من صغـــار البرجوازيين الذين لم يتلقـــوا المبـــادىء الثورية عن طريق المعـــاناة الطبقية ، ولكن عن طريق قراءتهم وثقافتهم العقلية ، كمـــا يلاحظ انه بالـــرغم من الاحـــداث التـــاريخية المعروفة التى ذخرت بها الثلاثية فانها اولا وقبل كل شىء كانت عملا روائيا لا تاريخيـــا ، واذا اعتمدنا عليها فى دراساتنا للمجتمع القـــاهرى فـــى فترة ما بين الحربين فينبغى ان نتقبلَ ما بها بحرص وحـــذر شـــديدين خصوصا وأن العمل الروائى يعتمـــد على الخيـــال بجانب الواقع ، وقـــد

يستلزم ذلك كما يذكر نجيب محفوظ استخدام عمليات المكر والحيل[١١١]
ومن هنا غان من المغامرة غير العمليــة الاعتماد عليها ، وان كان يمكن الاستئنــاس بها فى التعبير عن الجـو النفسى الســائد خلال هذه الفترة فنجيب محفوظ حين كتب الثلاثية لم يؤرخ لمصر ، وانمــا كان دافعه الرغبة الفنيــة الخالصة التى يظللها احيــانا الفنــان ، وليست علاقة المفــكر السياسى او المؤرخ .

وبعد ان تعرضنــا للثلاثية يطرح علينــا سؤال نفسه وهو ما هى الطبقــة التى يمكن ان تنسب اليها كتابات نجيب محفوظ الواقع ان الآراء اختلفت حــول هذا الموضــوع ، وخرج النقاد بمقالات تحلل أدب نجيب محفوظ تحليلا طبقيــا ، وانتهى بعضهم الى انه اديب البرجوازية الصغيرة او المتوسطة الصغيرة [١١٢] ومن أبرز هؤلاء النقاد كان الدكتور عبد العظيم انيس الذى راى ان تعبير نجيب محفوظ عن البرجــوازية الصغيرة كان صادقا ورائعا ، ومن هنــا لقبه بروائى البرجوازية الصغيرة المصــرية والمعبر بصورة رائعة عن مشاكلها [١١٣] .

وســماه البعض الآخر بانه الكاتب التقدمى، واديب الطبقة العاملة مشيرين فى ذلك الى ان تصويره لواقع المجتمع المصرى من خلال الثلاثية كاد يقترب من الواقعية الاشتراكية حيث أن واقعية الثلاثية قد حملت فى ثناياها بصيصــا خافتا من الضــوء لبشائر فجر جديد من التغيير الذى يتكفل بمعــالجة الفساد القــائم وهذا من اسس الايديولوجية الاشتراكية التى تــرى ضرورة فهم المستقبل والادراك الواعى بتطور المجتمع وبنائه ، والايمــان بامكانيات الانســان فى صنع مستقبله ، والوصول بنفســه وبمجتمعه الى واقع افضل يكفل للانسان حريته وكرامته[١١٤] يضــاف الى ذلك ان رؤية نجيب محفوظ لمشــكلات المجتمع المصرى كانت رؤية يسارية اتضحت من تفهمه للبنــاء التركيبى للاحــداث ودلل اصحاب هذا الراى على صحــة تسميتهم بما ادلى به نجيب محفوظ فى المحاكمة الأدبية التى اعدها له ضيــاء الدين الريس بانه يؤمن بتحرير الانســان من الطبقيــة والاستغــلال بكافة انواعه ، وان يتمتع الفــرد بحرية الفكر والعقيــدة وبتحقيق الديمقراطية باشــمل معانيها كمــا دللوا بما اشــار اليه نجيب محفوظ من تعاطفه الشــديد مع الماركسيين حيث قال « لا استطيع ان

اعتبر نفسى ماركسيا رغم التعاطف الشديد » [١١٥] يضاف الى ذلك انهم تمسكوا بما ذكرته احد شخصيات الثلاثية عن الثورة الابدية والاضطهاد والآلام والعذاب وما شابه ذلك .

والواقع ان نجيب محفوظ لم ينغلق ضمن دائرة فكرية معينة بل كان حياديا فى كتاباته ، ورافضا لفكرة التقوقع داخل رؤية معينة ، ودليلنا على ذلك أن فكره فى الثلاثية لم يصدر عن واقعية اشتراكية حين قدم الحل الدينى متمثلا فى الفكر اليمينى الذى يمثله الاخوان المسلمون والمتجسد فى شخصية عبد المنعم ابراهيم شوكت كعلاج لتردى الاوضاع الاجتماعية والاخلاقية حيث يرفض لقاء الظلام على بسطة السلم او فوق السطوح مع بنت الجيران ويطالب ان يكون جزاء ذلك الرجم [١١٦] كما يعتبر الالحاد هروبا من واجبات الانسان حيال ربه ونفسه والناس [١١٧] .

وفى نفس الوقت يعطى للحل الماركسى متمثلا فى احمد ابراهيم السبيل لحل مشكلات المجتمع عن طريق الايمان بالعلم وبالانسانية وبالغد « وبما التزمه من واجبات ترمى فى النهاية الى تمهيد الارض لبناء جديد » هذا بالاضافة الى ان شخصياته من الاشتراكيين تكاد تكون باهتة وغير واضحة ، وتبلغ هذه الحيادية روعتها حين يجعل المؤلف من ممثلى الفكرين الاسلامى والماركسى شقيقين مع اعطائهما خلافا فى العمر اشارة الى التتابع المرحلى للفكر الانسانى ، وهذا ما يرغب فيه نجيب محفوظ من ان يشير الى أن لكل عصر فكره الخاص به وان لم يميز احد هذين الفكرين على الآخر [١١٨] .

واذا كان البعض قد سمى نجيب محفوظ بأنه اديب البرجوازية المتوسطة والصغيرة ، وسماه البعض الآخر بانه الكاتب التقدمى واديب الطبقة العاملة فلا ندرى هل الاديب لابد أن يكون كاتبا لطبقة معينة بذاتها ام أن ادبه ينبثق من كافة الطبقات ويعود اليها ، وهل من الضرورى وجود طبقة معينة يعبر عنها الكاتب أم أن الأفضل هو وجود طبقة يعبر الكاتب من خلالها لقد رفض نجيب محفوظ فكرة انه يوجه انتاجه لطبقة معينة بالذات عند كتابته ، وأوضح انه يصور

النمـــاذج التى تعيش معـــه اكثر [١١٩] وانه اذا كانت له ايديولوجية فهى ليست فى عقله ، ولكنهـــا فى قلبه لا يكتب عنها وانما تعمل فى داخله [١٢٠] ومع كل ذلك فاننـــا نرى ان نجيب محفوظ بالرغم من حيـــادية كتاباته ، فانه كان أقـــرب الى التعبير عن الطبقـــة الوسطى واقرب تفهما لقضايا هذه الطبقـــة من غيره من الكتاب لدرجة انه استطاع ان يعبر بصـــورة واقعية صـــادقة عن ادق ما تعرضت له هذه الطبقة من مشاكل ، وكانه قد عايش هـــذه المشاكل وتعـــايش معها ، ويؤكد ذلك نفيه للحيدة التامة فى تصـــويره للثلاثية حيث يقول « وبالنسبة للثلاثية اعتقد ان فيهـــا وجهة نظر مؤكدة » [١٢١] .

وهكذا ارتبطت الثـــلاثية بالانسان المصرى ، وعبرت عما يعن به من مشـــاعر واحاسيس ، كمـــا انها ســـايرت تاريخ مصر وتطوره فى شكل يتنـــاسب مع مستوى القـــارىء المصرى حتى اصبحنا نرى فيها حياتنا ، وقصص كفـــاحنا وازماتنا بطريقة شملت الحياة المصرية بمثالبها ومشاربها لدرجـــة ان ادبه اصبح ظاهرة قومية نعتز بها .

٧ ـــ الفيوم بين ثورتى عرابى وسعد زغلول

تفخـــر البـــلاد دائما بأبنائها البررة ، وتتبـــارى المـــدن والقـــرى والنجوع فى الاعتزاز بالاســـماء التى نبتت على ارضها ثم ســـطعت على مسرح الأحداث ، وكافحت من اجـــل وطنها ودافعت عن حريته واستقلاله وطـــالبت بحقوقه وعملت على رفعته ونيـــل آماله .

وفى الفيوم اســـماء لامعة برزت فى تاريخ مصر الحديث واشتركت فى احـــداثه ، واهم هـــذه الأســـماء اللواء على الروبى ابن قرية دفنـــو بمركز اطسا محـــافظة الفيوم والذى لم يشارك فقط فى الثورة العرابية بل كان صـــاحب اليد الطـــولى فى تشكيل جمعية الضبـــاط السرية ١٨٧٩ التى كانت النـــواة ومركز التجمع للقـــادة الذين قاموا بهذه الثورة ، ومن هـــذه الاسماء اللامعة ايضا حمد باشـــا الباسل ابن الفيوم الذى شارك ســـعد زغلول فى كفاحه ونفى الى مالطة وتعرض للاضـــطهاد والتشريد كما سافر الى باريس لحضور مؤتمر الصلح والدفاع عن القضية المصرية.

ولم يقتصر دور الفيوم على تفريخ الزعامات القادرة على المشاركة في الاحداث بل تقدم ابناءها الصفوف ، وشاركوا الوطن في كل محنة المت به ، وكان ابناؤها دائما على مستوى الاحداث ففي اثناء الثورة العرابية وبعد أن سرق المستر كولفن Colvin الانجليزي خزينة الحكومة المصرية ووضعها في الاسطول الانجليزي (١٢٢) قام أهالي الفيوم بجمع التبرعات للجيش من غلال وعتاد ومئونة وميرة وخيول ومواشي، وجاءوا بكل ما في وسعهم من اجل الوطن كما تطوع الكثيرون منهم في الجيش جنودا مقاتلين يجودون بأرواحهم في سبيل مصر ويؤكد ذلك الوثائق الرسمية ، ففي محافظ الثورة العرابية نرى أن حسان فراج احد عربان الفيوم قام بمساعدة العرابيين بالمال والعتاد والرجال فقد توجه هو وجماعة من العربان يقدرون بمائتي فرد ومعهم خيولهم وعتادهم الى معسكر عرابي يطلب منه الاشتراك في القتال من اجل نصرة الوطن والدين (١٢٣) .

وتؤكد محفوظات الداخلية ووثائق الثورة العرابية ان خليفة طنطاوي عمدة سنورس وأخاه أبا زيد قد « تبرعا بسبعين فحل جاموس وسبعين راس غنم » (١٢٤) كما قاموا بجمع التبرعات من الأهالي وارسالها الى عرابي من أجل الدفاع عن الوطن (١٢٥) ومن الوثائق أيضا يتضح ان شيخ العرب السعداوي الجبالي وشيخ العرب عبد القوي الجبالي عمدة قبيلة الحرابي بمديرية الفيوم حضرا طرف أحمد عرابي واعربا عن رغبتهما في التطوع هما واتباعهما مع الجيش المحارب وتسليمهما اسلحة من الجهادية ، وقد وافق عرابي على طلبهم ، وتم بمعرفة مديرية الفيوم ارسالهم بخيلهم الى معسكرات العرابيين بكفر الدوار في وابور مخصوص ، وهناك تم ترتيبهم داخل التشكيلات العسكرية (١٢٦) .

هذه نماذج عن دور أبناء الفيوم في الكفاح من أجل الوطن اثناء الثورة العرابية أما عن دور علي الروبي ابن الفيوم في هذه الثورة فقد كان دورا هاما وخطيرا ومع ذلك لا ندري لماذا لم يعطه المؤرخون حقه ؟

الواقع ان علي الروبي هو المؤسس الاول للجمعية السرية لضباط

الجيش المصرى الـوطنيين عام ١٨٧٩ أى فى اواخر عهد الخديو اسماعيل والتى كانت تهـدف الى فتح باب الترقى امام المصريين وانقضـاء على الخديو اسماعيل [١٢٧] ، وان احمد عرابى انضـم الى هـذه الجمعيـة بعد ان اسسها على الروبى [١٢٨] وان العـلاقة بين على الروبى وعـرابى توطدت اثنـاء حرب الحبشـة وخاصة عندما عين على الروبـى رئيسا لفـرع المهمات ، وقد سـاعد على توطيد العلاقة بينهما الاتجاه الوطـنى المشترك لكل منهما [١٢٩] .

وتذكر الوثائق البريطـانية ان الخـديو اسـماعيل بعد ان عـلم بالجمعية السرية التى اسسها على الروبى اعتمد عليه وعلى عـرابى فى العمل على اسـقاط الوزارة الأوربية [١٣٠] التى كانت تحد من نفـوذ الخديو .

وعند قيـام الثورة العرابية كانت ثقـة عـرابى فى على الـروبى قوية لدرجـة انه وضعه فى المنـاصب الحساسة والمؤثرة فى مسـيرة الثورة ، فعندما عين عـرابى وزيرا للحربية رقى على الروبى الى رتبـة اللواء ، وعندما تآمر الضبـاط الجراكسة على الثورة العرابية شـكل عرابى مجلسـا عسكريا لمحاكمتهم من خمسـة عشر عضوا كان من بينهم على الروبى [١٣١] . وعندما اسس عرابى المجلس العرفى للتشاور فى امور البـلاد اختار على الروبى ضمن اعضائه ، وعندما تأزمت علاقة العرابيين بالخديو حتى وصـل الأمر الى ان امر الخديو بعزل عرابى ، قام على الروبى بين اعضاء المجلس العرفى يوضح دور عرابى فى الدفاع عن الوطن وشرف الدين منددا بالخديو الذى يـريد تسـليم البـلاد للانجليز [١٣٢] وموضحا ضرورة الاستمرار فى الحرب [١٣٣] حتى لا يدخل الانجليز البلاد ويهتكوا الأعـراض ويعتدوا على المقدسات [١٣٤] وبعـد ان انتهى على الروبى من كلمته تعـالت اصوات الحاضرين بحيـاة عـرابى وبضرورة تواجده على رأس الجيش .

وعندما قامت الحرب بين العرابيين والانجليز عين عرابى اللواء على الروبى قـائدا لمنطقة مريوط العسـكرية ، ونتيجة لاصابة راشد باشـا حسنى وعلى باشـا فهمى فى معركة القصـاصين استدعى عرابى اللواء

على الروبى لقيـــادة منطقة للتل الكبير لثقته فيه وفى قدرته على ادارة الحرب لانه كما يذكر « كان حائزا لاعظم الصفـــات الممدوحة التى لا يمكن القيام بحصرها » [١٣٥] .

وفى التل الكبير كانت المعـــركة الفاصـــلة بين العرابيين والانجليز ، وقد حضر على الروبى عصر يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢ الى التل الكبير وكانت المعـــركة فى فجر ١٣ سبتمبر ، وهنا نقرر انه ليس فى امكان اى قائـــد عســـكرى ان ينظم قـــواته خـــلال ساعات معـــدودة ويترتب عـــلى ذلك انه لا يمكننـــا ان نرجع عدم القـــدرة على الصمود امام الانجليز الى اللواء على الروبى بقـــدر ما يمكننا ارجـــاعه الى عنصر المفاجأة والتغيير السريع فى القيـــادة ، كما يمكن ارجـــاعه الى انضمام بعض الخونة من اعـــوان الخديو الى الضباط الانجليز مثل على يوسف خنفس الذى ابلـــغ خـــطط وتحركات الجيش المصرى الى الأعداء .

وبعد الهزيمة اتجـــه كل من عرابى وعلى الروبى الى القـــاهرة فى قطـــار[١٣٦] وذهبا الى مقر وزارة الحربية لمشـــاورة اهل الـــراى فى البـــلاد فيما حدث وانتهى الأمر بالتســـليم ، وقدم اللواء على الـــروبى الى المحـــاكمة[١٣٧] ، وحـــكم عليه بالنفى الى جهـــة مصـــوع بالسودان لمـــدة عشرين سنة ، وتجريده من رتبه ونياشـــينه [١٣٨] كما صـــدرت احكام اخرى ، منها احكام صـــدرت على ابناء الفيوم الذين ســـاعدوا الثورة ومن هؤلاء سعداوى الجبـــالى عمدة قبيـــلة الحـــرابى بالفيـــوم فقد حـــكم عليه بان يقيم فى بلده تحت الملاحظة مع دفـــع تأمين مـــالى وتجريده من الرتب والامتيازات [١٣٩] ، وحســـان فراج ومحمد المسيرى من اعيـــان الفيوم وقد حكم عليهمـــا بان يقيم كل منها فى بلده تحت الملاحظة وتجريدهما من الرتب والمناصب [١٤٠] كما قضى بتجريد يعقوب بك صبرى مدير الفيـــوم وعبد النبى عبد الله البيـــاضى عمدة عـــربان البراعصـــة بمديرية الفيوم من علامات الشرف والامتيازات والرتب [١٤١] .

اما عن ضبـــاط الجيش من اهالى الفيوم الذين اتهموا بالاشتراك فى الثورة وجردوا من رتبهم وامتيازاتهم وحرموا من مرتب الاستيداع ومعاش التقـــاعد فهم [١٤٢] :

اليوزباشى بياده احمد سيد احمد	من سنورس
واليوزباشى بياده السيد عبد الرحمن	بندر الفيوم
واليوزباشى بياده منجـود محمود	ترسـا فيوم
والملازم أول سوارى احمد حمـدى	بندر الفيوم
والملازم اول بياده ابراهيم حسنين	ابجيـج
والملازم اول بياده محمد رمضان	من هواره عدلان
والملازم أول بياده محمد على	الفيـوم

هذا عن دور الفيوم وابنائها فى الثورة العرابية التى قامت من اجل الدفاع عن حقوق الشعب المصرى وكرامته .

اما عن دور ابنـاء الفيوم فى ثورة ١٩١٩ فانه ما ان تاكد نبا القبض على سعد زغلول ، وصحبه حتى اخذت سـمات الغضب ترتسم على النفوس ، كمـا ازدادت روح السـخط ضد الانجليز فانـدفعت الأمـة الى الثـورة .

وفى الفيـوم بدات المظاهرات يوم ١٥ مارس ١٩١٩ احتجاجا على اعتقـال زعمـاء الثورة ومنهم حمد باشـا الباسل صـاحب النفـوذ السـاحق واليد الطولى على بدو الفيوم واستمرت المظاهرات فى الايـام التـالية ، وفى ١٩ منه بينمـا كانت مظاهرة تطـوف فى المدينة اطـلق بعض المتظـاهرين عيارات نارية فى الهواء ، فانتهزت القوات البريطانية ذلك وتصـدت لجمـوع المتظاهرين ، واطلقت النـار عليهم من البنادق والمدافع الرشـاشة فقتل كثيرون ذكر الرافعى منهم :

١ — محمد وهبه ترزى	٢ — محمد عبد الدايم
٣ — توفيق عبد الباسط	٤ — درويش ابراهيم
٥ — ريـاض على	٦ — عبد العـال رزق
٧ — احمد احمد حسين	٨ — بدوى عبد النبى

٩ — سيد محمود	١٠— احمد روبى
١١— محمود محمد	١٢— نعمان ابراهيم
١٣— محمد مسعود	١٤— عبد الباقى حسن
١٥— غريب محمد	١٦— عثمان عطيه
١٧— أحمد حنفى	١٨— السيد فتح الباب
١٩— محمد عبد الله	٢٠— خميس بدوى
٢١— احمد رمضان	٢٢— عبد الجواد احمد
٢٣— حميدة سليمان	٢٤— محمد عزازى
٢٥— محمد فرحات	٢٦— عبد العليم حافظ
٢٧— عبد النبى على	٢٨— محمد عطا الله
٢٩— عبد الباسط عبد التواب	٣٠— نظير على
٣١— محمد جبره	٣٢— منصور أبو بكر
٣٣— على محمد	٣٤— حسن حسين
٣٥— محمود محمد	٣٦— فاطمة محمد
٣٧— سيد على	٣٨— نعمات محمد(١٤٣)

ونتيجة لذلك قام بعض البدو بمهاجمة القوات البريطانية فقتلوا بعضهم كما سقط من البدو أكثر من ٤٠٠ شهيد وجريح ، وقد اعترفت قيادة القوات البريطانية بقتلاها فذكر فى بيان لها فى صيغة انذار لأهالى الفيوم قالت فيه « فى الأيام الأخيرة اطلق البدو النار على الجنود البريطانية وقتلوا بعضهم فاذا اطلق البدو النيران على الجنود البريطانية مرة أخرى ، اتخذت فى الحال وسائل شديدة وقاهرة لابد ان تفضى الى ضياع أرواح كثيرة من الأبرياء ، وهذا آخر انذار » (١٤٤) .

وعلى الرغم من هذا الانذار فقد قام البدو بمهاجمة القوات البريطانية

واحـــداث اضرار للســــلطات البريطانية ، كما هاجم بعض أهالى الفيوم الجنود البريطانيين واستولوا على اسلحتهم .

وفى مدينة الفيوم طــالب زعماء البدو بالاستقلال وعزل المـــدير ، ولكن تنـــازل بعضهم عن هذا الطلب بعد مناقشـــات طويلة وبوســـائل الاقنـــاع ، اما من اصروا على مطلبهم فقد غـــرقتهم الســـلطة بالمـــدافع الرشـــاشة [١٤٥] .

وفى مركز اطسا حـــاصر الأهالى مركز البوليس وحـــدثت معـــركة استولى البدو فى أثرها على مبنى مركز اطســـا وحاصروا المدينـــة[١٤٦] ونتيجة لذلك التـــوتر لم يجد موظفو جميـــع مـــراكز الفيـــوم بدا من ان ينسحبوا الى عاصمة المـــديرية ليكون افرادها بمأمن من هجمـــات البدو وكانت انبـــاء هذه المعـــارك تصل الى القاهرة عن طريق الهجـــانة لأن جميع المواصلات فى انحـــاء مديرية الفيـــوم كانت قد دمرت [١٤٧] ونتيجة للتلاحم القتالى بين ابناء الفيوم من البدو والفلاحين وبين القوات البريطانية وصـــل عدد الشهداء من ابناء الفيوم اربعمائة شخص ، والواقـــع أن دور الفـــلاحين فى المعارك كان بســـيطا اذ كان المهاجمون كلهم من البدو تقريبا [١٤٨] وقد تزايدت اعمال العنف فى الفيوم ، وانتشرت الى المـــراكز والقرى المجـــاورة لها .

ونتيجة لتطـــور المعـــارك قام شقيق حمد باشا الباسل بارســـال بعض رجاله الى السنوسيين فى ليبيـــا لحثهم على الحضور الىالفيوم ، كماقامتالقوات البريطانية بالقـــاء منشورات عن طريق احدى الطـــائرات تقول ان جنـــودا بريطانيين قد قتلوا ، وتحذر الســـكان من أن تكـــرار ذلك ســـوف يؤدى الى الانتقام الجمـــاعى من أهالى الفيوم [١٤٩] .

هذه نبذه عن كفـــاح ابناء الفيوم ضد القوات البريطانية فى ثورة ١٩١٩ أما عن دور حمـــد باشا الباسل ابن الفيـــوم فى هذه الثورة فقد كان ضمن المعتقلين الذين نفتهم الســـلطات البريطانية الى مالطـــة نظـــرا لدوره فى تحريك الثورة ضد الانجليز ذلك لأنه جعل منزله منتديا للوفـــد يعقـــد فيه الاجتمـــاعات العـــامة التى يحضرها ذو الـــرأى من مختـــلف

الطبقـــات [١٥٠] ، وتلقى فيـــه الخطب التى تثير النفـــوس ، وتنشر فى الصحف [١٥١] .

ونتيجة للضغط الشعبى فى مصر اعلن الفيلد مارشـــال اللنبى قراره بالافراج عن المعتقلين فى مالطـــة فى ٧ ابريل ١٩١٩ ، وقد جاء فى اعـــلانه هذا ما نصـــه « بالاتفـــاق مع حضرة صاحب العظمة السـلطان اعـلان انه لم يبق حجر على السـفر ، وان جميع المصريين الذين يريدون بارحة البـلاد تكون لهم هذه الحرية ، وقد قررت علاوة على ذلك ان كلا مـن سعد زغلول واسماعيل صدقى باشا ومحمد محمود باشا وحمد الباسـل باشا يطلقون من الاعتقـال ويكون لهم كذلك حق السفر » [١٥٢] .

وبعد اطـلاق سراح حمد الباسل سـافر مع الوفد المصرى الـى باريس فى ١٩ ابريل ١٩١٩ لحضـور مؤتمر الصلح والدفاع عن القضيـة المصرية والمطـالبة بالجلاء ، وقد مكث الوفد بباريس دون التوصل الى نتـائج ايجابية أو اعتراف من بريطـانيا بالغـاء الحماية على مصر ومنحها استقلالها ، وهنـاك بدات بـوادر الانشقاق تظهر على زعمـاء حـزب الوفد ، واختلف حمد الباسـل مع سعد زغلول واحتدم النقاش بينهما ، ورغم ان حمد الباسـل كان من المقربين الى سعد زغلول فكريا ووجدانيا ، ويؤيـده فى كل راى يـدلى به فقد اختلف معه ، ففى حين راى سـعد مقـاطعة لجنة ملنر ، رأى حمد البـاسل بان من الافضل لمصر تشكيـل جبهـة من الوفد تقبـل التفاوض مع لجنة ملنر عسى أن تخرج بفـائدة لصـالح البلاد ، وعندما تصلب سـعد زغلول فى رايه ولم يتمكن حمـد الباسـل من اقناعه بوجهة نظره انفصل حمد البـاسل عن سعد زغلول واستقال من الوفـد ، وعلى الرغم من ذلك فان حمد الباسل لم يبتعد عن مزاولة الحياة السـياسية أو يعتزل العمل السياسى ، وعندما ناشده سـعد زغلول العودة الى صفـوف الوفد ، وان ينسى الخلاف بينهـا وافق حمد البـاسل على ذلك وقابل سـعد زغلول قائلا له انت زعيـم الامة وانـا اضع نفسى تحت تصرفك ، وعـاد حمد الباسل الى صفـوف الوفد بصفته وكيلا له ، وبجـانب ذلك اختير وكيلا للبرلمان فى سنة ١٩٢٤ فاصبح يجمع بين وكالة الوفد ووكالة مجلس النـواب وقد ذكر حمـد

الباسل فى حـديث له نشر فى مجـلة الهلال اننى كوطنى ووكيل الوفـد « ليس لى مطمع فى الحيـاة غير استقلال مصر التام » فاذا حصلت على هذا المطمع فاننى اقول بعده كما قال القائل :

«لأن تأتنى الدنيا بيومى فانها تجدنى وقد قضيت منها مآربى» [١٥٣]

وهكذا كان دور الفيـوم فى ثورة احمد عرابى وثـورة ١٩١٩ التى قادها سعد زغلول فقد اتضـح من ثنايا هذا البحث ان الفيوم لم تشتـرك فى هاتين الثورتين بالنفس والنفيس فحسب بل ان بعض الزعامات والعقول المؤثرة فى هاتين الثورتين كانت من ابناء الفيوم .

٨ ـ سيناء فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر

ان كلمة سـيناء لو جردناها من الذكريات لبقى لها التذكير بانهـا حـامية مصر والمدافعة عن كرامتها على مـر العصـور فهى المفتـاح الشرقى لمصر الذى تحطمت امامه كل الغزوات وانصهرت ، وكانت منـذ القدم مسـار للجيوش فيمـا بين وادى النيل والشرق ، والتاريخ يحدثنا عن حمـلات عديدة لجنود مصر عبر سينـاء منها على سبيل المثـال اخضـاع الحيثيين ، وطرد الهكسوس يضـاف الى ذلك أن طرد التتـار تم عبر سـيناء كذلك حمـلات صلاح الدين ضد الصليبيين تم بعضها عبر سـيناء وتنقسم شبه جزيرة سـينـاء بحسب طبيعة ارضهـا الى ثـلاثة اقسـام بلاد الطور فى الجنـوب ، وبلاد التيه فى الوسط ، والعريش فى الشمال والطـور هو الجبل الموجود فى سـيناء والذى ورد اسـمه فى القرآن الكريم مرات متعـددة منها ما ذكر فى سـورة التين « والتين والزيتون وطـور سينين ، [١٥٤] ، وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الانسان فى احسن تقـويم » .

وفى سفـح جبل موسى بمنطقة الطـور يوجد اقدم الأديرة فـى العـالم وهو ديـر طور سيناء (دير القديسة كاترين) وسينـاء فيهـا الوادى المقدس الذى ذكر فى القرآن فى سـورة طه عندما خـاطب الله سبحانه وتعـالى سيدنا موسى « انى انا ربـك فاخلع نعليك انك بالوادى

المقـــدس طوى » وهذا أمر لموسى بأن يخلع نعليه تعظيما للمكان لأنه الوادى المقـــدس « طوى » والذى نزل فيه الوحى على موسى فى سيناء .

كما وصف القرآن الكريم شجرة الزيتون التى نبتت فى ســـيناء بعد الطـــوفان بأنها شـــجرة مباركة فقال تعالى « الله نور السموات والأرض مثل نـــوره كمشكاة فيها مصباح ، المصبـــاح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شـــجرة مباركة زيتونه لا شرقية ولا غربية يكـــاد زيتهـــا يضىء ، ولو لم تمسســـه نار ، نور على نور يهدى الله بنـــوره من يشـــاء » .

وعندما تم الفتح الاســـلامى لمصر فى عهد عمر بن الخطاب ، دخل عمرو بن العـــاص البلاد مارا برفح والعريش .

وعنـــدما جاء العثمانيـــون الى مصر دخلـــوها عن طـــريق غـــزة والعريش ولما تولى محمد على حـــكم مصر كانت سينـــاء فى جملة ما دخل فى حـــوزته من امـــلاك مصر ، وكان عرب ســـيناء فى جملة عـــاداتهم يحكمهم قضـــاة منهم بحســـب عرفهم وعاداتهم ، وكانت مدينة الطـــور تابعة فى الادارة لمحافظـــة السويس ، ومنطقة العريش تابعة راســـــا للداخلية ، وقد شـــهدت سيناء مسيرات حربية خلال حملة ابراهيم باشا على سوريا حيث اتخذ من اقليم العريش مســـارا .

وبعد محمد على وتولى عبـــاس الاول حـــكم مصر اهتم بســـيناء فزارها وشرع فى بنـــاء مصيف له هنـــاك ، كما مهـــد الطـــريق من ديـــر ســـانت كاترين الى قمـــة جبل موسى ، وشرع فى بناء قصر فخم له على قمة هذا الجبـــل لكن الحياة لم تمهله طـــويلا فعاجلته المنية قبل أن يتـــم اعمـــاله وخلفه سعيد باشـــا ، وفى عهده تم البـــدء فى حفر قناة السويس ١٨٥٦م وتأسيس محجر للحجـــاج بسيناء عام ١٨٥٨م .

اما فى عهد اســـماعيل فقد ازداد النفـــوذ الأجنبى فى مصر ، وارسل الانجليز لجنـــة علمية برئاســـة « هنرى بالمر » للتنقيب فى بـــلاد الطور فاقامت فيها حـــوالى ستة شـــهور ، وفى أثنائها رســـمت خـــرائط

لسيناء ، وبدأت فى التنقيب عن ثرواتها ، كما تم انشاء مدينة القنطرة شرق على الساحل الشرقى لقناة السويس .

ولما قامت الثورة العرابية ، وتطاير خبر معاداة الانجليز للعرابيين انقض اهالى سيناء على لجنة بالمر وفتكوا باعضائها .

وقد اهتم الانجليز بسيناء ، وعزلوها عن باقى اجزاء مصر مستغلين فى ذلك قناة السويس كمانع مائى يفصل بين الوادى وسيناء ، ومنعوا دخولها على اى مصرى الا بتصريح خاص واستمرت سيناء تابعة لمصر حتى تولى الخديو عباس الثانى اريكة الحكم وفى عهده حاول السلطان العثمانى عبد الحميد اخراج سيناء من حدود مصر خاصة بعد شق قناة السويس ، وظهور اهميتها الاستراتيجية لذلك فحين صدر فرمان تولية عباس الثانى خديويا على مصر عام ١٨٩٢ اخرج السلطان سيناء من مصر الا ان رد الفعل المصرى والبريطانى

كان شديدا ، فقد اعترض العديد من المصريين على ذلك ، كما احتج المعتمد البريطانى فى مصر كرومر ، واوقف قراءة الفرمان رسميا حتى جاء التصحيح من الاستانة بترك سيناء الى مصر ، وبناء على ذلك اصبحت سيناء كما يحدها الخط الممتد من شرقى العريش الى راس خليج العقبة تحت ادارة مصر [١٥٥] وقد اعقب هذه الازمة زيارة الخديو عباس الثانى لبعض المواقع فى سيناء تأكيدا للسيادة المصرية عليها فزار الطور عام ١٨٩٦ والعريش عام ١٨٩٨ ، ووصل الى الحدود الشرقية عند رفح ، ونظرا للظروف الدولية التى تهيأت للدولة العثمانية فى عام ١٩٠٥ لكى تحاول استرداد نفوذها فى مصر خصوصا بعد ان اتخذ مصطفى كامل من فكرة الالتفاف حول الخلافة الاسلامية اساسا لجهاده حاولت الدولة العثمانية أن تقتطع سيناء من مصر فاعتزمت فى مايو ١٩٠٦ مد سكة حديدية من معان الى العقبة ، ولما كان ذلك يعنى وجود قوة جديدة لتركيا على حدود مصر بما يهدد مركز بريطانيا فى مصر فقد اهتم الانجليز بالأمر وارسلوا ضابطا كبيرا عهدوا اليه بوضع نقط عسكرية على طول الخط من العريش الى العقبة باعتبار انها من املاك مصر ، ولكن الجنود التركية احتلت موقع طابة ، وهو

على بعد ثمانية اميال غربى العقبة [١٥٦] ونتيجة لذلك حدث خلاف شديد بين الدولة العثمانية وانجلترا ظهرت فيه انجلترا بمظهر الدولة الحامية لمصر اذ طالبت تركيا باسم مصر أن تجلو عن طابة ، وارسلت لها انذارا تطالبها بالجلاء عن طابة فى ظرف عشرة ايام والا ستكون النتائج وخيمة ، ونتيجة لذلك ابرق السلطان الى الخديو يطلب منه التفاهم مع مختار باشا فى المسألة ، وكان رد عباس بانه شديد التمسك بحدود رفح — العقبة ، وبعد اسبوع من الانذار اخذت قوات بريطانيا البحرية تستعد للتحرك الى طابة مما جعل الدولة العثمانية تسلم بمطالب الانجليز فقررت الجلاء عن طابة ، ولم يمض وقت طويل حتى تشكلت لجنة تركية مصرية اخذت فى تخطيط الحدود بين البلدين [١٥٧] وفيها تراجع الاتراك عن موقفهم .

وعلى كل حال فان الانجليز اثناء احتلالهم لمصر اوجدوا اطارا من العزلة بين سيناء وباقى مصر فتحكموا فى انتقال سكان مناطق سيناء الى داخل مصر ، وكذلك انتقال المصريين من غير مواليد سيناء الى تلك المناطق حتى استقر فى الاذهان أن سكان سيناء يمكن اعتبارهم مصريين من الدرجة الثانية او حتى غير مصريين ، وكادت غالبية الناس تفهم ان مناطق الحدود يسكنها قوم غرباء لا يربطهم بأهل مصر نسبه او وشيجة منذ اقدم العصور .

وقد دعم اللورد كرومر سياسته هذه عمليا بانشاء ما سمى فى وقته « مصلحة الحدود » ووضع على راسها ضباط انجليز استطاعوا ان يحققوا ما ترمى اليه سياسة اللورد حتى اصبحت سيناء جزءا غريبا عن مصر فلا يدخلها المصرى الا بتصريح خاص ، ولا ينقل ساكنها تجارته منها واليها الا بقيود ونظم لا مثيل لها ، ومن يقرا الحكايات او التقارير الانجليزية حول هذا الموضوع يلاحظ عبارات غريبة مثل « من سيناء الى مصر » او « من داخل القطر الى سيناء » كما لو كانت سيناء شيئا آخر تماما عن مصر ، كما عمل الانجليز على الا يقوم فى سيناء اى نوع من العمران الاستقرارى الذى يؤهل هذه الرقعة من مصر والتى تبلغ مساحتها اكثر من واحد وستين الف كيلو متر مربع لكى تستوعب اى زيادات من السكان الذين تزدحم بهم بقية المحافظات

المصرية حتى لا يلتصق المصرى بهذه الأرض التصاقا عميقا ، كما عملوا على ان يتم النفور بين سكان شبه الجزيرة من البدو والحضر ، فكان الحاكم البريطانى يشجع البدو على عدم التعلم ولا يساعدهم على الاستقرار وينشر بينهم فكرة ان البداوة شيء وسكنى المدن شيء آخر ، وانه من العار أن يتزوج البدوى امراة من الحضر او يزوج ابنته لساكن المدينة .

ولعل أهم ما يحرص الاستعمار عليه كثمرة لعزلة سيناء هو ثروتها المعدنية والبترولية .

وقد اخذت المطامع الاستعمارية فى سيناء تتحرك بجانب المطامع الصهيونية حيث وضع اليهود فى خططهم اهمية سيناء بالنسبة لهم ، فبعد ان لوحوا للسلطان العثمانى ببريق الذهب اذا منحهم امتيازا فى فلسطين ورفض السلطان طلبهم ، استقر رايهم على توطين اليهود اما فى قبرص أو شبه جزيرة سيناء او اوغندا ، ونتيجة لرفض اليهودى هرتزل اوغندا وصعوبة استغناء الانجليز عن قبرص لليهود اثير موضوع سيناء كوطن لليهود ، وارسلت لجنة فنية لدراسة صلاحية منطقة سيناء لانشاء مستعمرات سكانية لليهود ، ولكن هذا الموضوع كان مصيره الاهمال نتيجة لرفض الحكومة المصرية التنازل عن اى جزء يتعلق بسيادتها ، ورفض اللورد كرومر لهذا المشروع .

وظلت سيناء مطمعا لليهود وفى خلال العدوان الثلاثى على مصر حدث الغزو الاسرائيلى لسيناء عام ١٩٥٦ حيث هاجمت قوات اسرئيل حدود مصر ودخلت الكونتله وراس النقب ولم يكد يبدأ الهجوم الاسرائيلى حتى ظهرت نيات بريطانيا وفرنسا الاستعمارية تجاه مصر ففى الساعة السادسة والنصف من مساء الثلاثاء ٣٠ أكتوبر ١٩٥٦ وجهت بريطانيا وفرنسا انذارا الى مصر واسرائيل بايقاف جميع العمليات الحربية على أن تقبل مصر احتلال القوات البريطانية والفرنسية للمواقع الرئيسية فى بور سعيد والاسماعيلية والسويس [(١٥٨)] وبهذا الانذار انكشفت المؤامرة بين الحكومات الثلاث بريطانيا وفرنسا واسرائيل * واتفاقها على العدوان على مصر .

وقد رفضت مصر الانـــذار ، وطلبت عقد مجلس الأمن فورا للنظـــر في هـــذا العـــدوان ، كمـــا استقـــر راى القيـــادة المصرية على ضرورة الانســـحاب السريع من ســـيناء الى منطقة القناة للدفاع عن القناة وعن مصر ، فانســـحب الجيش المصرى من قطـــاع غزة ، ومن ســـيناء وكان هذا الانســـحاب عملية ضخمـــة شـــاقة ، وخـــلال هذا العدوان صمـــدت بور سعيد ، وكســـبت مصر عطف معظم الدول والشعوب فى مشـــارق الأرض ومغـــاربها ، وصـــدر قرار الامم المتحدة بوقف القتـــال وجـــاء الانذار الروسى ، وامتناع أمريكا عن مشاركة حلفائها فى الحملة .

ونتيجـــة لذلك تم انســـحاب القوات الانجليزية والفرنســـية مـــن بور سعيد وبور فؤاد خـــلال ديسمبر ١٩٥٦ ، كمـــا اضطرت اســـرائيل الى الانسحاب من سيناء وقطاع غزة .

وفى ٥ يونيو ١٩٦٧ قامت اسرائيل بهجومها المفـــاجىء على مصـــر واستولت على سينـــاء باكملها واقامت فيهـــا العـــديد من المستعمـــرات الزراعية والســـكنية بهدف توطين الاسرائيليين فيها مســـتغلة فى ذلك كل الامكانيات المتـــاحة فى شتى المجـــالات ، وكانت الأرض المنزرعة فى هذه المســـتعمرات تروى باســـتخدام مياه الأمطار ، ومياه الآبـــار والاستعانة بميـــاه بحيرة طبرية عن طريق مواســـير ، وكان يتم دفـــع الميـــاه مـــن خـــلال خزانات الميـــاه الى مواسير تنتهى بمواسير بلاستيك مثقـــوبة بثقـــوب صغيرة بعـــدد من الاشجار المزروعة المطلوب ريهـــا لتســـقط المياه قطرة قطرة على جـــذع الشجرة طـــول الليل والنهـــار ، وكانت الآبـــار يتم حفرها خصـــوصا فى المناطق القريبة من شـــاطىء البحـــر لتصـــل اعماقها الى حوالى ٤٠ متر، ويتم السحب منها بواسطة ماكينات لمدة ســـاعتين فقط يـــوميا [١٥٩] كما اهتمت اسرائيل منـــذ عـــام ١٩٦٧ بتنشيط السياحة العالمية فى سيناء خصوصا فى دير ســـانت كاترين الذى له منزلة خاصة لدى السياح فى امريكا واوربا .

وفى الســـادس من اكتوبر ١٩٧٣ عبرت القـــوات المصرية قنـــاة السويس فى اتجـــاه سيناء ، وحررت الســـاحل الشرقى لقناة السويس بأرض سينـــاء كاملا ، وتبع ذلك الحـــاجة الى تسوية سلمية لازمة الشرق

الأوسط[١٦٠] وبعد محاورات ومشاورات ومناورات عقدت اتفاقية السلام بين مصر واسرائيل فى مارس ١٩٧٩ وقد نصت مادتها الأولى على أن تسحب اسرائيل كافة قواتها المسلحة والمدنيين من سيناء الى ما وراء الحدود الدولية بين مصر وفلسطين تحت الانتداب ، وتستأنف مصر ممارسة سيادتها على سيناء كما نص الملحق العسكرى المرفق بالمعاهدة فى مادته الأولى على ان يتم الانسحاب الاسرائيلى على مرحلتين الأولى الانسحاب المرحلى الى الخط الممتد شرق العريش رأس محمد والثانية يتم فيها الانسحاب الاسرائيلى النهائى من سيناء الى ما وراء الحدود الدولية كما نص الملحق العسكرى فى مادته الأولى أيضا على ان يتم تشكيل لجنة مصرية اسرائيلية مشتركة للاشراف على عمليات الانسحاب وعقب معاهدة السلام قرر الجانب الاسرائيلى ان يوسع الاقاليم التى تحيط بميناء ايلات التى ليست لها شواطىء فتقرر بناء فندق سياحى فى وادى طابا ، وقد سمحت اسرائيل للرأسمالى الاسرائيلى « رافى نيلسون » باقامة هذا الفندق الكبير ، وفى الوقت ذاته انتهزت الفرصة لاقامة شاطىء خاص قرب الفندق يأتى اليه الاسرائيليون المقيمون فى ايلات ، وقد تم ذلك بعد توقيع الاتفاقية ودون ابلاغ الحكومة المصرية مما يدل على سوء نية الجانب الاسرائيلى .

وفى اكتوبر ١٩٨١ وخلال احدى الاجتماعات المستمرة بين الجانبين المصرى والاسرائيلى لترتيب الانسحاب النهائى ، واستلام وتسليم المناطق والأراضى والمنشئات كانت اللجنة تحاول ان ترسم الخط الفاصل للحدود الدولية من رفح على البحر المتوسط الى خليج العقبة ثم الاتفاق على وضع كل العلامات على الحدود ما عدا العلامة رقم ٩١ الخاصة بطابا فوقع خلاف بين الجانبين .

وفى مارس ١٩٨٢ اعلن اللواء محسن حمدى رئيس الجانب المصرى فى اللجنة العسكرية ان هناك خلافات بين مصر واسرائيل على بعض النقاط وان هذه الخلافات يتم بحثها ، وان الموقف المصرى محدد وواضح فى مسألة نقاط وعلامات الحدود بحيث أن كل شىء يتم وفقا للخرائط والوثائق التاريخية التى توضح بلا أدنى شك حدود مصر الدولية :

وقد اعترف كمال حسن على نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية المصرى فى ذلك الوقت بعد لقائه فى ابريل مع ايريل شارون وزير الدفاع الاسرائيلى بأن هناك خلافا فى وجهات النظر حول طابا وان مصر لن تفرط فى سنتيمتر واحد من أراضيها ، ونظرا لذلك رات مصر ان هذا الخلاف يجب ان يحل وفقا للمادة السابعة من معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية ، والتى تنص على ان تحل الخلافات بشأن تطبيق أو تفسير هذه المعاهدة عن طريق المفاوضة ، واذا لم يتيسر حل هذه الخلافات عن طريق المفاوضة تحل بالتوفيق أو تحال الى التحكيم وهكذا تحدد هذه المادة ثلاث وسائل لحل اى خلاف :

١ — مزيد من المفاوضات .

٢ — التوفيق عن طريق وسيط ثالث .

٣ — التحكيم الدولى .

وقد ابدت مصر رغبتها فى اللجوء الى التحكيم حيث ان الخلاف لم يتم حله عن طريق المفاوضات ، ورفض الجانب الاسرائيلى رغبة مصر فى اللجوء الى التحكيم بحجة انه لم يتم بعد استنفاذ وسيلة المفاوضة أو وسيلة التوفيق التى تنص عليها المادة السابعة ، وحسما للخلاف ، وحتى لا تعرقل ازمة طابا عملية الانسحاب الاسرائيلى النهائى من سيناء عن موعده تقدمت مصر بالمقترحات التالية :

١ — أن تنسحب اسرائيل عن المناطق المتنازع عليها فى طابا الى خط الحدود الذى تراه مصر .

٢ — ان تتقدم السلطة المصرية الى خط الحدود الذى تراه اسرائيل فى هذه المناطق .

٣ — ان تجمد الحياة فى طابا ، وتدخلها قوات حفظ السلام حتى يتم التوصل الى اتفاق حولها .

ويرجع الاهتمام بطابا انها ليست موقع على الحدود الدولية فقط

ولكنها منعطف طبيعى على ساحل خليج العقبة ، ومنها يرى الانسان بوضوح ميناء العقبة الاردنى ، كذلك يمكن منها رؤية اضواء ميناء ايلات الاسرائيلى فى الليل .

وبينما يرى الجانب المصرى ادخال الجانب الامريكى كطرف شريك فى الازمة سعى الجانب الاسرائيلى الى عدم اشراك الجانب الامريكى حتى لا يأخذ النزاع على طابا طابعا دوليا يبعده عن الطابع الثنائى . وانتهى الأمر بعرض القضية على محكمة العدل الدولية فى لاهاى التى قررت اعادة منطقة طابا الى مصر .

هذا عن تاريخ سيناء السياسى اما عن ثرواتها واهميتها الاقتصادية بالنسبة لمصر ، فهى ارض بكر بها ثروات كثيرة ومتعددة تحتاج الى العديد من المشروعات على سبيل المثال انه يمكن الاستفادة من شواطئها الطويلة التى تبلغ ۷۰۰ كيلو متر بانشاء قرى سياحية على طول هذا الساحل ، كذلك يمكن استغلال سيناء صناعيا لأن بها كميات كبيرة من خام الاسمنت يمكن استخراجه بسهولة ، ويكفى مستلزمات مصر ، ويزيد عن حاجتها وهذا لا يتطلب سوى انشاء ميناء بحرى على شاطىء العريش لاغراض النقل البحرى كما ان خام المنجنيز يتوافر فى سيناء بكثرة وهناك اشجار الخروع التى تغل ربحا كبيرا من زراعتها ، كما يمكن تصنيع بلح سيناء المشهور وتحويل عنبها الذى يزرع فى شمال شرق سيناء الى زبيب ، وفى سيناء النحاس والفيروز والرمال البيضاء والزلط وخام الكبريت كما أن البترول يعتبر أهم معادن سيناء وتتركز حقوله على الساحل الشرقى لخليج السويس فيما بين منطقة سدر شمالا ومنطقة الطور جنوبا أى على امتداد الخليج كله .

وتعتبر سيناء سياحيا ذات وضع ممتاز فى كل فروع السياحة خاصة الدينية منها فعبر طريقها الشمالى دخل الاسلام مصر ، وفى جنوبها سار المسيح عليه السلام ومعه السيدة العذراء قاصدا منها ، وفيها أرض التيه حيث قضى اليهود اربعين عاما ، وفيها عيون موسى وكذلك دير سانت كاترين هذا بالاضافة الى انه يمكن تحقيق

اهـــداف السياحة العلاجية لوجـــود حمـــامات فرعـــون بها والتى ثبت بالفحص الطبى ان مياهها تفـــوق كثيرا مياه حمامات حلوان المعدنية مـــن الناحية العلاجية اما من الناحية الترفيهية فتمتاز سيناء بشواطئها النظيفة، ومـيـــاهها النقية وشواطىء النخيل وكل هذا حقق لها مركزا ســـــياحيا ممتـــازا (١٦١) .

وهـــكذا يتضـــح ان ســـيناء تعتبـــر جـــزءا من مستقبل مصـــر الاقتصادى ، ومصدرا من مصادر رفاهيتها المستقبلية اذا وجدت التخطيط الســـليم والعمل النـــابع من الايمان الوطنى نحـــو حيـــاة افضـــل لمصر المســـتقبل .

مراجع الفصل العاشر

(١) مجلس النواب : مجموعة مضابط دور الانعقاد الأول مضبطة الجلسة الافتتاحية للبرلمان فى ١٥ مارس ١٩٢٤ ص ٣ .

(٢) مارسيل كولومب : تطور مصر ١٩٢٤ — ١٩٥٠ — ترجمة زهير الشايب — القاهرة ، الطبعة الاولى ١٩٧٢ ص ٤٤ .

(٣) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية جـ ١ من سنة ١٩١٢ الى ١٩١٧ القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٥١ ص ١٨٣ — ١٨٤ .

(٤) دار الوثائق : ديوان جلالة الملك ، تلغراف فى ٢٥ يونية ١٩٢٤ يشكو فيه اهالى شنوان منوفية من عزل عمدتهم وتعيين عمدة غير مرغوب فيه .

(٥) هيكل : المرجع السابق ص ١٤٥ .

(٦) عبد الخالق لاشين : سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية ، القاهرة ١٩٧٥ ص ٣٧٣ .

(7) Youssef, A. Independent Egypt London, 1940 p. 291 .

(٨) رجاء النقاش : عباس العقاد ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ص ١٠٤ .

(٩) عبد المنعم الجميعى : طه حسين والجامعة المصرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى: ١٩٨١ ص ٤٨ .

(١٠) دار الوثائق : ديوان جلالة الملك ، ملف رقم ٦٩٤ التماسات محالة الى الداخلية عام ١٩٤٢ .

(١١) الاحرار الدستوريون : اليد القوية — خطب واحاديث محمد محمود باشا منذ أن اسندت اليه رئاسة مجلس الوزراء بالاسكندرية ص ٣.

(١٢) الرافعى : فى اعقاب الثورة جـ ٣ ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٥١ ص ١٣ .

(١٣) مجلس النواب : مجموعة مضابط دور الانعقاد الأول ١٥ مارس ١٠ يوليو ١٩٢٤ .

(١٤) على شلبى : الانقلابات الدستورية فى مصر ٢٣ — ١٩٣٦ - (مخطوط) .

(١٥) البلاغ فى ٨ ديسمبر ١٩٣٧ .

(١٦) عبد العظيم رمضان : الصراع بين الوفد والعرش ص ٢٣ .

(١٧) مضابط مجلس النواب : مضبطة الجلسة السبعين لمجلس النواب فى ٢ يونية ١٩٢٧ ص ١١٩٢ .

(١٨) مضابط مجلس النواب : مضبطة الجلسة السادسة والاربعين فى ١٤ ابريل ١٩٢٧ ص ٧٦٩ . الاستجواب المقدم من عبد الحميد افندى سعيد لرئيس مجلس الوزراء .

(١٩) على شلبى : مرجع سابق .

(٢٠) عبد العظيم رمضان : مرجع سابق ص ١٧ — ٢١ .

(٢١) كولومب : مرجع سابق ص ١٣٨ .

(٢٢) لتفاصيل ذلك انظر احمد زكريا : حزب الاحرار الدستوريين ٢٢ — ١٩٥٣ القاهرة ، دار المعارف ١٩٨٣ .

(٢٣) كولومب : المرجع السابق ص ٥٦ .

(٢٤) محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ١٨٨٢ — ١٩٣٦ ، جـ ١ ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٥٢ ، ص ١٦٢ .

(25) Marlowe, J : Anglo Egyptian Relations 1800 - 1953, London 1954 p. 271 .

(٢٦) ديوان جلالة الملك : تلغرافات ، تلغراف بتاريخ ١٦ يوليو ١٩٢٥ .

(٢٧) حزب الأحرار الدستوريين : اليد القوية ، المذكرة الوزارية بشأن حل مجلسى النواب والشيوخ ص ٣٦ .

(٢٨) عبد العظيم رمضان : تطور الحركة الوطنية ص ٧٤٢ .

(٢٩) الرافعى : فى أعقاب الثورة جـ ٢ ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٤٩ ص ٥٠ — ٥٣ .

(٣٠) احمد شفيق : حوليات مصر السياسية ، الحولية السابعة ص ١٤٢١ .

(٣١) الرافعى : المرجع السابق جـ ٣ ص ٦٠ — ٦١ .

(٣٢) رمضان : المرجع السابق ص ٥٧٦ .

(٣٣) كولومب : المرجع السابق ص ٦٢ .

(٣٤) رمضان : المرجع السابق ص ٥٨٦ .

(٣٥) الرافعى : المرجع السابق جـ ١ ص ٦٩ .

(٣٦) خلت هذه الوزارة من الوفديين ، يضاف الى ذلك انها لم تضم أحدا من اعضاء البرلمان ، لذلك فهى وزارة غير دستورية لأنها الفت ضد ارادة الاغلبيـــة كما أن جميع وزرائها كانوا من غير أعضاء البرلمـــان . أحمد شفيق : حوليات مصر السياسية ، الحولية السابعة ١٩٣٠ ص ٧١٠ .

(٣٧) الفلاح المصرى : العدد الأول من السنة الرابعة فى ٢٤ ديسمبر ١٩٣٠ .

(٣٨) دار الوثائق : محاضر جلسات لجنة الدستور ، الدستور المصرى وقانون الانتخاب فى ٢٢ اكتوبر ١٩٣٠ .

(٣٩) امر ملكى رقم ٧٠ لسنة ١٩٣٠ بوضع نظام دستورى للدولة المصرية . المادة ٢٤ ص ٤٩ .

(٤٠) دار الوثائق : محافظ عابدين محفظـــة رقـــم (٢) احـــزاب سياســـية .

(٤١) الاتحاد : العـــدد ١٩٤١ فى ١١ ينايـــر ١٩٣١ تحـــت عنـــوان « مهزلة استقالة » .

(٤٢) ديوان جلالة الملك : التماسات جماعية والواقع ان انضـــمام حزب الأحرار الدستوريين الى جانب الوفد فى معارضة حكومة صدقى رغم الصداقة والصلة التى تربط بينهم وبين صدقى انما يرجع الى رغبتهم فى انتقال الوزارة اليهم .

(٤٣) دار الوثائق : محاضر جلسات لجنة الدستور ، الدستور المصرى وقانون الانتخاب ص ١٢ .

(٤٤) فاطمة اليوسف : ذكريات ص ١٥٥ .

(٤٥) مضابط مجلس النواب : محضر الجلسة الثالثة لدور الانعقاد غير العادى فى ٨ نوفمبر ١٩٣٧ ص ٤٦ .

(٤٦) الوقائع المصرية فى ١٧ يوليو ١٩٣٠ ، ٥ فبراير ١٩٣١ .

(٤٧) الشعب : العدد ٩٩ فى الأول من ابريل ١٩٣١ .

(٤٨) مضابط مجلس النواب : مجموعة مضابط دور الانعقاد غير العادى ١٩٣٧ ص ١٥٧ . الاستجواب الموجه الى وزير الحقانية من النائب السيد سليم بشأن التزويرات التى حدثت فى انتخابات ١٩٣١ .

(٤٩) البلاغ فى ٤ ابريل ١٩٣٢ تحت عنوان الدكتور طه حسين وقضيته ضد الحكومة .

(٥٠) دار الوثائق : محافظ عابدين — احزاب سياسية ، محفظة رقم (٣) تقارير أمن عن الأحزاب المختلفة — ملف حزب الشعب .

(٥١) اليد القوية ص ٦ — ٧ .

(٥٢) القى هذا البحث فى سمنار كلية البنات جامعة عين شمس عام ١٩٨٣ ونشر بالعدد الثانى من حولية كلية التربية بالفيوم ١٩٨٥ .

(٥٣) الظاهر العدد ١١٤٩ فى ١٠ سبتمبر ١٩٠٧ تحت عنوان « جامعة النساء » .

(٥٤) اللواء : العدد ٣٣٧٤ فى سبتمبر ١٩١٠ تحت عنوان « جامعة النساء الشرقيات » .

(٥٥) الظاهر : العدد ١١٤٩ فى ١٠ سبتمبر ١٩٠٧ تحت عنوان « جامعة النساء » .

(٥٦) للتفاصيل انظر تقويم جامعة القاهرة ١٩٦٩ — ١٩٧٠ .

(٥٧) الجريدة : فى ١٧ ابريل ١٩١٠ تحت عنوان « فى الجامعة المصرية » .

(٥٨) مجلة فتاة الشرق : القاهرة ١٩١٠ — ١٩١١ ص ١٦٩ ، المحاضرة الأولى التى القتها صاحبة المجلة فى الجامعة المصرية فى ٣١ يناير ١٩١١ .

(٥٩) الجريدة : العدد ٩٤٤ فى ١٨ ابريل ١٩١٠ ، مقال : للكاتبة لبيبة هاشم تحت عنوان « الجامعة المصرية والمحاضرات النسائية » .

(٦٠) الجامعة المصرية : تقرير مجلس الادارة فى ١٥ مارس ١٩١١ ص ١٢ .

(٦١) تقرير عن المالية والحالة العمومية فى مصر والسودان ١٩١٠ من جورست الى جراى ص ١٠١ .

(٦٢) وزارة التعليم العالى . المرأة المصرية فى التعليم العالى ١٩٧٥ ص ١٩ .

(٦٣) الجريدة : العدد ٩٤٨ فى ٢٣ ابريل ١٩١٠ تحت عنوان « فى الجامعة المصرية . محاضرات للسيدات » .

(٦٤) د. اجلال خليفة : الحركة النسائية الحديثة قصة المرأة العربية على أرض مصر ، القاهرة ١٩٧٣ ص ٨٤ .

(٦٥) الجريدة : العدد ٩٧٤ فى ٢٤ مايو ١٩١٠ تحت عنوان « خطاب مفتوح الى باحثة البادية »

(٦٦) صحيفة العفاف . أول ابريل ١٩٢١ .

(٦٧) العفاف : ٢ ديسمبر ١٩٢٢ مقال تحت عنوان « مكانكم يا غربان السفور » .

(٦٨) الجريدة : العدد ٩٧٥ فى ٢٥ مايو ١٩١٠ تحت عنوان « باحثة البادية لم تجد منصفا يذكى آراءها » .

(٦٩) احمد شوقى : الشوقيات ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٠ ص ٢١٤ — ٢١٦ .

(٧٠) الجريدة : العدد ٩٨٥ فى ٦ يونيو ١٩١٠ تحت عنوان حديث الكنار الى احمد بك شوقى .

(٧١) د. اجلال خليفة : المرجع السابق ص ٨٨ ، جريدة العفاف : ١٩٣٠ .

(٧٢) الجريدة : العدد ٩٨٥ فى ٦ يونية ١٩١٠ مقال للكاتبة لبيبة هاشم تحت عنوان « الى باحث فى الخيال ردا على باحثة البادية » .

(٧٣) الجامعة المصرية : تقرير مجلس الادارة المقدم للجمعية العمومية بجلستها المنعقدة فى ٢٩ ابريل ١٩١٣ ص ١٣ .

(٧٤) د. عبد المنعم الجميعى : طه حسين والجامعة المصرية . القاهرة دار الكتاب الجامعى ١٩٨١ ص ٥٠ .

(٧٥) احمد لطفى السيد : قصة حياتى . القاهرة — كتاب الهلال العدد ٣٧٧ مايو ١٩٨٢ ص ١٨٣ .

(٧٦) للتفاصيل انظر كتابنا طه حسين والجامعة المصرية .

(٧٧) وزارة التعليم العالى : المرأة المصرية فى التعليم العالى ص ٤٤.

(٧٨) المركز القومى للبحوث التربوية : المرأة والتعليم فى جمهورية مصر العربية . مايو ١٩٨٠ ص ٤٩ .

(٧٩) الاهرام : العدد ١٦٩٥٩ فى ٢٣ فبراير ١٩٣٢ تحت عنوان « حفلة الشاى التى اقامتها طالبات وطلبة كلية الآداب وخريجوها فى دار نادى الجامعة برئاسة عميدهم د. طه حسين » .

(٨٠) مضابط مجلس النواب : دور الانعقاد العادى الثانى — الجلسة التاسعة عشرة فى ٧ مارس ١٩٣٢ ص ٢٥٨ .

(٨١) دار الوثائق : ديوان جلالة الملك — تلغراف بتاريخ ١٧ يناير ١٩٤٧ ، وفيه يحتج شباب محمد على ادارة الجامعة لما سجلته الجرائد والمجلات من صور فاضحة للطالبات فى لعبة الهوكى مما يبرأ منه الاسلام وتنفطر له قلوب المسلمين .

(٨٢) صحيفة الجامعة المصرية . السنة الثانية — العدد الرابع ابريل ١٩٣١ ص ٥٦ — ٥٨ .

(٨٣) المقتطف : الجزء الأول من المجلد التسعين عدد أول يناير ١٩٣٧ ص ٢٤ تحت عنوان حديث للدكتور طه حسين عميد كلية الآداب .

(٨٤) وزارة التعليم العالى : المرأة المصرية فى التعليم العالى القاهرة ١٩٧٥ ص ٤٩ .

(٨٥) الدستور : العدد ٣٨٨ فى ٩ ابريل ١٩٣٩ مقال لهاشم ابراهيم تحت عنوان « الفتاة مكانها البيت » .

(٨٦) الدستور : العدد ٣٩٣ فى ١٦ ابريل ١٩٣٩ مقال لمحمد مصطفى حسن تحت عنوان « الفتاة فى ميدان العمل » .

(٨٧) كل شىء والدنيا عدد ٩ يوليو ١٩٣٢ .

(٨٨) الدستور : العدد ٤٠٥ فى ٣٠ ابريل ١٩٣٩ ، راى للدكتور محمود سامى جنينة استاذ القانون الدولى تحت عنوان « الفتاة فى ميدان العمل » .

(٨٩) الدستور : العدد السابق تحت عنوان رأى الدكتور السيد صبرى استاذ القانون الادارى .

(٩٠) الدستور : العدد ٣٨٨ فى ٩ ابريل ١٩٣٩ مقال لنظمى بطرس تحت عنوان « الفتاة مكانها فى الجامعة » .

(٩١) دار الوثائق : ديوان جلالة الملك . محفظة رقم ٦ التماسات . ٢٦ فبراير ١٩٣٠ .

(٩٢) د. محمد سلامة آدم : المرأة بين البيت والعمل . القاهرة — دار المعارف . الطبعة الأولى ١٩٨٢ ص ٨٥ ، ١٨٧ .

(*) القى هذا البحث فى سمنار بنات عين شمس فى الثلاثاء ١١ ديسمبر ١٩٨٤ .

(٩٤) محمد صالح الشنطى : الرواية العربية فى مصر من عام ١٩٥٢ الى عام ١٩٧٦ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ص ٢٣ ، والشعب فى ٥ مايو ١٩٥٩ مقال للاستاذ احمد عباس صالح تحت عنوان « فى الرواية العربية » .

(٩٥) جهاد عبد الجبار : ثلاثية نجيب محفوظ . رسالة ماجستير غير منشورة ص ٦ — ٨ .

(٩٦) غالى شكرى : المنتمى . دراسة فى آدب نجيب محفوظ . القاهرة — دار المعارف الطبعة الثانية ١٩٦٩ ص ٦٤ .

(٩٧) نجيب محفوظ : بين القصرين . القاهرة — مكتبة مصر .د.ت ص ١٢٨ — ١٢٩ .

(٩٨) نجيب محفوظ : بين القصرين . ص ٤٠ .

(٩٩) نجيب محفوظ : قصر الشوق ص ٢٩٩ .

(١٠٠) نفسه ص ٢٥٥ .

(١٠١) الجمهورية فى ٦ فبراير ١٩٥٧ تحت عنوان « بين القصرين » لطه حسين .

(١٠٢) سيزا أحمد قاسم : الواقعية الفرنسية والرواية العربية فى مصر ١٩٤٥ — ١٩٦٠ دراسة مقارنة تطبيقا على ثلاثية نجيب محفوظ ، رسالة دكتوراه غير منشورة نوقشت بأداب القاهرة عام ١٩٧٨ .

(١٠٣) نجيب محفوظ : السكرية ص ٨٣ .

(١٠٤) على الراعى : دراسات فى الرواية المصرية . القاهرة — المؤسسة المصرية العامة للتاليف ص ٢٥٠ .

(١٠٥) نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص ٣٩٨ — ٤٠٠ .

(١٠٦) الجمهورية : العدد ١١٣٤ فى ٦ فبراير ١٩٥٧ تحت عنوان « بين القصرين » لطه حسين .

(١٠٧) نجيب محفوظ : السكرية ص ٧٨ .

(١٠٨) نجيب محفوظ : السكرية ص ٨٧ .

(١٠٩) نجيب محفوظ : السكرية ص ١٤١ .

(١١٠) نفســـه : ص ١٤٩ .

(١١١) الآداب . يونيو ١٩٦٠. حديث لنجيب محفوظ مع فاروق شوشة

(١١٢) الكاتب : العدد الثانى والعشرون فى يناير ١٩٦٣ مقال للدكتور غنيمى جلال تحت عنوان « ازمة الوعى السياسى فى قصـــة الســمان والخـــريف .

(١١٣) الرســـالة الجديدة : العدد التاســـع والعشرون فى اغسطس ١٩٥٦ ص ٤٤ تحت عنوان حول كتاب فى الثقافة المصرية للدكتور عبد العظيم انيس .

(١١٤) جهاد عبد الجبار : ثلاثية نجيب محفوظ : رسالة ماجستير غير منشورة ص ١٩ .

(١١٥) الهلال : محاكمة نجيب محفوظ ص ٤١ .

(١١٦) نجيب محفوظ : السكرية ص ١٢٦ .

(١١٧) نفســـه ص ١٢٩ .

(١١٨) جهاد عبد الجبار : المرجع السابق ص ٢٢ .

(١١٩) روزاليوسف : العدد ١٥٣١ فى ١٤ اكتوبر ١٩٥٧ تحت عنوان « الكاتب والطبقة التى يعبر عنها » .

(١٢٠) نجيب محفوظ : اتحدث اليكم . بيروت .د.ت ص ٣٢ .

(١٢١) الكاتب : فى يناير ١٩٦٣ ص ١٨ لقاء لنجيب محفوظ مع فؤاد دواره تحت عنوان « رحلة الخمسين مع نجيب محفوظ » .

(١٢٢) انظر : احمد عرابى : كشف الستار عن سر الأسرار . مخطوط بدار الكتب المصرية ص ٣٣٤ .

(١٢٣) دار الوثائق : محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ١٠ بـــح دوسيه ١٠١ الثورة العرابية وقضايا المتهمين . استجواب حسان فراج من عربان الفيوم .

(١٢٤) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ٧ دوسيه ١٧ .

(١٢٥) دار المحفوظات العمومية : محافظ الداخلية عربى — محفظة رقم ٤٤ عين ٧٩ مخزن ٥٠ ملف ١٠١ سجل رقم ٢ مكاتبة من ناظر الداخلية الى مدير الفيوم .

(١٢٦) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ٣١ دوسيه رقم ٥ .

(١٢٧) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان — تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ص ١٨٠ .

(١٢٨) الياس زاخورة : مرآة العصر فى تاريخ ورسوم اكابر الرجال بمصر ج ١ القاهرة . المطبعة العمومية ١٨٩٧ ص ١٠٣ .

(129) Public Record office. F. O. 407/21 In Closure in No 931 Extract from the « observer » of July 23, 1882 .

(١٣٠)والجدير بالذكر أن الوزارة الأوربية هى التى الفها نوبار باشا عام ١٨٧٨ واشترك فيها وزيران أوربيان انجليزى للمالية وفرنسى للاشغال وكان من نتيجة مظاهرة الضباط فى ١٨ فبراير ١٨٧٩ اسقاط هذه الوزارة .

للتفاصيل انظر : دكتور عبد المنعم الدسوقى الجميعى : عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية ص ٢٩ .

(١٣١) الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ص ٢٦٧ .

(١٣٢) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ١٨ ملف ٤٠ تقرير اسماعيل باشا أيوب عن الاجتماعات التى كانت تعقد بوزارتى الداخلية والجهادية .

(١٣٣) محافظ الثورة العرابية : محفظة رقم ١٠ ملف ١٢٥ محضر استجواب حسين باشا الدرملى وكيل نظارة الداخلية .

(١٣٤) محافظ الثورة العرابية : محفظة رقم ١٩ دوسيه ٨٣ تقرير مقدم من رستم بك وسيم وكيل الدائرة البلدية بمصر .

(١٣٥) محافظ الثورة العرابية : محفظة رقم ٢٠ ملف ٣٤ تلغراف من أحمد عرابى الى وكيل الجهادية بتاريخ ١١ اغسطس ١٨٨٢ .

(136) Broadley : How We Defended Arabi and his friends Astory of Egypt and Egyptians. London 1884 p. 137.

(١٣٧) عن استجواب على الروبى انظر : محافظ الثورة العرابية — محفظة رقم ١٣ قضايا المتهمين دوسيه ٢٤٩ .

(١٣٨) محافظ الثورة العرابية : محفظة رقم ١٣ ملف ٢٤٩ .

(١٣٩) الرافعى : المرجع السابق ص ٤٧٥ .

(١٤٠) الوقائع المصرية عدد ٢٦ ديسمبر ١٨٨٢ .

(١٤١) الوقائع المصرية فى أول يناير ١٨٨٣ .

(١٤٢) الوقائع المصرية فى ٣٠ ديسمبر ١٨٨٢ .

(١٤٣) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ جـ ١ . القاهرة — النهضة المصرية الطبعة الثانية ١٩٥٥ ص ٢٢٧ .

(١٤٤) محمد صبيح : « اليقظة » مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية كفاح شعب مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين . القاهرة الطبعة الثانية ١٩٦٦ .

(١٤٥) مؤسسة الأهرام : ٥٠ عاما على ثورة ١٩١٩ ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(١٤٦) د. عاصم دسوقى : ثورة ١٩١٩ فى الاقاليم من الوثائق البريطانية القاهرة — دار الكتاب الجامعى ١٩٨١ ص ٦٥ .

(١٤٧) محمد صبيح : المرجع السابق ص ٥٩٦ — ٥٩٧ .

(١٤٨) عاصم دسوقى : المرجع السابق ص ٧٠ .

(١٤٩) د. عاصم دسوقى : المرجع السابق ص ٦٩ — ٧٠ .

(١٥٠) الرافعى : المرجع السابق ص ١٤٥ .

(١٥١) دار الوثائق : مذكرات محمد على علوبة ص ٦٩ .

(١٥٢) محمد كامل سليم : ثورة ١٩١٩ كما عشتها وعرفتها . القاهرة كتاب اليوم . العدد ٢٦٥ مايو ١٩٧٥ ص ١٢٣ .

(١٥٣) الهلال : الجزء السابع من السنة الثامنة والثلاثين عدد أول مايو ١٩٣٠ ص ٧٩٠ حديث لحمد باشا الباسل تحت عنوان « أهم حادث أثر فى مجرى حياتى » .

وقد ظل حمد الباسل يحمل لواء الكفاح حتى اختاره الله الى جواره يوم الاثنين ٩ فبراير ١٩٤٠ .

(١٥٤) جبل الطور بسيناء .

(١٥٥) الرافعى : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ص ٣٠٦ .

(١٥٦)د. عبد المنعم الجميعى : الخديو عباس الثانى والحزب الوطنى ص ١٩٤ .

(١٥٧) الأهرام فى ١٩٧٩/٧/٢٠ مقال للدكتور يونان لبيب تحت عنوان «قراءة تاريخية فى حادثة تعيين حدود مصر الشرقية » .

(١٥٨) الرافعى : ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ — تاريخنا القومى فى سبع سنوات ١٩٥٢ — ١٩٥٩ ص ٢٤٣ .

(١٥٩) جمهورية مصر العربية . الهيئة العامة للاستعلامات . سيناء فى ظل الاحتلال ٦٧ — ١٩٧٩ ص ٩ — ١٠ .

(١٦٠) جمهورية مصر العربية : المجلس الأعلى للشباب والرياضة .

(١٦١) المجلس الأعلى للشباب والرياضة . مصر سيناء .

الفصل الحادى عشر

من رجالات النهضة المصرية

فى العصر الحديث

١ ــ على باشا مبارك

٢ ــ عبد الله النديم

٣ ــ الشيخ محمد عبده

٤ ــ مصطفى كامل

٥ ــ الخديو عباس حلمى الثانى

من رجالات النهضة العلمية والتعليمية فى مصر

١ ـــ على باشـــا مبـــارك (١)
١٨٢٤ ـــ ١٨٩٣

فى تاريخنا القومى شخصيـــات فذة تعتبر اركانا للنهضــــة القومية، لما لهـــا من الاثر البـــالغ فى توجيهها وتطورها .

وعلى مبارك ولد فى برنبال الجديدة مركز دكرنس دقهلية عام ١٨٢٤ وبعـــد أن تلقى تعليمه الاولى دخل مدرســـة المهندسخانة وهـــو فـــى الســـادسة عشرة من عمره ومكث بهـــا خمس سنوات اظهر فيها تفوقا وبعدها التحق بالبعثـــة المصرية التى ارسلت الى فرنســـا فى عام ١٨٤٤ لتلقى الفنون الحربية .

وكان أول مركز شـــغله على مبارك بعد عودته الى مصر هو تعيينه مدرســـا بمدرســـة طرة الحربية ثم تدرج بعد ذلك فى وظائف عديدة منها نظـــارته لمدرسة المهندســـخانة . وفى عهد سعيد باشا كلف على مبارك بالاشـــتراك فى حرب القرم ١٨٥٤ ، وبعد عودته الى مصر عين معـــاونا بوزارة الحربية ، ثم عهـــدت اليه وكالة المحكمة التجـــارية ثم عين مفتشا لهندســـة نصف الوجه القبلى ، ولما تولى اســـماعيل الحكم الحق على مبـــارك بمعيته ثم جعـــله ناظرا على القنـــاطر الخيرية وفى عام ١٨٦٧ عين وكيـــلا لديوان المـــدارس (وزارة المعارف) ثم اســـند اليـــه ادارة مصلحة الســـكك الحديدية ، ووزارة المعـــارف والاشغال وبعدها ضمت اليه نظـــارة ديوان الأوقـــاف وهنا يبدأ العصر الذى حفل بالأعمــــال الهامة التى مازال صداها يتردد فى النهضـــة العلمية بمصر حيث وجه على مبـــارك معظم جهـــوده لترقية شئون التعليم فى البلاد ، فوجه عنـــايته الى اصـــلاح التعليم فى المكاتب وتحويل ما يمكن تحويله من الكتاتيب الى مدارس ابتدائية نظـــامية فوضع لذلك لائحته المشهورة بلائحة ١٠ رجب

التى نظمت المدارس وانشىء فى عهده كثير من المدارس الابتدائية النظامية فى القاهرة وعواصم الاقاليم

ولما كان وضـــع نظام صالح للتعليم يقتضى توفير العـــدد الكـــافى من الاســـاتذة الاكفاء فقد انشـــا على مبارك دار العـــلوم لتخريج اساتذة اللغة العربيـــة والآداب ، واختـــار تلاميذها من طلبة الأزهر واشتمـــل برنامج التعليم فيهـــا على العلـــوم التى لا تدرس فى الأزهر كالحســـاب والهندسة والجغرافيا والتـــاريخ والطبيعة والخـــط مع اتقـــان العلـــوم الأزهرية . واختـــار على مبارك للتدريس فى دار العلوم جماعة من خيرة الاكفـــاء من العلماء ، وجعل التعليم فيها بالمجـــان وقـــد اثمرت هـــذه المدرسة ، وتخرج منها اساتذة اللغة والآداب العربية الذين سدوا فراغا كبيرا بالمدارس المصرية .

دار الكتب المصريـــة :

اسســـت ١٨٧٠ وترجـــع فـــكرة تاسيس دار الكتب الى الخديـــو اســـماعيل الذى راى انشـــاء مكتبة عامـــة تجمـــع شمل الكتب المتفرقة فى مخـــازن الحكومة والمساجد ومكاتب الأوقـــاف ، ومن هنـــا طـــلب من على مبـــارك تحقيق فكرته واخراجها الى حيز النور ، فحقق الفكرة، وانشا دار الكتب فى ســـراى درب الجماميز .

وقد فتحت هذه الدار ابوابها لطـــلاب المعارف والعلوم وسهلت لهم الاطـــلاع على كتب ومؤلفـــات ومخطوطات فادت ولا تزال تؤدى اجـــل الخدمات للعلماء والمثقفين .

مجلة روضـــة المدارس

راى على مبـــارك الذى كان جـــل مرغوبة تعميم العلوم وتتميـــم المعارف وانتشـــار الفنون ، والذى كان يعتبر التعليم وسيلة من وسائل التوجيـــه ، وتكوين الراى العام المستنير ضرورة انشـــاء مجلة تـــربوية تعليمية تتبنـــاها وزارة المعـــارف فاسس مجلة عنونت باسم « روضة المدارس » اسند رئاستها الى رفاعة الطهطاوى ناظر الترجمة بديـــوان المعارف [٢] كما اسند تحريرها الى على بك فهمى رفاعة وكان يعمـــل مدرسا للانشـــاء بمدرسة الادارة والألسن .

وقــد صدر العدد الأول من روضة المدارس فى ١٧ ابــريل ١٨٧٠ كمجلة أدبية علمية تصدر مرتين فى الشهر [٣] .

ولما كانت المهمة الأساسية لهذه المجلة هى نشر العلم والعرفان فقد جعل شعــارها :

تعــلم العــلم واقــرا	تحــز فخــار النبــوة
فاللــه قــال ليحـــى	خــذ الكتــاب بقــوة

وقد توقفت روضــة الدارس بعد ان صدر العدد السادس عشــر من سنتهــا الثامنة دون أن تذكر السبب الذى دفعها الى هذا التوقف .

ومع ان شــهرة على مبارك تقوم فى الغــالب على خدماته الجليلة للتعليم فان له مآثر اخرى فى اعمــال العمران التى تمت فى عهد اسماعيل منها ما يختص بالرى ، ومنها ما يتعلق بتنظيم القاهرة والمدن الاخــرى ولما تولى توفيق باشــا الحكم عهد الى على مبارك وزارة الاشغــال فبذل فيها جهــودا كبيرة ، ولما قامت الثورة العرابية لم يكن على مبارك من انصارها بل كان يميل الى الاعتدال [٤] .

مؤلفات على باشا مبارك

لعلى مبــارك مؤلفات عديدة اهمها « الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبــلادها القديمة والشهيرة » وهى دائرة معــارف لخطط مصــر وآثارها وجغرافيتها وتاريخها فى عصورها القديمة والحديثة وتقع الخطط التوفيقية فى عشرين مجــلدا افرد المؤلف الأجزاء الستة الأولى للقاهرة ، والجزء الســابع للاسكندرية والأجزاء الأخرى لبقية القطر المصرى مدنه وقراه ، وخصص الجزء الثامن عشر لقيــاس النيل ، والتــاسع عشــر لترع مصر ومنشئات الرى فيها ، أما عن الجــزء العشرين فقــد خصص للنقود المصرية القديمة والحديثة .

هذه هى أهم أعمال على مبارك ، وهذا هو عطاؤه وفى ١٤ نوفمبر ١٨٩٣ نطفأ المصباح المضيىء الذى انعش الحركة العلمية والثقافية فــى مصر ما يقرب من أربعين عاما .

٢ — عبد الله النـــديم

١٨٤٣ — ١٨٩٦

ولد عبد الله النديم — وحقيقة اسمه عبد الله بن مصباح بن ابراهيم الحسنى — فى عام ١٨٤٣ فى احـــدى حارات حى الجمرك بالاسكندرية فى اسرة فقيرة ، فكان والده يعمل خبـــازا ويحصل من ذلك على الكفاف من العيش . وتعلم النديم فى كتاب الحىمبادىء القراءة والكتابة ، وحفــظ القرآن الكريم قبـــل ان يبلغ التاسعة من عمره ، كمـــا درس الفقـــــه والأصول والتوحيد والمنطـــق والعلوم اللسانية والنحو الصرف فى الجامع الانور فى الاسكندرية ، ولكنه لم يصبر طويلا عـــلى هذه الدراسة اذ وجد فى نفســـه ميلا واستعدادا للادب فارتاد المقـــاهى والمنتديات والمجالس الأدبية وســـمع الحكايات والأمثال من شـــعراء الربابة ونوادر الظرفاء، وقد ســـاعد ذلك على تكوين النديم الأدبى ، فبرزت قدراتـــه الخطابيـــة والكتابية حتى ســـار معروفا بين ادباء الاسكندرية اما لقب النديم فيرجع الى منادمته للامراء والكبراء .

وفى بدء حيـــاة النديم تعلم صنـــاعة التلغراف لكى يكتسب رزقه، وعمل بمكتب التلغراف بينها ، ولما ظهرت كفـــايته فى عمله نقل الى مكتب القصر العـــالى بالقـــاهرة الذى كانت تقيم فيه الأميرة « خوشيار خانم » والدة الخديو اســـماعيل ، فعرف هنـــاك حياة القصـــور وما بها مـــن بذخ وقارن بينها وبين حيـــاة الشعب الفقير مما اثر على تكوينه السياسى فوقف نصيرا للطبقات الكادحة فيما بعد .

اخـــذ النديم يتردد على المجـــالس وحلقات العلم بالأزهر ولما سمع عن جمال الدين الافغـــانى حضر مجـــالسه ، واستهوت النديم افكـــار جمال الدين الجريئـــة ، فانخرط فى ســـلك تلامذته ، الا ان ذلك أدى الى فصـــل النديم من عمله بالقصر العـــالى فأخذ يجوب القرى والمدن مبتغيا كســـب عيشـــه حتى تعرف على شـــاهين باشا كنج مفتش الوجـــــه البحرى الذى قـــربه اليه ، ومن خلاله تعرف النديم على احد رجـــــال الحاشـــية الخديوية وهو تتونجى بك الذى عينـــه وكيلا لدائرته مما أتاح للنديم فرصـــة التردد على القاهرة ، فعـــاود مجالس استاذه جمال الدين

لكن النديم وجد أن لهجته فى الحديث قد تغيرت ، فأصبح يتحدث عن ضرورة التخلص من الظلم الاجتماعى والحكم الفردى والتدخل الأجنبى ، والاستبداد الواقع على أعتاق المصريين ، وقد مست هذه الكلمات قلب النديم وساهمت فى اكتمال نضجه السياسى ، ومن هنا بدأت حياته السياسية . وبدأت أولى الخطوات العملية فى حياة النديم السياسية بانضمامه الى الجمعيات ذات الصفة السرية ، فدخل الحركة الماسونية ، كما دخل جمعية مصر الفتاة السرية ، ولما أحس أن هذا العمل لا يتفق مع طبيعته الشعبية لجأ الى العمل الوطنى العلنى ، واستخدم فى ذلك وسائل ثلاث : الصحافة حيث كتب فى صحف مصر والتجارة والمحروسة والعصر الجديد ثم أسس صحيفة التنكيت والتبكيت الذى صدر العدد الأول منها فى السادس من يونيو ١٨٨١ ثم استبدل اسمها بالطائف بعد انضمامه الى العرابيين فى محاولة منه لتكوين رأى عام ونجح فى ذلك الى حد كبير لدرجة أن لقبه البعض بصحفى القرن التاسع عشر بلا منازع ولقبه البعض الآخر بأنه أذكى ناقد لأوربا فى مصر وقد نالت مقالاته اعجاب الناس لأنها كانت جديدة عليهم من ناحية الأفكار والجرأة فى التعبير كما كانت جديدة عليهم من ناحية الأسلوب الذى تناول فيه النديم الاحوال السياسية التى مرت بها مصر بأسلوب رمزى اتخذ فيه من بعض الكائنات غير الانسانية ستارا لبث أفكاره ومبادئه حيث لم تتح له ظروف مصر السياسية ما يريد أن يقوله بطريق مباشر .

واستخدم النديم المسرح فى توعية مواطنيه فكتب روايتين مثلهما مع تلاميذه وهما « الوطن وطالع التوفيق » و « النعمان » كما استخدم الخطابة فى توصيل أفكاره الى مواطنيه . وبينما كان النديم يقوم بدوره فى تعبئة الشعور الوطنى اتصل به الزعماء العسكريين ودارت بينهم وبينه مشاورات سرية من أجل أن ينضم اليهم ، ويكون لسان حالهم ، وقد تردد النديم فى ذلك أول الأمر ولكنه بعد أن أحس أن هدفهم هو العمل من أجل حرية الوطن وقف بجانبهم فانتعشت حركة الضباط بانضمامه اليها ، واختاره عرابى مستشارا له ، وفى أعقاب حادث قصر النيل أشار النديم على عرابى بطبع منشور يطلب فيه من

الشعب ان يفوضه فى المطالبة بحقوقه ، وقد وافق عرابى وكلف النديم بتوزيع المنشور ، فقام بتوزيعه ثم اخذ فى جمع التوقيعات من الاهالى مما كان له اكبر الأثر فى تقوية العزائم ، كما جاءت الوفود لمبايعة عرابى ، وبهذا تحولت الحركة العرابية من ثورة عسكرية الى ثورة شعبية بفضل ارشادات وتوجيهات النديم .

وفى اثناء مظاهرة عابدين (٩ سبتمبر ١٨٨١) طلب عرابى من النديم رفع معنويات مؤخرة قواته حتى لا يصيبها الضعف والخذلان ، فاخذ النديم يلهب مشاعر الجند بخطاباته الوطنية والحماسية ، وبعد استجابة الخديو توفيق لمطالب العرابيين قام النديم بتأسيس جمعية الشبان بالاسكندرية حتى تكون ركيزة شعبية للثورة .

ولقد وقف النديم بجانب الثورة ، وهاجم الخديو توفيق واتهمه بالخيانة والخداع ، وعندما ارسلت انجلترا وفرنسا المذكرة المشتركة الى الخديو وجاء الوفد العثمانى لتقصى الحقائق فى مصر سافر النديم الى الاسكندرية لكى يهيىء الناس لاستقبال الوفد العثمانى والاحتجاج على المذكرة المشتركة .

وفى اثناء المعارك بين العرابيين والانجليز نظم النديم اسلوب الدعاية للمعركة فكان له تاثير كبير على عقول المواطنين ، وبعد الهزيمة اعد النديم خطته للاختفاء عن اعين السلطة ، وقد نجح فى ذلك واستمر مختفيا حوالى تسع سنوات حتى قبض عليه فى الثالث من اكتوبر ١٨٩١ ، فنفى الى يافا وعندما اعتلى عباس الثانى اريكة الخديوية اصدر عفوه عن النديم واباح له العودة الى مصر ، فوصلها فى التاسع من مايو ١٨٩٢ واستانف جهاده الوطنى باصدار مجلة الاستاذ فى ٢٣ من اغسطس ١٨٩٢ وكانت مقالاته على صفحاتها تحدد المعارضة القوية ضد الاحتلال ، كما تحمل النديم مهمة ايقاظ الشعور الوطنى فوضع امله فى الجيل الجديد وخصوصا مصطفى كامل الذى تتلمذ عليه ونشأ فى مدرسته ، واقتبس بعض اساليبه ، فكان النديم استاذا مباشرا له فى مجال الصحافة والخطابة وفى ميادين السياسة ، كما كانت نصائحه وتوجيهاته خير هاد له ، فأصبح

النديم بذلك حركة الوصل بين جيل الثورة العرابية وجيل الشباب الجديد بزعامة مصطفى كامل .

ولما احس كرومر بخطورة النديم طلب من الخديو نفيه خارج مصر ، وتحت الحاح كرومر نفى النديم الى يافا للمرة الثانية ، ولكنه لم يستقر بها طويلا فرحل الى الاستانة ، وهناك التقى باستاذه جمال الدين الأفغانى ، كما حدث بينه وبين ابى الهدى الصيادى مبارزة فكرية ، فهجاه النديم فى كتابه المسامير ، ورد عليه الصيادى بكتاب « صوت الهزار وزيق العذار » ومرة اثناء تواجد النديم فى الاستانة ايضا طلب منه الخديو عباس الثانى الوساطة فى امر مصاهرته من احدى بنات الخلافة ، غير ان وساطته لم تنجح .

— اما عن اثر النديم السياسى ، فان افكاره سبقت افكار ابناء وطنه ، فكانت جديدة عليهم ، اذ نبه عقولهم الى موضوعات جديدة ، فتحدث عن مفهوم القومية ومبدأ مصر للمصريين واهمية الوحدة الوطنية وفكرة الجامعة الشرقية واهمية الديمقراطية كاساس للحكم فى مصر والدستور كنظام له وتكلم عن الاحزاب والاهتمام بالراى العام وفكرة الجمهورية ، كما أن دعوة النديم للاصلاح الاجتماعى قد سبقت انشغاله باحداث البلاد السياسية ، ثم مزج بينهما وسارا جنبا الى جنب فانشغل بما اصاب قومه من جهل وانحلال وانكباب على الرزائل والموبقات وحاول أن ينبههم الى مضارها ، ويزيل الخرافات والجهل المطبق عليهم وتحدث عن اهمية العدالة الاجتماعية ، وعن ضرورة انشاء الجمعيات الخيرية كوسيلة لتعليم ابناء الشعب فقيره وغنيه ، كما طالب باصلاح المهن والحرف المصرية .

وفى مجال الثقافة والتعليم طالب النديم باصلاح نظم التعليم فى الأزهر وحث الاغنياء على انشاء مدارس اهلية ليتعلم فيها ابناء الشعب كما دافع عن اللغة العربية ، وجدد الدعوة الى انشاء مجمع اللغة العربية حتى يحول دون ضياع اللغة الفصحى .

اما عن مؤلفات النديم التى تفتقت عنها قريحته فقد الف « كان ويكون » اثناء الاختفاء داخل قرى مصر ونجوعها حوالى عشر سنوات والف

« تاريخ مصر فى هذا العصر » كما الف المسامير فى هجاء « أبو الهدى الصيادى » اثناء وجوده فى منفاه بالاستانة هذا بالاضافة الى ما قام شقيقه عبد الفتاح نديم بجمعه تحت عنوان « سلافة النديم فى منتخبات السيد عبد الله النديم » .

وقد توفى النديم بالآستانة فى الثالث عشر من اكتوبر ١٨٩٦ دون ان يترك اولادا حيث ماتوا جميعا فى طفولتهم .

٣ — الشيخ محمد عبده من واقع ملف خدمته(٥)

تعتبرملفات وربط المعاش الموجودة فى دار المحفوظات العمومية بالقلعة ، من المصادر الأصلية والهامة فى دراسة تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، فبعضها يعرض للرواد الذين لعبوا ادوارا بارزة فى التاريخ المصرى ، وتبرز اهمية هذه الملفات فى معرفة التسلسل الوظيفى للشخصيات التاريخية ، اذ تصور حياة كل منهم الوظيفية كما تعرفنا بمؤهلاتهم العلمية وظروفهم الاجتماعية التى مروا بها قبل الوصول الى منصب الزعامة أو الريادة .

والملف الذى نعرض له فى هذا الصدد هو ملف خدمة وربط معاش الشيخ محمد عبده ، أحد اعلام الثورة العرابية الذى تدرج فى عدة وظائف هامة أبرزها وظيفة مفتى الديار المصرية .

* ولد الشيخ محمد عبده فى أواخر عام ١٢٦٦ هـ (١٨٤٩ م) فى قرية محلة نصر بمركز شبراخيت بحيرة طبقا لاقراره الشخصى بذلك(٦) .

* وكانت أول وظيفة التحق بها فى أواخر عام ١٢٩٥ هـ (١٨٧٨م) هى وظيفة مدرس بمدرسة الألسن ومدرسة دار العلوم ، واستمر بها حوالى ثمانية شهور ثم رفت بالاستغناء عنه فى رمضان ١٢٩٦ هـ .

* وفى جمادى الأولى ١٢٩٧ هـ (١٨٨٠ م) عين (محررا ثالثا فى الجريدة الرسمية بمرتب الف وثلثمائة قرش شهريا ، وفى ذى القعدة ١٢٩٧ هـ رقى رئيسا بقلم ادارة المطبوعات العربية والتركية بمرتب

الفين قرش) ثم زيد الى ثلاثة آلاف قرش فى ربيع الثانى من السـنة المـذكورة [٧] .

* ونتيجـة لانضمـام الشيخ محمد عبده الى رجال الثورة العرابية وتزويده جـريدة الوقائع المصرية بالافكار الثورية حتى اصبح كاتبا ومنشئا ومقـرئا للعرابيين فى المحـافل والمجامع ومحررا للمحـاضر المتفقة مـع اغراض الثـوار ، نتيجة لذلك كله فصل من وظيفته وقـدم للمحـاكمة وحكم عليه بالتجـريد من « الرتب والنيـاشين والعنوانات وعـلامات الشرف والامتيازات »[٨] وتقرر نفـيه الى خارج القطر المصرى وملحقاته لـمدة ثلاث سـنوات قضـاها فى بيروت . ارتحل بعدها الى بـاريس حيث دعـاه استاذه جمال الدين الافغـانى واصدرا سويا جريدة العروة الوثقى من هنـاك ، ثم عـاد الى بيروت حيث تزوج للمرة الثانية رحل بعدها الى مصر .

* وعين الشيخ محمد عبـده عقب عـودته الى مصر فى وظيفة نائب قـاضى بمحكمة بنها حسب الأمـر العالى الصـادر فى ٢٨ يوليو ١٨٨٩م ، ثم نقـل الى محكمة المنصـورة الابتدائية الأهلية فى اول يناير ١٨٩١م فى وظيفـة قاضى ومنها نقل الى محكمة مصر الابتدائية الاهلية [٩] .

* ظل الشـيخ محمد عبده يعمل فى القضاء حتى سنة ١٨٩٩م ثـم صـدر امر عـالى فى ٣ يونية بتعيينه مفتيـا للديـار المصرية بمـرتب سبعين جنيها فى الشـهر وضمنت له الحكومـة « الرجوع الى وظيفـة قاض بمحكمة الاستئناف الأهلية فى حالة استقالته او اقالته من وظيفـة افتـاء الديار المصرية » [١٠] .

* والتمس الشـيخ محمد عبده من الخديو ضم المدة التى قضـاها بالمنفى الى مدة خدمتة حتى تحتسب له فى المعاش ، وقـد اجابه الخديو الى طلبه ففى ١٨ يونيه ١٩٠٥ صـدر أمر عالى رقم ٣ باحتسـاب فترة النفى التى قضـاها الشيخ محمد عبده ضمن مدة خدمته [١١] .

* واشتدت وطـاة المرض على الشيخ محمد عبده منذ اكتوبر ١٩٠٥

فعــزم على السفر الى خـــارج البلاد للعلاج [١٢] بعد ان اختلف الاطباء المصريون فى تشخيص مرضـــه ، ولكن حالته الصحية حالت دون ذلك .

* وتوفى الشـــيخ محمد عبده بالاسكندرية فى ١١ يولية ١٩٠٥ عن عمر يناهز السادسة والخمسين ودفن بالقاهرة تاركا وراءه زوجة ، واربع بنـــات ، كانت الصغرى من الزوجة الثانية .

* ومع ان الشـــيخ محمد عبده قدم اقرارا فى نوفمبر ١٨٩٦م بأنه يمتلك منزلا يقـــع بالشـــارع الاسماعيلى بالسيدة زينب ، واربعا وعشرين فدانا وثـــلاثة عشر قيراطا بالاضـــافة الى سبعة فدادين اخرى بطـــريق الرهن وتقـــع كلها فى مركز شبراخيت بحيرة [١٣] فان زوجتـــه طلبت من وزارة المـــالية زيادة معـــاشها هى وبناته نظرا لأنه لم يتجـــاوز ســـبعة جنيهـــات لا تكفى لقضـــاء حاجات معيشتهم الضرورية ، وان زوجهـــا قد شغل نفسه طيلة حياته بتفضيل منافع الناس العمومية على شئـــونه الخاصة مما جعله لا يترك لهم شيئا يعيشون منه [١٤] .

٤ ــ مصطفى كامل

١٨٧٤م ــ ١٩٠٨م

ولد مصطفى كامل بحـــارة درب المبيضـــة بشارع شيخون بالصليبة بحى الخليفـــة بمدينة القـــاهرة فى ١٤ ــ ٨ ــ ١٨٧٤م وشـــاهدت طفولته السنوات الأخيرة من عصر الخديو اسماعيل حيث كانت الأزمـــة المـــالية والتدخل الأوربى ثم ســـقوط اســـماعيل وتوليـــة توفيـــق ودوى صوت جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الله النديم ثم ثورة عرابى وانحيـــاز الخديو للانجليز والاحتـــلال ، ونتيجة لما انتهت اليه الثـــورة العرابية من اخفـــاق وهزيمة شب مصطفى كامل بين شعب تملكه اليأس والقنوط والقلق .

حصـــل مصطفى كامل على الشهادة الابتدائية عام ١٨٨٧ من مدرسة القربية بالقـــاهرة وتلقى دراســـته الثانوية فى مدرسة الخديوية ، ونـــال الشـــهادة الثانوية فى صيف ١٨٩١ ثم تلقى دراسته العـــالية فى مدرســـة

الحقوق الخديوية ثم التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية فى أكتوبر ١٨٩٢م حيث حصل على شهادة الحقوق من تولوز عام ١٨٩٤م .

وقد كان لاتصال مصطفى كامل بعلى باشا مبارك وعبد الله النديم اكبر الاثر فى تكوين شخصيته وفى تشكيل وضعه السياسى ، فقد وجد مصطفى كامل من على باشا مبارك تشجيعا اذ افسح له المجال فى مجالسه كما شجعه على قراءة الصحف على مسمع من الناس ولما وجد فيه الفصاحة والشجاعة وقوة العارضة تنبأ له بمستقبل عظيم ، ولقبه « امرؤ القيس » كما وجد مصطفى كامل فى عبد الله النديم المدرسة الثورية التى تلقن فيها دروس الوطنية ، فكان لاتصاله به اكبر الاثر فى تكوينه الثورى حيث تتلمذ عليه ونشأ فى مدرسته واقتبس بعض اساليبه ، واطلع منه على اسباب فشل الثورة العرابية والقواعد التى يتبعها حتى يكون وطنيا ناجحا وكانت نصائح وتوجيهات النديم لمصطفى كامل خير هاد له فقد شرح له اهمية الصحافة ودورها فى تنوير الراى العام ، وكانت جريدته «الاستاذ» هى الاستاذ الصحفى لمصطفى كامل ، كما اختص النديم مصطفى كامل بالرعاية لما وجد فيه من الاستعداد الثورى ، وتبينت له قدراته الخطابية ، وامارات الزعامة ، فشحن عواطفه بما فى نفسه من الأفكار المكبوتة فى صدره والتى لم يستطع هو الانصاح عنها بعد عودته من المنفى وقد ظهر ذلك واضحا فى خطب مصطفى كامل واسلوبه ، فقد اقتبس من النديم بعض عباراته البلاغية وقلد طرق مخاطبته الجماهير .

وليس من شك فى أن النديم قد غرس فى مصطفى كامل آراءه وكان همزة الوصل بين جيل الثورة العرابية والجيل الجديد الذى تسلم الراية بعده .

وعندما تولى الخديو عباس الثانى واظهر ميلا الى جانب المصريين ، توثقت روابط الود والتعاون بينه وبين مصطفى كامل فى السنوات الأولى من حكمه وعلى وجه خاص بعد الأزمة الوزارية ١٨٩٣، فقاد مصطفى كامل مظاهرة وطنية تأييدا للخديو ضد الاحتلال كما هاجم جريدة المقطم لموقفها العدائى منه .

لقد حمــل مصطفى كامل علم الجهــاد منذ ان كان طالبا ، فقــد راســل الصحف وانشــأ مجلة المدرسة التى ظهر العدد الأول منهــا فى ١٨ — ٢ — ١٨٩٣م .

ولما عــزم مصطفى كــامل على اتمــام دراسة الحقــوق فى أوربــا ســافر الى تولوز بتعضيد من الخــديو ونال درجة الليسانس فى القانون عام ١٨٩٤م ، ومع ذلك لم يتجه للعمل فى المصــالح الحكومية او ممارسة مهنــة المحاماة لكنه نذر نفسه لقضية مصر ، فعاش حياته يدافع عنها .

وقد استلهم مصطفى كامل خطــوط كفاحه من دراسة واقع مصــر الســياسى ، فقد راى ان الاحتــلال لا يستند على اساس شرعى فطرق كل بــاب يوصله للمطالبة باستقلال مصر ، وراى ان اليــاس قد استحوذ على نفــوس ابناء وطنه ، فنفخ فى الأمة روحا جديدة ، وبعث فى النــاس امــلا بعد الياس .

واعتمــد مصطفى كامل فى كفــاحه على كل القــوى الخــارجية والداخليــة المعــارضة للاحتلال وهى الخديو والسلطان وفرنسا ، كمــا اتجه الى الشبــاب المثقف من الشعب المصرى ، ووضــع مصطفى كامل فى اعتبــاره هدفا واحدا وهــو الجلاء ، اذ لم يــر لمصر عدوا واحــدا آنذاك سوى الاحتــلال .

لقد تعــاون مصطفى كامل مع الخديوى طالما وجد فيه تأييدا للحركة الوطنيــة ، وتعــاون مع الدولة العثمانية بهدف توثيق الروابط بينهــا وبين مصر ، حتى يتخذ من ذلك وســيلة لمقاومة الاحتلال الانجليزى ، فقــد احس مصطفى كامل ان مصر بمفردها لا تستطيع بوسائلها المحدودة ان تجبــر الانجليز على الخروج منها ، فاستغل مصطفى كامل مركز مصر الدولى وحــركة الجــامعة الاسلامية آنذاك فى المطــالبة باستقلال مصر استقلالا ذاتيــا طبقا لما جاء بمعــاهدة لندن ١٨٤٠ — ١٨٤١ ، وكان مصطفى كامل يــدرك ان مصر اذا استطاعت ان تتخلص من الاحتــلال الانجليزى اصبح من السهل عليها التخلص من التبعية للدولة العثمانية .

وعن تقرب مصطفى كامل الى فرنسا ، فيرجع ذلك ، الى تلاقى اهداف سياسة فرنسا فى ذلك الوقت مع اهداف الحركة الوطنية المصرية ، فتعاون فى اثناء وجوده فى فرنسا مع الصحفى الفرنسى « دلونكل » ، ولكنه سرعان ما تبين له ان دلونكل لا يرضى عن وجود شاب مصرى يعمل من اجل قضية بلاده ويسحب منه الاضواء مما دفع مصطفى كامل الى الاتصال بمدام جوليت آدم الصحفية والاديبة الفرنسية ، فتعاطفت معه وفتحت صفحات مجلتها

الفرنسية ، فتعاطفت معه وفتحت صفحات مجلتها La Nouvelle Revue « لا نوفل ريفو » لكى ينشر ما شاء من مقالات . ولم يقتصر نشاط مصطفى كامل فى أوربا على فرنسا فحسب ، بل واصل نشاطه فى المانيا والنمسا وفى داخل انجلترا نفسها .

ورأى مصطفى كامل ان يمد جذور نشاطه الى الطبقات الكادحة فى المجتمع المصرى ، فلم يكتف بكتابة المقالات والخطب الحماسية ، بل طالب أيضا بانشاء المدارس ليتعلم فيها ابناء الفقراء والاغنياء على السواء ، وأدار مدرسة باسمه لتثقيف الناشئين ، كما انشأ جريدة اللواء لتكون مدرسة يتعلم فيها المصريون حقوقهم وواجباتهم ، وبوقا ينادى بجلاء الانجليز ، وقد ظهر العدد الأول منها فى الثانى من يناير ١٩٠٠ ، وظل مصطفى كامل يواصل نشاطه السياسى معتمدا على كافة القوى حتى جاء ابريل سنة ١٩٠٤ فصدمت الحركة الوطنية فى مصر بابرام الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا ، اذ بمقتضاه اقرت فرنسا الاحتلال الانجليزى على مصر ، ورغم ذلك فقد واصل مصطفى كامل كفاحه ، ولم يفت فى عضده موقف فرنسا وأخذ يعتمد على الرأى العام ، وعندما انحاز الخديو الى الاحتلال علانية بعد الاتفاق الودى قطع مصطفى كامل علاقته به ، واعلن فى اللواء عن عزمه الابتعاد عنه ، ثم ارسل له خطابا عقب عودته من أوربا يعلن فيه تحمله وحده مسئولية مقاومة الاحتلال والمحتلين .

نادى مصطفى كامل بتأسيس نادى للمدارس العليا ، وبتأثير دعوته افتتح هذا النادى فى ٥ ابريل ١٩٠٦ فكان تتمة لجهده فى التنظيم الطلابى ، وكان هذا النادى بمثابة معهد وطنى علمى اخلاقى تكون فيه جيل من خير الشباب المصرى وفيه ظهرت حركة فكرية قومية ،

فالتقى اعـــلام الفكر والعلم المحاضرات فى مختلف العلوم والفنون ، وبذلك اتصـــل الطلبة بالخرجين ، وعن طريق هذا النادى أيضا تكونت الجمعيات السرية المناهضـــة للاحتلال .

وعندما وقـــع حـــادث دنشواى فى يونية ١٩٠٦ اســـتغل مصطفى كامل ذلك الحـــادث فى التشهير بالســـياسة الانجليزية واثـــارة الـــرأى العـــام الأوربى ضـــد كرومر ، فكتب فى جريدة الفيجارو « مقـــالا تحت عنوان « الى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن » هـــاجم فيه المحكمـــة المخصوصة وما اصـــدرته من احكام ، كمـــا استنكر الطريقة التى نفذت بهـــا الاحكام مما اثـــار دويا قويا ، وهـــز الضمير العالمى ، ونقل مصطفى كامل المعـــركة الى قلب لندن ، واستطـــاع أن يهز الضمير البريطانى حتى بـــدت الأرض تميد من تحت كرومر .

ولكى تظـــل قضية مصر فى اذهان اوربـــا اسس مصطفى كامل فـــى عام ١٩٠٧ جريدتين يوميتين احـــداهما بالفرنسية وهى (ليتندار اجبسيان) L'Etendard Egyptien والأخـــرى بالانجليزية (ذى اجبشيان استاندارد) The Egyptian Standard (اللواء المصرى) .

وبعد استقـــالة كرومر فى ابريل ١٩٠٧ وتوليـــة جورســـت ازداد انحيـــاز الخديو تجـــاه الانجليز وظهر موقفـــه مكشوفا عندما اعلن فـــى حديثـــه مع المستر « ديسى » والذى نشـــرته جريدة الديلى تلجراف فى مايو ١٩٠٧ انه مســـتعد للتعـــاون مع المعتمد البريطانى الجديد ، وعندئذ بـــادر مصطفى كامل بنقد ذلك الحديث نقـــدا حازما اظهر فيه تراجـــع الخديو وتخليه عن القضيـــة المصرية وبعد تأسيس حزبى الأمة والاصلاح على المبـــادىء الدستورية اضطر مصطفى كامل الى اعـــلان تـــأسيس الحزب الوطنى فى ٢٢ اكتوبر ١٩٠٧ برغم انه كان لا يود انشاء احـــزاب لاعتقاده بأنها تؤدى الى انقسام الأمة .

وعلى الرغم من الأحداث العديدة الضخمـــة التى عايشـــها مصطفى كامل واشـــترك فيها لم يـــزد عمره عن اربعة وثلاثين عاما عندما توفى فى ١٠ فبراير ١٩٠٨ بعد أن قـــدم لمصر من الاعمـــال الجليلة التى خـــلدته

فى سجل تـــاريخه الطويل وبموته تأثرت الحركة الوطنية فى مصر تأثيرا بالغـــا حتى حمـــل لواءها من جديد محمد فـــريد اما عن أهم مؤلفـــات مصطفى كامل فهى حسب تواريخ ظهورها :

— الجواهر السنية فى نظام الهيئة الاجتماعية (١٨٩٣) .

— اعجب ما كان فى الرق عند الرومان (١٨٩٣) .

— رواية فتح الاندلس (١٨٩٤) .

— اخطار الاحتلال الانجليزى لمصر (١٨٩٤) .

— رسالة الى الجمعية الوطنية الفرنسية (١٨٩٥) .

— المسألة الشرقية (١٨٩٨) .

— الشمس المشرقة)١٩٠٤(.

— المصريون والانجليز (١٩٠٥) .

٥ — الخديو عبـــاس الثانى

١٨٧٤م — ١٩٤٤م

اكبر الأبنـــاء الذكور للخديو توفيق بن اســـماعيل بن ابراهيم بـــن محمد على ، وهو ســـابع من تولى حكم مصر من أسرة محمد على .

ولد عام ١٨٧٤ بمدينة الاسكندرية ، ولما شب دخل مدرسة عابدين ثم ســـافر الى النمســـا والتحق بكلية الترزيانوم ، ولما بلغـــه نبـــأ وفاة والده وهو بفينا بادر بالعودة الى مصر فوصل الى الاسكندرية فى ١٦ يناير ١٨٩٢ .

وفى بـــداية حكمه — حـــاولت مختلف القـــوى المؤثرة على الوضع الســـياسى فى مصر الضغط عليه حتى تضمـــه الى صفها ، فاتخـــذت انجلترا من حـــداثة سنه ذريعة لتســـويغ بقـــاء الاحتلال ، كما اتخذت تركيـــا من ذلك فرصة للسيطرة على الخديو الصغير فحـــاول السلطان احتـــواءه وطلب منه زيـــارته ، ولكن عباس تجنبـــا للضغط عليه ســـافر

الى مصر مباشرة مما اغضب السلطان وجعله يلجأ الى تأخير فرمان ولايته واقتطاع شبه جزيرة سيناء من مصر .

وحين بدات اجراءات تولية عباس حلمى اريكة الخديوية ، ظهرت مشكلة عويصة ، فسن الأمير ينبغى أن يكون ثمانية عشر عاما حتى يمكنه اعتلاء الخديوية ، وبما ان عباس الثانى ولد فى ١٤ يولية ١٨٧٤ فانه لم يبلغ سن الرشد الا فى ١٤ يولية ١٨٩٢ بينما كانت وفاة والده المفاجئة فى السابع من يناير ١٨٩٢ ، وظهر شبح تشكيل مجلس وصاية وتفاديا لذلك اتفق على حساب سن الأمير بالحساب الهجرى الذى يقل عن الحساب الميلادى فاتضح انه بلغ سن الرشد فى ٢٤ ديسمبر ١٨٩١ .

اضطلع عباس الثانى بمهام الخديوية ، وتملكه فى الفترة الأولى من حكمه شعور وطنى ، فاستبدل رجال المعية التى كانت على ايام والده بآخرين كما اتجه الى الأمة فاصدر أوامره بالعفو عن عدد كبير ممن اشتركوا فى احداث الثورة العرابية ومنهم عبد الله النديم ، ثم صار يستقبل طوائف الناس مرتين فى كل شهر ، وساءه ان يرى الانجليز قد وضعوا ايديهم على وزارات الحكومة ومصالحها فاعتزم وضع حد لهذا التدخل غير المشروع ورسم لنفسه فى اول عهده بالحكم سياسة مقاومة التدخل البريطانى ، ولما رأى فى رئيس نظاره مصطفى فهمى خضوعا كاملا للانجليز طلب منه ان يقدم استقالته بحجة مرضه ، ولكن مصطفى فهمى نصحه باخذ رأى اللورد كرومر قبل الاقدام على هذا العمل ، مما ضايق الخديو فاصدر أمرا باقالته ، وكلف حسين فخرى بتاليف الوزارة الجديدة فشكلها فى ١٥ يناير ١٨٩٣ وكان لهذا التغيير صدى قويا فى كافة الأوساط المحلية والعالمية ، فذهب اللورد كرومر لمقابلة الخديو وابلاغه بأن الحكومة الانجليزية لها الحق فى اختيار الوزراء وفقا لمنشور جرانفيل فى الثالث من يناير ١٨٨٣ فرد عليه الخديو بأن الفرمانات السلطانية تمنحه حق اختيار وزرائه بنفسه ، فهدده كرومر بانه اذا قاوم انجلترا فمعنى ذلك الاطاحة بعرشه ، وتعكر الجو وحدثت الأزمة التى يطلق علينا فى التاريخ « بالازمة الوزارية » وقد سويت هذه الازمة على اساس الا بمر كرومر على عودة مصطفى

فهمى ولا يتمسـك الخديو بوزارة حسين فخرى ، ويعين مصطفى رياض باشـا كحل وسـط يرضى الطرفين اما عن اثر هذه الأزمـة فى نفسـية الشعب المصرى فقد التفت الامة المصرية حـول الخديو وشجعتـه على موقفه ، كمـا هاجم مصطفى كامل وزملائه جريدة المقطم لموقفها العدائى من الخديـو ، واعتلى مصطفى كامل منصة الخطابة فى ٢٠ من يناير ١٨٩٣ بين جمـوع الطلبة الذين احتشدوا للتعبير عن سخطهـم على المحتـل ، ووجه مصطفى كامل نـداءه الى المصريين بالتكتل والوقوف بجانب الخديو والاستعداد للكفاح .

وقد وجد الخديو عبـاس الثانى فى مصطفى كامل الشـاب الذى يستطيع حمـل راية الكفاح برغم حـداثة سنه ، فاعجب بشخصيتـه ووافقت اتجاهاته ميوله فى بـداية حكمه فامده الخديو بالمال والتـأييد ، وتوثقت اواصر الود والتعاون بينهمـا .

وشـكلت وزارة ريـاض فى ١٩ يناير ١٨٩٤ ، وفى عهـدها حدثت ازمة الحـدود سنة ١٨٩٤ فعندما سافر الخديو الى الصعيد لتفقد احوال الجيش المصرى هنـاك بعد ان اشتكى له الضباط المصريين من سـوء معاملة رئيسهم الانجليزى لهم ، فقـام الخديو باستعراض قوات الجيش فى وادى حلفـا ومعه ماهر باشـا وكيل وزارة الحربية وعند مروره على الاورطتين الثانية والحادية عشر ابـدى بعض الملاحظاتوالانتقادات التى تمس كفـاية الضباط الانجليز ، كما القى خطبة على مسامع الانجليز انتقد فيها طريقة التعليم التى ينتهجونها فى تـدريب الفرق المصرية ، مما كان له وقـع سىء على الاوسـاط الانجليزية فقدمكتشنر استقالته معلنا ان الكرامة الانجليزية قد امتهنت ولما سـمع اللورد كرومر بالحـادث هالته خطورته ورأى فيه الفرصـة التى يمكنه بها تلقين الخديو درسا قاسيـا ، فطلب منه نقل ماهر باشـا من نظارة الحربية واصدار امر عسـكرى يثنى فيه الخديو على الضبـاط الانجليز ويعتـذر عما بدر منه ، ولما وجد الخـديو ان الموقف فى غير صـالحه اذعن لمطـالب كرومر وبذلك اصيب نفوذه من جـراء هذه الأزمة بضربة شديدة وتصدعت هيبته أمام الجيش والشعب .

وقد تميزت الفترة التى تلت حادث الحدود وحتى نهاية فتح السودان ١٨٩٨ بالحذر الشديد من جانب الخديو فى تصرفاته تجاه الاحتلال ، فسلك طريق المقاومة السرية كما شجع العناصر المناوئة للاحتلال وازداد تقربه من الأمة فأخذ يدعو المثقفين اليه من ابناء البلاد والعلماء امثال الشيخ محمد عبده والشيخ حسونة النواوى وادار الخديو من داخل قصره اللجنة الفرنسية السرية التى قامت بالدعاية لقضية استقلال مصر فى اوربا ثم انضم اليها بعد ذلك جمعية احياء الوطن السرية .

اخذ الخديو يساير الحركة الوطنية حينا ويتراجع عنها حينا آخر حينما تعارض مصالحه معها ، وكان شديد الحذر فى تعامله مع الاحتلال ، يظهر الوفاق ويبطن المقاومة ومع ذلك فان الظروف اضطرته الى المقاومة الصريحة للاحتلال وبوجه خاص فى الفترة التى عاصرت وزارة مصطفى فهمى والتى تغطى فتح السودان ، فقد اعترض الخديو على قرار انجلترا اعادة فتح السودان عام ١٨٩٦ ثم اضطر الى التزام الصمت نظرا لتهديدات كرومر له .

ومن المعتقد ان الخديو عباس لم يكن على استعداد للسير فى صرامة ضد المعتمد البريطانى كرومر الى حد التفكير فى تصفية الاحتلال نهائيا بل كانت معارضته المترددة لسياسة كرومر تستهدف المشاركة فى السلطة حتى فى ظل الاحتلال ، كما ان موقف الخديو عباس الثانى من الاحتلال كان ينصب فى الهجوم على السياسة الكرومرية وليس على الاحتلال من أساسه وكان تعاطفه نحو الحركة الوطنية اسلوبا من أساليب الضغط على سياسة كرومر ، وقد نجحت محاولات كرومر فى تجريد الخديو من سلطاته شيئا فشيئا نظرا لانه كان يعتبره شابا صغير السن قليل الخبرة عديم الادراك بشئون البلاد السياسية والادارية كما اعتبره مسئولا عن كل الحركات المعادية للانجليز ، ونتيجة لضغوط كرومر فقد الخديو الكثير من سلطاته مما دفعه الى البحث عن مصدر يعوضه ما فقده فبدأ فى جمع الأموال من كل مورد مفتوح بين يديه ، وكان أهم هذه الموارد خزائن الأوقاف والتركات .

ولما حاول الخديو تخفيف وطأة كرومر عليه سافر الى لندن عدة مرات وكانت زيارته موضع الترحيب والحفاوة ، وفيها سعى لدى الحكومة البريطانية للحصول على وعد منها بأن يكون الدون جورست خلفا لكرومر فى مصر .

وعندما وقع حادث دنشواى فى يونية ١٩٠٦ وحدث الاجماع الوطنى الرائع الذى تزعمه مصطفى كامل ضد استبداد الانجليز فى دنشواى عاد الخديو عباس الثانى الى صف الحركة الوطنية وخصوصا وانه لم يتحقق له فى اثناء تقربه من الاحتلال ما كان يوده من المشاركة فى الحكم .

ولما استقال كرومر وخلفه جورست وحدثت سياسة الوفاق والمسالمة مع الخديوى تخلى الخديو عن الحركة الوطنية تماما بل اعتبرها خطرا عليه وشجع على اضطهادها .

وبعد ان حل كتشنر محل جورست واستعمل سياسة الشدة مع الخديو اراد الأخير العودة الى الحركة الوطنية ولكن محمد فريد رفض طلبه .

وفى ١٢ يونية ١٩١٤ سافر الخديو الى الاستانة فلاحقه شاب مصرى يدعى محمود مصطفى باطلاق الرصاص عليه فى ٢٥ يوليه ١٩١٤ فاصابه فى ذراعه وفكه ونقل الخديو الى المستشفى حتى قامت الحرب العالمية الأولى .

وفى ١٩ من ديسمبر ١٩١٤ اعلنت الحكومة البريطانية خلع الخديو عباس الثانى عن منصب الخديوية وارتقاء حسين كامل عرش السلطنة المصرية . وقد ظل عباس الثانى متمسكا بحقوقه الشرعية فى مصر حتى عام ١٩٣١ حتى تنازل عنها للملك فؤاد عام ١٩٣١ مقابل مبلغ من المال وفى عام ١٩٤٤ توفى الخديو عباس الثانى بجنيف عن عمر يناهز الحادية والسبعين شهد خلاله حربين عالميتين ، ونقلت جثته الى مصر ، وقد دون مذكرات مطولة نشرتها جريدة المصرى عام ١٩٥١ وقد تناول فيها حياته وسنوات حكمه كما تناول الحديث عن زعماء الحركة الوطنية وعلاقته بهم .

مراجـــع الفصـــل الحادى عشـــر

(١) اعتدنا فى بيان سيرة على مبارك واعماله على ما استخلصناه من عبد الرحمن الرافعى فى كتاب : عصر اسماعيل .

(٢) د. عبد المنعم الجميعى : على مبارك وروضة المدارس ، دراسة غير منشورة .

(٣) روضة المدارس : العدد الأول من السنة الأولى بتاريخ السبت ١٥ محرم ١٢٨٧ .

(٤) الرافعى : المرجع السابق جـ ١ ص ٢٥٢ .

(٥) دار المحفوظات العمومية : ملف خدمة ومعاش الشيخ محمد عبده ، دولاب ٤٢ عين ٤ محفظة ٨٧٣ دوسيه ٢٢٦٧٩ .

(٦) نفس الملف : مذكرة بقلم المستخدمين ، ويتضح من المذكرة ايضـا ان هذه السنة لم يكن بها دفتر مواليد .

(٧) نفس الملف : تعريفه باسم الشيخ محمد عبده المستخدم بوظيفة نائب قاضى بمحكمة بنهـا الأهلية وردت من المحكمة الى الحقانية بتاريخ ١٨ مارس ١٨٩٠ تحت رقم ٤٥ .

(٨) ملف الخدمة السابق الذكر . قضية رقم ٦٣ باسم الشيخ محمد عبـده .

(٩) نفس الملف : صورة افادة من نظارة الحقانيـة لمحكمة مصر الابتدائية الأهلية بمقتضى الدكريتو الصادر فى ٢ يناير ١٨٩٢ .

(١٠) نفسه : صورة ما ورد من رياسة مجلس النظار بضمانة الحكومة للشيخ محمد عبده بالعودة الى وظيفة قاض بمحكمة الاستئناف الأهليـة فى حالة استقالته او اقالته .

(١١) نفسـه : افادة بخصوص احتساب مدة الشيخ محمد عبده المفتى .

(١٢) نفسه : توكيل الشيخ محمد عبده للشيخ حسن البنا فى القيام بالرأى فى الأحكام الجنائية فى حالة سفره الى اوربا .

(١٣) الملف السابق : اقرار ذمة مالية مقدم من الشيخ محمد عبده .

(١٤) نفس الملف : التماس مقدم من حرم المرحوم الشيخ محمد عبده وابنتاه القاصرة والعاجزة الى نظارة المالية .

الفصل الثاني عشر

أبرز المتاحف في جمهورية مصر العربية

١ ــ المتحف المصرى .

٢ ــ متحف الفن الاسلامى .

٣ ــ المتحف اليونانى والرومانى .

٤ ــ المتحف القبطى .

٥ ــ متحف التعليم .

٦ ــ المتحف الحــربى .

٧ ــ متحف المثال محمود مختار .

٨ ــ متحف دار الكتب المصرية .

ابرز المتاحف فى جمهورية مصر العربية

ظلت الآثار المصرية مشتتة فى بقاع عدة لم يهتم بها احد من السلاطين او الحكام حتى اواخر عصر محمد على . ونتيجة لمحاولات شمبليون الفرنسى ، وبورنج الأمريكى فى اقناع محمد على بانشاء مصلحة خاصة للمحافظة على الآثار انتهى الأمر بانشاء هذه المصلحة ، ثم تطورت الأمور فى عهد خلفاء محمد على الى انشاء المتحف المصرى ، ودار الآثار العربية ، والمتحف اليونانى والرومانى ، والمتحف القبطى ، والعديد من المتاحف الأخرى فى محافظات مصر وذلك ما سنعرض له فى هذا الفصل .

اولا : المتحف المصرى — ميدان التحرير بالقاهرة انشىء المتحف المصرى فى بداية الامر فى عام ١٨٥٧ [١] بمنطقة بولاق على شاطىء النيل بالقاهرة [٢] بفضل جهود العالم الفرنسى اوجست ماريت Maiette الذى مهد سبل البحث عن الآثار ، ونجح فى منع العبث بها وجمع ما تفرق منها هنا وهناك فى هذه الدار ، حتى كون فى بولاق متحفا لا مثيل له فى العالم ادخر فيه — كما ذكر البعض — من «التماثيل والمكتوبات البردية والنقوش ، وموميات كبار الفراعنة ، ما لا يعرف له قيمة ، ولا يمكن لكنوز الدنيا باسرها مشتراه » .

وقد اقدم الخديو اسماعيل على دعوة ذوى المنزلة الرفيعة من زائريه لزيارة هذا المتحف[٣] .

وكان من الطبيعى ان يكون اول مدير للمتحف هو « ماريت » وكان من الطبيعى ايضا ان يكون ضمن رجال هذا المتحف بعض المصريين وقد نبغ من هؤلاء اكثر من واحد فى مقدمتهم احمد كمال باشا .

وفى عام ١٨٩٠ نقلت محتويات هذا المتحف الى سراى الخديوى اسماعيل بالجيزة على الضفة الغربية للنيل فى مواجهة جزيرة الروضة

وكانت هـــذه السراى ذات طــابقين ارضى وعلوى ، وكل طــابق مكون من تســعين صالة تقريبا مما يوضح أن مقتنيات هذا المتحف كانت كثيرة ، يضــاف الى ذلك انه تم تقســيم مقتنيات المتحف من التحف تقسيما علميا بحسب العصــور من اقدم الأزمنة الى العصر القبطى (٤) .

وقد وصف المويلحى ما شــاهده فى هذا المتحف بقوله « واقمنــا هناك نتنقل بين الأصنــام والتماثيل ، ونتأمل فى التصــاوير والتهاويل . ونتفكر فى هــذه العظــام المنشرة والرفات المنظرة بمــا عليها من الحلى والزينة ، وتلك الأحجار الثمينة . كيف كانت ملوكا للامم ، ثم بقيت على بلى الرمم ، وتوالى القدم ، فى حال الوجود مع العدم » (٥) .

كمــا وصف تهــافت الاوربيين على مشــاهدة هذه التحف بقــوله « كنت ارى تهــافت الغربيين عليها ... لعل شأنها عندهم وعلو قيمتها لديهم هــو لأجل توغلها فى البلى والقــدم ومحلها من التاريخ ، وما تحمله منقوشــا عليها من اســاطير الاولين .. زد على تلك حبهم للاقتنــاء وولوعهم بالاختصاص بالنــادر ولذلك علت قيمتها عندهم وارتفع قدرها بينهم » (٦) .

ثم قــارن بين اهتمــام الأوربيين بالآثار المصرية ، وعدم اهتمــام المصريين بهــا فقال « ولو انــك عرضت أهل مصر على هذه الآثار واحدا واحدا لما استفــادوا منها شيئــا ، ولا افادوك عنها شيئــا ولما وجدوا لهــا قيمة تذكر سوى النذر اليسير من المقلدين للغربيين » (٧) .

وقد ظــل هذا المتحف فى سراى الخديو بالجيزة حتى التاسع مــن مارس ١٩٠٢ ، وفى ١٣ يوليو من نفس العــام نقل المتحف الى مبنــاه الحــالى بميدان التحرير بالقاهرة فى بنــاء فخم وفتح ابوابه للجمهــور فى الخامس عشر من نوفمبر (٨) . وقد حضر الخديو عبــاس حلمى الثــانى حفل الافتتــاح وأعرب عن رغبته فى متابعة آثــار اجداده ، واثنى على العلمــاء الذين قاموا بتنظيمه وجمع آثاره .

ويضم المتحف آثــار مصر منذ اقــدم عصورها الى نهــاية عصــر الوثنيــة ويحوى اكبر مجموعة للاثار الفرعونية فى العــالم . ويتكون من

طـابقين : الطـابق الأرضى يحوى الآثار الثقيلة كالتوابيت والتمـاثيل واللوحات الحجرية وهو مرتب ترتيبـا زمنيا حسب العصور [٩] .

اما الطـابق الثـانى فيشمل مقبرة توت عنخ آمـون ، والآثـار الخفيفة الـوزن كالآلات والجهـاز الجنائزى والتمـاثيل الصغيرة والحلى والتـوابيت الخفيفـة هذا بالاضـافة الى أوراق البردى [١٠] ومن اهـم أوراق البردى التى يقتنيهـا المتحف وثيقـة على جـانب كبير من الاهمية، مكتوبة بالهيراطيقية من عصر رمسيس الثـانى من ملوك الأسرة التاسعة عشرة ، والكتـابة واضحة فى مجموعها باللونين الأسـود والاحمر فى صفحـات تشـبه أعمدة الجـرائد يبلغ عـددها أربع وخمسين صفحة . والبردية تعد من أطـول البرديات فى العـالم فطولها حـوالى سبعـة أمتـار وعرضها حوالى عشرين سنتيمترا . وهى تتنـاول موضـوعات مختلفة : دنيوية ودينية وفلكيـة وسـحرية كلها مرتبطة بالطـالع السعيد او النحس فى أيـام السـنة . وتحتوى البـردية على تعـاويذ سـرية لحمـاية الفرد وما يعمله من تمائم [١١] .

وقد سجلت هذه البـردية فى المتحف تحت رقم ٨٦٦٣٧ والى جانب ذلك فقد اضـاف المتحف الى مقتنياته البردية مجمـوعة فى بابها وهـى « أوراق طره البردية » [١٢] .

وممـا يفخر بـه المتحف مجموعـة آثـار توت عنخ آمون [١٣] آخر ملـوك الأسرة الثامنة عشرة — وهى المقبرة الفرعونية الوحيدة التى عثر عليها سـليمة وبالحالة التى وضعها عليها قدماء المصريين [١٤] ويستلفت النظر منهـا التـابوت الذهبى الذى كانت بداخله مومياء توت عنخ آمون، ومجموعة الأوانى المرمرية والخزفية ، والعصى والأقـواس ، وكـرسى العرش ، وتمـاثيل الآلهة التى تتولى حراسة الملوك فى العالم السفلى ، وتماثيل الملك .

ويكفى أن يكون هذا المتحف هـو المكان الوحيد الذى يستطيع الزائر ان يتتبع فيه حضـارة نبتت وتطورت خـلال ما يـزيد على سـتة آلاف عام [١٥] كمـا يستطيع ان يقف بين بقـايا آلاف السنين فيرى أمـامه

موميـــاء الفراعنة « امنتحتب الأول » و « تحوتمس الرابع » ، و « رمسيس الثـــانى » ، و « مفتـــاح » و « ســـيتى » و « رمسيس الثالث » وغيرهم ويقف امـــام التماثيل المملوءة بالأسرار ، ويشـــاهد عـــادات وأعمـــال وفنـــون وصنـــائع هؤلاء المصريين العظـــام مما يشهـــد على ان مصـــر كانت اما للمدنية والحضارة القديمة .

وعلى الرغم من كل ذلك فالســـؤال المطروح ، هـــل تمكن هـــذا المتحف من استيعـــاب عرض كل التحف الأثـــرية الموجودة به والتى تـــرد اليه احيـــانا بعد الحفريات ، وهل هو مجهز بأجهزة التقنية المتقدمة التى يمكن عن طريقهـــا صيـــانة الآثار المحفوظة وحفظها أم لا ؟

الواقع ان المتحف فى مكانه الحالى بميدان التحرير بالقاهرة وبظروفه الحـــالية فى حاجة الى اعادة نظر وذلك للاسباب الآتية :

١ ـــ ان تواجـــد المتحف فى منطقـــة اصبحت مزدحمة بالســـكان وشـــديدة التلوث من عـــادم السيارات وغيره اصبح خطرا على الآثـــار المعـــروضة داخل المتحف ومن هنـــا يجب نقـــله الى منطقة هادئة فـــى احدى ضـــواحى العاصمة ، وفى تصورى أن ذلك هو ما تفكر فيه مصلحة الاثـــار ووزارة الثقـــافة جديا الان .

٢ ـــ ان المتحف لم يعـــد به متســـعا لعرض الاثار المصرية المكدسة فى مخـــازنه والتى لم تـــر النور بعد لضـــيق المكان به ، لذلك فان انشاء متحف جـــديد يكون اكثر اتســـاعا وتجهيزا افضـــل للمحافظة على آثارنا الخـــالدة .

٣ ـــ ان عـــدم تجهيز المتحف بوســـائل التقنية الحديثة والمتقـــدمة يجعلنـــا دائمـــا فى قلق دائم على آثارنا خشية عليها من التلف والتآكل .

ونتيجة لكل ذلك فقد فكرت وزارة الثقافة المصرية فى الآونة الأخيرة فى بنـــاء متحف آخر بالقـــرب من منطقة الأهرام بالجيزة يقام على مساحة ٧٧ فدانا مما يجعـــله اكبر متحف للاثار فى العالم .

وقد عرضت العديد من الدول وأبرزها اليابان وايطاليا المشاركة فى هذا المشروع الحضارى حيث تقوم اليابان ببناء المتحف وتقوم ايطاليا بترميم مجموعة اللوحات النادرة بمتحف الجزيرة ، ٧٤٥ لوحة أخرى ترجع الى القرن التاسع عشر لكبار فنانى المدرسة التأثيرية [(١٦)] .

وفى النهاية يمكن القبول ان المتحف المصرى ذلك المحراب الفنى الزاخر بمختلف الكنوز ، لهو امانة فى اعناق أحفاد الفراعنة العظام . وانى لأرجو ان يهتم المصريون بتراث جدادهم اهتمام العالم الاجنبى به حتى يصبحوا جديرين بالانتساب اليهم .

ثانيا — متحف الفن الاسلامى

دار الآثار العربية سابقا

فى عام ١٨٦٩ امر الخديو اسماعيل بانشاء دار للاثار العربية ، وعهد بانفاذ المشروع الى « المسيو فرانس » كبير مهندسى الأوقاف وكلفه باختيار بناء حكومى لهذا الغرض ليجمع فيه ما كان مبعثرا فى المساجد من الآثار العربية والاسلامية فاختار الديوان الشرقى فى جامع الحاكم بالجمالية بجوار باب الفتوح .

وعلى الرغم مما بذل من اجل اقامة هذا المشروع فى عهد اسماعيل فان دار الآثار لم تتسع اتساعا حقيقيا الا فى عهد الخديو توفيق وخاصة بعد أن استصدر شريف باشا مرسوما فى الثامن عشر من ديسمبر ١٨٨١ بتأليف لجنة عهد اليها العناية بالآثار العربية وكانت برئاسة محمد زكى باشا مدير الأوقاف العام وقتئذ ، ومن اعضائها محمود سامى باشا ومحمود الفلكى باشا [(١٧)] وقد جاء فى مواد الأمر العالى ما يلى :

١ — اجراء اللازم لجرد وحصر الآثار العربية القديمة التى تكون فيها فائدة صناعية .

٢ — ملاحظة وصيانة تلك الآثار ، ورعاية حفظها من التلف واجبار نظارة الأوقاف بالتصليحات والترميمات المقتضى اجراؤها فيها مع ايضاح المهم منها .

ولما ضـــاق الديوان الشرقى فى جـــامع الحاكم رات اللجنة ضــــرورة البحث عن مكان آخر اكثر اتســـاعا لحفظ ما كان يـــرد على الدار مـــن آثـــار وتحف [١٨] وانتهى الأمر بتخصيص مبنى آخر فى صحن جــــامع الحـــاكم فى عام ١٨٨٣ [١٩] .

ولما زادت مجمـــوعات الآثـــار الواردة على الدار زيادة مضطردة راى الخـــديو أن يهيىء لهـــا مكانا يليق بمكانتها فبنيت دار جـــديدة للاثار العربية ، واحتفـــل بافتتاحها فى الثامن والعشرين من ديسمبر ١٩٠٣ فى حفل كبير حضره الخديو عبـــاس الثانى ، واللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر ونقل اليها التحف الفنية الاسلامية .

ويضم المتحف مجموعة من انفس المجموعات الأثرية الاســـلامية فى العالم والتى يختلف تاريخ صناعتها منذ بداية العصر الاسلامى حتى نهـــاية القرن التاسع عشر الميلادى .

وقد تمت هذه المجموعات بفضل الحفائر التى قام بها المتحـــف فى المناطق الأثرية حتى بلغت محتويات المتحف نحوا من ٧٥ الف تحفة .

وقد عرضت التحف الاثرية بالمتحف فى ٢٤ قاعة بطريقة تمتاز باتصال حلقات الفن والعمارة فيها فبعضـها مخصص للطراز الفنى كالطراز الأموى والعباسى والفاطمى والأيوبى والمملوكى والايـــرانى والتركى ، وبعضــــها مخصص لمادة التحف كقاعة الخشب المعادن والخزف وفنون الكتابة التى تنسب الى مختلف العصور الاسلامية ، كما يمتلك هذا المتحف أعظم مجموعة من المنسوجات ، والسجاد الاسلامى التى تثبت براعة الفنانين المصريين فى نسج الأقمشة ، وعمل السجاد [٢٠] .

وقد تغير اسم دار الآثار العربية الى متحف الفن الاسلامى منذ عـــام ١٩٥٢ .

وهكذا كان تأسيس هذه الدار خدمة كبرى للحفـــاظ على التـــراث الاسلامى والحضارة الاسلامية ، ومن الانصاف ان نشيد بجهود العلمـــاء الذين ساهموا بجهودهم فى ابراز التراث الاسلامى فى هذا المتحف ، ومن

هؤلاء العالم الفرنسى « جاستون فيت » فبعد أن عين فيت مديرا للمتحف فى عام ١٩٢٦ انكب حوالى ربع قرن من الزمان على دراسة الكثير من الكنوز النفيسة التىيحتويها المتحف فى كافة المجالات الفنية ، وقد ساعده على ذلك قدرته على قراءة الكتابة العربية التى استخدمت كعنصر من عناصر الزخرفة فى الفن الاسلامى ، هذا بالاضافة الى المامه بالتاريخ الاسلامى .

وقد تميز عمله بالتعمق فى دراسة الفنون الاسلامية فى مجالاتها المختلفة ، ودراسة المجموعات الفنية التى يضمها المتحف من منسوجات وحراير وسجاجيد وخزف وتحف معدنية نحاسية وبرونزية وتصاوير واوانى زجاجية ، مشكاوات مموهة . كان نتاج ذلك عمل دليل فى عام ١٩٣٠ للتعريف بمحتويات المتحف ، واخراج العديد من الدراسات والمقالات عنه ومن اهمها :

١ — المشكاوات والأوانى الزجاجية .

٢ — التحف النحاسية والبرونزية ذات النقوش التاريخية .

٣ — التصاوير الفارسية والهندسية والتركية .

٤ — حراير فارسية .

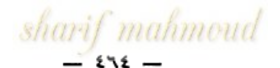
٥ — النقوش العربية فى مصر ، ج ٢ .

٦ — مجموعة شواهد القبور الموجودة بمتحف الفن الاسلامى .

٧ — النقوش العربية فى مكة والمدينة[٢١] .

والى جانب ذلك فان هذا المتحف يقتنى عددا قيما من أوراق البردى العربية التى جلبت من حفائر الفسطاط .

والحق أن الفن العربى فى عهوده الوضاءة غنى بالأنواع والاشكال ، مترع بالاحساسات والمعانى ولا سبيل الى كشف هذا الا من طريق التصفح والتأمل . ونتيجة لذلك هيات الدار المعارض المتعددة لعرض نفائسها على الجمهور .



ثالثا : المتحف اليونانى والرومانى بالاسكندرية

انشىء هذا المتحف فى عام ١٨٩٠ — ١٨٩١ ، ويشمل مجموعات اثرية رائعة يرجع تاريخها الى القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الثالث الميلادى وهى منسقة تنسيقا يتمشى مع تتابع العصور ومعروضة على الوجه التالى :

نقوش يونانية ولاتينية ثم شواهد جنائزية اما محفورة أو ملونة ثم مجموعة من ورق البردى ، ثم بعض الآثار الفرعونية التى عثر عليها بالاسكندرية ثم قلة من المومياء اليونانية والرومانية ، وبعض تماثيل تبين فن النحت اليونانى الرومانى ، كما تعرض بعض نواحى فن المعمار يلى ذلك تماثيل رومانية ، وقطع كاملة من الفسيفساء كما توجد بعض التحف الزجاجية الملونة ، والتحف العاجية كذا هناك مجموعة من التوابيت ، ومجموعة ضخمة من التماثيل الفخارية الصغيرة والمسارج ، ومجموعة من الأوانى الجنزية لحفظ رماد الجثث المحروقة ، ومجموعة من العملة البطلمية والرومانية ، وبعض الحلى ، كما توجد بعض الآثار التى ترجع الى العصر المسيحى هذا بالاضافة الى انه يوجد بحديقة المتحف معبد التمساح المقدس الذى عثر عليه باقليم الفيوم ونقل الى المتحف فى عام ١٩١٣ .

ومما يسترعى الانتباه مجموعة التماثيل الفخارية الصغيرة والملونة التى يرجع تاريخها الى أوائل العصر الهلينستى حوالى عام ٣٥٠ ق . م والتى تعد احدى المجموعات الأثرية النادرة[٣٢] .

رابعا : المتحف القبطى

القاهرة — مصر القديمة

أسس هذا المتحف فى عهد الخديو عباس حلمى الثانى فى عام ١٩٠٨ حيث قام مرقس باشا سميكة بوضع نواته بمساعدة نخبة من محبى الفنون والآثار القبطية من مصريين واجانب وذلك بتخصيص غرفة بجوار الكنيسة المعلقة[٣٣] بمصر القديمة لعرض الآثار القبطية بها ، ثم شرع فى جمع شتات هذه الآثار التى عثر عليها فى الكنائس والاديرة بالوجهين القبلى والبحرى وذلك بموافقة بطريرك الأقباط الارثوذكس وقتئذ[٣٤] .

وفى عهد الملك فؤاد ، وبعد زيارته للمتحف فى ٣١ ديسمبر ١٩٣١ تقرر ضم هذا المتحف الى أملاك الدولة واعتباره متحفا قوميا .

وفى عهد الملك فاروق تمكن المتحف من زيادة مجموعاته الاثرية عن طريق شراء نخبة من الآثار المختلفة مما عرض بمعرض جمعية الآثار القبطية فى ديسمبر ١٩٤٤ وايضا عن طريق ما نقل اليه من المتحف المصرى .

ويرجع الفضل فى تكوين النواة الأولى لمقتنيات المتحف القبطى الى العالم الاثرى « جاستون ماسبرو » الذى يعد بحق أول من شمل الفن والعاديات القبطية بعناية واهتمام جديرين بالذكر فانه لم يكن يعين فى وظيفة مدير عام الآثار المصرية فى عام ١٨٨١ حتى عقد العزم على ان يضم الى منهاج عمله الاماكن والآثار القبطية .

كما بدأ بتخصيص احدى قاعات المتحف المصرى لآثار العصر القبطى ، وكون بذلك نواة تلك المجموعة النفيسة النادرة التى تزدان بها الآن قاعات كثيرة من قاعات المتحف القبطى مما جعل منه مركزا رئيسيا لدراسة آثار مصر التاريخية فى العصر المسيحى[٢٥] .

ويعد هذا المتحف نسيج وحده بين المتاحف فى فنون العهد القبطى حيث يضم فى قاعاته المختلفة مجموعة تعتبر من اندر واعظم المجموعات العالمية فيحتوى على العديد من المجموعات الاثرية التى تربط بين العصرين اليونانى والرومانى والعصر العربى ومن اهم هذه المجموعات نذكر :

١ — مجموعة من الآثار الحجرية والرخامية والجرانيتية وبقايا توابيت الموتى .

٢ — مجموعة من الفخار المنقوش والخزف المصقول والزجاج المدهون .

٣ — مجموعة من المصنوعات الخشبية تتالف من مذابح قديمة واحجاب وأبواب للهياكل وصناديق ومقاعد وغيرها يرجع تاريخ بعضها للجيل الرابع للمسيح عليه السلام من الواح منقوشة نقوشا بارزة تمثل حياة السيد المسيح وصور القديسين والحياة المنزلية وصور طيور وحيوانات وبعض هذه النقوش مطعم بالسن * وبعضها قد أنزل فيه الصدف ، وآيات مقدسة بالقبطية والعربية .

٤ — مجموعة من الأدوات المعدنية كالصناديق الفضية المنقوشة بالنقش البارز لحفظ الكتاب المقدس والمزخرفة بالكتابات الجميلة البارزة ايضا ، وبعضها مرصع بالحجارة الكريمة ، وفى هذه المجموعة عدد من آنية الخدمة الدينية وعكاكيز البطارقة والصلبان الكبيرة والصغيرة ذهبية وفضية ونحاسية .

٥ — مجموعة من الملابس الكهنوتية الحريرية المطرزة بخيوط الذهب والحرير الملون ، وقد وشيت برسوم الشهداء والصلبان نضلا عن أستار الهياكل والاعلام الخاصة بالاحتفالات .

٦ — مجموعة من الايقونات التى تمثل حياة السيد المسيح وصور القديسين ايضا .

٧ — مجموعة من المؤلفات الدينية المكتوبة بخط اليد على ورق قديم جدا وبعضها رسمت عليه بماء الذهب والالوان المختلفة اشكال هندسية وصور الشهداء[٣٦] .

وقد نسقت معروضات المتحف تنسيقا روعى فيه الترتيب الزمنى وفقا لأنواعه المختلفة .

كما يضم المتحف مكتبة تشمل معظم ما كتب عن الأقباط وتاريخهم ولغتهم بسائر اللغات .

والى جانب هذه المتاحف توجد متاحف محلية فى عواصم المحافظات المصرى تحوى آثار مكتشفة بها ، كما تحوى ايضا بعض الآثار المكتشفة فى جهات اخرى والتى تزيد عن حاجة المتحف المصرى .

ولا يخفى ما فى وجود هذه المتاحف من فوائد ، اذ انها توجه انظار سكان كل محافظة الى تاريخها القديم ، وتبعث نشاطا وتنافسا فى الاقبال على الحفائر والمحافظة على الآثار .

هذا بالاضافة الى المتحف الحربى ، والمتحف الزراعى ومتحف النيل وغيره .

وهكذا يتضح ان تاسيس المتاحف فى مصر كان ثمرة من ثمرات الوعى القومى ، ومظهرا من مظاهر الرغبة فى المحافظة على تراث الأجداد ودراسته بطريقة علمية سليمة .

٥ ـ متحـف التعـليم

مقـــره : ٢ شارع اسماعيل اباظة . ديوان وزارة التربية والتعليم .

تاريخ الانشـــاء : انشىء فى عام ١٩٣٧ بمناسبة مرور مائة عام على انشاء ديوان المدارس ليكون تجسيدا لحركة التعليم فى مصر وتطورها على مر الأيـــام .

رســـالته :

(أ) العرض التاريخى لتطور التعليم فى مصر بدءا من العصر الفرعونى وحتى اليـــوم .

(ب) ابراز نوعيات التعليم فى مصر ومدى ما حققته من نمو ، وذلك من خلال عرض صور ونماذج ولوحات وبيانات وافية .

(جـ) توثيق تاريخ التعليم فى مصر وانواعه المختلفة بوثائق ومخطوطات نادرة .

اقســـام المتحف :

المدخـــل : يعطى صورة شاملة عن رسالة المتحف ويضم لوحـــات ملونة ومجسمة تمثل مراحل التعليم المختلفة .

الوزراء وكبار رجال التعليم : يعرض صـــورا نادرة لوزراء التعليم طوال تاريخ مصر الحديث منذ عصر محمد على حتى اليوم ولمحة عن أهم منجزات كل منهم .

قدماء المصريين : يبرز حضارة مصر العريقة ، فيعرض لأول جامعة فى تاريخ البشرية « جامعة أونو » كما يعرض لأول مبادىء اللغة المصرية القديمة ، والتطور الذى سجله الفراعنة فى كافة العلوم .

التعليم عند العـــرب : يعرض لمصر الاسلامية وما انجزه العـــرب من اختراعات وتطوير لجوانب كثيرة من حياة مصر ، مع صور ملونة لاعـــلام العرب المبرزين الذين اسهموا فى اثراء العلوم والفنون فى مصر والعالم .

القرن التاسع عشر : به احصاء للمدارس التجهيزية العليا وبيـــان بالبعثات التعليمية الأولى التى توجهت الى أوربا وصور نادرة لأصحابها .

التعليم العام وتعليم الفتاة : يعرض بالصور والأرقام لمراحل التعليم العام من التحضيرى حتى الثانوى ، ويتعرض قسم تعليم الفتاة لتاريخ وتطور مراحل تعليمها .

الوثائق والبحوث والمكتبة : يعاون الباحثين وأساتذة الجامعات بما يوفره من وثائق ومخطوطات ومراجع نادرة عن التعليم فى مصر .

التعليم الفنى : يضم نماذج من انتاج التعليم الفنى بأنواعه الصناعى والتجارى والزراعى كما يعرض مراحل تطوره .

الجامعات والمعاهد العليا : تسجيل لتاريخ الجامعات المصرية بالاحصاءات النماذج المجسمة والبيانات الخاصة بكل جامعة .

الخط العربى : يعرض نماذج عديدة للخطوط العربية ، والزخرفة ، والتذهيب وتطورها منذ أقدم العصور .

الأزهر الشريف : يضم كثيرا من المعلومات عن نشأته منذ عام ٩٧٢ والقوانين الخاصة بتنظيمه كما يعرض نموذجا مجسما للجامع الأزهر ، وصورا لأبرز علمائه .

الوسائل التعليمية : تضم مجموعة نماذج مجسمة ،ومصورة لبعض الوسائل التعليمية التى تستخدم فى المدارس المصرية .

الصحافة المدرسية : يعرض نماذج لمقالات كتبت بأقلام شابة من طلاب وطالبات المدارس فى مناسبات مختلفة .

التربية الخاصة : يعرض بعض وسائل تعليم الطلاب المعاقين (مكفوفين — صم وبكم)(٣٢) .

٦ ـ المتحـف الحـربى

مقـــــره : قلعة صلاح الدين بالقاهرة .

تاريخ الانشـــاء : انشىء فى عام ١٩٣٧ م وتم افتتاحه عـــام ١٩٤٩ واعيد تجديده وافتتاحه فى عام ١٩٨٢ .

رسالته : العرض التاريخى لتطور تاريخ مصر العسكرى ، وارتباط ذلك بالتاريخ السياسى .

اقســـام المتحـــف :

١ ـــ **قاعة المجـــد :** وهى القاعة الرئيسية للمتحف ، وبها صـــور وتماثيل لعظماء التاريخ المصرى والاسلامى والعربى .

٢ **قسم الملابس العسكرية :** ويضم تماثيل بالحجم الطبيعى لبعض الجنود وضباط الجيش وطلبة المدارس والكليات الحربية بملابس الميدان والتشريفة .

٣ ـــ **قاعة ملابس كبار القادة :** وتضم نماذج لملابس كبار القـــــادة والملابس العسكرية المختلفة للملك السابق فاروق ورؤساء الجمهورية .

٤ ـــ **قاعة المدفعية :** وتحتوى هذه القاعة على نماذج ولوحات ومدافع مختلفة الأعيرة والصنع فى العصر الحديث .

٥ ـــ **قاعة المدرعات :** وتحكى تطور سلاح المدرعات .

٦ ـــ **قاعة الذخيرة :** وتمثل نماذج للذخائر المتنوعة عبر العصـــــور المختلفة وتطور هذه الذخائر ونوعياتها .

٧ ـــ **قاعة محمد على :** وهى قاعة نادرة النقوش والرسوم تتوسطها نافورة مياه ، وبها ديوراما بالحجم الطبيعى لمحمد عـــلى فى مجلس عمـــل يشمل كبار ضباطه وهيئة العلماء من مستشاريه وحرسه الخاص .

٨ ـــ **قسم الأسلحة البيضاء :** ويشمل مختلف انواع هذه الاسلحة من سيوف وخناجر مختلفة العصور والمناطق والصنع .

٩ — **قسم الأسلحة النارية** : وبه مسدسات وطبنجات وبنادق قصيرة وبنادق من مختلف العصور منها بندقية خاصة للخديو اسماعيل .

١٠ — **الجناح الفرعونى** : وبه نماذج من الحصون المصرية وتشكيلات من الجيش المصرى وتنظيمه ولوحات جصية منقولة عن المعابد عليها كتابات هروغليفية سجلت انتصارات الجيش المصرى كما ان به نماذج للعجلات الحربية المستخدمة آنذاك .

١١ — **الجناح الاسلامى** : ويحتوى على نماذج القلاع والحصون وأبواب القاهرة واسوارها ، وخريطة توضح اشهر الآثار الاسلامية فى القاهرة .

١٢ — **قاعة الأندلس** : تبرز الحملات العربية على الأندلس ، وانتشار الحضارة العربية هناك .

١٣ — **القاعة الاسلامية** : وتحتوى على خرائط تبين الفتوحات الاسلامية وتوسعاتها عبر القرون من الدولة الأموية حتى نهاية الحكم العثمانى .

١٤ — **صالة اسلامية** : وتبدا بصلاح الدين الأيوبى ، وايقافه للمد الصليبى كما يوجد بها حجرة تمثل قصة اسر لويس التاسع بدار ابن لقمان بالمنصورة ، وحجرة اخرى بها نماذج لملابس الجيوش الايوبية ونموذج لبئر صلاح الدين وصور زيتية **اخرى** .

١٥ — **القرن التاسع عشر** : ويبدا بالحملة الفرنسية ، ويوجد بها صور تمثل الاسكندرية والقاهرة وصور وخرائط تبين المعارك التى دارت بين المماليك والفرنسيين .

١٦ — **محمد على وخلفاؤه** : ويبدا بتمثال محمد على وتماثيل القادة فى عصره ، وحجرة خاصة بالبحرية فى عصره ، وقاعة بها خرائط بالمعارك التى قادها ابراهيم باشا ، كما ان بها تماثيل لسليمان باشا الفرنساوى وغيره ، وصور تمثل حكم مصر من محمد على الى فاروق .

١٧ — **قسم اسماعيل باشا** : ويمثل الامبراطورية المصرية فى عصر اسماعيل وقصة حفر قناة السويس وغيرها .

١٨ — جناح السـودان : ويحتوى على معارك الجيش المصرى بالسودان منذ عهد محمد على ونماذج للاسلحة السودانية وغيرها .

١٩ — جناح الثورة العرابية : ويعرض لتماثيل احمد عرابى وزملائه الذين قاموا بالثورة وصورا زيتية لهم لمظاهرة عابدين وللمعارك الحربية التى خاضها الجيش المصرى ضد الانجليز .

٢٠ — جناح حرب فلسـطين : ويضم صورا فوتوغرافية تمثل سير المعارك الحربية والوثائق التى صدرت من مجلس الوزراء بشأن الحرب ، وتمثال للبطل أحمد عبد العزيز وابطال الفالوجا .

٢١ — جناح ثورة ١٩٥٢ : ويشتمل على تماثيل لرجال الثورة والبيانات التى اذيعت خلال هذه الفترة ، وصور لوثيقة تنازل الملك عن العرش وصور فوتوغرافية تمثل رحيل الملك ، وماكيت حصار لقصر عابدين وديوراما تمثل توقيع اتفاقية الجلاء وغيرها .

٢٢ — قسم حرب ١٩٥٦ : ويمثل صورة العدوان الثلاثى على مصر وبيان تأميم قناة السويس ، والمقاومة الشعبية فى بورسعيد .

٢٣ — قسم اليمن : ويصور تطور ثورة اليمن ، ونماذج للأسلحة وملابس الشيوخ اليمنيين ، ويوضح أعمال القوات المصرية هناك .

٢٤ — جناح ٦ اكتـوبر : ويشمل هذا الجناح تماثيل قادة حرب اكتوبر ، وديوراما تمثل عبور القوات المصرية للقناة وتحطيم خط بارليف ولوحات ونماذج لسيناء وللطائرات المشتركة فى حرب اكتوبر ونماذج للأسلحة المصرية التى شاركت فى المعركة وبعض الأسلحة والمعدات التى غنمها الجيش المصرى[٢٨] .

٧ ـ متحـف المثـال محمود مختـار

مقـره :

تاريخ الانشـاء : ٢٤ يوليو ١٩٦٢ .

رسـالته : ابراز دور الفنان المصرى محمود مختار فى ارساء قواعد فن النحت فى مصر واتخاذه من حضارة بلاده اللمسات الفنية التى واكبت روح العصر واستوعبت الثقافة الحديثة .

ـ تشجيع حركة فن النحت فى مصر ، فبعد موت المثال مختار فى عام ١٩٣٤ تحركت مشاعر اصدقاء فنه وتكونت جمعية اصدقاء مختار التى نقلت جائزة باسم المثال مختارتمنح سنويا للمثالين من اجـل استمرارية النهضة التى بدأها ، وقد اهتمت الحكومة بهذا المتحف بعد ان تنازل ورثة مختـار عن آثاره للامة فاقامت له جناح مؤقت بمتحف الفن الحديث عام ١٩٥٢ حيث عرضت فيه اعماله الى ان قامت وزارة الثقافة والارشـاد القومى باعداد متحف مختار فى بقعـة من اجمل بقاع مصر .

اهم مقتنيات المتحـف :

١ ـ تمثال نهضة مصر :

وهو تعبير عن اليقظة الوطنية ، وتعددت فيه عناصر التعبير عن المعنى .

٢ ـ تمثال رياح الخماسـين :

وهو تمثال من الحجر يعتمد على عنف المقاومة وعصف الريح .

٨ ـ متحـف دار الكتب المصرية (الوثائق والمخطوطات)

مقـره : كورنيش النيل بالقاهرة . الدور الاول بمبنى الهيئة العامة للكتاب .

اهم مقتنيـاته : يضم هذا المتحف العديد من المصاحف التى يبدأ تاريخ كتابتها من القرن الاول وحتى القرن الثالث عشر الهجرى ، ويتضـح منها مراحل تطور الخطوط العربية ، ومن أهم هذه المصاحف مصحف شريف مكتوب بالخط الكوفى على ورق غزال وفى آخره كتابات تفيد ان هذا المصحف كتب بخط الامام جعفر الصادق بن الامام محمد الباقر بن على زين العابدين ابن الامام الحسين .

ومصحف شريف آخر مكتوبا على طريقة « ابى الاسود الدؤلى » وقد اهتم كاتبه بوضع حركات النطق خوفا من اللحن ومصحف شريف آخر كتب بقلم مغربى مضبوط الحركات رسم المولى الشريف على نجل أمير المؤمنين ، وجميع أوراق هذا المصحف محلاه بالذهب والياقوت بطريقـة اندلسـية رائعـة .

وفى هذا المتحف ايضا مخطوطات فى الطب والفلك وفى مجالات عديدة .

واللافت للنظر وجود مجموعة من حبوب القمح موضوعة تحت عدسة صغيرة على كل حبة قمح كتابات مختلفة فهناك حبة قمح مكتوب عليهـا سورتان من القرآن الكريم (الاخلاص وقريش) وحبة قمح اخرى مكتوب عليها اسماء من تولوا حكم مصر منذ عهد عمرو بن العاص وحتى الملك فاروق الى جانب ذلك فهناك بيضة مفرغة من الداخل مكتوب عليهـا كل الاعمال التى تمت فى مصر فى عهد الخديو اسماعيل .

مراجـــع الفصـــل الثانى عشـــر

(١) تذكر بعض المراجع أن المتحف انشىء فى عام ١٨٥٨ م .
انظر : المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة — المعالم الأثرية فى البلاد العربية جـ ٣ ص ٢٥١ .

(٢) كانت مبانى هذا المتحف فى حالة سيئة ، فقد كانت مســـجدا مهجورا ، مبانيه نصف عارية وبجانبه بعض حظائر قذرة ومسكنا موبوءا بالحشرات ، وقد تسبب ارتفاع النيل فى عام ١٨٧٨ فى اغراق صالات هذا المتحف .

للتفاصيل انظر جيمس بيكى : الآثار المصرية فى وادى النيل جـ ١ ، ترجمة لبيب حبشى وشفيق فريد — القاهرة ، الألف كتاب ، العدد ٤٩٥ ، ص ٩٠ — ٩١ .

(٣) الياس الايوبى : المرجع السابق ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .

والجدير بالذكر انه كان يسمح للسائحين الاوربيين بشراء بعض الأثار بأثمان باهظة .

ومما يذكر حول ذلك الموضوع ان احمد عرابى باشا بعد ان آلت اليه الأمور فى مصر اثناء ثورته فى عام ١٨٨١ قد رغب فى بيع ذلك المتحف دفعة واحدة ، ليسدد به ديون مصر الرسمية .
انظر الياس الايوبى : المرجع السابق ص٢٣٥ .

(٤) المقتطف : الجزء الخامس من المجلد الســـابع والثمانين فى أول ديسمبر ١٩٣٥ ، مقال الدكتور حسن كمال السابق الذكر ، ص ٦٠٠ .

(٥) محمد المويلحى : حديث عيسى بن هشام او فتـــرة من الزمن ، القاهرة ، مطبعة السعادة ١٩٢٣ ، ص ٤٣٦ .

(٦) ، (٧) نفسه ، ص ٤٤٠ .

(٨) انظر مقدمة دليل متحف القاهرة لعام ١٩٠٣ م .

(٩) ينقسم التاريخ المصرى الى الدولة القديمة ، والوسطى ، والحديثة والعصر المتاخر ثم العصر الاغريقى الرومانى وآثار بلاد النوبة .

(١٠) من اهمها أوراق الفيوم والبهنسا .
لتفاصيل ذلك انظر عبد العزيز الدالى : البرديات العربية ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ، ١٩٨٣ ص ٧٣ — ٧٤ .

(١١) المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الأول ، مايو واكتوبر ١٩٤٨ ، دراسة للدكتور عبد المحسن بكير تحت عنوان اهم المقتنيات الحديثة فى المتحف المصرى ، ص ١٩٧ — ١٩٨ .

(١٢) عن تفاصيل ذلك انظر : المجلة التاريخية المصرية ، المجلد السابق ، ص ٢٠١ — ٢٠٩ .

(١٣) توت معناها صورة ، وعنخ معناها حية ، وهذا يعنى ان اسم الملك هو « صورة آمون الحية » .

(١٤) اكتشفها عالم الآثار الانجليزى هوارد كارتر فى نوفمبر ١٩٢٢ بمساعدة اللورد كارنارفون .

(١٥) المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة : المرجع السابق جـ ٣ .

(١٦) الأهرام فى ١٩٩١/٨/١٥ .

(١٧) عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ، القاهرة ، النهضة المصرية ، الطبعة الثانية ، ١٩٤٩ ، ص ١٦١ .

(١٨) المقتطف : الجزء الثالث من المجلد الثامن والسبعين فى مارس ١٩٣١ تحت عنوان : « دار الآثار العربية — انفس ما فيها من الآثار والتحف » ص ٣١٩ .

(١٩) شغلت هذا المكان فيما بعد مدرسة السلحدار الابتدائية .

(٢٠) المعالم الأثرية ، جـ ٣ ، ص ٢٥٤ — ٢٥٦ .

(٢١) للتفاصيل انظر : المجلة التاريخية المصرية ، المجلد التاسع عشر ١٩٧٢ ، دراسة للدكتور احمد دراج تحت عنوان جاستون فيت واعماله العلمية ، ص ١٠٥ — ١٠٧ .

(٢٢) المعالم الأثرية ، جـ ٣ ، ص ٢٥٧ — ٢٥٨ .

(٢٣) عرفت هذه الكنيسة بالمعلقة لبنائها فوق الحصن الرومانى الشهير الذى شيده الامبراطور تراجان ، ولم يزل جزءا منها وقد بنيت على الأرجح فى أواخر القرن الرابع او اوائل القرن الخامس الميلادى .

للتفاصيل انظر : المعالم الأثرية فى البلاد العربية ، جـ ٣ ، ص ١٣٣ — ١٣٧ .

(٢٤) دار الوثائق القومية بالقلعة : محافظ ابحاث ، محفظة رقم ١٣٣ ، بحث تحت عنوان مذكرة تاريخية موجزة عن المتحف القبطى منذ نشأته الى الآن .

(٢٥) المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الأول ، مايو واكتوبر ١٩٤٨ ، دراسة للاستاذ طوجو مينا تحت عنوان : « المقتنيات الجديدة بالمتحـــف القبـــطى » .

(٢٦) مركز الاهرام للترجمة والنشر : شهود العصر ، مقال لمرقس سميكة باشا تحت عنوان متحف الآثار القبطية ، ص ٧١ — ٧٢ .

(٢٧) وزارة التربية والتعليم : الادارة العامة للانشطة التربوية . دليل متحف التعليم .

(٢٨) دليل المتحف الحربى بالقلعة . الطبعة الأولى ١٩٨٢ .

الخاتمة

ومما سبق يتضح أن لمصر سحرا خاصا وهو ليس فقط سحر تاريخها وحضارتها العريقة وآثارها الخلابة ، ولكنهايضا سحر شعبها الطيب الذى اقام مجتمعا متجانسا ومتآلفا وهو مجتمع تسوده المودة والتعاطف ، انصهر عبر تاريخها الطويل فى شخصية واحدة ذات عمق روحى واحد وفلسفة تفاؤلية، وهى شخصية ودودة وسمحاء لا تعرف العنف او التعصب أو العنصرية ومع ذلك فانها قابلة للانفعال ومع أن الشعب المصرى عاش منذ زمن طويل على مفترق الطرق الدولية ، وكانت بلاده مسرحا لأعظم احداث التاريخ فقد ظل صامدا لا يقبل الاستكانة وان صبر عليها فترة من الزمن ، فقد اثبتت الوطنية المصرية تواجدها على مر العصور التاريخية التى عاشتها مصر ، واستطاعت اثبات حق الانسان المصرى فى الحياة كريما على أرضه واجبار المعتدين على التخلى عن أطماعهم ونواياهم العدوانية .

فهرست



الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادى عشر

الموضوع | الصفحة

الفصـــل الثـــانى عشر

مطبعة الجبلاوى
٣٠٢ شارع الترعة البولاقية

رقم الايداع بدار الكتب ٨٥١٣ /١٩٩٢
I. S. B. N. 977 — 00 — 4214 — 5